
دراسة
إيريك دورتشميد
همس الدم
قصص الثورات والفوضى
والخيانة والمجد والموت
ترجمة: أحمد الزبيدي

إيريك دورتشميد

هَمس الدم

قصص الثورات، والفوضى، والخيانة، والمجد والموت

ترجمة : أحمد الزبيدي





Author: **Erik Durschmied**	اسم المؤلف: إيريك دورتشميد
Title: **Whisper of the Blade**	عنوان الكتاب: همس الدم
Translated by: **Ahamed Al-Zubaydi**	ترجمة: أحمد الزبيدي
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2020**	الطبعة الأولى: **2020**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول dar@almada-group.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

إلى ذكرى أولئك، الذين ضحّوا بأنفسهم في المواقف الصغيرة والكبيرة من أجل الآخرين.

وننشد أغاني البطولة

عن العظماء في هذا العالم،

الذين ارتفعوا في السماء مثل النجوم

وسقطوا منها مثلما تهوي النجوم...

برتولد بريخت، نشيد الناعور



المقدمة

قبل عدة سنوات، شرعت في محاولة لاكتشاف معنى كلمة «ثوري».
كنت شاباً يملؤني طموح لأحقق سبقاً صحفياً مثيراً، التقيت برجل كان يعتبر روبن هود أمريكا اللاتينية، وهو فيديل كاسترو زعيم الثورة في تلك المنطقة الاستوائية. هو أيضاً كان شاباً صغيراً، مدفوعاً بحماسة معدية للقتال من أجل تحسين أحوال شعبه.

في إحدى الأمسيات وعند أحد جبال كوبا الوعرة، حدّق كاسترو في وجهي وهو يخرج السيجارة من فمه ليسألني: «قل لي أيها الصحفي periodista[1]، ما هو رأيك في ثورتنا؟»

«حسناً، بما أنك تسأل، فإني أجد أن الثوري شخص خطير تماماً».

أجاب دون أدنى تردد: «الحياة البسيطة يمكن أن تكون خطيرة. عندما يكون هناك ظلم لا يمكنك فقط الجلوس وعدم فعل أي شيء حيال ذلك الحرية أو الموت Libertad o muerte[2]». هل كان ذلك حقاً هو الخيار الوحيد؟

«لا بدّ أن تنتهي الأمور...». -كنت في حيرة بشأن كيفية قول ذلك- إلى الفشل. فمنحني نظرة فاحصة.

«إذا مشيت في جنازة، فلا بد أن أتوجّه إلى المقبرة».

---

1 بالإسبانية في الأصل. المترجم.

2 بالإسبانية في الأصل. المترجم.

كان القائد فيديل كاسترو أول ثوري أقابله. لكنه لم يكن آخرهم. بعض الثوريين قابلتهم شخصياً، وآخرين قرأت عنهم. لم أكن أبداً قاضياً، بل متفرجاً أحدِّد فيما إذا كانت هناك أحداث دموية تجري على مسرح المأساة الإنسانية. إن الأمر يعود إلى التاريخ لإصدار الحكم النهائي على عمالقة الثورة وأفعالهم، العظماء الذين ارتفعوا في السماء مثل النجوم وسقطوا منها مثلما تهوي النجوم.

لقد حدثت أعمال تمرد غيّرت مسار التاريخ، ومثَّلت نقطة تحول مهمة. زلازل ثورية هزّت العالم. لم يعد كوكبنا بعدها كما كان. لقد ترك لنا أنصار الملوك والثوريون شواهد مكتوبة تعبِّر عن آرائهم السياسية. وأنتج لنا معاصرو هذه الأحداث فيضاً من الوثائق. لكن نتاجاتهم سرعان ما خضعت للتدقيق. وكما هو الحال في معظم فترات التاريخ البشري الحاسمة، فإن التواريخ هي الشيء الوحيد المؤكد. نحن متأكدون أن سكان باريس اقتحموا الباستيل في 14 تموز 1789. هذه الحقيقة تنتمي إلى التاريخ. أما بقية ما حدث فيمكن أن يكون قريباً من الحقيقة.

إن عدد الذين أدين لهم لتقديمهم المشورة والمعلومات التاريخية يمثل رقماً كبيراً يكاد يكون مساوياً لنطاق الأحداث التي أصفها. وبالنسبة للأحداث المعاصرة، فاني أشيد بكل الامتنان للمساعدة التي قدمها شهود العيان من خلال السماح لي بالاطلاع على قصصهم وملاحظاتهم. وفي معظم الحالات لم أذكر أسماءهم بناء على طلبهم الخاص. الكثير منهم كان لديهم وجهات نظر مختلفة عن وجهة نظري، ولكنها ساهمت كثيراً في فهمي للأحداث. أشكرهم جميعاً.

أنا لا أدّعي التنافس مع الخبراء، أو التوصل إلى حكم قاطع لا يمكن أن يقدمه سوى التاريخ نفسه. واذا ما تحدثت عما سيجده القارئ في صفحات هذا الكتاب فلن يجد سوى فضولي، ودهشتي، أو حتى سذاجتي.

بالنسبة للأحداث التي شهدتها فرنسا أجريت بحثاً في الأرشيفات

الضخمة التي تزخر بها مدينة باريس Ville de Paris[3]. أما فيما يخص أندرياس هوفر وبانشو فيلا فقد قمت برحلات إلى بلدانهم. بالنسبة للفصل المتعلق بأكتوبر الأحمر[4]، تمكنت من الاعتماد على المساعدة التي لا تقدَّر بثمن من أحد المصادر الروسية مع إمكانية الاطلاع مؤخراً على وثائق أرشيف جهاز المخابرات السوفيتية KGB. كانت المادة المتعلقة بسقوط القيصر مأخوذة من معهد ألمانيا التاريخي. فيما يتعلق بعملية فالكيري Walküre فإن أفراداً من عائلتي كانوا معاصرين لها. استندت في معلوماتي عن حركة التمرد في طوكيو على حكايات الناجين منها، وفي قصة تشي غيفارا المأساوية على ملاحظاتي الشخصية. فيما يتعلق بالثورة الإيرانية فقد ساهم معارف لي من إيران بقصصهم بالإضافة إلى فترات إقامتي المختلفة في إيران قبل وأثناء وبعد الثورة، بما في ذلك المقابلات مع الشاه وآية الله الخميني.

أود أن أشكر لويجي بونومي وكيل أعمالي الأدبي، على مشورته القيمة، ورولاند فيلبس صاحب دار النشر في المملكة المتحدة، وأعضاء هيئة التحرير في الدار، على صبرهم معي. وحتى لا أنسى، أوجّه شكري لحفيديّ وليام، ذي الثلاثة عشر عاماً، وألكساندر، ذي الخمسة أعوام، فمن دون مساعدتهم القيّمة ما كان من الممكن أن ينتهي هذا الكتاب في فترة قصيرة.

إيريك دوريشميد

منتجع فالينسول، تموز 2000.

3- بالفرنسية في الأصل والكلمات الواردة لاحقاً بالحرف اللاتيني هي بالفرنسية حتى نهاية الفصل الأول. المترجم.

4- الثورة الروسية. المترجم.

تمهيد

يجب أن يموت الملك

لم يرث الملك لويس السادس عشر في فرنسا إمبراطورية عظيمة فحسب، بل وثورة دموية. عندما سأل: «هل كان من الممكن تجنب الثورة؟» كانت الإجابة التي تلقاها واضحة: «لقد جلبتها لنفسك». على مرّ التاريخ كان ضعف أولئك الذين في السلطة، من الرجال الذين ترددوا عندما كان الموقف يدعو إلى اتخاذ إجراءات شديدة، وحتى قاسية هو الذي سمح للهمج بتولي الحكم.

«يجب أن يموت الملك حتى يحيا الوطن la patrie»!

وبعبارة واحدة، قام ماكسيميليان روبسبيير -الذي كان لا يتورع عن أي شيء- بتقرير مصير الملك. قبل أن يتوصل المؤتمر الوطني في فرنسا إلى تصويت حاسم، تحدّى فيكتورنيان فيرغنياود، زعيم فصيل الجيرونديين، روبسبيير اليعقوبي، مخاطباً إياه: «إذا قتلتم الملك سيحاربكم العالم كله؛ وستهلك أرواح كثيرة.

ورد عليه روبسبيير الذي كانت قناعاته متحجرة: «كم هو عدد الرجال الذي يحتاجهم هذا الأمر وكم سيكلف من ضحايا؟ كم يبلغ العدد؟ واحد؟ مائة؟ ألف شخص سيفقد حياته. إذا لم تكن لديك الشجاعة لتدعم قناعاتك، فأخبرنا الآن....

اجتاحت البلاد دوامة من العنف. في البداية، كانت إرادة الله هي

أن تكون فرنسا محاطة بالظلمة، ثم تنهض في اليوم الثالث، من وسط الرماد.

العبقرية والشجاعة والإبداع هي قوى مؤثرة. لكن الشر كذلك. يتحفنا كل قرن بمجموعة مذهلة من الشخصيات، وثروة من الأبطال والأشرار الذين، يتركون بأفعالهم الاستثنائية، بصمات لا تُمحى في التاريخ. بعضهم اكتسب دوره من خلال حق ورثه. فيما وصل آخرون بشكل غير متوقع إلى مشهد الأحداث العالمي. ألهم الكثيرون الجماهير بعبارة، بينما أخافها آخرون بكلمة واحدة. فكلتاهما تحملان قوة أكثر من قوة الجيوش العظيمة التي عارضتهما، والتي كثيراً ما وجد قادتها أنفسهم في الجانب الخاسر. كان عنادهم لا يقاوم؛ وغيّروا مجرى التاريخ. لم تغيّر روحهم دولهم فحسب بل أثرت أيضاً على أجزاء كبيرة من العالم. معظمهم قاتل من أجل الحرية ومبادئ الإنسانية المشتركة في مواجهة القوى المدمرة. كان هؤلاء الرجال يحملون الوعد بعصر جديد. كسروا القوالب الكلاسيكية للمجتمع وأسسوا قوالبَ جديدة. ألهمت تضحياتهم البطولية عدد لا يحصى من الأفراد بدؤوا يتطلعون لأن يعيشوا حياة مختلفة.

بالمقابل جلب آخرون معهم الظلام والطعنات للقلوبْ وسحقوا الأجساد. وكان من ضمنهم أولئك الذين شرعوا في قتل أعدائهم الطبقيين ليس بسبب ما فعلوه ولكن بسبب ما كانوا يملكون. عاشوا وشعارهم يقول: «سوف يغفر لي التاريخ»، واستخدموا الشر كمصدر قوي لتحقيق بعض النبوءات الدينية. كان استعدادهم للقتل بلا رحمة يتطلب عملية تفكير جديدة تماماً في الخير والشر. فيما وقف آخرون بوجه الإرهاب حتى آخر لحظة وحاربوا من أجل إنقاذ الروح البشرية.

وقد انعكست عزيمة هؤلاء «الأبطال» في سماتهم الشخصية؛ لقد أنقذوا شعبهم عندما خيّم عليهم الظلام وساهموا في استعادة مستقبل بلادهم الواعد. لم يعش العديد منهم لكي يرى أحلامه وقد تحققت

بالكامل، لكن إرثهم استمر ببساطة مثل مأساة كتبها سوفوكليس أو تعقيدات مسرحية كتبها شكسبير. لم يكن هؤلاء أشخاصاً عاديين. كانت حياتهم هي ما تصنع الدراما. لقد أصبحوا محاربين مقدسين، يشقون طريقهم إلى قلب الإعصار. لقد أخطؤوا في بعض الأحيان ولكنهم كانوا على حق في أحيان أخرى. وكانوا يمثلون قدوة ساطعة للمثل التي على الآخرين الاقتداء بها. كان معظمهم لا يهتم كثيراً بمن سيضع أكاليل من الزهور على قبورهم أو يبصق حينما يأتي ذكرهم. كما أنهم لم يكونوا جميعاً شهداء ضحوا بأنفسهم، كانت تسترشد أفكارهم وأفعالهم الأساسية بقضايا نبيلة مثل الدفاع عن حقوق الإنسان ومحاربة فساد السلطة أو أن تتمتع الأمة بحرية الفكر أو تحسين الرفاهية الاجتماعية العامة.

من كان له تأثير أكبر، الأبطال أم الأوغاد؟ كان كلاهما يعتمد على الآخر فلم تؤدِ التهديدات إلّا إلى مزيد من العزيمة وولّد الإرهاب شجاعة غير متوقعة. تخيل الجميع الطيبون والأشرار، أن ما بنوه سوف يستمر إلى الأبد. لا شيء يدوم طويلاً. التاريخ مليء بالشخصيات ذات الماضي البطولي التي تتبع خطى بعضها البعض، وأحياناً بعد قرون، ولا ينتهي بهم المطاف سوى أن يكونوا أشخاصاً ملاحقين في بلدانهم.

يقضي الملوك والديكتاتوريون سنوات في تكديس البارود. لكن الأمر يستغرق يوماً واحداً فقط لإشعاله. كانت الاضطرابات دوماً، ولا تزال، ظاهرة لا يمكن هزيمتها إلّا من خلال أفكار أفضل، عن طريق الإقناع، وبتغيير الظروف التي أشعلتها. كان الانشقاق لعنة «الناس البسطاء»، ومع ذلك لم يبقَ الناس يعيشون في مثل هذه الفوضى إلى الأبد؛ فمن رحم الثورة تولد منظومة جديدة قادرة على حشد الإمكانات الهائلة للجماهير. أفضل مصدر للثورة هي النيران التي تستعر في بطون رجالها ونسائها، والوعود الفارغة لا يمكن أن تطفئ هذه النيران. يجب أن تكون هناك اضطرابات شعبية قبل قيام أصغر ثورة، ويجب أن يكون هناك أيضاً زعيم ذو شخصية جذابة يبثّ في الجماهير الروح والتصور

من أنهم يستطيعون تغيير العالم. إنه يجّمع الشرارات القابلة للاشتعال قبل أن يطلق سيلاً من الطاقة الهائلة. فيصنع الثورة!

تولد الثورة من الأمل وتستند فلسفتها على التفاؤل شكلياً. لكن الشعراء والحالمين لا يستطيعون أن يصنعوا ثورة. يجب على الأفراد، المنبوذين، والمظلومين، والمضطهدين، أن يتحالفوا حاملين سخطهم مع رجال السياسة المتحمسين. أولئك الذين يدّعون أنهم يقودون الانتفاضات لا يستطيعون الاعتراف بأنهم كانوا عفويين، كما هو حال جميع الثورات الحقيقية. إنهم يقاتلون من أجل الحق في الاختلاف. ويكافحون ضد مجموعة من الخيانات والأكاذيب، من أجل شيء يسمى «الحقيقة»؛ فقط ليكتشفوا أنه لا يوجد شيء مثل الحقيقة يجعل المجتمع يعرف كيفية التصرف بعقلانية.

الثورة هي اضطراب عظيم، يطيح بالنظام القائم عن طريق العنف. ويبدأ عهدٌ من الإرهــاب: لا يقتصر فقط على درامـا المتاريس أو الرصاص، ولا الصراع المتفاقم على السلطة بين قادة النظام الجديد، ولا توتر الحرب الأهلية، بل المأساة الأبدية للكثير من أرواح الناس البسطاء الذين اجتاحتهم الأعمال البطولية التي لا تخصهم على الإطلاق. الإرهاب يلامس كل شخص بقوة هوسه، وخلال فترة الرعب، تصبح اللامبالاة السياسية مستحيلة.

الثورة تُصنع دائماً باسم الحرية. إنها موجهة ضد طغيان القلة في مواجهة حكم الأكثرية. وترافق الثورة مطالب محددة بوضوح من أجل القضاء على الفقر وتقاسم الثروة على قدم المساواة. لكن ما الذي تقوم هذه الثورات بتغييره فعلاً؟ بعض المؤسسات وبعض القوانين تتغير بالفعل. لكن لا يتمّ تغيير كل شيء، لأن الثوريين يتعلمون نسخ أسلافهم. لا يمكن للإنسان ببساطة أن يتحمل جهد فترة طويلة للعيش وفقاً للمثل العليا.

تعتمل الثورات وتتقرر في أذهان الأفراد. تكون مقدماتها هي

الكلمات، وليس السيوف. يخلق التمرد زخمه الخاص، الذي يملي استراتيجيته بالمقابل. الوسيلة التي يستخدمها القادة الثوريون لا تختلف أبداً. إنها تعبئة الجماهير لتدعم أهدافهم. هذا المفهوم قديم قدم الثورة نفسها. استخدم دانتون وروبسبيير أبناء البرجوازية في بلادهم لقتل الملك. وأطلق تروتسكي ولينين العنان للبروليتاريا ليهجموا على قيصر سيئ الحظ. وسقط الشاه لأن شعب إيران فضّل الله على ملك يكتنز المال.

هذه هي قصة الثورات الأسطورية والرجال الذين لم يهيمن على حياتهم سوى هدف واحد. إنها حكاية ملوك ورثوا الحكم، وحكاية الذين انتزعوا هذا الحق منهم، من الرجال الضعفاء الذين جلسوا على العرش والرجال الأقوياء الذين لم يتورعوا عن استخدام أحط الوسائل لاغتصاب السلطة. كلهم كانوا أبطالاً، تماماً مثلما نبذهم التاريخ جميعاً، ممزقين بين مطالب عقولهم وإيمانهم بالمثل. كان التعصب خطيئتهم الأصلية والعديد منهم ترك وراءه الدمار والموت. كيف برروا تصرفاتهم، التي جلبت معها الاضطراب والإرهاب وسفك الدماء؟ البعض فعل ذلك لغرض تشجيع زرع الأفكار الجديدة وتغيير المجتمع. وتصرف آخرون لتحقيق مكسب شخصي أو بدوافع الانتقام. آخرون، كانوا يلاحظونهم وهم على الهامش، وصفوا تصرفاتهم بالخيانة، بينما آخرون رحّبوا بها كبطولة وتضحية شخصية من أجل تقدّم الحالة الإنسانية. على النقيض من الملوك الذين كانوا يواجهونهم، والذين كانوا ضعيفين وغير قادرين على إيجاد حل صارم في اللحظة الحاسمة، استخدم الثوار الذكاء والقدرة على التحمل والحنكة؛ شريطة أن يقف شخص ما لمساعدتهم على تنحية مبادئهم الأخلاقية جانباً وسحق ضمائرهم. فقط عدد قليل من الناس يستطيعون تحقيق ذلك. لقد توجّه أولئك الذين خرجوا منتصرين إلى القضاء على «أعداء الثورة»، وإبادة المعارضة السياسية، وتحويل حريتهم إلى أداة للقمع. سرعان ما تحول الثوريون التقدميون

إلى ديكتاتوريين محافظين. أعطتهم السلطة المطلقة وهماً بأنهم يملكون شيئاً قريباً من القوة الأبديّة. من خلال اللامبالاة والإفلات من العقاب والإطراء، فإن أولئك الذين كانوا حول الدكتاتوريين جعلوهم يصدقون أنهم لا يخضعون لأي قيود أو قوانين أو أخلاق. وقد أعمتهم أضواء البهرجة وإعجاب الرأي العام، فقد هؤلاء الرجال كل شعور بالضمير وخلطوا ما بين سوء السمعة والشهرة. كما أن القوة الشخصية القائمة على الرعب هي التي قادت معظمهم إلى حتفه قبل الأوان؛ والتهمهم العنف الذي ساعدوا على خلقه.

اضطراب ثم تمرد، ثم ثورة، كانت تلك هي الحوافز لموكب من الشخصيات المأساوية التي اندفعت، مع عيون مفتوحة على مصراعيها، إلى نهاية عنيفة؛ لكن روحهم استمرت. ليس للنظام الاجتماعي والحكم الديمقراطي في عالمنا الحالي من معنى إذا لم نفهم ما حدث في الماضي. تدحرج رأس الملك نتيجة إرادة ثورية، قبل أن يقع الثوري ضحية لتمرده. الملك أو المتمرد، حدث زوالهم بسرعة محيِّرة. لأنه عندما تقع حافة سكين الذبح، فإنها تنزل بسرعة.

الفصل الأول

10 آب 1792
لقد دقت ساعة المجد

Le Jour de gloire est arrive.

لقد دقت ساعة المجد.

• نشيد المارسيليز

l'audace encore l'audace,
toujours L'audace,

الجرأة، مزيد من الجرأة، الجرأة إلى النهاية.

• جورج جاك دانتون 1792

أيقظ جرس الإنذار مواطني باريس من نومهم «Allons, enfants de la patrie» هيا يا أبناء الوطن الأم.

أعقبه صوت دوي مدفع، «Aux armes, citoyens» هيا لحمل السلاح أيها المواطنون.

حدث ذلك بعد منتصف الليل بقليل، في 10 آب 1792. كان الملك قد نام منذ فترة قصيرة بعد وجبة عشاء لذيذة. على حين غرة هزّه الانفجار. ومثل شخص يسير في نومه، تعثر الملك وهو يقفز من سريره، وكان رجلاً سميناً يرتدي ثوباً ذا لون أحمر داكن مع شعره المستعار؛

وشفاهه الغليظة ترتعد. لقد فقد السيطرة وسط تشوش النوم الذي انقطع والضوضاء المخيفة.

«لويس، ما الذي يجري؟» تساءلت الملكة وهي تلف ثوب النوم بقلق حول جسمها. فيما ظل جرس الإنذار يرن.

دخل لاروش فوكولد[1] إلى الغرفة مسرعاً. بدا الملك مذهولاً: «ما هذا؟ «Une révolte?» تمرد.

«Non, sire, c'est une revolutuon لا يا سيدي إنها ثورة!»

«أنا أحكم ومؤخرتي على سرج الحصان ومسدسي في يدي»،هكذا أعلن، هنري الرابع، أول ملك من سلالة آل بوربون في يوم تتويجه في عام 1572. كان ملكاً يشرب كؤوس بيرة أكثر من عشرة من جنوده الذين يقودهم إلى المعارك في جبهات القتال، ويقضي وقته عندما لا يكون في حرب مع إحدى عشيقاته الأربع والستين. كان هنري الرابع، ملك فرنسا ونافار، بلا شك أحد الملوك الأكثر إثارة في التاريخ الأوروبي. لم يكن مثقفاً، بل رجل أفعال، وأصبح بلاطه مزيجاً من ثكنة لسلاح الفرسان ومحلاً للبغاء. كان هنري دي نافار بلا شك الأكثر شعبية بين جميع الملوك الفرنسيين، شخص كان حلمه أن يتمكن كل واحد من أتباعه من تناول دجاجة في طبقه يوم الأحد.

كان الملك التالي في سلالة آل بوربون هو لويس الثالث عشر، وكان متزوجاً من آن النمساوية. وقد أخبره السفير البابوي أن الجنة (وكانت فرنسا حينها كاثوليكية) بحاجة إلى وريث، وأدى الملك الشاب واجباته الزوجية على أكمل وجه. ولكن عندما يتعلق الأمر بحكم مملكة، كان صغيراً جداً وغير مؤهل. كان من حسن حظه أن يلتقي مع أرماند دي بليسيس، وهو رجل معروف في التاريخ باسم الكاردينال ريشيليو. بحلول الوقت الذي توفي فيه ريشيليو في عام 1642، كان قد حوّل فرنسا

1- مستشار الملك. المترجم.

إلى أعظم مملكة في أوروبا. في 14 أيار 1643، في اليوم الذي كان فيه لويس الثالث عشر، البالغ من العمر 41 عاماً، يحتضر، طلب إحضار ابنه إلى سريره، وسأله «ماذا ستدعو نفسك يا بني؟» لم يتردد الطفل في جوابه: لويس الرابع عشر.

اختار هذا الملك الأكثر سحراً من جميع الملوك الفرنسيين، الشمس شعاراً له، وأعلن: «L'état c'est moi! أنا الدولة». وأضاف: «إذا اقتضت الضرورة لقيام الحرب، فهي عمل عادل لا يسمح به الملوك فقط، بل هو مفروض عليهم. من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن المرء يستطيع أن يصل إلى الأهداف نفسها بوسائل أضعف». كيف سيكون تاريخ فرنسا، وربما أوروبا، مختلفاً، لو استمع لويس السادس عشر إلى مقولة سلفه اللامع.

كان عهد لويس الخامس عشر رائعاً ولكنه شهد أيضاً مشاكل كبيرة. فقد أدى أسلوب حياته الذي اتسم بتبذير فاحش، إضافة إلى حروبه غير المجدية، إلى استنزاف خزينة الدولة. ضاعت منه كندا، ووادي أوهايو، ولويزيانا واستولى عليها البريطانيون. عانت فرنسا من تدهور سريع. تفاقم الصراع في داخلها، والذي كان يغذيه جيل من الفلاسفة الفرنسيين العظام، الذين كانت أفكارهم تؤثر في العالم بأسره. أراد فولتير ومونتسكيو، اللذان كانا يميلان إلى الأفكار التحررية، أن يقبل النظام الملكي شكلاً جديداً من أشكال المجتمع. توقع الكاتب الساخر بومارشيه القيام بالقليل من الإصلاحات الاجتماعية. فيما أعرب المتطرفان، ديدرو وروسو، بصوت عالٍ عن شكوكهما في أن المجتمع سيجد بنفسه القوة لفرض الإصلاح. وتمثل ذلك في المتمردين ضد الدوغماتية والشهداء الذين سقطوا من أجل الفكر والرأي الحر، وتنبأ أن التغيير لا بدّ وأن يُفرض بنموذج من الخارج.

لم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً. فقد نشب نزاع في أمريكا الشمالية بين المستوطنين والتاج البريطاني. انتظرت أوروبا أن تتكرر الأحداث التي جرت عبر المحيط الأطلسي. إذا كان يمكن للمواطنين في بوسطن

وفيلادلفيا أن يجدوا السعادة بتطبيق مبادئ المفكرين الفرنسيين، فلماذا يستمرون هم في الخضوع للأصنام الملكية الهرمة؟ في 1774، مات لويس الخامس عشر. كان ابنه، وهو شخص بدين عمره أكثر من ستة عشر عاماً يشبه فطيرة تفاح، هو ولي العهد، وكان متزوجاً من الأرشيدوقة ماري أنطونيت وهي من النمسا، وكانت شقراء لعوب تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً وقد ورثا مملكة على حافة الإفلاس. كانت كلمات الملك العجوز وهو على فراش الموت: ومن بعدي سيأتي الطوفان «Après moi le déluge تنبئ بالشر».

ارتقى الولد البدين والفتاة الشقراء العرش باسم الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت. كانت حياتهم مأساة شكسبيرية حقيقية. انغمس لويس في شراهته للأكل، وقضى معظم وقته كملك في ورشة خاصة خلف غرفة الاستقبال الرسمية. كان عمله المفضل هو إصلاح الساعات والأقفال. فيما كانت ماري أنطوانيت -المتقلبة المزاج- تهوى الرقص والقمار. وكانت تنادي زوجها «Le pauvre garçon» الولد المسكين تعليقاً على أدائه الضعيف -أو الافتقار إليه- في سرير الزوجية. كانت حياتها مليئة بالمغامرات العاطفية، وكان من ضمن من شملتهم الكونت فيرسن وهو رجل طويل القامة وذو شخصية غامضة، وكان برتبة عقيد في الفوج الملكي السويدي. انتشرت الشائعات حولها وهي تمرح بصخب مرتدية ملاءات الحرير السوداء، جعلت منها ميسالينا العصر الحديث[2]. انتشرت رسومات فاضحة لها في الحانات. وبسبب ما اتسمت به من رعونة وإسراف، فقد أطلق عليها لقب العاهرة النمساوية Autrichienne أو l'autre chienne ، وكانت مكروهة بشدة من قبل «شعبها» لكونه ينظر إليها كمسؤولة عن معاناته، الأمر الذي قادها إلى المقصلة.

2- وهي الزوجة الثالثة للإمبراطور كلوديوس وتمثل المراة الإمبراطورة في الدولة الرومانية القديمة. وعُرفت بقوتها وتأثيرها في المجتمع. المترجم.

أول مغامرة حربية قام بها الملك كانت ضد عدو بلاده الدائم، إنكلترا، عندما قدم دعمه للمستوطنين المتمردين في فرجينيا. في عام 1779، أجبرت القوات الفرنسية -وكان تعدادها 7500 فرد تحت قيادة روشامبو والماركيز دي لافاييت البالغ من العمر تسعة عشر عاماً- الجنرال كورنواليس على الاستسلام في يوركتاون. كانت حرب الاستقلال الأمريكية قضية مكلفة حيث وصلت تكاليفها إلى مليار ليرة. عُيِّن جاك نيكر، وهو مصرفي سويسري تميز بكرشه، في منصب مدير الشؤون المالية. وأوضح نيكر بكل بساطة عند تقديم سجلاته المالية إلى أن فرنسا تواجه الإفلاس. دخلت البلاد في فترة من الكساد الاقتصادي، ولكن البلاط الملكي لم يقلِّل بأي حال من الأحوال من نمط الحياة الذي يتسم بالتبذير الفاحش. دفع هذا الوضع الطبقة البورجوازية للمطالبة بتعديل قوانين الضرائب المعمول بها حينها. بحث البلاط الملكي عن كبش فداء. فتم طرد نيكر الكفء واستبدل بتشارلز كالون غير الكفء، والذي كان مبدؤه، أن «الرجل الذي يقترض يجب أن تظهر عليه علامات الثراء» مبعث سرور الملك.

كما لو أن مشاكل لويس الزوجية لم تكن كافية، فإن قصة قلادة الماس جعلت البلاد تصل إلى نقطة الغليان. فقد عرض صائغ على الملكة قلادة ذات جمال أخاذ، لكنها كانت باهظة الثمن. ذهبت الكونتيسة دي لاموت-فالوا خلسة إلى الكاردينال لويس دي روهان، ذي الأربعة وأربعين عاماً، وكان رجلاً مسرفاً في الأناقة ويطمح أن يكون كاردينال ريشيليو آخر[3]. وتمكنت من إقناعه بشراء القلادة وتقديمها للملكة، وبهذا أقنعت روهان الساذج، أن لها بعض النفوذ. في ليلة قمرية في حديقة قصر فرساي، قابلت عاهرة ملثمة تشبه الملكة بشكل مذهل الكاردينال وقدمت له وردة. كان الكاردينال مسروراً للغاية بهذا الدليل المميز على المحبة. ووافق على أن

3- الكاردينال ريشيليو هو رجل دولة ورجل دين ونبيل فرنسي. كان وزير الملك الفرنسي لويس الثالث عشر. المترجم.

يدفع مبلغ المجوهرات، وحصل عليها وسلمها إلى الكونتيسة التي ستنقل عرضه المتواضع إلى «صديقتها الحميمة» الملكة. وفيما يشبه ما يقوم به السحرة من خداع للجمهور «ما ترونه الآن، سيختفي الآن»، أعطت الكونتيسة الماس إلى زوجها، الذي غادر إلى لندن حيث باعه هناك. انتظر الصائغ لمدة أسبوع ولم يجد غير الملكة ليطالبها بأن تدفع مبلغ المجوهرات له. كان الملك غاضباً، وتمّ تصنيف الكونتيسة دي لاموت-فالوا على أنها لصة، وتمّ منع الكاردينال دي روهان من دخول باريس. ومع ذلك، فإن الضرر قد حدث، وتلبس الخزي ماري أنطوانيت التي أصبحت تعرف باسم «la Reine Deficit» الملكة التي سببت عجزاً في الميزانية، حيث مدّت يديها إلى أموال الدولة بينما كان الناس يتضورون جوعاً في باريس. (اعتبر نابليون قضية قلادة روهان مفتاحاً للثورة).

الحدث الذي تمَّ إغفاله لكونه وقع عبر الحدود، كان بمثابة حجر الأساس الآخر لقيام الثورة الفرنسية. فقد جعلت الممارسات الاستبدادية لحاكم هولندا، الأمير وليام الخامس، التجار وسكان المدن يشعرون بالإحباط لدرجة أنهم قرروا الإطاحة به. في عام 1786، عاد إلى السلطة على ظهر الأسطول الإنكليزي. سرعان ما تمكن الفرنسيون من الاستفادة من الوضع السياسي المتوتر في هولندا. لقد صدم ماركيز دي رينيفال، الذي أرسله لويس إلى هولندا، بما اكتشفه. «لقد حقق حماس حزب باتريوت[4] تقدماً مرعباً، وإذا لم يتمّ إيقافه، فإنه يخشى أن يتسبب ذلك في حدوث انفجار ستكون له عواقب وخيمة». أدى نقص المساعدة من باريس إلى إنهاء سريع لانتفاضة باتافان الهولندية التي قام بها حزب الوطنيين. في عام 1787. ونتيجة لذلك، فرّ الثوار الهولنديون إلى فرنسا جالبين معهم أفكارهم الثورية وحماسهم الراديكالي.

في العام التالي، حلّت كارثتان أخريان بالمملكة: موسم حصاد

4- حزب الوطنيين الهولنديين وكان ذا خلفية تنويرية وتأثر بجان جاك روسو تحديداً، وبالذات أفكاره عن السيادة الشعبية والإرادة العامة. المترجم.

كارثي وحلول أبرد فصل عرفته الذاكرة الحية. ومع تراجع المخزونات الغذائية وتراجع الاقتصاد، كانت فرنسا تتجه إلى فترة من الحرمان والاستياء. كان السؤال الحاسم المطروح هو ما إذا كان الفرنسيون سيصبرون ويتحملون تلك المصاعب، كما فعلوا مرات عديدة من قبل، أم إنهم سينتفضون غضباً ضد النظام السياسي القديم. ولم يتحاشَ البلاط الملكي التفكير في هذا السؤال فحسب ولكنه لم يفعل شيئاً لتخفيف معاناة الناس، اضطر سكان باريس إلى أكل القطط والجرذان. ولقي الآلاف حتفهم خلال فصل الشتاء الرهيب في عام 1788. ووسط المجاعة التي شلّت مدنها، ودخول أوضاعها المالية في حالة من الفوضى، سارعت فرنسا خطاها لدخول عام 1789. أجبر الوضع الكارثي الملك على القيام بخطوة يائسة. فقد دعا لعقد اجتماع للمجالس العامة États Généraux في 4 أيار 1789. تألفت المجالس من 270 نبيلاً من الطبقة الأرستقراطية العالية، أو أصحاب العقارات من الدرجة الأولى، الذين لم يكونوا ملزمين بدفع ضرائب وهو حق مكتسب بالولادة، كما كان هناك 291 عضواً من رجال الدين، أو أصحاب العقارات من الدرجة الثانية، الذين استفادوا بالتساوي من وجود إعفاء لهم من الضرائب. المجموعة الأخيرة تشمل أصحاب العقارات من الدرجة الثالثة والتي تمّ اختيار نوابها البالغ عددهم 578 نائباً من أوساط طبقة البرجوازية الكبرى والصغيرة. كان على هذه المجموعة تحمل العبء المالي الكامل لفرنسا. وكانت مسألة «إلغاء الامتيازات» هي النقطة الحاسمة في جدول الأعمال؛ طرح إيمانويل سياس وكان كاهناً من رجال الدين الصغار، السؤال التالي: «ما هو العقار من الدرجة الثالثة؟ كل شيء! ما هو تمثيله على المستوى السياسي؟ لا شيء! ما الذي يطلبه؟ أن يكون شيئاً ما، كانت الأرائك في القاعة الكبرى في قصر فرساي مزدحمة: كان النبلاء يجلسون وهم متوشحون بالحرير، وإن كان مهترئاً عند الأكمام. كان رجال الدين يرتدون ملابس سوداء، موشحة بطبقة خفيفة من لون قرمزي أو أرجواني؛ أما أبناء الطبقة البورجوازية فكانوا يرتدون ملابس

بسيطة وباهتة نوعاً ما. تلقى النبلاء صدمة عندما انضم ابن عم الملك من الدرجة الأولى، دوق أورليون، والكونت غابرييل أونوريه ميرابو إلى مقاعد أصحاب العقار من الدرجة الثالثة.

لم يعمل أي شخص لإنقاذ المملكة من نفسها ببذله أقصى جهوده وبنكران ذات مثل ميرابو. كانت شخصيته رائعة. كان هو الشخص الوحيد الذي يمتلك القوة الأكثر نفوذاً التي تجعله يجرؤ على تحدي الملك. وقد هيّأ الأجواء لسلسلة من الأحداث التي قادت إلى قيام الثورة الفرنسية. كان النبلاء يكرهونه لأنه هجر طبقته. وكانت الطبقة البورجوازية لا تثق به لأنه كان من سلالة نبيلة. وكان الملك ينظر إليه كما لو كان كلباً مسعوراً «chien anragé». الجميع كان على خطأ. كان ميرابو يشعر باهتمام عميق في الحفاظ على النظام، ولكن ليس النظام القديم، أي نظام الامتيازات القديم. وظل ملكياً في داخله، لكنه لم يستطع تحمل فكرة قول نعم لملك ضعيف ويائس. وكان يشدّد مراراً وتكراراً على «أن الملكية هي المرساة الوحيدة للأمل التي يمكن أن تحافظ على هذه الأمة من التعثر فوق الصخور. لكن، وأنا متأكد مما أقول، سيقتل الملك والملكة، وسيتقاتل الناس الغاضبون على جثثهم».

كان ميرابو يشعر بالعاصفة القادمة. لم تعد السلطة في يد الطبقة الأرستقراطية التي استنزفت مواردها؛ لقد انتقلت ثروات البلاد إلى أيدي آخرين، وتغيّر كذلك توازن القوى. كان الذهب محشواً تحت وسائد نوم أفراد الطبقة البرجوازية؛ وكان هناك 26 مليون فردٍ منهم. وكانت البرجوازية الكبرى تسيطر على أموال الدولة عبر البنوك. وكانت البرجوازية الصغيرة تمتهن التجارة وتوفر البنية التحتية الاجتماعية. أرسل صناع الشعر المستعار وأصحاب مصانع الجعة أبناءهم إلى مدارس الحي اللاتيني. وتخرجوا كأطباء ومحامين ومعلمين. تمّ تجنيد أبناء الثورة من المختصين بالقانون. كان باستطاعة ممثلي البرجوازيين هؤلاء القراءة والكتابة، لكن الأهم من ذلك، كان باستطاعتهم التحدث.

كان قسم من المجتمع غائباً، وهم «الناس البسطاء». وهذه الطبقة التي لم يكن لها ممثلون، هي التي استثارها ذات مرة أولئك المحرضون عديمو الضمير من أجل أغراضهم الخاصة، والذين أظهروا كراهية شديدة للكنيسة والنبلاء، هي التي تسبّبت بالتجاوزات المشينة التي شهدتها الثورة.

في أيار 1789، كانت مقاليد السلطة بيد البرجوازية. لم تكن الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين ينظرون إلى الأمور على هذا النحو. كان الحزم يسير في صالحهم إلى حدٍّ بعيد وظلوا معاندين. إذا كان هناك شيء واحد مؤكد، فإن الحزم لا يمكن أن ينجح إلى الأبد. في 23 حزيران 1789 كان ميزان القوى الهشّ قد اضطرب؛ فقد سدّت أبواب قاعة الاجتماعات في وجه أصحاب العقار من الدرجة الثالثة، كان الكونت ميرابو في المقدمة، وساروا كجسد واحد إلى «Sermon de Jeu de Paume» (رواق ملعب كرة الكف الوطني) حيث أعلنوا عن قسمهم الشهير بقسم ملعب كرة الكف[5]، «عدم مغادرة المبنى قبل أن يضعوا دستوراً لفرنسا». وبهذه الخطوة، أعلنوا أنفسهم الجمعية التأسيسية الوطنية التشريعية الوحيدة، أو ما سُمّي بالمؤتمر الوطني[6]. عندما سمع الملك بذلك، أرسل بسرعة مدير تشريفاته ليأمر الجمعية غير الدستورية بحلِّ نفسها. حدق الكونت ميرابو مباشرة في مبعوث الملك وردد قوله الشهير: «أخبر الذين أرسلوك بأننا هنا بإرادة الشعب، وأننا لن نغادر إلا على رؤوس الحراب!». لم يسبق للملك أن عرف كيف تبدأ الثورات، ولا كيف يمكن لسلسلة من سوء التفاهم أن ترمي بعيداً كل نصائح الاعتدال، مما يؤدي إلى تجاوزات يمكن أن تجعل الدول ترتعد. فلم يفعل الملك سوى أن هزّ كتفيه وقال: «إذا لم يريدوا المغادرة، فليكن»!

أدرك ميرابو وحده أنه إذا كان يجب إنقاذ فرنسا، فلن يتمّ ذلك سوى

5- لعبة رياضية مشهورة آنذاك في فرنسا. المترجم.

6- على اسم المؤتمر الوطني الإنكليزي.

بتشكيل نظام ملكي دستوري. (ثبت أن انهياره كان أكثر دراماتيكية). وأرسى قراره الأساس كي يتحقق هذا الحدث. وأعلن المؤتمر الوطني أن أي مندوب فيه يمتلك حصانة، وأن كل من يجرؤ على اضطهاد أي مندوب، بغض النظر عمن يعطيه الأمر، يعتبر خائناً للأمة ومذنباً بجريمة كبرى عقوبتها الإعدام.

قام ميرابو، وهو الشخص الأكثر واقعية في التعامل مع مذهب الثورة الفرنسية، يحثّ ملكه أن يقود الطريق من أجل التغيير، بدلاً من محاربته. وقال له «يا سيدي، إن فكرة الملكية نفسها لا تتعارض مع الثورة. فإذا قررت، إلغاء الامتيازات، وتحديث الدولة، فسوف تصبح جلالتك أقوى من أي وقت مضى». كيف كان من الممكن أن يكون التاريخ مختلفاً لو كان لويس قد استمع إلى ذلك النبي الحكيم. لكنه بدلاً من ذلك أمر بحماقة بأن يتوجه ثلاثين ألف جندي نحو باريس. هذا الأمر صدم مواطنيها بشكل كبير. فأقاموا المتاريس، وقام كامي دي مولان، وهو طالب قانون شديد الحماسة، يحثّ المواطنين على الاستيلاء على البنادق والبارود من أبراج الباستيل. بعد إطلاق بعض الرصاص الذي لم يؤذ أحداً، قام حراس السجن البالغ عددهم اثنين وثلاثين بإلقاء أسلحتهم. اقتحم العامة الغاضبون الأبراج، وقطعوا رأس الحاكم، وعلّقوا رأسه على رمح. اجتاح العنف الشوارع في ذلك اليوم، الرابع عشر من تموز يوليو 1789. أما الباقي فقد تكفل به التاريخ. مع سقوط الباستيل، رمز النظام القديم، انتهى نظام الامتيازات الملكية القديم[7]. باتت باريس في قبضة الفوضى: توجهت العصابات المسلحة إلى مساكن الأثرياء وأحرقتها؛ نُهِبَت الكنائس وحطمت رؤوس التماثيل الدينية؛ قام الأقنان وهم يحملون المعازق والمناجل بذبح النبلاء وأحرقوا قصورهم. هرب كونت منطقة أرتوا

7- إن الحدث الذي كان مشابهاً في رمزيته لسقوط الباستيل هو سقوط جدار برلين، وقد حدث بعد 200 عام بالضبط، في عام 1989.

(الذي سيصبح في المستقبل تشارلز العاشر) من فرنسا، تبعه دوق دي بيري، ودوق أنغوليم، ودوق كوندي، ودوق إنغين، وعشرون ألف أرستقراطي آخر.

بعد ستة أشهر، شهد يوم السادس والعشرين من آب 1789 الإنجاز البارز للثورة: إعلان حقوق الإنسان، الذي يستند في صياغته إلى حدّ كبير على وثيقة فيرجينيا للحقوق. عندما توجهت 5000 امرأة نحو قصر فرساي بعد شهرين، يطالبن بالخبز، فكان جواب ماري أنطوانيت: «لماذا لا يأكلن البريوش (نوع من أنواع الكعك)؟» ولتهدئة أولئك الغوغاء، وافق الملك على مطلب النساء بمرافقتهن. والعودة إلى باريس. ومن الناحية العملية، أصبح الملك فعلاً أسيراً لدى الثورة. وأصبحت سلطته من الآن فصاعداً، مقيّدة بما كان الناس على استعداد لمنحه إياه.

في هذا المنعطف الحرج، ظهر رجل على الساحة السياسية قام بإثارة «غضب الناس البسطاء». كان جان بول مارا طبيباً سويسرياً وصحفياً غير متفرغ. «كان مثل جرذ القبو المسعور، الذي يظهر في وضح النهار عندما تجف المجاري ثم يلتهم كل شيء في طريقه، كان الممثل النموذجي للرعاع القادمين من الحانات وبيوت الدعارة، الذين كانوا يتواجدون دائماً متخفين، ويعيشون على السرقة والقتل». هكذا وصف أحد الثوريين الألمان «l'ami du people» صديق الشعب. في أول طبعة للصحيفة التي تحمل الاسم نفسه، حدّد مارا الخط العام للصحيفة من خلال شنّه هجوماً لاذعاً على لويس السادس عشر: «هو ضعيف بلا روح، لا يستحق أن يجلس على العرش، وهو مثل دوارة الرياح حيث كانت تتلاعب به محظياته ببراعة، طاغية مدفوع إلى الجريمة. كان سلوكه دوماً شبكة من الغرابة والرعب، وهو مستبد يغسل يديه بدماء الناس، وهو وحش يتآمر ضد الحرية العامة، ويجب اعتباره مجرماً في نظر العدالة». أثارت مثل هذه العبارات مشاعر «الناس البسطاء»، العمال

اليدويين الذين كانوا يكدّون من أجل أسيادهم، بل وكانوا يسكنون إلى جانبهم. لم تكن المدن تنقسم إلى أحياء ثرية وفقيرة. كان الناس من جميع الطبقات يعيشون معاً في المنازل نفسها في الممرات الضيقة نفسها. ووفقاً لمنطقتهم الإدارية (المقاطعة)، تمّ تجميعهم في أحياء، ولكن لم يكن يشبهون البروليتاريا في العصر الصناعي.

توفي ميرابو في 2 نيسان 1791: «إنني أترككم مع فكرة ميؤوس منها وقاسية. ما لم توقفوا هذه التجاوزات، سوف يؤدي الأمر إلى مأساة، سيتحول القتل العادل إلى مجزرة، وسيتحول سقوط الملك إلى سقوط للبلد». مع وفاة ميرابو، فقد الملك كل أمل في استعادة عرشه. قرر الهروب. في منتصف ليلة 20 حزيران 1791، قاد رجل يرتدي عباءة طويلة امرأةً تحمل فتاة صغيرة واثنين من النساء إلى إحدى العربات. كان هناك حوذي طويل القامة يقف جانباً لمساعدتهم للدخول إلى العربة. كان الرجل هو لويس، والمرأة هي ماري-أنطوانيت، وكانت «الفتاة» دوفين لويس-تشارلز، أما الحوذي فقد كان عشيق ماري أنطوانيت، الكونت فيرسن السويدي. كانت تنتظرهم إحدى عربات المسافرين في ضواحي باريس؛ وكانت مطلية باللون الأصفر الفاتح وتحمل شعار الملك! بعد ساعات فقط من اجتيازهم الحدود، اتخذ «فيرسن» منعطفاً خاطئاً واضطر إلى التراجع؛ سألوا صبياً من السكان المحليين عن الاتجاهات، ووضع الملك قطعة نقود معدنية في يد الصبي، وكانت قطعة ذهبية من زمن لويس الرابع عشر! سارع الصبي لتنبيه اللجنة الثورية المحلية.

عند جسر بلدة فارين وصل موكب الهروب الملكي إلى نهايته. «قف، من هناك؟».

ردت الملكة بسرعة: «مدام كورف، في طريقها إلى فرانكفورت».

حينها قال مسيو سوسيه، نائب عمدة مدينة فارين: «هناك ما يكفي من الصعوبات في الطريق تجعلني أطلب منك ترك العربة. لذا أعرض عليك المبيت في منزلي هذه الليلة».

كان زعيم المجموعة المسلحة هو مدير مكتب البريد المحلي، درويت الذي خاطبها قائلاً: «وبماذا تفسرين وجود كتيبة خاصة من الفرسان تنتظركم على الجانب الآخر من النهر؟ يجب أن تخرجوا على الفور، أو سنقوم بإطلاق النار عليكم».

خرجت الملكة من العربة، ثم تبعها الملك، «أنت الملك!» صرخ درويت «أنا أعرفك !».

«إذا كنت تعرفني، فلماذا لا تبدي الاحترام اللازم لسيدك؟». وبدلاً من إظهار الاحترام، حُبِسَ الملك في غرفة في منزل مجاور.

أرسل سوسيه دعوة عاجلة إلى القرى المجاورة: «تعالوا مع بنادقكم، لقد أمسكنا بالملك».

بدأت ماري أنطوانيت تتوسل لزوجة رئيس البلدية: «مدام سوسيه، فكري بما أشعر به تجاه الملك وأولادي. ستدين لك ملكة فرنسا بامتنانها الأبدي».

«أنت تفكرين في الملك وانا أفكر في السيد سوسيه».

أُعيدت العائلة المالكة إلى باريس. كانت عربتهم ترجم بالحجارة على طول الطريق، وأثناء عودتهم المخزية، رأى لويس تمثاله يتدلي من عمود الإنارة. كان هذا كافياً لماري أنطوانيت للتعبير عن مخاوفها من أن شخصاً ما سيخرج ويقتلهم. كتب لامارتين عن ذلك «كان الهروب هو الطريق إما إلى العار أو إلى الجلاد». لم تكن هناك سوى طريقة واحدة للفرار من العرش، وهي التنازل، ولم يتخلَّ الملك لويس عن العرش. من الآن فصاعداً، لم يعد سوى خائنٍ للثورة ولعبة في أيدي قادتها.

في 17 تموز 1791، تجمعت مجموعة من الجمهوريين الراديكاليين، بقيادة مارا، في ساحة دي مارس Champs de Mars[8] الذي أعلن طرد

8- حيث يوجد الآن برج إيفل.

الملك، لكن توقيته كان خاطئاً. لم تكن فرنسا مستعدة بعد لتصبح جمهورية. أمر الجنرال لافاييت الحرس الوطني بإطلاق النار على الحشد. قُتل خمسون شخصاً. وانقسم المؤتمر الوطني إلى معسكرين: حيث بات الجيروندييون يمثلون الطبقة البورجوازية الميسرة، وأصبح اليعاقبة المتطرفون يمثلون «الناس البسطاء». أجبر كلا الطرفين الملك على أن يتعهد بضمان الدستور الجديد. أصبح لويس الآن مجرد مفوضٍ بسيطٍ من البرلمان، وكان ذلك خطأً فادحاً جعل البرجوازية تندم عليه. كان شخص الملك هو الأداة الدستورية الوحيدة التي يمكن أن تصمد أمام المتطرفين، والآن فتحت البرجوازية الباب أمام المجانين المسعورين الراغبين في استخدام وحشية الغوغاء. ودخلت مجموعة جديدة من الشخصيات إلى مسرح الأحداث.

كانت السنة التالية هي سنة الحسم. في 20 نيسان، أعلنت فرنسا الحرب على إمبراطورية آل هابسبورغ، وفي شهر تموز، اقتحم دوق برونزويك فرنسا على رأس جيش جرّار قوامه 75 ألف جندي، وأعلن عزمه على إعادة تنصيب الملك الفرنسي في منصبه الشرعي. بهذا الأمر تحدّد مصير الملك. وعلى الرغم من أن العملية استغرقت ستة أشهر أخرى، إلا أنها كانت بلا رجعة. قام جورج جاك دانتون، عضو نادي اليعاقبة، بتخطيط الهجوم بدقة شديدة. كان دانتون، دون أدنى شك، الأكثر ذكاءً من بين جميع الخطباء الثوريين، وقد جاء من بلدة فرنسية صغيرة. درس القانون وعيِّن محامياً في بلاط الملك. لم يشارك في أحداث تموز 1789، ولكنه أصبح نشطاً في عام 1791 عندما أسس نادي الكورديلز، الذي مهد السبيل لتأسيس حزب اليعاقبة. في أعقاب أحداث آب 1792، عُيّن وزيراً للعدل، وعلى هذا النحو، جعل المحكمة الثورية، محكمة ملطخة بالدماء لتصبح الذراع المؤسس للإرهاب. مع تستر دانتون على الجرائم، بدأت المشاكل. وعلى مدار عدة أيام، كانت الشائعات الهستيرية تنتشر بأن الآلاف من القوات الموالية للملك في

طريقها إلى المدينة وأن اللجان الثورية في الأحياء ستوفر لكل مواطن «citoyen» سلاحاً للقتال حتى الموت «!Liberté ou la mort» الحرية أو الموت! ظلت صافرة الإنذار تطلق صفيرها، انضمت إليها أجراس الكنائس الستين في جميع أنحاء المدينة، «!Aux armes citoyens». أيها المواطنون، احملوا السلاح!» من الشارع، جاءت أصوات مختلفة، تحثّ كل رجل وامرأة صحيحي الجسد على الانضمام لهم ومقاومة المؤامرة الشريرة التي يحوكها الملك، والملكة الفاجرة. «Formez les !bataillons» شكلوا كتائبكم! لقد تعهد قادة الثورة بالقتال من حي إلى آخر، ومن حارة إلى حارة، ومن بيت إلى آخر. «Aux barricades» إلى المتاريس! تدفقت الجماهير إلى وسط المدينة. بدأ أحد الأشخاص في الحشد يغني أول جملة من أغنية ثورية مؤلفة حديثاً «Allons, enfants de la patrie, le jour de la gloire est arrivée». انهضوا، يا أبناء الوطن الأم، فقد دقت ساعة المجد ...

أخيراً، قام المتطرفون بتوجيه مهاراتهم المنضبطة نحو تحقيق أهدافهم الثورية. كانت عصابات اليعاقبة المتطرفة قد تغلبت بالفعل على الحراس في «Hôtel de Ville» (دار البلدية) وأنشأت مجموعة (كومونة) «التمرد». كانت خطتهم هي الإطاحة بالمؤتمر الوطني والاستيلاء على السلطة، لكن كان عليهم أولاً التخلي عن الملك الدستوري. عندما وقع انقلاب «coup d'état» اليعاقبة في دار البلدية، كان الرجل الذي شغل جلّ بالهم نائماً في سريره في قصر التويلري، جاهلاً بما يجري. وكانت الملكة، ووصيفاتها، وصديقتها الحميمة، الأميرة دي لامبال، لم يزلن مستيقظات، ويلعبن الورق. كانت مداخل القصر الكبير مظلمة وصامتة. ولم يكن هناك سوى وميض عرضي من إحدى الشمعات يدلّل على وجود العديد من النبلاء القدامى الذين يقومون بدوريات في الممرات، غير مسلحين بأكثر من سيوف الاستعراضات العسكرية، وكانت بالكاد فعالة ضد الحراب والمطارد (سلاح قديم) التي كانت في أيدي الغوغاء

المسعورين. وتمركز في الخارج 900 من المرتزقة السويسريين للدفاع عن حدائق قصر التويلري.

عندما انتشر الخبر بأن «شيئاً ما سيحدث للملك»، وأنه ستتم تصفية الحسابات، أغلق سكان المدينة الخائفون أبوابهم وأقفلوا مصاريعها. وبحلول الصباح، كانت الممرات ممتلئة برجال الكومونات الذين يقودهم مارا، وبينما كان المؤتمر الوطني منعقداً وسط ارتباك تام في أكاديمية للفروسية (Manége) تقع بالقرب من قصر التويلري، وكانت عبارة عن سلسلة من المباني محاطة بسياج عال من الحديد المطاوع. كان يقف الحرس السويسري ببذلاته الحمراء بهدوء على الدرج الضخم الذي يؤدي إلى القصر. وكانت مواجهتهم «هي الهدف الأساس للثورة»، تقدم أكثر من 500 شخص مع مدفع برونزي واحد. وسارع أفراد الحرس الوطني إلى تعزيز القوات السويسرية، ثم غيّروا مكانهم فجأة، ساحبين معهم اثنتي عشرة قطعة من المدفعية. شجع ذلك الغوغاء على الاندفاع نحو الشبكة الحديدية في الوقت ذاته الذي كانت العائلة المالكة وخدمها تخطو خارج القصر. هتف الحشد «الموت للطاغية» وألقوا الحجارة باتجاههم. لوّح لهم الملك، واندفع الغوغاء إلى الأمام، وبسبب الضغط انسحق الناس أمام السياج قبل أن يفسحوا المجال لموجات من الغوغاء (sans-culottes)[9] وسلاح المطارد يتأرجح وسط أيديهم وهم يصدرون أصواتاً، قام بعض الحراس السويسريين بإخراج الملك وحاشيته للبحث عن ملاذ لهم وسط نواب المؤتمر الوطني المرعوبين. أصدر الملك الأمر إلى حراسه السويسريين للدفاع عن المبنى، وهو الأمر الذي أدى إلى حدوث المأساة. أمر الكولونيل السويسري «دورل» جنود سريته بصدّ الحشود، ورفع الجنود السويسريون بنادقهم. صرخت امرأة، «Vive la

---

9- المصطلح يعني حرفياً «الذين بدون سروال»، إشارة إلى السراويل الحريرية حتى الركبة (أو كيلوتس culottes) التي كان يرتديها الأرستقراطيون ولم يكن يرتديها عامة الشعب.

république! عاشت الجمهورية!» اندفع الغوغاء إلى الأمام وأمسكوا بخمسة جنود سويسريين وجرّوهم ونزعوا عنهم أسلحتهم وضربوهم حتى الموت. صرخ قائدا السرية السويسرية دي كاستيلبورغ وزوسلر: أطلقوا النار «Feuer!». مزقت المئات من رصاصات البنادق صفوف الحشد المتراصة بإحكام، وتفرقت. كان التأثير شديداً. كانت الجثث تتكدس أمام الحراس السويسريين وبقية أعضاء الكومونة الذين هربوا من الفوضى. قامت فصائل منشقة من الحرس الوطني بإطلاق نيران مدافعها نحو الحراس السويسريين، لكن ما نتج عن عملها كان مروعاً. لقد أخطؤوا تشكيلات الحراس السويسريين واخترقت قذائفهم الفتاكة أوساط الجماهير الفارة المجنونة، مما زاد من الذعر والارتباك العام. واصل السويسريون إطلاق نيرانهم القاتلة، وجلبت سرية الكونت ساليس إلى الأمام مدفعاً كان يطلق النار في أعقاب من هرب من الغوغاء (sans–culottes). أصبح الحشد في قبضة تبادل إطلاق نار قاتل؛ توفي المئات من أفراده في الدقائق القليلة التالية، وقد تمزقت أجسامهم بسبب الوابل الكثيف من قنابل المدفع وشظاياها. باتت الساحة الآن خالية من الغوغاء، وقد أصلح السويسريون خطوطهم وجعلوها جاهزة لتعقب الفارين.

كان الملك وأفراد أسرته يجلسون في مبنى أكاديمية الفروسية (Manége)، عندما أعلن النائب في المؤتمر الوطني شابو أن وجود الملكة هناك غير دستوري وأنه يجب طردها منه. كانت العائلة المالكة قد اقتيدت إلى غرفة جانبية. وعندما احتُجِزوا في هذه المساحة الصغيرة، كانت أصوات دوي المدافع أكثر ترويعاً لهم، وكان الملك يرتعد عندما يسمع أصوات المدافع والبنادق. وكان ينوح قائلاً: «أطفالنا سيقتلون. يجب أن نضع حداً لهذا». توصل الملك، وقد كان جسمه يرتجف بالكامل، إلى أكثر القرارات كارثية في حياته. وكما تنبأ ميرابو، كان لويس حاكماً عديم الحصافة، لم يسبق له أن تعلَّم الحكمة التي كان يقولها سلفه اللامع، لويس الرابع عشر «الحرب، إذا اقتضت الضرورة لها، هي عمل

عادل لا يسمح به الملوك فقط، بل يأمرون به. من الخطأ الفادح الاعتقاد بأنه يمكن للمرء أن يصل إلى الأهداف نفسها بوسائل أضعف». ومهما كان حجم السلطة التي بقيت مع الملك، فإنه قد حكم على نفسه بالموت في اللحظة التي طلب فيها من السيد دي هيرفيل أن ينقل أمره إلى عقيد الحرس السويسري الخاص به، بأن يُلقي أفراد الحرس أسلحتهم. وهذا ما ضاعف من المأساة. ورفض العقيد دورلر تصديق أن الملك يمكن أن يصدر مثل هذا الأمر المجنون. وهرع إلى أكاديمية الفروسية Manége لمواجهة لويس. كانا من العمر نفسه، ولكن مع ذلك لم يكن هناك ثمة شيء يدعو إلى المقارنة. تمالك هذا السويسري نفسه بشيء من التعجرف، وقد أخاف الملك ذلك التحديق الوقح من عينيه المثقلتي الجفون. وخاطبه قائلاً: «جلالة الملك، إنه يومنا. الرعاع يهربون، يجب أن نطاردهم بلا هوادة!».

توقف عقل لويس عن التفكير، وجمد وجهه بصمت. بدا عليه ذلك الخوف القديم المألوف فيه. أطبق قبضات يده لمنع نفسه من الاهتزاز وحاول التحدث، ولكن لم يصدر منه أي صوت. من الواضح أن دوي المدافع قد أصابه بالجنون.

«سيدي، هل سنلاحق الرعاع؟» قيلت هذه الكلمات بصوت بارد.

عاش الملك لويس في مأزق أولئك الذين لا يستطيعون اتخاذ قرار بمجرد أن يصبح الضغط لا يطاق. لقد قال لنفسه إن الحياة في الشارع، مع مآسيها الواضحة بشكل كبير، كانت أكثر واقعية، وأكثر إنسانية، وأكثر رحمة مَن الحياة التي عرفها هو نفسه في فرساي. كان اقتحام قصر التويلري مثيراً للشفقة، لأن ثمنه كان هلاك الآلاف من الأرواح المحطمة. مرت من أمامه صورة باريس، وشعبها، وواقع حياتها. حاول أن يسيطر على نفسه، وحاول أن يركز تفكيره، وأن يمنح نفسه بضع لحظات من الهدوء.

قطع صوت حلم يقظته: «إنها مسألة دقائق، وربما ثوانٍ. يجب أن

أحصل على ردك». حدق الملك والعقيد أحدهما في وجه الآخر. يجب عدم تجاهل هذا التحدي. يجب أن تتصرف جلالتك!

أصبح لزاماً على الملك الآن أن يأخذ الأمر على عاتقه ويقدم دليلاً على أنه أكثر من كونه مصلحاً ماهراً للساعات. وقد خانته قوة الإرادة في أكثر لحظة حاسمة في حياته، وقال: «إذا كان ثمن العظمة هو الخطأ في كل مرة، فأنا عاجز عن المهمة». في تلك اللحظة أظهر أنه لا يستحق أن يكون ملكاً. لقد أمضى معظم حياته ينام، ويأكل، ويشرب، ويتبول، وينكش أنفه، ويصلح الساعات. كان مجرد واجهة كارتونية لملك، لم يكن تفكيره ناشطاً، بل كان خاملاً. كانت الدقائق تمضي، ومعها يمضي، الحكم الملكي.

صاح العقيد غاضباً: «Par Dieu, léve toi et agis comme un roi! انهض وتصرف مثل ملك!».

امتقع وجه الملك وأصبح شاحباً. غطاه بيديه وبدأ ينوح: «هل يجب أن ينتهي كل شيء بالدم؟» ثم ضاعت الفرصة. هل توقف الأمر على مسيرة التاريخ التي لا يمكن وقفها أم على ضعف رجل واحد؟ وفي مواجهة تهديد التمرد والموت، فقد فشل في التصرف. قُتل بضع مئات، لكن كان بإمكانه إنقاذ مملكته. بدلاً من ذلك، قاد الآلاف إلى مقصلة الثورة. «رغبتنا أن تلقوا سلاحكم. لا نريد أن يهلك الرجال الشجعان».

«إذاً، أنا أصرّ على أن يكون أمرك كتابة».

فكتب الملك: «نأمر حرسنا السويسري أن يلقوا أسلحتهم على الفور وينسحبوا إلى ثكناتهم». (توقيع) لويس.

انتزع العقيد الأمر من يد الملك المرتجفة ونظر إليه باشمئزاز: «لقد وقعت للتو على شهادة وفاة جنودي السويسريين الشجعان ونظامك الملكي».

كان السويسريون جنوداً منضبطين للغاية ولم يكن أمامهم سوى

الامتثال للأوامر وجمع أسلحتهم. ما إن ألقوا أسلحتهم حتى باشر الغوغاء المتعطشين للدماء بذبح المرتزقة الذين أصبحوا بلا حول ولا قوة. وكان مجموع ضحاياهم، 786 جندياً سويسرياً، بمن فيهم ستة وعشرون ضابطاً، وقد دفعوا حياتهم بسبب موقف الملك الضعيف[10]. عندما مات جميع السويسريين، هرع الغوغاء إلى مقر الملك لمواصلة عمليات الذبح. لم يبق نبيل، أو بستاني، أو سائس للخيل إلا وقد حُزّت رقبته أو ألقي به من النوافذ. أُجبرت إحدى النساء التي فرت من الرعب، وكانت تدعى مدام كامبان، على ترديد شعار «الأمة باقية إلى الأبد». تمت ملاحقة سيدات البلاط الأخريات في العراء، وجُردن من ملابسهن ونُزعت أحشاؤهن. كانت رؤوسهن مرفوعة على الرماح، وتمّ استعراض رؤوسهن بفخر في الشوارع. تم احتجاز القلة التي تمكنت من الفرار عبر ممر سري في شارع دو لاشيلي. تعرض الرجال للضرب بالهراوات أو ثقب أجسامهم بالأسياخ، وتمّ اغتصاب النساء قبل قتلهن بوحشية. وبأمر من اليعاقبة، تمّ ترك الجثث متعفنة لعدة أيام لجعل الباريسيين يخشون قوة المتطرفين.

عندما وصلت أخبار المجازر إلى المؤتمر الوطني، أسكت اليعاقبة المتطرفون ألسنة الجيرونديين المعتدلة. ضمت ماري أنطوانيت ابنها إلى صدرها وانفجرت بالبكاء. جلس الملك في أحد مقاعد النواب، وهو يتفرج بلا مبالاة على صراخ النواب. كان كل ما قاله: «ما تفعلونه هنا ليس دستورياً أبداً». لم يعد يستمع له أحد بعد الآن. لم يعد يفكر المتمردون سوى باستخدام الأكاذيب والخداع والإرهاب لإيصال الحشود إلى مثل هذه الحالة من الهيجان لدرجة أن أتباعهم من الغوغاء sans-culottes كانوا على استعداد للاندفاع وسط رصاص البنادق من أجل ذبح النبلاء المكروهين ومن ثم استعراض رؤوسهم وهي معلقة على الرماح.. «لو اتخذ لويس موقفاً حازماً وخرج على حصانه ليقود

10- يوجد في مدينة لوسرن السويسرية، نصب تذكاري يخلد موقفهم البطولي، وهو عبارة عن أسد عملاق نائم مع رمح إلى جانبه، وقد احتضن الشعار الملكي.

العمليات القتالية في ذلك اليوم في قصر التويلري، لكان النصر سيكون حليفه بالتأكيد». كان كاتب هذا التعليق هو نابليون.

في 21 أيلول 1792، أصبح لويس السادس عشر أول ملك لفرنسا يعزله رعاياه. قررت الجمعية الوطنية إلغاء الملكية وأسست الجمهورية الأولى وكان شعارها: Liberté, Égalité, Fraternité الحرية والمساواة والإخاء. بعد بضعة أسابيع، حُجِزت العائلة المالكة في الحصن المشؤوم، وهو زنزانة مربعة بناها قبل 500 سنة فرسان الهيكل[11]. كان الرجل الأول الذي التقى بهم هو أنطوان سيمون، وكان إسكافياً بالمهنة وثورياً بالموهبة، وهو الذي قادهم نحو «جيهم الملكي» الذي كان يحوي هيكلاً لسرير نوم واحد مليء بالبراغيث. وضعت ماري أنطوانيت طفلها الصغير – وريث العرش الذي لم يعد موجوداً – في السرير ونامت هي نفسها على الأرض. تحسن الوضع بمجرد السماح للأسرة بشراء بعض الأثاث الأساسي. سمح لهم بالسير مرة واحدة في اليوم في حديقة صغيرة حيث كان للحراس فرصة واسعة للحديث بصوت عال عن مصيرهم. وهكذا اكتشف الملك أن أحد أنصاره المخلصين، رئيس تحرير جريدة Gazette de Paris (الصحيفة الرسمية لباريس)، قد تمّ إعدامه بالمقصلة.

أدى زوال الملكية الدستورية إلى نشوء ديكتاتورية الكومونات[12]. استخدم، جان بول مارا، ذو النزعة الشريرة ونبي المساواة (égalité)، الغوغاء أداة في يده لجعل كبار أفراد الأرستقراطية والبرجوازية الحاكمة يدفعون الثمن السياسي لثورة دموية. لقد كان يخطط لتحقيق السيطرة النهائية من خلال إقامة أول «ديكتاتورية للبروليتاريا» في العالم، بأي وسيلة ضرورية. لكن دانتون سبقه عندما تولى مجلس مدينة باريس. وعندما رفض قائد الميليشيات مانديت إطاعة أي

11- وهم أقوى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأكثرها ثراءً ونفوذاً وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي. ودام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى. المترجم.

12- تقسيمات إدارية موحدة على مستوى فرنسا كلها تمّ إنشائها إبان الثورة. المترجم.

شخص غير الزعماء المنتخبين للبلدية، أطلق رجال دانتون النار عليه وألقوا بجثته في نهر السين. بهذا التصرف الانتهازي، فتح دانتون لنفسه الطريق نحو السلطة الدكتاتورية، وأصبح زعيماً بلا منازع للمجلس الثوري التنفيذي. كان خطؤه الوحيد أنه على النقيض من روبسبيير، الذي حرص على قتل منافسيه، ظل دانتون مخلصاً لمؤيديه ووزع المناصب الدسمة على أتباعه.

تجاوزت الأحداث مسار الثورة. اجتاحت الشمال الغربي ثورة مفتوحة. شهدت مدينة مرسيليا احتجاجات على حكم باريس. أعدم سكان مدينة ليونز أعضاء مجلس المدينة الثوري؛ توجه مواطنو مدينة بوردو في مسيرة نحو باريس. وتمّ تسليم ميناء مدينة تولون الرئيس للبريطانيين دون إطلاق رصاصة واحدة. وجاء الخطر الأكبر من دوق برونزويك الذي تقدم إلى العاصمة يصحبة جيش بروسيا القوي. وجدت فرنسا نفسها على حافة الهاوية. لقد أدى انفجار الحماسة القومية إلى تركيز الإرادة الحازمة للأمة بأكملها على الاندفاع للدفاع عن الوطن Patrie. أخذ جورج دانتون على عاتقه إثارة المشاعر إلى أعلى درجة وأزال حواجز ضبط النفس مع شعاره الخالد: «L'audace, encore l'audace, toujours l'audace»، الجرأة! المزيد من الجرأة، الجرأة إلى الأبد! «ومثل جان دارك منح أمته l'espérance» الأمل. ألّف روجيه دي ليزلي نشيداً لمتطوعي مدينة مارسيليا الذين توجهوا إلى الجبهة. وبذلك أصبح النشيد معروفاً باسم المارسيليز «La Marseillaise». ومن أجل إنقاذ الجمهورية، لم يكن دانتون كارهاً للقيام بمجازر. وإذا كان هناك من حاجة إلى دليل، فإن تواطؤه في مذابح أيلول أثبت ذلك.

جاءت الدعوة إلى مذابح أيلول من خلال مقال نُشر في صحيفة أصدقاء الشعب «L'ami du peuple». التي كان يحررها جان بول مارا في 2 أيلول 1792، تمّ إيقاف ثلاث عربات كان يستقلها أربعة وعشرون

من رجال الدين عند دير سان جيرمان دي بري[13]. كانت تحيط بهم عصابة من الغوغاء (Les Sans – Culottes) وهم مجموعة من الهمج الذين كانوا ينوون ارتكاب جريمة قتل. قبل الثورة، كان بعضهم قبل قيام الثورة من رعايا الكاهن الزاهد الذي قفز حينها من العربة لتهدئة هؤلاء الهمج. ولم يتم تدوين ما قاله[14]. قام أحد مرافقي العربة بسحب سيفه وضرب به الكاهن. سحب الغوغاء الأشخاص الآخرين الموجودين في العربات وداسوا فوقهم حتى الموت. تملكهم الهيجان. في الدير الكرملي القريب كان 150 من رجال الدين ينتظرون نتائج محاكمتهم. تسلق الرعاع السياج المغطى بالكروم وبدؤوا بذبحهم بالهراوات والحراب والفؤوس. تناثرت جثث الكهنة وجماجمهم المحطمة في القاعات والمهاجع، وحتى داخل مصلى الكنيسة[15]. وكما يحدث عادة عندما يهتاج حشد من الناس، هناك دائماً من يصرخ بصوت أعلى، وبالتالي يعين نفسه قائداً لهم. قام شخص شرير، هو المواطن مايلارد، بنصب طاولة في الردهة وترأس محكمة فورية. جُرْجِر كل كاهن على قيد الحياة أمام هذا القاضي، وتمت إدانته، وذُبح بأكثر الطرق همجية. مات 119 قسيساً بهذه الطريقة وألقيت جثثهم في بئر قريب[16].

عادت الحشود من الدير الكرملي إلى دير سان جيرمان، ونهبت مكتبته الضخمة وألقت بموجوداتها من الكتب التي لا تقدّر بثمن وسط نار عملاقة أضرمت في الهواء الطلق[17]، لأنها كانت تعتبر التعلم بمثابة الجذر وراء ما تعانيه من بؤس. تمّ إحضار ثلاث مائة سجين آخر أمام المحكمة التي نصبها المواطن مايلارد. اختلطت صرخات ضحاياه مع

13- يمثل اليوم مركز الحياة الفنية الباريسية.

14- تذكر بعض الكتب أنه صرخ: «رحمتك أيها السماء».

15- من مذكرات آبي سيزار، الناجي الوحيد المعروف.

16- في عام 1860، خلال ترميم الدير، تمّ اكتشاف هياكلهم العظمية.

17- حدثت ليلة البلور أثناء حكم هتلر من عام 1938، وكانت طقوس حرق الكتب من قبل النازيين، تقليد باهت لها.

قهقهات الغوغاء. هتفت زوجاتهم الشريرات لتحية عمليات الذبح: «Vasy, coupe sa gorge...، هيا اقطع عنقه». أصبحت الإيحاءات الجنسية للمذبحة صريحة عندما اقتحم الغوغاء المنازل على طول شارع السين واغتصبوا النساء البرجوازيات[18]. وحدثت مشاهد مماثلة داخل قصر كونسييرجيري وسجن شاتليه. في تلك الليلة، قُتل أكثر من ألف إنسان بوحشية. كانت ضحيتهم الأكثر شهرةً الأميرة الجميلة دو لومبال، والتي اقتيدت من زنزانتها، وهي مربوطة إلى أحد المقاعد، واعترفت أنها عشيقة الملكة. ثم قام العشرات من الرجال الأشرار باغتصابها وأجبروها على المشي حافية القدمين عبر الجثث المشوهة في الفناء، قبل أن يقوم الغوغاء. «Sans-culotte» بقطع رأسها، ثم قام صبي حلاق بتمشيط شعر الأميرة المليء بالدماء، قبل أن يتمّ استعراض رأسها وهو محمول على رمح خارج سجن المعبد «حتى تتمكن النمساوية l'Autrichienne[19] من التعرف على حبيبتها».

مارس الغوغاء أعمال القتل، لكنهم نادراً ما يتحملون كل الذنب. فما يتحملونه من ذنب، هو بقدر ما تتحمله عتلّة المقصلة. فالعتلة لوحدها لا تقتل. إنها تطلق النصل فقط. وإذا لم يكن دانتون موجوداً بشكل مباشر أثناء تنفيذ جرائم القتل، فإن كونه وزيراً للعدل، يعني ذلك أنه قد أُعلِم بالتأكيد بما حدث. لكنه لم يفعل شيئاً لمنع أعمال الذبح من خلال استخدام سلطاته.

ساعد هذا الرعب على تقدم جيوش دوق برونزويك. لا شيء كان يمكن أن يوقفهم إلى أن تجمع الفرنسيون من مختلف الفئات، وقد استثارتهم خطب دانتون النارية. جاؤوا من المزارع ومن المدن. حتى فيلق الضباط الملكي وضع نفسه في خدمة أول جيش لهذا الشعب. لم يعد الأمر يتعلق بأن هناك مَلِكاً في خطر، بل الشرف المقدس لفرنسا.

18- من رواية شاهد عيان معاصر هو فيليب موريس.

19- لقب ماري أنطوانيت. المترجم.

وتحت قيادة الجنرالين دوموريز وكيليرمان، سار جنود الأمة وراء راياتهم الثورية إلى طاحونة هوائية قرب فالمي لمواجهة الجيش البروسي. رفع الجنرال كيليرمان قبعته على طرف سيفه وبإشارته هذه بدأ دوي المدافع. بعد أن لاحظ دوق برونزويك مدفعية الثوار أعلن: «Hier schlagen wir nicht»[20] - نحن لا نريد خوض معركة». لقد أوقف الفرنسيون جيشاً محترفاً وبهذا قاموا بتبديد مرة واحدة وإلى الأبد الإيمان الخاطئ بدونية الجيش المؤلف من المدنيين. مع هذا النصر المذهل، تمّ إنقاذ فرنسا من التدخل الأجنبي. بعد يومين، في 22 أيلول 1792، أعلنت فرنسا نفسها جمهورية. أصبح بمستطاع دانتون واليعاقبة الآن أن يحوّلوا انتباههم الكامل إلى المشاكل الداخلية. كان مصير الملك السابق على رأس القائمة. ولكن كان عقل شخص ثوري واحد على الأقل هو، روبسبيير، يركّز تفكيره على عدوه، دانتون.

«L’homme est né libre, et partout il est dans les fers» يولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان يجرّ سلاسل الاستعباد. استوقفت عبارة روسو هذه روبسبيير الرجل ذا الخدود الغائرة وكان يرتدي صديرية الحرير الزرقاء وهو من أشد المعجبين بالفيلسوف الثوري جان جاك روسو. ببطء، وضع روبسبيير الكتاب جانباً وانحنى إلى الوراء وانغمس في التفكير.

لقد كان صباحاً بائساً، ذلك النهار الشتوي البعيد في باريس، عندما أمر مدير مدرسة كولاج دو كليرمونت التلاميذ بالخروج إلى الفناء المرصوف بالحصى. لقد أبقى الأولاد لساعات وهم يرتجفون في المطر والبرد القارس لأن لويس السادس عشر، ملك فرنسا، كان من المتوقع أن يمرّ عبر البوابة الأمامية. كيف كان يبدو، ملكهم ورمز القوة التي لا تقهر، تساءل مراهق نحيف من مدينة أراس مع نفسه، وكان طالباً لامعاً ودؤوباً لكنه يفتقر إلى الموارد المالية التي كان يتمتع بها زملاؤه

20- بالألمانية في الأصل. المترجم.

من التلاميذ، الذين كانوا من سلالة النبلاء. يقف الآن في الفناء، بساقين متعبتين وقطرات المطر تتساقط على ظهره. الانضباط والطاعة! إنها ليست فقط عقيدة مدرسة للأولاد بل لدولة بأكملها. بعد انتظار مضجر، ظهرت عربة صفراء رائعة في أعلى الشارع الضيق المرصوف بالحصى. تقودها أربعة خيول متناسقة يحيط بها مرافقون مسلحون. لم ير الأولاد وجه ملكهم، بل يداً ترتدي قفازاً أبيضَ وهي تلوح من وراء نافذة اجتازتهم. كانوا في طريقهم للعودة إلى صفهم، وهم يهزّون أنفسهم كما تفعل كلاب البودل المبللة ويناقشون القدرة المطلقة للملوك، عندما طلب منهم مدير المدرسة العودة إلى الفناء. فقد ظهرت عربة أخرى. لم يكن هناك شيء مميزٌ فيها، كانت تقودها فرس كبيرة في السن ومتعبة. وقد وقف فيها شخص، مرتدياً قميصاً ملتصقاً بجسده بسبب البلل، ويداه مربوطتان خلف ظهره. كانت عربة يقودها حصانان تعود لسيد باريس[21] «Monsieur de Paris»، وهو يحذر معلمهم: «ليكن هذا درساً لك. لا تتمرد على أسيادك. لا يحدث مثل هذا الأمر هنا، ليس في مملكة فرنسا Royaume de France بل في مكان آخر، ربما! مثل المستعمرات الإنكليزية الثلاث عشرة في أمريكا. هناك تجرؤوا على قول لا لملكهم. كان من السهل عليهم أن ينفصلوا عن ملكهم لأنه كان يفصلهم عنه محيط واسع، ليس هنا، حيث لا يوجد سوى عدد قليل من الفراسخ تشكل طول الطريق المستقيم من باريس إلى فرساي. عندما كانت العربة تتدحرج من حاجز البوابة الحديدي، التقت عينا الصبي بعيني الرجل المدان. كانت عيناه مليئتين باليأس وفقدان الأمل. كان واحداً من العديد من المحرومين، المحروم من حقه المدني في الوقوف ضد الظلم. كانت لحظة لم ينسَها الصبي أبداً ...

استفاق روبسبيير من حلم اليقظة وتناول كتابه. واستغرق في التفكير: «إيه يا روسو العظيم لقد علّمتني أن أقدر كرامة الطبيعة البشرية». كانت

21- اللقب الرسمي للجلاد العام في باريس، وهو تشارلز هنري سانسون.

فلسفة روسو بالنسبة له أقرب ما تكون إلى معتقد ديني. ومثل روسو، الذي كان رسول التغيير، كان روبسبيير يعتبر نفسه كممثل للفضيلة وسط النواب الرعاع والفاسدين البرجوازيين. وكان معبوده روسو يشدّد على قيمة الفضيلة، وله قول مأثور انتشر في جميع أنحاء فرنسا. «الرعب بدون فضيلة هو عمل دموي. والفضيلة بدون رعب هي عمل عقيم». هكذا أصبح الرعب فضيلة، وهكذا قرر ماكسيميليان روبسبيير.

في ذلك اليوم الخالد، اليوم الذي اقتحم فيه مواطنو باريس سجن الباستيل، الذي صادف 14 تموز 1789، كان شخصاً مجهولاً تماماً. كان نائباً من الشمال، لا يبتسم أبداً ولكنه كان يقضي ساعات يرتدي ملابسه الحريرية ويضع الباروكات، صوّت روبسبيير ضد الرقابة على الصحف، وعقوبة الإعدام، وضد الحرب، ومع ذلك كان هو الذي وقّع كل هذه المراسيم عندما أصبح في السلطة. لم يكن منافقاً، كما حاول بعض منتقديه أن يصفوه، ولا انتهازياً سياسياً، بل مؤمناً حقيقياً، مما جعله مرعباً أكثر منه منافق. انضم إلى مجموعة صغيرة من المثقفين الذين كانوا يتحدثون عن الثورة في كنيسة صغيرة في دير يعقوب المهجور. في البداية أطلقوا على أنفسهم أصدقاء الدستور، قبل أن يصبحوا معروفين باسم اليعاقبة. لم يكن روبسبيير يحب المظاهر الصاخبة، ولم يشارك في التجاوزات التي ارتكبت باسم الثورة من خلال تلك الظاهرة الاجتماعية الجديدة المسماة «الغوغاء»-أو كومونات مارا. هذه الجماعة المتطرفة، المكونة من حثالة المجتمع، لم يكن لها أي شيء مشترك مع البروليتاريا التي عُرفت في تاريخ لاحق. لم تكن فلسفتهم قائمة على «تجويع الجماهير العاملة، يجعلها تنهض من سباتها»، بل على مبدأ «اقتل من لديهم ممتلكات، وانتزعها منهم». كانوا جميعاً مثل جرذان المجاري، الذين لم يشاركوا في الثورة، ولكن بالتأكيد استفادوا منها. كان يعلم جيداً أن الجماهير لا تصنع الثورة، بل من يصنعها هم القادة فقط. يمكن أن يستخدم الغوغاء في أغراض مفيدة: يمكن استغلالهم لتلبية

احتياجات سياسية كتكوين مجموعة ضغط من خلال المظاهرات أو نوبات متفرقة من الإرهاب، وهو أسلوب استغله مارا بذكاء. وليدعهم يصرخون ويشعرون بأنهم مهمون، أو يجعلهم يقتحمون مبنى المؤتمر الوطني بأعداد هائلة ويشوشون على النقاش حول قضية ما بصراخهم، والذي يمكن تفسيره حينها على أنها «إرادة الشعب».

كان روبسبيير يحتقر مارا. لقد حوّل (صديق الشعب) الذكي هذا أتباعه من الغوغاء (sans-culottes) إلى سلاح سياسي هائل، منذ أن بدأ أعوان الشيطان هؤلاء يكسبون الكثير على حساب ضحاياهم. وخلافاً لغيره من القادة الثوريين، كان مارا يفلسف أعمال القتل ويزدري بشكل كامل كل المبادئ التي كان يعتبرها الآخرون مثلاً عليا. كان مارا يمثل مشكلة يجب معالجتها.

ولكن روبسبيير كانت تتملكه مشاعر الحسد تجاه رجل آخر، هو جورج جاك دانتون. في آب 1792 تمّ تعيين هذا الخطيب اللطيف والمتأنق وزيراً للعدل وعمره اثنتين وثلاثين سنة. كانت الغيرة من قدرات وطاقة منافسه الاستثنائية تأكل قلب روبسبيير. كانا متماثلين في السن (ولد روبسبيير في عام 1758، ودانتون في 1759)؛ وكانت وجهات نظرهم الثورية متماثلة – ولكن شخصيتهما لم تكونا كذلك. كان دانتون يثير الحماس وذا صوت جهوري. كان يحب الشهرة ومهاراته كخطيب يمكن مقارنتها بمواهب شيشرون[22]، أما روبسبيير فقد كان شخصاً مرهف الحس ذا وجه شاحب. كان يمضغ أظافره بعصبية ويبالغ في حديثه. كان يتجنب الأضواء، ويحب العمل في الظل. أما دانتون فكان شخصاً ذواقاً يحب زوجته والطعام الجيد، والصحبة الصاخبة. كان روبسبيير يكره حيوية دانتون ورجولته ويحب العزلة، فقد حبس نفسه مع كتبه وأفكاره في شقة صغيرة في شارع سانت أونوريه[23]. كان كلا

22- اقتباسات دانتون منه تملأ مجلدات، وأقواله لا تزال تخلّد على النصب التذكارية.

23- المنزل الذي عاش فيه وقام نابليون بهدمه.

الرجلين يحلمان بفرنسا جديدة، ولكن بينما كان روبسبيير يعكس مبادئ الفلسفة النقية لجان جاك روسو ويرى أن مهمته الرئيسة إقامة حكم الفضيلة، لم يكن دانتون يعتقد بشيء من القيود الأخلاقية لروبسبيير وقد قال ذلك فعلاً. في أحد أيام انعقاد الجمعية الوطنية، حيث واصل روبسبيير الحديث إلى ما لا نهاية عن الفضيلة، صرخ دانتون قائلاً: «الفضيلة هي ما أمارسه في السرير مع زوجتي!» عانى روبسبيير من الكوابيس. حتى إنه أشار إلى منافسه على أنه «صنم نتن، تعفن بالفساد». نمت الرغبة لديه في التخلص من دانتون وباتت تلك الرغبة تزداد قوة يوماً بعد يوم ودفعته إلى اتخاذ مواقف مزدوجة. خلال تلك الأيام من المعاناة التقى الشاب الذي سيلعب دوراً مهماً خلال أيام استبداده، إنه لويس أنطوان دي سان-جوست[24].

في ظل هذا النمو المتعاظم للعقائد الثورية المتحجرة، والتشابك الكثيف والخطير للقضايا والأحداث المعقدة، كان يستلزم الأمر مواهب ومهارات كبيرة للنجاح والبقاء على قيد الحياة. كان سان-جوست شخصاً سريع البديهة، ويمكنه أن يتغلب على خصمه بلسانه اللاذع، ويستطيع التعامل مع حشد من الناس. انتخب نائباً عن مدينة سواسون[25]، كان هذا الشخص البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً «والجميل كالملاك»، قد حصل على لقبه ليس بسبب جماله الجسدي. فقد كان سان-جوست، «ملاك الموت»، متعصباً للغاية حيث كان يقول: «أولئك الذين يقودون الثورات، أولئك الذين يرغبون في القيام بعمل جيد، يجب ألا يناموا أبداً إلا في قبورهم!». إذا كان روبسبيير قد أظهر بعض الإخفاقات البشرية، فقد كان سان-جوست من تلك الزواحف الهائجة التي تتغذى على الدم، أم إنه كان يحمل الطهارة الثورية في قلبه؟

24- ولد سان-جوست عام 1767 في ديسيز. لا يزال منزل والديه موجوداً في قرية بيليغونكو.

25- فاز بأغلبية ضئيلة من 349 صوتاً.

كان هذا هو لغز سان-جوست. كانت فكرته عن اليوتوبيا كونها مكاناً يؤدي فيه الرجال وظيفتين رئيستين فقط، إما كمزارعين (لإطعام الأمة) أو كجنود (للدفاع عن الأمة)؛ حيث يتم أخذ الأطفال من والديهم في سن صغيرة، ويُحتجزون في مؤسسة، ويتمّ حشرهم في قالب ثوري ليتحولوا إلى جيش من الروبوتات[26]، لم يقم بذكر النساء أبداً لأنه لم يكن يعترف بوجودهن. وقد تآمر هذان الشخصان لإسقاط جورج دانتون.

وفيما يخصّ محاكمة الملك، كان دانتون يعتمد على دعم أغلبية النواب. كان الأمر يتطلب القيام بخدعة. تم الاستعانة بصانع أقفال محترف يدعى فرانسوا غامين ليساعد الملك في شغفه بتصليح الساعات. أخبر دانتون غامين أن الملك قد خانه، وأنه سيفقد حياته، ما لم... ثم سأله فجأة «الخزنة، أين هي؟» قاده غامين المرعوب إلى خزانة حديدية صغيرة مخفية، كشفت له عن 627 وثيقة سرية. وبهذه الوثائق، أصبح دانتون يمتلك الأدلة لتوجيه تهمة الخيانة العظمى إلى الملك. وأثناء انعقاد المؤتمر الوطني، أعلن أنطوان سان-جوست، الذي كان هادئاً ومتهكماً بقدر ما كان قاسياً، قائلاً: «نحن هنا ليس لمقاضاة الملك بل لمحاربته. في القرن الثامن عشر، نحن لسنا أقل تطوراً من زمن يوليوس قيصر، حيث قُتل الطاغية في مجلس الشيوخ بدون شكليات زائدة من خلال ثلاثين طعنة خنجر ومن دون الاستعانة بأي قانون آخر سوى ذلك الذي تفرضه حرية روما. فليحدث ذلك هنا. إنني أطالب بإعدام الملك من دون محاكمة!». كانت دعوة اليعاقبة واضحة: الاستيلاء على السلطة، ويجب على الملك أن يموت!

رفض المؤتمر الوطني تنفيذ هذا الطلب، وأرسل النائب تشامبون إلى المعبد المحتجز فيه الملك: «كلفتني الجمعية الوطنية بإخبارك: أنت متهم يا لويس كابييه»[27]. أُخْرِج لويس من الغرفة واقتيد إلى الفناء. من

26- تم تصوير «جيش الروبوتات» ببراعة في فيلم متروبوليس للمخرج فريتز لانغ.
27- اسم سلالة العائلة التي حكمت فرنسا. المترجم.

نافذة صغيرة كانت الملكة تراقب وكان هناك طفل يبكي. كان الابن البكر للملك يبلغ من العمر سبعة أعوام فقط ولم يكن يفهم شيئاً.

«لويس كابييه، إن الأمة الفرنسية توجّه لك الاتهام...». بهذه العبارة، افتتحت محاكمة الملك في 26 كانون الأول 1792. وقد اتهم الملك بسلسلة من الجرائم التي كان يعرف، كما يعرف من اتهموه، أنه لم يكن طرفاً فيها.

«أنا لا أعترف بهذه المحكمة. لا يمكنكم محاكمة الملك».

«نستطيع، وسنقوم بذلك. أنت، لا نحن، من سيحاكم».

«لماذا؟» سأل الملك المخلوع.

«لأن حياتك على المحك !».

جلس الملك واستمع وهو مستسلم بكرامة. لوّح المدعي العام فوكييه تانفيل بحزمة من الأوراق. «أيها المواطنون، لديّ هنا بعض الوثائق التي تثبت بدون أدنى شك أن المتهم مذنب».

تمّ تعيين اثنين من المحامين، هما ماليشيرب وترونشيه[28]، كمساعدين قانونيين، وسمح لهما بمناقشة استراتيجية الدفاع مع الملك السابق. كانوا يعرفون أن فرصه كانت ضئيلة. تحول النقاش حول الحكم إلى نقاش ساخن حول ثلاثة أسئلة:

1. هل إن لويس كابييه مذنب؟
2. هل يجب عرض الحكم على التصويت الشعبي؟
3. إذا وجدت المحكمة أن الملك مذنباً، ما هي العقوبة التي يجب أن تصدر بحقه؟ السجن أم النفي أم الإعدام؟

عارض الجيروندیون المعتدلون اليعاقبة المتطرفين وشعارهم «الموت للطاغية!». تحدث قائدهم «ملاك الموت»: «لقد حارب لويس شعبه وتمّ إسقاطه. كان ينظر إلى مواطنيه كعبيد عنده. هو وحده

28- عاش ترونشيه بعد ذلك وأصبح النائب العام. أما ماليشيرب فقد أعدم بالمقصلة.

المذنب في أحداث سجن الباستيل وقصر التويلري. أنا أسأل من هو العدو الأجنبي الذي تسبّب لنا بهذا الكمّ من الأذى»، ثم توقف لفترة من الوقت قبل أن يضيف بلهجته الجليدية الباردة المعتادة: «إن الأمة تطالب بإعدامه!».

دُعِيَ توماس باين، الثوري الإنكليزي لحضور إجراءات المحاكمة لإعطائها ذرة من المصداقية، فكتب اقتراحاً على قطعة من الورق وسلّمه إلى رئيس المؤتمر الوطني: «نفي الملك إلى أمريكا». لم يؤخذ اقتراح باين بعين الاعتبار.

صاح الرعاع أنصار مارا وسط القاعة قائلين: «سلمونا رأس الخنزير البدين». كان دانتون يجادل بقوة من أجل إنزال العقوبة القصوى، وهدّد سان-جوست النواب. كان روبسبيير هو الوحيد الذي كان يقف جانباً ويراقب. كان مارا على رأس قائمته. كان لا بدّ من التخلص منه؛ وبدون رحمة. تمت الدعوة إلى التصويت واستمر لفترة طويلة، تعادلت أصوات القبول والرفض. إلى أن وقف ابن عم الملك، الذي أصبح يطلق على نفسه اسم فيليب إيغاليتيه، قائلاً: «إنني أصوت لصالح عقوبة الإعدام !». وكان تصويته هو الحاسم. تمّ التصويت على عقوبة الإعدام للملك بفارق خمسة أصوات![29] بكى لازار كارنو، رئيس الحكومة عند توقيعه المرسوم. ورُفِضَ إرجاء تنفيذ الحكم. أمر المدعي العام، تشارلز هنري سانسون، الذي لم يكن يعرف إلّا باسم سيد باريس، بتهيئة إجراءات تنفيذ الحكم. لم يكن السيد سانسون، سياسياً ويفتخر بنفسه «لكونه يؤدي وظيفته على أكمل وجه»، ولم يكن ينحاز لأي طرف. ولم يكن يطرح الأسئلة أبداً. كان يقطع رأس أي شخص من اللص إلى الملك.

29- تبين بعد ذلك أن ثلاثة عشر صوتاً كانت غير قانونية؛ بعض الناخبين لم يتمّ تسجيلهم حتى في القائمة، وكان أحدهم صغيراً جداً: سانت-جوست، الذي كان لا يزال أقل من السن المسموح له بالتصويت.

جاءت آخر محاولة لالتماس العفو عن حياة الملك من قبل ممثلة مشهورة في المسرح الوطني الفرنسي، وهي الآنسة فلوري فقد شقت طريقها نحو شقة مارا، التي لم يكن يزيّنها سوى ملصق كتبت فيه كلمتين: «La Mort» الموت!

«أتوسل إليك أن تعفو عن الملك».

«ما هذا الذي تجرُئين على قوله؟ لا تتحدثي بصوت عالٍ هكذا فقد يتمكن الآخرون من سماعك، وسيُحكم عليك بالإعدام بسبب ما تتفوهين به».

«يا مارا، أنا لست خائفة. إنه لأمر مؤسف أن أراك تسير في طريق الدم الذي يؤدي إلى الهاوية، وأريد أن أوقفك».

«أنا لا أنكر ذلك، كان لويس هو الذي ساعدنا في صنع الثورة. الآن علينا الدفاع عنها بكل قوتنا».

«مارا، كم علينا أن نذرف من الدموع ونريق من الدم، قبل أن نجد الطريق الذي يعيدنا إلى الوحدة والمحبة؟ ولهذا، سيكون عليك قطع العديد من الرؤوس».

«وليكن، حينما يبدأ مرض الغرغرينا بالانتشار يجب بتر الطرف المصاب لإنقاذ الجسم. نحن نزرع الدماء والدموع حتى يتسنى لمن بعدنا أن يحصد الفرح».

«هذا الأمر يحتاج وقتاً طويلاً».

«الرجال الأقوياء يمكنهم الانتظار».

أدركت الآنسة فلوري أنها فشلت في مسعاها.

فُتِحَ باب زنزانة لويس بقوة ودخل إليها اثنا عشر رجلاً من الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني. تمّت قراءة الحكم، لكن الملك لم يظهر أي ردّ فعل. جلس كاهن إيرلندي هو، إدجورث فيرمونت، مع الشخص المُدان. جلس الملك لتناول العشاء في وقت متأخر. وكانت ملاحظته

الوحيدة هي أنهم أخذوا سكينه التي يقطع بها اللحم. «هل يتصورونني جباناً إلى حدّ أنني أنتحر؟»، طلب الملك فيما بعد رؤية عائلته. وكان أول من دخل إلى الغرفة هي الملكة، وهي تمسك ابنهما البالغ من العمر سبع سنوات من يده. وتبعتها شقيقات الملك. ولمرة واحدة، أظهر السجان شيئاً من الحشمة من خلال إغلاق الباب للسماح لهم بالتمتع باللحظة الأخيرة من الخصوصية. بكَت الأميرات، وحاولت الملكة الحفاظ على بعض رباطة الجأش. بدا ابنه غير متأثر، فقد جنّبه صغر سنه إدراك حقيقة المأساة. أمسك الملك والملكة ابنهما من يده. ووعده الملك قائلاً «سأراك صباح الغد».

«هل هذا وعد، يا أبي العزيز»؟

أجابه: «أعدك»، ثم همس لماري أنطوانيت: «وداعاً».

وضع لويس ممتلكاته الشخصية على رف الموقد، علبة السعوط، وساعته، ونظاراته. ثم نادى القس إدجورث، حتى إنه ساعده في ترتيب طاولة الطعام الصغيرة لتكون المذبح، ثم ركع بينما كان الكاهن يناوله القربان المقدس[30]. في مكان ما في المدينة تعالى صياح ديك. تلمس لويس طريقه إلى المرآة. ما كان يحدق به كان وجهاً متجعداً ذا شعر رمادي، وعينين توشحهما أوردة حمراء واثنان من التجاعيد العميقة في منتصف جبهته. تفحص ساعته. إنها الساعة الثالثة، هناك خمس ساعات أخرى. مرّ سرب من الحمام من أمام قضبان نافذة السجين. بزغ فجر يوم 21 كانون الثاني 1793 وكان يوماً شديد البرودة وكانت شوارع باريس مهجورة. وقد صدرت الأوامر للمواطنين citoyens بالبقاء في منازلهم خلف أبواب مغلقة. نُشِرت المدافع فوق كل جسر، وفي كل حي، واصطف الآلاف من الحراس على طول الطريق. انتصبت المقصلة

30- طقس مسيحي للتذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه. الاحتفال يكون بصيغة تذوق أو غمس قطعة من الخبز الذي يمثل جسد يسوع في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع. المترجم.

في ميدان الثورة الذي يعرف اليوم باسم ميدان الكونكورد، بين البوابة المؤدية إلى حدائق قصر التويلري وقاعدة النصب التذكاري الذي كان يحمل في يوم ما تمثالاً للفارس لويس الخامس عشر. انتهى الجلاد ومساعدوه من استعداداتهم النهائية. في الساعة 8.30 صباحاً سُحِب مزلاج الباب المؤدي إلى حجرة الملك. دخل ثلاثة رجال الغرفة. اثنان منهم كانا كاهنين سابقين، هما بيير برنار وجاك رو، وكانا من النواب المتطرفين في المؤتمر الوطني، اللذين طالبا أن ينالا الشرف المريب باقتياد الملك إلى المكان الذي سيلقى فيه حتفه. وكان «الثالث» هو الجنرال سانتير، قائد الحرس الوطني.

حاول لويس أن يسلّم جاك رو لفافة ورق تحوي وصيته: «هل يمكنك تسليم هذا إلى الملكة؟».

سخر منه رو قائلاً: «مهمتي هي أن أقودك إلى منصة الإعدام، وليس نقل رسائلك».

أخذ الجنرال سانتيير الورقة. «سأعطيها لها». قال ذلك وهو يوجِّه نظرة غائمة نحو جاك رو.

تناول كليري الخادم الخاص للملك معطفه، لكنه قال: «لن تكون لدينا حاجة له». استدار الملك نحو الجنرال قائلاً: «نحن مستعدون. هيا بنا».

في العربة السوداء التي كانت ستائرها مغلقة، سلم القسيس إدجورث الملك كتاب الصلوات اليومية وبدأ لويس في قراءته. كانت حوافر الخيول تصدر أصواتاً عالية وهي تسير في أخاديد الشوارع المهجورة، عبر ميدان دي غريف، على طول شارع سانت أونوريه، وفي ميدان الثورة، نحو تمثال ضخم من الجبس يسمى la Liberté الحرية. وهنا بعد عدة أشهر، ستنظر مدام رولان -وهي إحدى المتحمسات الشديدات للثورة- وهي في طريقها إلى المقصلة، إلى التمثال وتقول: «إيه أيتها الحرية، كم من الجرائم يرتكبونها باسمك!». كان هناك اثنا عشر ألف

جندي مجهزين بالحراب يحيطون بالآلة التي اقترحها الطبيب جيوتن[31] والتي صمّمها صانع بيانو باريسي وساعد الملك على تحسينها من خلال اقتراح تركيب شفرة ثلاثية لتوفير عملية ذبح سلسة. وإلى خلف مجموعة الجنود المسلحين، كانت تقف عربة فيليب إيغاليتيه السوداء الذي أدّت خيانته الخسيسة إلى إصدار حكم الإعدام على ابن عمه. وفي غضون تسعة أشهر، سوف يتسلق هو أيضاً السلم حيث سيكون له موعد مع الجلاد.

«يا جنرال، إذا لم أخطئ، فقد وصلنا إلى وجهتنا». لم يذكر الملك كلمة «النهائية». وبدون أن يجفل، نظر إلى الآلة الشريرة ونزع سترته وفتح الأزرار الموجودة في عنق قميصه. لم يُسمع صوت في الساحة المكتظة بالأشخاص، لم يتحرك شخص واحد من الآلاف المتجمعة؛ كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت صهيل الخيول وصوت كشط حوافرها على الحصى. بدأ أحد الطبول يقرع، وانضم إليه آخر وآخر، حتى بدأت تُقرع المئات من الطبول. أمسك مساعدو الجلاد (سانسون) الملك من مرفقيه وسحباهما إلى الخلف ليربطا كتفيه «لا تقيدا كتفي، لن أسمح لكما بذلك». ارتبك المساعدان، أشار لهما الجلاد وعرف لويس أنه لا جدوى من المقاومة. وضع يده خلف ظهره ولفّ أحد المساعدين حبلاً رفيعاً حول معصميه. صعد السلم ببطء، وعند المنصة، رسم القسيس إدجورث علامة الصليب على رأس الملك المدان. ارتفع صوت قرع الطبول إلى أوجّه إلى حدّ بدأ يمزق الأذن

تحول لويس إلى قارع الطبل «!Arrêtez vous» توقف!

ألغى الجنرال سانتير أمر الملك قائلاً: «!Continuez تابع!»

31- طبيب فرنسي اقترح استخدام جهاز لتنفيذ عمليات الإعدام في فرنسا بطرق أقل إيلاماً. لم يكن هو الشخص الذي اخترع المقصلة في الحقيقة فقد كان يعارض عقوبة الإعدام، ولكن أصبح اسمه يطلق على المقصلة. المترجم.

تواصل قرع الطبول. توجه الملك بخطابه نحو المحتشدين: «بما أن الرب هو شاهد على ما أقول وأفعل، فأنا بريء من كل الجرائم التي اتُّهِمت بها...». لكن صوته غرق وسط أصوات مائة طبل كان يقرع. لم يسمع تبريره سوى الكاهن الإيرلندي. أمسك مساعدو الجلاد (سانسون) بالملك لويس من تحت ذراعيه وربطوه بشكل مستقيم باللوح الخشبي الذي تمّ تنظيفه للتو. بدأ القسيس يتلو صلاته «يا ابن لويس القديس[32]، فلتصعد روحك إلى السماء». قام أحد المساعدين بدفع اللوح إلى الأمام ليكون في وضع أفقي. أمسك ابن الجلاد برأس الملك ودفعها إلى الأخدود. مع صدور صوت قعقعة أخذ مثبت الرأس الخشبي موضعه. توجه الجلاد إلى الرافعة. كانت هناك لحظة تردد عندما نظر الجلاد أو سيد باريس Monsieur de Paris إلى الجنرال سانتير الذي ردّ عليه «أيها السيد، قم بواجبك!»، وانخفضت الرافعة، وارتخى الحبل... وفي لحظة من الزمن، تدلت الشفرة اللامعة وتألقت بلمعانها في الشمس. ثم هوت إلى الأسفل قطعة ثقيلة من الفولاذ المشحوذ، مما أدى إلى هرس العظام واللحم. انطلقت قذيفة من أحد المدافع. التقط رئيس حرس الشرف، النقيب لو جروس، رأس الملك من السلة ورفعه عالياً ليراه الجميع. تعالت الأصوات بالهتاف: «Vive la république!» عاشت الجمهورية!». كان ملك سلالة البوربون قد سقط ميتاً[33].

وبعيداً عن حدود فرنسا، كان ردّ الفعل على قتل الملك شيئاً من عدم التصديق الذي يشوبه الرعب. ولكن بصرف النظر عن استدعاء سفرائهم (أولئك الذين كان لا يزال لديهم سفراء في باريس)، فإن الملوك الأجانب لم يفعلوا شيئاً. في فرنسا ساد مزيج من الابتهاج والخجل. كتبت صحيفة Le Véridique تقول: «إن وفاة لويس السادس عشر قد خلقت قديساً

32- لقب ملك فرنسا لويس التاسع. المترجم.

33- ألقي على الفور بجثته في حفرة من الجير الحي في مقبرة مادلين. وبعد اثنين وعشرين عاماً، تمّ العثور على رفاته ودُفن بشكل لائق.

آخر». في الواقع، حاول لويس السادس عشر إرضاء الجميع، لكنه فشل للأسف. علمت ماري أنطوانيت بإعدام زوجها في صباح اليوم التالي عندما ناداها حارس السجن بسخرية بـ «أرملة الملك». كان عليها أن تكون قوية ولا تنسى أنها ما زالت ملكة، وحين رأت أن فتاها الصغير يكفكف دموعه، قالت له: «إن الملك لا يبكي أبداً، وجعلت ابنها الذي ينتحب يقف على قدميه». ثم ركعت لتحييه كملك فرنسا الجديد، لويس السابع عشر.

«Le roi est mort, vive le roi مات الملك، عاش الملك».

كانت عواقب الحدث مثلما يتوقع المرء. تمّ تدمير أي شيء مرتبط بالملوك؛ تمّ هدم التماثيل وتدنيس المقابر. تمّ بيع القلوب المحنطة للملوك العظماء في مزاد علني. تمّ إلقاء القبض على جميع من له علاقة وإن كانت بعيدة مع العائلة المالكة وتمّ إرساله إلى المقصلة. كانت آخر كلمات فيليب إيغاليتيه: «Merde يا للقرف!» مدام دو باري، عشيقة لويس الخامس عشر، تصرخ من أجل طلب الرحمة. قُتل المحامي الذي تجرأ على الدفاع عن الملك بوحشية، هو وأبناؤه وأحفاده. قطع رأس إليزابيث أخت الملك، وألقيت جثتها وهي عارية في مقلع للجير.

كانت المبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية: الحرية، والمساواة، والإخاء، وهي التي تمثل في الحقيقة فكرة الحرية السياسية، قد ماتت. وبينما كان مبدأ المساواة يعني القضاء على الامتيازات القديمة ومبدأ الإخوة يعني إقامة وحدة وطنية جديدة، فان مبدأ الحرية قد تمّ سحقه بالأقدام. كانت المحاكم الثورية تدين وكان الجلاد يقوم بعمله، مما أدى إلى تقديم المزيد من الضحايا لإشباع مقصلته النهمة. أصبحت فرنسا سجناً ضخماً وبات سكانها يعيشون تحت التهديد الدائم من سقوط نصال المقصلة على رقابهم. وصلت الحرب مع النمسا إلى طريق مسدود. تمّ إرسال المواطن لويس – أنطوان سان-–جوست (الذي تخلى بهدوء عن لقب

النبلاء de)، والذي انتخب عضواً في لجنة السلامة العامة[34]، كممثل لها إلى الجيوش الثورية في نهر الراين والشمال. أصبح الاتصال بين باريس وقواتهم سيئاً للغاية حتى إن الجنرال دوموريز، قائد المنطقة الشمالية والذي انتصر في معركة فالمي، بقي لمدة عشرة أيام يجهل أن إنكلترا دخلت الحرب ضد فرنسا. (بعد مفاوضات سرية، غادرهم دوموريز وانضم إلى النمساويين. كان انشقاقه إيذاناً بحدوث الكارثة بالنسبة لصديقه دانتون).

وأعلن سان-جوست: «إن التقنيات العسكرية للنظام الملكي قد عفا عليها الزمن»، لم تحصل الجمهورية الفرنسية (La république Française) على شيء من أعدائها غير الرصاص، ولن تعود إلا بالرصاص. تكمن قوة الثورة في شعبها وتتمركز في انتصاراته. لدى جمهوريتنا بالفعل طابعها السياسي، والآن يجب أن يترجم هذا إلى نظام عسكري لضرب أعدائنا. ولتحقيق ذلك، لا يمكننا القبول بأي شيء غير الحرب غير المحدودة. قدرنا هو تغيير وجه أوروبا. لن نرتاح حتى تتحرر كل الأمم، لأن حريتها تضمن لنا حريتنا. توجد ثلاثة أشياء خسيسة على الأرض: الملوك وطاعة هؤلاء الملوك؛ وأن نلقي أسلحتنا في حين لا يزال هناك سيد وعبد.

كان سان-جوست قادراً على أن يوصل صلابته إلى الجنود وأن يغرس في جيوش الجمهورية الحماسة التي لا تقاوم والاندفاع الذي سيقودهم إلى النصر. خلق هذا الرجل البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً المناخ الجوهري في فن الحرب الحديثة: الروح الهجومية «attaque á l'outrance» في المسرح السياسي، وجّه سان-جوست حماسته الثورية إلى مديات غير معقولة. وقال أمام لجنة السلامة العامة ليبرّر ما يفكر به: «ترتكز الجمهورية على الإبادة الكاملة لجميع أولئك

34- أنشئت في آذار 1793 من قبل المؤتمر الوطني وأُعيدت هيكلتها في تموز 1793، شكلت حكومة الأمر الواقع التنفيذية في فرنسا خلال عهد الإرهاب. المترجم.

الذين يعارضونها. وفي هذا المجال يجب أن نبقى غير مرنين، يجب أن نعاقب الخونة وجميع الذين لا يظهرون أي حماس تجاه قضيتنا. هذه الجمهورية تدين للمواطنين الصالحين بحمايتها. والسيئون لا يستحقون منها إلا الموت. كان هذا التأكيد هو التوجيه الأساس للإرهاب». وقد قال عبارته الشهيرة، التي كررها الدكتاتوريون في جميع أنحاء العالم: «دعوا مقابرنا تكبر، وليس سجوننا».

ظل سيد باريس مشغولاً. كان الاعتقاد الشائع بأن الجلاد العام هو كبير كهنة الموت قد ترسخ بعمق بين الناس العاديين. لم يجرؤ أحد على التحدث إليه؛ ولم يقترب أحد من عائلته. كانت أقراص الخبز الخاصة به توضع بشكل مقلوب في المخبز حتى لا يأخذها أحد ما عن طريق الخطأ. وكان يمارس عمله في وسط المدينة، وفي الميدان العام، الذي كان يسمى أثناء ثورة باريس بميدان الثورة، وكان حجمه يسمح باستيعاب أكبر عدد ممكن من الناس لحضور المشاهد الرهيبة، من أجل منع الجرائم في المستقبل. لكن الأرستقراطيين الذين تمّ إعدامهم بالمقصلة لم يكونوا مجرمين، ولم يكونوا سارقين معروفين، ولم يرتكبوا جرائم القتل على الإطلاق، مثلما حدث مع مدام لامارشيل دي نواي التي كانت تبلغ من العمر ثمانين عاماً. وبينما كان يتمّ اقتياد هذه الأرواح الشقية إلى تلك الآلة المروعة، كان عدد من البهلوانات «saltimbanques» يقومون بتسلية حشود الناس بأداء عمليات إعدام وهمية، أما الحانات الصغيرة التي تطلّ على المقصلة فقد ازدهر نشاطها التجاري وزادت مبيعاتها من الحساء والبيرة. وأصبح من الأصوات المألوفة، سماع جرس الجلاد في العربة ذات الحصانين وهي تحمل أحد أولئك تعيسي الحظ المحكوم عليه بالإعدام، جالساً بيأس على اللوح الخشبي، ولم يعد يلاحظ ما يدور حوله. لقد كانوا موتى بالفعل. وبمجرد وصول العربات إلى المقصلة، كان يُسحب بعض الأشخاص بقوة ليصعدوا الدرج، بينما كان يصعدها آخرون بكرامة وهدوء. كان مساعدو الجلاد يعصبون أعينهم؛ ليس لكي

لا يتمكن المدانون من مشاهدة لحظتهم الأخيرة، ولكن للسبب نفسه الذي تكون فيه عيون الجواسيس معصوبة قبل إطلاق النار عليهم: لا أحد يريد التحديق في عيون الضحية. كان البعض يسير بهدوء نحو حتفه، بينما كان آخرون يقومون بشتم قضاتهم قبل أن تهوي شفرة المقصلة وتخرس لعناتهم. «الإرهاب لن يتوقف عن أن يكون ممارسة يومية حتى يتمّ القضاء على آخر أعداء الجمهورية». وهكذا لاقى الأرستقراطيون في فرنسا حتفهم. فقد اقتيد أكثر من ثلاثة آلاف منهم إلى المقصلة.

ومع ذلك، وسط كل هذه المذبحة اللاإنسانية، تبرز واحدة من الضحايا. في 16 تشرين الأول 1793، بعد تسعة أشهر من إعدام زوجها، بدأت الملكة ماري أنطوانيت رحلتها الأخيرة عبر شوارع باريس. وفي الشوارع نفسها التي تجوّلت فيها في عربة مطلية بالذهب يوم دخولها المظفر إلى باريس كعروس شابة لملك مستقبلي، بعد ثلاثة وعشرين عاماً استقلت الملكة السابقة العربة المستخدمة لنقل المجرمين إلى مكان تنفيذ العقاب بهم. والحشود التي كانت في يوم من الأيام، ترمي بتلات الزهور أمامها، وتهتف بحماسة للأميرة الشابة الجميلة، هي نفسها الآن تصبّ اللعنات على امرأة عجوز متعبة ذات شعر رمادي قصير تختلس النظر من وراء قبعة، وهي ترتدي ثوباً أبيضَ خفيفاً، وتلف نفسها بشال قديم يحميها من البرد. وكانت يداها مربوطتين خلف ظهرها كانت الجموع تهتف: «Mort á l'Autrichienne! الموت لتلك النمساوية!» في ذلك اليوم، وصلت الثورة الفرنسية بالفعل إلى أقصى درجات الخزي والعار. «لم يكن ذلك قتلاً للملكة، كان أسوأ من ذلك بكثير». تلك كانت كلمات نابليون.

يمكن تحديد تأريخ بداية مرحلة الإرهاب: في يوم 13 تموز 1793. أو، لنكن أكثر دقة، فإنه بدأ في الساعة العاشرة والنصف في ذلك الصباح، عندما كانت شارلوت كورداي دارمونت ابنة النبلاء الورعة البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً من آل نورمان النبلاء، تسير بهدوء في منزل

جان بول مارا وغرزت سكيناً في صدره بينما كان ينقع جسمه في حمام طبي. قبل إعدامها، أخبرت شارلوت كورداي بسرها أحد الأصدقاء من أن بعض الكائنات السماوية قد أمرتها بتخليص العالم من المسيح الدجال. من كان ذلك الكائن السماوي الذي همس في أذنها؟ هل كان الله، هل هو من أتباع الملك، أم إنه ربما كان أحد مبعوثي روبسبيير المقنّعين؟ كان مارا بثرة تحتاج إلى أن تُشَقّ بمبضع.

تحقيقاً لهذه الغاية، اصطف روبسبيير مع دانتون في ما كان يُعتبر أكثر التحالفات غرابة، لأن دانتون الذي وصف روبسبيير بأنه «مخصي طاهر» كان مدفوعاً بالطموح نفسه ولم يكن يتورع عن استخدام أي وسيلة لتحقيق ذلك. لم يكن دانتون نبياً أو كاهناً، كان يحبّ شيئاً واحداً فقط: السلطة! ولذلك فقد كان روبسبيير على استعداد للتعاون مع الشيطان نفسه للإطاحة بمارا، وهو رجل عدواني ومجنون ونبي المساواة «Égalité». أطلقت عملية قتله في الحمام العنان للغضب الشعبي ضد المعتدلين. خلال السنوات السابقة، كانت رسائله اللاذعة التي يوجّهها في صحيفته «L'ami du people» (صديق الشعب) مسؤولة عن العديد من المذابح التي ارتكبتها عصابات باريس. وقبل شهر من وفاته، تسبّب في سقوط حزب الجيرونديين القوي عندما حرّض الكوميونيين على اقتحام «المؤتمر الوطني» وطرد 22 نائباً باستخدام حرابهم. مع نهاية مارا، أصبح الطريق إلى السلطة الدكتاتورية سالكاً أمام الزعيمين الراديكاليين اللذين كانا يرمزان إلى الإرهاب العظيم: دانتون وروبسبيير. ونظراً للاختلافات في شخصياتهم وطريقة تفكيرهم، كان من الواضح أن على أحد منهم أن يذهب.

على مدى عدة أشهر، سعى روبسبيير لإحكام قبضته على فصيل اليعاقبة. لكن في اليوم الذي وقع فيه مارا ضحية لكراهيته الطبقية، فإن دانتون ملأ الفراغ بسرعة. كانت الأمة وسط حالة من الفوضى والاضطراب، واحتاجت إلى رجل قوي. بدأ الإرهاب مع ممثلي الشعب المنتخبين الذين يقومون بتبادل إرسال بعضهم البعض إلى المقصلة.

أول من تمّ تنحيتهم جانباً كانوا هم الجيرونديون والذين كانوا لأكثر من عام يسيطرون على المؤتمر الوطني، ويعتاشون على المكائد ويؤيدون أعمال التمرد؛ ومع ذلك، عندما تصل الأزمة إلى ذروتها، كانوا يتقززون من سفك الدماء. لم يكن لدى اليعاقبة مثل هذا الوازع. تمّ القبض على تسعة وعشرين من الجيرونديين تحت تهديد الحراب، ووجِّهت لهم تهم ارتكاب جرائم معادية للثورة، وفقدوا جميعاً رؤوسهم، بما في ذلك قادتهم فيرنيغو وديكو وبريسو.

حاول فيرنيغو أن يبرر ضعفه: «لقد أخطأنا في الوقت الذي حاولنا فيه تحقيق الحرية للجميع. دعونا لا نأخذ المستقبل معنا حتى الموت، ودعونا نمنح هذه الأمة بعض الأمل».

ديكو: «وماذا سنفعل غداً في مثل هذا الوقت؟».

بريسو: «سوف نرقد أخيراً في سلام».

ربما فعلوا ذلك، لكن بلدهم لم يفعل ذلك. في غضون عام واحد، قادت ديكتاتورية حزب الجبل (اليعاقبة) الأمة إلى حرب متهورة. أصبح الوضع يائساً. وانضم الجنوب الغربي إلى غرب فرنسا في تمرد مفتوح. تمكن بعض الجيرونديين المطرودين من تكوين جيش في مقاطعة النورماندي والتوجه به نحو باريس. ثار سكان كورسيكا تحت قيادة باولي. وركز البروسيون جيوشهم على مدينة ماينتس واستولى النمساويون على مدينة فالنسيان. نزل الإنكليز في ميناء دنكيرك وغزا الإسبان قرية روسيون الفرنسية. تمّ إعدام جنرالات جيش ما قبل الثورة الكبار في السن بسبب «عدم وجود حماسة لديهم»، وتمّ تعيين الشباب مكانهم. في كانون الأول 1793، استعاد الجنرال دوغومييه مدينة تولون من البريطانيين، وقام الجنرال كليبر بالقضاء على انتفاضة شوانوري[35] في بلدة شوليه، انتصر الجنرال مارسو على البيض (الملكيين) في مدينة

35- انتفاضة ملكية أو ثورة مضادة حدثت في اثني عشر من الأقاليم الغربية في فرنسا. المترجم.

لومان، وفي الشمال، هزم الجنرال جوردان النمساويين في مدينة واتينيه. كانت أعمار هؤلاء الجنرالات المنتصرين أقل من ثلاثين سنة

في باريس، كان الناس يهتفون ويلوِّحون بالأعلام. لم ينشغل بال الزعيمين الكبيرين بالتصدي للأخطار الخارجية، ولكن بالصراع على السلطة الذي تنامى في المؤتمر الوطني. والشيء المؤكد تماماً، أنه كان هناك شخصان قاسيان للغاية، مهووسان بالسلطة، وكان من المحتم أنهما يتجهان إلى مسار تصادمي. وفيما اعتمد دانتون في قوته على سكان أحياء المدن أو الكوميونات، استند روبسبيير في قوته على نادي اليعاقبة وقوة لجنة السلامة العامة (Comité du Salut Publique). وبجعله هذه اللجنة أداة له بدأ يحفر قبر دانتون. هذه المرة أثبت روبسبيير أنه أكثر كفاءة. ولأنه كان من الصعوبة بمكان أن يتمكن من توجيه تهمة مناهضة الثورة إلى دانتون، فقد كان عليه خلق قضية مختلفة. وفي عملية كانت بمثابة بروفة لاعتقال دانتون، قُبِضَ على أنصاره، واتهموا بأعمال غير أخلاقية، وأرسلوا إلى المقصلة. أدّت «القضية اللاأخلاقية» هذه إلى الخطوة التالية. وبمساعدة سان-جوست، بدأ المثل الأعلى للفضيلة بتوجيه الاتهامات: «يحيط دانتون نفسه بعناصر غير شريفة. كيف يمكن أن يعهد إلى رجل، بعيد هكذا عن الأخلاق، قيادة الكفاح من أجل الحرية؟».

توسل أصدقاء دانتون به كي يشنّ هجوماً مضاداً أو يفرّ من البلاد. رفض اقتراحهم برد نموذجي يليق به: «أنا لا أحمل (patrie) الوطن بين أخمص قدميّ».

أطلق سان-جوست الشرارة الأولى. وطالب لجنة السلامة العامة (والتي يمكن مقارنة قوة السلطة التي تملكها مع سلطة مجلس الشيوخ الأمريكي) باعتقال جورج جاك دانتون بتهمة الخيانة العظمى، لكونه ساعد وحرّض أعداء الجمهورية. وادعى أن دانتون قد تواطأ في عملية انشقاق الجنرال دوموريز وانضمامه إلى النمساويين. من بين أعضاء

اللجنة العشرين، لم يجرؤ سوى اثنين على رفض طلب سان جاست. لقد كان عملاً شجاعاً ولكن متهوراً قادهم إلى المقصلة.

جاءت المجموعة المكلفة باعتقال دانتون في منتصف الليل. عندما سمع خطاهم في الفناء، قام بتقبيل زوجته لويز مودعاً إياها. كانت باريس في حالة من الهيجان إثر اعتقال ابنها الثوري الأكثر جرأة وصديق دانتون، الشاب الشجاع كامي ديمولان، الذي حرّض الباريسيين على اقتحام سجن الباستيل قبل خمس سنوات. مع اعتقال دانتون أصبح أتباعه بلا قائد وتمّ التغلب عليهم بسهولة من قبل النظام السلطوي لروبسبيير ولجنته للسلامة العامة. أما النواب الضعفاء في المؤتمر الوطني، فقد انكمشوا مرتعدين حيث أصبحوا تحت تهديد مزدوج من روبسبيير وسان–جوست. تجرأ اثنان فقط من النواب وهما تاليان وليجاند، على التحدث (وتاليان هذا سيلعب في وقت لاحق دوراً حيوياً)؛ وقد قوبل تحذيرهم بصمت خجول. إذا كان جزءاً صغيراً فقط من النواب قد تصرف في ذلك الصباح، فإن معظم رؤوس البقية ستبقى على أعناقهم خلال الأشهر الثلاثة المقبلة.

تلا سانت جوست وثيقة الاتهام:

أيها المواطنون لقد تمّ اكتشاف مؤامرة دنيئة لإسقاط الجمهورية قام بها مهاجرون من مدينة كوبلنتس[36] والأسوأ من ذلك، أنهم يتلقون المساعدة من داخل هذه الجمعية، [وبذلك تمّ الربط بذكاء بين دانتون وانشقاق الجنرال دوموريز]. يجب ألا تمس هذه المؤامرة مسعانا المقدس مرة أخرى. يجب أن نتأكد من أنه لن يبقى أحد بيننا سوى الوطنيين الحقيقيين. لا يمكننا بناء جمهورية تقوم على المجاملات، ولكن يجب أن تقوم على أسس صارمة للغاية ومع أقصى قدر من التشدد ضد أولئك الذين خانونا. وأقول، يجب معاقبة جميع المجرمين، أياً كان منصبهم.

36- هذا يبيِّن مدى ضعف هذه الاتهامات. كان دانتون في الواقع هو الشخص الذي أرسل الملك إلى حتفه. كانت مدينة كوبلنتس هي مركز نشاط أنصار الملكية.

حمل كلامه نغمة شحذ السكاكين.

بالنسبة لمحاكمة دانتون، قام المتآمرون بتعيين شخصهم المفضل المدعي العام الثوري أنطوان فوكييه - تانفيل وهو الرجل الذي طارد الملك والملكة حتى الموت، وكما كان متوقعاً، لم يستقبل دانتون التهم الملفقة ضده عن طيب خاطر بل واجهها قائلاً: «أنا، دانتون، سوف أكشف القناع الآن عن ديكتاتورية تكشف عن وجودها...». قرع رئيس المحكمة جرسه ليقاطعه، لكن صوت دانتون الذي كان يجأر به كان يتخطاه ويصل مباشرة إلى الشارع، حيث الحشد الهائل الذي تجمع أمام المبنى. «أطلب من الشخص الذي اتهمني أن يتقدم إلى الأمام. فليظهر نفسه». كان دانتون ما يزال تحت الانطباع بأنه كان في مواجهة سان-جوست. «أنت، يا سان، ستجيب عن افترائك»[37] على أثر كلمات دانتون المليئة بالتحدي، انطلق الجمهور في تصفيق حاد.

كان دانتون، يتكلم بطريقة يفهمها الناس، وقاطع المدعي العام فوكييه-تانفيل.

أشار دانتون بإصبع سبابته الممدود إلى الجمهور. «اسألهم. اسأل الناس. إنهم يعرفونني». قوبلت كلماته بتصفيق أشد. «الشعب الفرنسي، هو الذي سيحكم عليّ بعد أن أوضح كل شيء لك ...»

في هذه المرحلة، أصيب فوكييه-تانفيل بالذعر. كان يعلم أن دانتون سيقوم في الواقع بذكر الأسماء، وأن المؤامرة المناهضة لدانتون كانت معرضة للفشل بسبب هذا الخطيب ذي الصوت «الجهوري». كان دانتون ببساطة خطيباً رائعاً للغاية وكان لا بدّ من تكميم فمه. صاح المدعي العام قائلاً: «Citoyen le president» أيها المواطن رئيس المحكمة «ملوحاً بذراعيه مثل طواحين الهواء لجذب انتباه المحكمة. وعلى النقيض من أي قانون ساري المفعول، طالب رئيس المحكمة بتأجيل الجلسة.

---

37 تظهر معلومات تفصيلية عن تلك الفترة أن دانتون ما زال لا يدرك من هو الشرير الفعلي.

ولتخوّفه من سير مجريات الأحداث، كان سان-جوست قد انسل خارجاً ليتباحث مع مستشاره.

في مواجهة كارثة وشيكة، تآمر كل من سان-جوست وروبسبيير للتخلص من وهم إجراء محاكمة عادلة من خلال تصميم قانون شرير لدرجة أنه ظل مَعلماً للظلم. عندما تمّ كشف البعد الكامل لمخططهم، فإن نذالتهم يجب أن يتمّ تذكرها كونها تمثل غدراً يستحق عقوبة أكبر من رعب المقصلة نفسها. عاد سان-جوست بسرعة ليوجّه خطبة رنانة إلى أعضاء المؤتمر الوطني: «أيها المواطنون، لقد نجوتم للتو من خطر جسيم. لسنا بحاجة إلى دليل آخر. فالتحدي والاتهامات البغيضة التي يوجهها المتهم [دانتون] ضد الممثلين المنتخبين لهذه الأمة تكفي لإثبات ذنبه»، ثم أجبر النواب المرتعدين من الخوف على القيام بخطوة عرفتها الأجيال اللاحقة باسم قانون 22 بريريال (10 حزيران)، وهو مرسوم لا يزال فريداً من نوعه في تاريخ التشريعات القانونية. وهو منع المتهم من حقه الأساس في الدفاع، حيث نص على أن الاتهام يعادل الإدانة. عندما قرأ رئيس المحكمة هذا القانون الجديد، أدرك دانتون أنه قد هزم. عندها فقط أدرك هوية خصمه العنيد الذي يقبع في الظل. زمجر دانتون صارخاً بأعلى من صوت جرس رئيس المحكمة: «يا روبسبيير اللعين، بقدر ما أنني على يقين من أنني سأموت هذا اليوم، فأنا متيقن أيضاً أنك ستتبعني إلى المقصلة!»

في تلك الليلة، خاطب روبسبيير أعضاء نادي اليعاقبة[38] لتبرير قانونه غير العادل: «كان دانتون من أخطر أعداء الوطن، فقد كان يعدّ مواطنينا بالإخلاص فيما هو يدفن ثقتهم بالدسائس والمكائد. كان يضحك عندما يسمع كلمة «الفضيلة». لقد تمّ تأسيس محكمتنا الثورية لمساعدة

38- كان النادي السياسي الأكثر نفوذاً خلال الثورة الفرنسية. وكانت نشأته على أيدي النواب المعادين للملكية، نما النادي إلى حركة جمهورية على الصعيد الوطني، تقدر عضويتها بحوالي نصف مليون أو أكثر. المترجم.

الثورة، وليس لإبطاء مسارها من خلال التكتيكات الدفاعية الصاخبة. أولئك الذين يمثلون أمامها مذنبون بجريمة واحدة فقط، وهي الخيانة العظمى. وهناك عقوبة واحدة فقط لها، وهي الإعدام».

اجتاحت باريس نوبة من الهيجان المروع (Grand gibier ce soir): هناك طريدة كبيرة هذه الليلة، وتجمعت الحشود حول آلة الطبيب جيوتن[39]. ظل دانتون حتى آخر لحظة كما كان دائماً، جريئاً ومتكبراً. في رحلته الأخيرة، في عربة السيد سانسون، لاحظ طفلة جميلة وهي تبكي فقال: «من المؤسف أنني لا أستطيع أن أطعن هذا المخصي روبسبيير». توقفت العربات التي نقلت دانتون وديمولان أمام اثنين من الأعمدة الخشبية المنتصبة. عكست شفرة الآلة أشعة شمس الغروب، وهي تميل منخفضة عبر حقول الإليزيه (Champs Élysées) وبجوارها انتصب تمثال هائل من الجص هو تمثال الحرية. عندما اختطف دانتون نظرة أخيرة إلى النصب الذي ساعد هو نفسه في وضعه هناك، هزّ رأسه بيأس. ومن دون لحظة تردّد واحدة، تسلق السلم الشاهق المؤدي إلى المنصة المرتفعة. ربما، جنح خياله للحظة من الزمن، إلى لويس السادس عشر وماري أنطونيت اللذين أرسلهما إلى هذه الآلة القاتلة. وألقى بنظرة من قمة المنصة نحو الجماهير الصامتة، التي سيطرت عليها حراب أفراد الحرس الجمهوري، استدار دانتون نحو السيد سانسون، الشخص الوحيد في البلاد الذي لم تتمّ مناداته بكلمة مواطن (citoyen): «اعرض رأسي على الناس. إنه يستحق ذلك تماماً». ثم هوى النصل على رقبته.

استمر الإرهاب الذي أعقب وفاة دانتون لمدة ستة عشر أسبوعاً؛ ثلاثة أشهر من إراقة الدماء العشوائية والخوف والاتهامات والإدانات. وبمنطق لا يرحم، جلب روبسبيير المحامي اللاهوتي الموت إلى نظامه السياسي. فحتى يوم سقوط دانتون، كان قد تمّ قطع رأس 116 شخصاً

39- المقصلة. المترجم.

فقط؛ ولكن بعد ذلك تمّ إرسال ثلاثة آلاف شخص إلى المقصلة. تمّ الاحتفاظ بسجل دقيق لجميع عمليات الإعدام اليومية، لكنه لم يأخذ في الاعتبار عمليات قتل الآلاف من الأشخاص التي ارتكبت في المقاطعات والبلدات النائية، مثل نانت وليون. كان أول من ذهب إلى المقصلة هم السياسيون الذين كان يرسل كل منهم الآخر إليها لينجي رأسه منها. ومنذ ذلك الحين، كانت عربات الموت تقدم باستمرار قائمة يومية بأعداد متزايدة. (كانت توجد في المطاعم، بجانب قائمة الأطباق التي تقدمها، قائمة بضحايا ذلك اليوم). حوكم عدد من العلماء، مثل: أنطوان لوران دو لافوازييه، أبو الكيمياء الحديثة، ومخترع المفردات الكيميائية والنظام المتري، مع عبارة بسيطة: «الجمهورية لا تحتاج إلى علماء». الضحية الأخرى كانت هي عالم الرياضيات العظيم والفيلسوف، الماركيز دو كوندروسيه الذي عانى من المصير نفسه.

وألقي القبض على أندريه شينيه، وهو شاعر ليبرالي، في قضية اشتباه بهويته. حيث كان المقصود بالحكم هو أخوه. لكن اعتقال أحدهم أفضل من لا شيء: «لقد وجدناه، ولم نجد أخاه»، وكانت حقيقة اعتقاله وحدها كافية لإرساله إلى المقصلة. كثيراً ما كانت عمليات الذبح لا مبرر لها لأنها كانت عشوائية. قُتلت الأرملة مايِيه (Mayet) في دفعة من خمسين شخص فقط لمجرد أن شخصاً ما اتهمها بأنها مدام دي ماييه (Maillet) (وكلاهما ينطقان بالصيغة نفسها)، وهي سيدة من الطبقة الأرستقراطية. رفض المدعي العام فوكييه تنفيل نداء العفو عنها لكونها بريئة وعلق بعبارته: «بما أنها وصلت إلى هنا، فإننا سنعدمها أيضاً». لحق مصير مماثل بمدام كوتييه (Quetier)، وهي ربة منزل تشاجرت مع زوجها لكي يعطيها المال من أجل شراء مغزل جديد (كلمة المغزل بالفرنسية هي rouet) وقد قطع رأسها لكونهم اعتقدوا أنها امتدحت الملك (كلمة الملك بالفرنسية roi) وكلا الكلمتين لهما اللفظ نفسه.

أصبح قصر كونسييرجيري محطة توقفهم النهائي قبل الوصول إلى المقصلة. ولغرض التعامل مع الأعداد المتزايدة من السجناء، تمّ استخدام ساحة مسيّجة كمنطقة احتجاز. وصل الوضع داخل السجن المحصن إلى حدّ لا يوصف[40]. حُشِرَ المئات في زنزانات من دون تهوية، مع عدم وجود مراحيض أو مياه كافية. وكان من يطلب ذلك يسخر منه سجانوه قائلين: «لست بحاجة إلى ذلك، فمصيرك الموت». كان السجناء يتقاتلون فيما بينهم للحصول على مكان للنوم؛ تجمعت النساء الأرستقراطيات إلى جانب صبيان الأزقـة، يتقاسمن معهم البراغيث ورائحتهم. جُرِّد اللصوص النبلاء من قمصانهم وأحذيتهم. ولكن ما جعل الأمر لا يُطاق هو الخوف من المجهول الذي أطبق عليهم، والانتظار يوماً بعد يوم متى سينادون باسمهم. أصبح البقاء على قيد الحياة في ظل هذه الظروف أمراً لا يُحتمل منطقياً. بالنسبة للكثيرين أصبح نطق أسمائهم، بمثابة باعث على الارتياح. عندها يعرفون أن تعذيبهم الذهني انتهى أخيراً، لأنهم كانوا في القائمة في ذلك اليوم. كانت لحظات وداع السجن دائماً مثيرة. يُفْصَل الأزواج عن زوجاتهم وتُفرّق الأمهات عن أطفالهن. أدّت المحاكمات إلى زيادة هائلة في النشاط البيروقراطي، وتدقيق وشطب الأسماء، وتنظيم سجلات للممتلكات المصادرة. كان يسمح للمدانين الاحتفاظ بزوج واحد من الأحذية وقطعة من الملابس الخارجية. وقد جرّدتهم النسور البشرية التي كانت تحيط بالقبور حتى من ذلك وبيعت «قمصان السيدات» في السوق السوداء. وأمر روبسبيير، الذي لم يعجبه أنه أصبح متفرجاً لاإرادياً على الموكب اليومي لعربات الموت المارة بجوار نافذته، إلى نقل المقصلة إلى مكان آخر هو Place du Trône (الذي بات يعرف باسم ميدان الأمة).

انطفأت الأضواء في مدينة النور. وهجر المرح ومظاهر الحياة مدينة

40- هناك عدد قليل من الروايات الفعلية عن تلك الأيام لأن عدداً قليلاً جداً من السجناء عاشوا ليحكوا عنها.

باريس. وماتت الثقافة وهي واقفة. وفيما يخص المسرحيات التي ألّفها (الملكي) «موليير» والمشاهد الساخرة التي قام بتأليفها «فولتير» فكان يتمّ حظرها أو تغييرها لتقدم رسالة ثورية. وجد الناس ملاذهم في شرب الخمر؛ تمكن شخص سكران من التسلل داخل قاعة المحكمة وصاح: «(Vive le Roi) عاش الملك» وسقط من الشرفة ميتاً. كانت أكثر الكائنات حقارة من بين جميع المخلوقات هن «tricoteuses» (الحائكات) اللواتي كن يجلسن قرب المقصلة وهن يقمن بالحياكة ويهتفن عندما تقع رؤوس المعدومين في السلة[41]. أشعل الموت جنوناً جنسياً، تمّ التعبير عنه فيما بعد بنوبات من الشهوات الجامحة. نشأ طقس جديد وهو وجوب حضور «العشاء الأخوي»، حيث كان على الجميع كلّ في دائرته[42]، أن يحضر ويجلب معه الطعام. إذا لم يحضروا ما يكفي، فإنهم قد يسيئون إلى رئيس الحي الذي كان من حزب اليعاقبة، وإذا جلبوا الكثير سوف يتهمون برغبتهم في تخزين الأغذية. كان عليهم أن يحيطوا بعضهم البعض بأذرعهم ويغنون فرحين كما لو كانوا في حانة كبيرة في ميونيخ، وكان كل ذلك يتمّ مراقبته من قبل مخبري روبسبيير.

«السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة تفسد بشكل مطلق للغاية». يمكن تفسير «ثلاثة أشهر» من حكم روبسبيير (النزيه) من خلال هذه العبارة. وقعت لجنة السلامة العامة، وهي أداته لتحقيق الإرهاب، في حالة من الفوضى. كان اثنان من أهم أعضاء اللجنة، وهما سان-جوست وكارنو، على خلاف. وتآمر وراء الكواليس شخصان آخران، هما كولو ديربوا وبيلو-فارين. استفاد روبسبيير من انقساماتهم ليجعل نفسه ديكتاتوراً بلا منازع. واستخدم سان-جوست ومساعداً آخر له، وهو كوثون الأعرج، لتهيئة إرسال مجموعة جديدة من المتهمين إلى المقصلة. ضمن ما بات يُعرف باسم (القائمة).

41- من وصف للكاتب أبي كاريشون لحادثة إعدام دوقة نويليه.

42 تقسيم إداري فرنسي يشبه الحي. المترجم.

كـان المسـعورون (enragé) وأولئـك الغوغـاء الوقحـون من اللامتسـرولين (sans-culottes)، يشـكلون تهديـداً لأي شخص في السـلطة. ورغم قلة عددهـم، كانـت استراتيجيتهم الأساسيـة تقوم على الاستفـزاز. حتـى بعـد أن اختار قائدهـم جـاك رو أن يقتل نفسـه بدلاً من أن يصعـد السـلم نحو المقصلـة، استمر أتباعه علـى أن يكونوا مزعجين ومزعزعيـن للأمـن لدرجـة أنـه لـم يكـن أمـام النزيـه l'Incorruptible (المقصود روبسـبيير) أي خيار سوى مواجهتهم. أدى اكتشاف جاسوس يعمل لصالح روبسـبيير من بينهم إلى بـثّ إشاعة عن وجود قائمة سوداء بأسماء أشخـاص معينين. بمجرد أن تمّ زرع الفكرة القائمة في أذهانهم، ازدادت الشكوك في أوساط المتطرفين. بدأ الإجهاد يظهر بشكل واضح على روبسـبيير، وبدأت أعصابه تتوتر. كان كل ما يحتاجه الأمر هو رجل ذكي وماكر للإطاحة بالطاغية. وقد وصل مثل هذا الرجل إلى باريس في اليوم التالي لوفاة دانتون.

لا يُعرف سوى القليل عن جوزيف فوشيه، أحد أروع الشخصيات في الثورة. كانت الدسائس هي سبب وجوده. كان مسؤولاً إلى حدّ بعيد عن وفاة لويس السادس عشر كما هي مسؤوليته عن سقوط نابليون. كان أستاذاً في المناورات في ست حكومات متتالية، من العائلة المالكة إلى الجمهورية، من الطاغية إلى الإمبراطور ومن ثم العودة إلى الملوك، وخان جميع من تعهد لهم بالولاء. عندما واجهه نابليون: «آه، فوشيه، ألم تكن أنت من صوّت لصالح موت ملكك؟»[43]، فأجابه وزيره، الذي أنعم عليه بلقب دوق أوترانتو: «هذا صحيح، مولاي، وكانت تلك أول خدمة قمت بها لجلالتك».

راقب فوشيه الصراع على السلطة بين دانتون وروبسبيير من مسافة

43 وكان من المقرر إعلان التصويت النهائي على حكم الإعدام الصادر في حق لويس السادس عشر بصوت عال من قبل كل نائب. وهذا كان لفصل الحمائم (الملكيين) علناً عن الصقور (الجمهوريين).

آمنة من مدينة ليون. وعلى مدى عدة أشهر، شهدت هذه المدينة الواقعة على نهر الرون تمرداً مفتوحاً ضد إملاءات اليعاقبة الباريسيين، صدرت الأوامر إلى فوشيه بالإشراف على قمعها. في شتاء عام 1793، استُدْرِج الآلاف من أبناء مدينة ليون إلى خارج بوابات المدينة وقتلوا بنيران المدافع. أُلقيت جثثهم في نهر الرون لتطفو في اتجاه مجرى النهر لتبعث رسالة تحذير مروعة. تمّ محو مركز المدينة وفق منطق مميت: «لا شيء سوى استخدام الرصاص يمكن أن يمثل التعبير الكامل عن القدرة الكلية للشعب»[44].

بالنسبة لشخص يدبر المكائد بدم بارد مثل فوشيه، كان الحديث عن فضيلة إنسانية أشبه برواية حكاية جدات قديمة. وهذا هو السبب في أن لجنة السلامة العامة قد عيّنته مع كولو ديربوا للإشراف على تطبيق «القدرة الكلية للشعب». كان فوشيه يحتقر روبسبيير. مع إعدام دانتون، الذي كان يشاطره أفكاره الرئيسة، عرف فوشيه أنه سيكون التالي في قائمة الإعدام، وأن الوقت قد حان ليقوم بضربته. في اليوم الذي عاد فيه من باريس، اختفى من المشهد العام ليعمل بجد من وراء الكواليس. وبأقصى قدر من المهارة استخدم أسلحته الرئيسة: المباغتة والمكيدة.

تلقى روبسبيير الصدمة الأولى عندما اكتشف أن جوزيف فوشيه قد أقام عدة تحالفات ليجعل نفسه رئيساً منتخباً لنادي اليعاقبة. بدأ روبسبيير يصبّ اللعنات على نفسه. لقد استهان كثيراً بتقدير إمكانيات هذا الخصم. أولاً جعل اليعاقبة يطاردون فوشيه؛ بعد ذلك دعا إلى تنظيم مهرجان للاحتفاء بالإله (Féte d'Être Suprême)[45] والذي مثّل فيه الشخصية الرئيسة، ليس باعتباره رئيساً للجنة السلامة العامة الملطخة أيديها بالدم[46]، ولكن في دوره الجديد كحاكم ديكتاتور. أقيمت احتفالات كبيرة في حدائق قصر

44- عن إدوارد هيريوت Lyon n'est plus.

45- وهذا الاحتفال كان جزءاً من عبادة الإله وفقاً للديانة الربوبية الوطنية. المترجم.

46- كان اليوم الذي جرى فيه المهرجان أيضاً هو اليوم الوحيد الذي لم تستخدم فيه المقصلة في عهده الدموي.

التويلري. ارتقى روبسبيير هرماً مصنوعاً لأغراض المهرجان وسط هتاف حشد من الغوغاء المسعورين. وقف لوحده وكان بارزاً بوضوح، في القمة باعتباره كبير كهنة المهرجان. لم يلتزم بالحكمة القديمة القائلة بأن «من يبرز رأسه فوق بقية الرؤوس يكون عرضة للقطع» وفي رمزية فريدة من نوعها إلى الأزمنة الثورية، أضرم النار في تمثال يرمز إلى الرياء والنفاق. ثم ارتفعت صيحات الحشود (اووه) و(اااه) عندما ارتفع من وسط الرماد تمثال جديد، يمثل الحكمة والفضيلة[47]. وكان هذا الحدث يشير إلى مراسم تتويج الطاغية. الذي مات بعد مرور شهر واحد.

عندما مرّر روبسبيير قانون 22 بريريال فإنه عزّز من طغيانه. وقد نص هذا القانون المعيب على أنه: «لا يحق للمتهم استئناف الحكم في قضيته إلّا بعد أن تنظر لجنة السلامة العامة ولجنة الأمن العام في القضية». وهكذا تُرك القرار بالنسبة إلى من يجب أن يوجّه الاتهام إلى اللجنتين. وبما أن روبسبيير كان يسيطر على اللجنتين، فإنه لم يكن آمناً من الملاحقة القضائية فحسب، بل كان بإمكانه أيضاً أن يقرّر نتيجة المحاكمات. لم يحظَ هذا التهديد القاتم لسلامتهم الشخصية بموافقة النواب. فلم يكن أحد متأكداً من أنه لن يكون التالي في «القائمة». هذا الخوف صبّ في مصلحة فوشيه. وعن طريق استغلاله، قام بتوحيد أولئك الذين كانوا معاديين لبعضهم البعض. كان يكمن مفتاح مخططه في وجود رجلين، هما كولو ديربوا وبيلو- فاران، وهما عضوان في لجنة السلامة العامة. وقد جازف بالقول: «عندما تسلمون رأسي إلى روبسبيير، من سيكون هناك ليحميكم؟» بمجرد انضمامهما إلى المؤامرة، لن يستطيعا التراجع. كان الوقت قد بدأ ينفد، لقد أعلن روبسبيير عن وجود تهديد ينذر بسوء في نادي اليعاقبة: «يجب على جميع المواطنين الطيبين أن يكونوا حذرين من المكائد». وقد شدّد في لهجته على كلمة «جميع». كانت المواجهة على وشك أن تبدأ.

47- الرسام ديفيد، الذي سيصبح فنان البلاط في عهد نابليون، هو من صمم التماثيل.

السلامة العامة. عمل سان-جوست كثيراً، وخطّط للمواجهات الحاسمة التي كان يعرف أن الصباح لا بدّ وأن يجلبها معه.

كان المتوقع أن يكون يوم التاسع من ترميدور من السنة الثانية (الذي صادف 27 تموز 1794) حاراً ورطباً. كانت هناك غيوم كثيفة تحوم فوق باريس. قبل افتتاح الجلسة بوقت طويل، امتلأت قاعة وشرفات مبنى المؤتمر الوطني وفاضت بالنواب والصحفيين والمؤيدين؛ وقد انضم الصاخبون والفضوليون إلى الحشد. إستخدم فوشيه ورقته الرابحة. وقام بتدبير عملية ترشيح كولو ديربوا رئيساً لجلسة ذلك اليوم. دخل روبسبيير، يرافقه سان-جوست وكوتون، إلى المبنى وسط هتافات من أنصار حزب الجبل. (كانت هذه إشارة إلى ترتيبات الجلوس: خصص الطابق الأرضي للنواب الليبراليين وكانوا يعرفون بحزب السهل، وجلس اليعاقبة المتطرفون على الدرابزين، وكان يطلق عليهم حزب الجبل). ولوح روبسبيير بحماسة، واثقاً من انتصاره الوشيك، واتخذ لنفسه مقعداً في منتصف مقاعد حزب السهل، أو الوسط؛ للحصول على دعم إضافي من المعتدلين المترددين. كانت خطته تستلزم توقيتاً دقيقاً. كان سان-جوست يقوم بمهمة «التهيئة» قبل أن يشنّ روبسبيير هجومه على فوشيه ومؤامراته.

من تلك اللحظة، بدأت تتكشف الأحداث بسرعة البرق. تقدم سان-جوست إلى المنصة، ولكن قبل أن يتمكن من نطق كلمة، صرخ تاليان: «أنا أطلب الحديث!» فوجئ سان-جوست بهذه المقاطعة لحديثه. عندما استرد صوته، قطع عليه الطريق رئيس الجلسة كولو ديربوا بجرسه. وبطريقة فظة، دنا تاليان الضخم من سان-جوست وهو في المنصة وصرخ عالياً: «أنا أطالب بأن تكون الإجراءات علنية». عندها نهض شركاء تاليان في المؤامرة وبدؤوا يرددون: «علنية!» قبل أن تتاح الفرصة لسان-جوست أن يتكلم، أخذ بيلو فاران مكان تاليان. وأشار إلى روبسبيير: «هذا الرجل يخطط لقتل أعضاء المؤتمر الوطني!»

صرخت مجموعة من مؤيدي فوشيه المنظمين جيداً: «(À bas le tyran!) يسقط الطاغية!»، مما أدى إلى حدوث ارتباك بين صفوف نواب حزب الجبل ودعم خجول من نواب حزب السهل.

أظهرت خطوة فوشيه المفاجئة أنه بعد كل الذي جرى كانت هناك فرصة لإنقاذ أعناقهم. أما التائهون، أولئك الذين كانوا يصوِّتون دائماً حسب الطريقة التي تجري فيها رياح السياسة، فقد انضموا إلى جوقة الذين يصرخون «يسقط الطاغية». فقد روبسبيير صوابه كان يطبق يديه ويفتحها. كان في حالة من اليأس وهو يرى تحالفاته تتفكك. ومن أجل إنقاذ رؤوسهم، بدأ بعض اليعاقبة في تبديل المعسكر الذي يدعمونه. استل تاليان خنجره، وبدأ يلوح به بأداء تمثيلي فوق رأسه وهو يصيح «(À bas le tyran!) يسقط الطاغية!».

قفز روبسبيير متجهاً نحو المنصة، ولكن منعه جدار من المتآمرين من أعوان فوشيه. وعندما صرخ ضاع صوته وسط صوت جرس رئيس الجلسة. ساد القاعة هرج ومرج. كان جميع النواب يصيحون سواء من كانوا في الطابق الأرضي أو في الشرفات، ويدقون الأرض بأقدامهم، كان الرئيس يصرخ ويهزّ جرسه. ازداد دق الأرض بالأقدام وتحوّل إلى ما يشبه دق الطبول، ومن ثم تحول إلى تصفيق متناغم ترافقه هتافات يسقط الطاغية (À bas le tyran) وبأنفاس متقطعة وشفاه مزرقّة، ظل روبسبيير يكرر نداءه اليائس: «اسمحوا لي أن أتكلم، واسمعوني». لكن صوته لم يكن أعلى من الضجة. بدأ رنين جرس رئيس الجلسة كولو يؤدي غرضه في النهاية وانخفض صوت الضجيج. كان روبسبيير، الذي كان يوازن بين كلماته بعناية كبيرة، غاضباً من تحوّل الأحداث. وكانت الكلمات الأخيرة التي كان يقولها أمام النواب هي: «(Donnez moi la parole, Président des Assassins) دعني أتحدث، يا زعيم القتلة». هذه الإهانة، ووصف نواب المؤتمر الوطني بأنهم مجموعة من القتلة المأجورين، تمت الإجابة عليها بصوت واحد اخترق

الضجيج مثل صافرة إنذار. «أنت القاتل وإن أشباح دانتون وديمولان تطاردك»!

صاح تاليان: «هذا الوحش أهان نواب الشعب».

«(À bas le tyran!) يسقط الطاغية!»

صعد، نائب آخر، وكان لوشيه على مقعده، ولوّح بيده لتهدئة الحشد، ثم قال الكلمات التي لم يجرؤ أحد على أن يتلفظ بها ولكن الجميع كان يتوق إلى سماعها: «أنا أطالب باعتقال روبسبيير!».

«اعتقاله!» علت أصوات هادرة من نواب حزبي السهل والجبل. وفي خدعة خفيفة لإضفاء شرعية مفترضة على أمز الاعتقال تمّت الدعوة للتصويت عليه، وجد الرئيس الكثير من الأيدي مرفوعة مما جعل العدّ غير ضروري. لم يكن هناك امتناع عن التصويت؛ حتى اليعاقبة أعوان روبسبيير تخلوا عن زعيمهم. أحاط بـ«النزيه» ظلام داكن في منتصف النهار؛ كان يحدق بعينيه وهو لا يصدق أنه يقترب من الموت. ارتفعت الضوضاء. وبدأ كولو ديربوا يقرع جرسه بشكل محموم: «لقد أصدرت أمراً بالاعتقال الفوري للمتهمين بالخيانة: روبسبيير، وسان-جوست، وكوتون...» لقد تمت الإطاحة بالطاغية.

وسرعان ما انتقل التوتر الذي سيطر على جلسة المؤتمر الوطني إلى بلديات باريس. أوفد اليعاقبة رسلاً إلى الأحياء لتجميع «مجموعة من الرجال والنساء الأقوياء» في(Place de la Maison-Commune) (مقر الكومونات) وبدعم من مدافع الحرس الوطني، سيهتمون قريباً بأمر نواب المؤتمر الوطني المتمردين. كان يقودهم، فرانسوا هنريوت، الجنرال في الحرس الوطني في باريس، وكان شخصاً متبجحاً وسكيراً على الدوام. بدأ حياته المهنية العسكرية كخادم لضابط ملكي قبل أن يعمل قاتلاً مأجوراً لصالح جان بول مارا. وبطلب من مارا قام في حزيران 1793، بجمع حشد غوغائي لاقتحام مبنى المؤتمر الوطني، والإطاحة بالجيرونديين، وتثبيت اليعاقبة. وبعد بضعة أيام، قُتل مارا وسرعان ما حول هنريوت ولائه إلى

روبسبيير الذي عيّنه رئيساً للحرس الوطني. في الليلة التي سبقت التاسع من ترميدور، كان قد أكد لروبسبيير أنه سيوجه مدافعه نحو المؤتمر الوطني «ويقصف هؤلاء الخونة ويرسلهم إلى الجحيم».

إن ما حدث بعد ذلك لا يمكن تفسيره إلا من حيث الطبيعة المقدسة لذلك التقليد الفرنسي، وجبة العشاء. في خضم هذا الاضطراب الخطير، أعلن المؤتمر الوطني عن استراحة عشاء لمدة ساعتين! واستغل عمدة باريس، فلوريو، وهو من أتباع روبسبيير الأقوياء، الاستراحة التي استغرقت ساعتين لجمع قوة تضم الآلاف من أنصاره المسلحين احتشدوا أمام مقرّ البلدية. كان زعيم الحشد، القائد هنريوت مخموراً تماماً وغير قادر على نطق كلمة واحدة متماسكة. فقفز على حصانه وصار يعدو بسرعة، وهو يصرخ بجنون ويلوح بسيفه، واتجه إلى قصر التويلري، حيث تمّ إنزاله عن حصانه بشكل فظ، والإمساك به، ثم ألقي به في أحد المخازن.

عندما سمع فلوريو باعتقال قائد حرسه أثبت أنه أيضاً لم يكن استراتيجياً عسكرياً. فبدلاً من طلب قوة لإنقاذ روبسبيير، أرسل 200 من رجال الكومونة المسلحين إلى مبنى المؤتمر الوطني لتحرير ذلك السكير. كان النواب قد عادوا حينها من مأدبتهم واشتبكوا مع الحشد الذي جمعه فلوريو. لم يصب أحد بجروح خطيرة، لكن ذلك كان كافياً لإظهار قوة حشد باريس. تمّ إحضار هنريوت وقد كان ثملاً وسط أجواء احتفالية إلى مبنى البلدية، حيث المكان الذي نصب فيه رجال مدفعيته قطعهم الاثنين والثلاثين؛ وعدا عن ذلك، فهم لم يقوموا بأي مبادرة على الإطلاق. خلال تلك الساعات الحاسمة، كان مؤيدو روبسبيير يملكون تفوقاً ساحقاً في المدافع - وهي ورقة رابحة كان من المؤكد أنها ستحسم القضية لو كان بإمكانهم العثور على قائد عسكري يتولى المسؤولية، لأن هنريوت قد غادر خلسة إلى فندق شيفال فيرت.

بالنسبة للنواب، كان من الضروري معالجة هذا الوضع الخطير

بسرعة، خاصة وأن أولئك الذين كانوا يحرسون روبسبيير شعروا بالرعب من أولئك الرعاع الذين تجمعوا وسمحوا له بالخروج. ولذلك أصدروا مرسوماً لتعديل ميزان القوى. أعلن المؤتمر الوطني أن روبسبيير شخص خارج عن القانون؛ وهذا يعني أن أي شخص قد جاء لمساعدته سيتعرض للاعتقال التلقائي والإعدام بدون محاكمة. فوّض النواب بول باراس، مسؤولية تنفيذ القرار. تمّ إرسال البرقية الأولى إلى بلدية المدينة لاستدعاء فلوريو للمثول أمام المؤتمر الوطني. أعلن رئيس البلدية: «أنا قادم، وسأحضر الناس معي». لكن سائر الرسل حققوا نجاحاً أفضل: من الثماني والأربعين بلدية، لم تستجب سوى ثلاث عشرة فقط لدعوة فلوريو للدفاع عن مبنى البلدية، فيما اتخذت سبع وعشرون بلدية موقف المتفرج. عندما لاحظ قادة الأحياء الأخرى حدوث تغيّر في مجرى الأحداث، أعلنوا تأييدهم للمؤتمر الوطني. وبينما كان المندوبون لا يزالون غير متأكدين من النتيجة ويعيشون في رعب مستمر من حشود غوغاء باريس، فإن أولئك الغوغاء كانوا يتجولون بلا هدف وينتظرون الأوامر. وفي الوقت نفسه، تغيّرت أحوال الطقس وتجمعت السحب الرعدية فوق المدينة.

لكن أين كان روبسبيير؟ في أعظم أزماته، تغلب عليه أيضاً التعب الذي كان قد أودى بالملك إلى الهلاك. خلال هذه الساعات الحيوية من التناحر والمناورة، فإن الطاغية الذي استفاد دائماً من إخفاقات خصومه أصبح عاجزاً عن الحركة بسبب الصدمة. وفي حين أن أنصاره كانوا في انتظاره في قصر بلدية باريس Hôtel de Ville، فإن روبسبيير الخائف والمشوش رفض مغادرة ملاذه في باريس. والحشد بدون زعيم مثل دجاج بلا رأس. فقد بدؤوا بالشرب بإفراط، واندلعت معارك بينما انتشر الخبر بأن سكان الدوائر arrondissements[48] قد غيّروا ولاءهم. أهدر وقت ثمين قبل أن يصل روبسبيير، وسان-جوست

48 نوع من أنواع التقسيمات الإدارية في فرنسا. المترجم.

وكوتون إلى قصر «بلدية باريس» للانضمام إلى «فلوريو» و«هنريوت» (الذي جُرجر من الحانة التي كان يسكر فيها). نفد حظ روبسبيير مرة أخرى في هذا اليوم المشؤوم، فقد تدخل الطقس هذه المرة. هبّت عاصفة رعدية شديدة للغاية على المدينة وقد خلّدها تاليران العظيم بعبارته الشهيرة: «المطر هو ثورة مضادة». فقد أغرق الرعاع وجعلهم يهرولون نحو أقرب حانة. كانت تمطر في الخارج وكانوا يسكرون في الداخل. أما الميدان فقد كان فارغاً.

في تلك الأثناء وصل السياسي بول بارا بصحبة خمسين من رجال الدرك. لا يمكن تفسير مظاهر العنف التي حدثت بعد ذلك إلّا بعد أن يُنظر إليها في سياق الإرهاب الوحشي الذي مارسه روبسبيير على المدينة والأمة. حينها سيفعل به مثلما سبق له أن فعله بالآخرين. تمّ جمعه هو ورفاقه في غرفة في الطابق الأول من قصر بلدية باريس Hôtel de Ville، فُتِحَ الباب بقوة، ودوى صوت إطلاقة نارية، وهشّمت رصاصة مسدس فك روبسبيير[49]. سقط رأس الديكتاتور على الوثيقة التي كان قد وقّعها للتو، والتي أمر فيها الميليشيا - التي أطلق أحد أفرادها النار عليه للتو - أن تهرع لنجدته[50].

اندفع أوغستين روبسبيير، شقيقه، نحو نافذة مفتوحة وألقى بنفسه في الفناء، تكسرت العديد من عظامه في تلك العملية لكنه بقي على قيد الحياة.

سحب جوزيف ليبوا مسدساً من حزامه. توسل إليه سان-جوست: «اقتلني أولاً، mon frère. يا أخي». رد عليه ليبوا: «Pauvre con أيها الأحمق الغبي، عندي أشياء أكثر أهمية للقيام بها». رفع السلاح نحو رأسه وفجر دماغه. اختبأ كوتون الأعرج تحت الطاولة؛ وجده رجال

49- زعم أحد جنود الدرك ويدعى ميردا أنه هو من أطلق النار ولكن لم يتم إثبات ذلك أبداً.

50- هذه الوثيقة الملطخة بالدم، وكذلك الطاولة التي وقّع روبسبيير الوثيقة عليها، موجودة في متحف كارنافاليه في باريس.

الميليشيات وأنزلوه عن الدرج. وعثروا على هنريوت وكان ثملاً بعد أن خرج من إحدى النوافذ، وسقط بشكل خفيف على كومة روث حيث كان ينام كأنه في غيبوبة إلى أن سمعه أحد الدرك وهو يشخر. استيقظ بعد أن لكزته حربة أحد الجنود وتلقى ضرباً شديداً لدرجة أن إحدى عينيه انطفأت.

مع ظهور أول خيط ضوء ليوم العاشر من ترميدور (المصادف 28 تموز 1794) كان الرجال الذين أوقعوا فرنسا في قبضة الإرهاب مجرد مجموعة حزينة من الأطراف المحطمة والأوجه الملطخة بالدماء. استشعر الغوغاء هبوب رياح جديدة فسرعان ما بدّلوا مواقفهم. في المؤتمر الوطني، قدم بول بارا عرضاً تمثيلياً حينما صاح قائلاً: «الخائن روبسبيير في الخارج». هذا الإعلان جعل النواب يندفعون بالهتافات. أعلن رئيسهم: «مكانه ليس أمام هذه الهيئة الموقرة، ولكن في ميدان الثورة». استقبل إعلانه بحفاوة. وبهذه المناسبة، سيتم إعادة المقصلة إلى ساحة الكونكورد.

تمّ اقتياد روبسبيير وهو يعاني من جروح بالغة، وتمّ تثبيته على لوح خشبي، حيث كانت ذارعاه تتدلى من الجانبين فيما كانت قدماه تتكشطان وهما تمران عبر الحصى والحجارة. في لجنة السلامة العامة، وُضِعَ الخائن روبسبيير على الطاولة نفسها التي كان الدكتاتور يستخدمها وهو يتمتع بالسلطة المطلقة. اصطف حشد من الناس أمام المنظر المؤسف. كان ذقنه المهشم مربوطاً بقطعة قماش منقوعة بالدماء، فيما تدلت جواربه الحريرية على كاحليه، فيما كان يتناثر الدم على معطفه الحريري ذي اللون الأزرق الفاتح. وبات الذين كانوا بالأمس يمتدحونه وأطلقوا عليه لقب «النزيه» يلعنونه اليوم واصفين إياه «بالغول». نظر إليه رجل عجوز كان قد فقد ابنه خلال عهد الإرهاب. وقال: «نعم، يا روبسبيير، إن الله موجود».

عند الظهر، تمّ نقل روبسبيير وجلاوزته البالغ عددهم اثنين وعشرين

فرداً ليمثلوا أمام المحكمة الثورية. ووفقاً للقانون، الذي كان هو نفسه قد حرّض على إقراره لإسكات دانتون، كان المدعي العام فوكييه تانفيل (الذي كانت أيامه معدودة) لا يفعل سوى أن يقرأ أسماءهم ويدين كل واحد منهم ويرسله إلى المقصلة. «على كل متهم أن يقف. كوتون، فلوريو، هنريوت، روبسبيير، سان-جوست...» أولئك الذين لم يستطيعوا الوقوف سحبهم رجال الدرك من أقدامهم. في وقت متأخر من بعد الظهر، تمّ تحميل الأشخاص الثلاثة والعشرين في ثلاث عربات. كان في العربة الأولى سان-جوست، وكان لا يزال بوضع جيد ولم يصبه أي أذى، يرتدي بنطلوناً قصيراً بني اللون وقميصاً أبيض، منتصباً مثل منارة في بحر من اليعاقبة الذي كان يسيل لعابهم. على الرغم من أن الكثير من الباريسيين يكرهون هذه الشخصية الباردة والمتعجرفة، فإنه ذهب إلى حتفه في جو من النبل. لم ينطق بكلمة في دفاعه. مستلهماً عبارة شاتوبريان: «الصمت فقط هو الذي يمثّل العظمة، أما الباقي فهو مهانة».

كان على رجال الدرك أن يحملوا روبسبيير إلى العربة الثانية وجعله يجلس على لوح خشبي.

كانت هذه طريقة فوشيه ليظهر للناس أن روبسبيير سيلاقي حتفه فعلاً. أما العربة الأخيرة فقد وضع فيها هنريوت الذي كان يغطيه الروث. وإلى جانبه كان ينكمش مرتعداً كوتون، وهو يصرخ معلناً براءته. اتخذ الموكب الطريق الذي كان يستعمله الباريسيون كثيراً وقد أطلقوا عليه اسم Via Dolorosa فيا دولوروسا[51] أو درب الآلام في منزل آل دوبلاي، حيث تآمر روبسبيير ضد العديد من منافسيه[52]، كانت الحائكات المرعبات

51 يبدأ هذا الطريق من البوابة الرئيسة لقصر كونسيرجيري، عبر نهر السين من خلال الجسر الجديد بونت نيو، ثم على طول شارع سانت أونوريه المؤدي إلى ميدان الكونكورد.

52 خوفاً من إلقاء القبض عليه، انتقل روبسبيير إلى المنزل رقم 398 شارع سانت أونوريه، في 17 تموز 1791. يوجد مكان هذا المبنى اليوم كافيه روبسبيير Café le Robespierre.

ترقص من حول هذا الشخص المحكوم عليه بالإعدام. وحينها صرخت امرأة ثكلى بأحد أبنائها: «أيها الشيطان، ستنصبّ لعنة جميع الأمهات على رأسك». كان الآلاف قد تجمعوا في ميدان الثورة Place de la Révolution ليشهدوا نهاية الطاغية. وفوقهم كانت تلوح أداة روبسبيير الخاصة بالإرهاب: la guillotine المقصلة. كان اليعاقبة يسيرون واحداً بعد الآخر، لمواجهة الجلاد السيد سانسون. كان سان-جوست الوحيد الذي حافظ على كرامته وصعد السلم ليواجه الموت بتلك اللامبالاة الجامدة التي جعلت منه الشخصية الأكثر غموضاً في الثورة. كان على الجميع أن يحتشد فوق اللوح الملطخ بالدماء. كان من يحمل التسلسل الحادي والعشرين في «القائمة» لذلك اليوم هو l'Incorruptible (النزيه)، ماكسيميليان روبسبيير. خيّم الصمت فوق الميدان، أرخى الرجال من قبضتهم على عصيهم، ورسمت النساء إشارة الصليب: «هذا مصير الشيطان». كانت الأنظار مثبتة على المنصة المرتفعة والشفرة البراقة. تمّ سحب جسد روبسبيير المحطم فوق السلم، وكانت قدماه تتعثر في كل خطوة يخطوها. من خلال وجهه الملفوف بالضمادات، كان يمكن رؤية عينيه تحدقان في السماء الرمادية. ورغم أنه لم يكن فاقداً للوعي لكنه كان متعباً إلى درجة عدم الاهتمام بما حوله. تدلّت ركبتاه مما جعل مساعدو الجلاد يتركونه يتمدد هناك، ليمثل رمزاً للطاغية المخلوع، قبل أن يربطوه إلى اللوح الخشبي. مزّق أحد مساعدي الجلاد الضمادة المنقوعة بالدماء من فكه المحطم. صرخ روبسبيير من الألم، أشار سانسون لهم بإيماءة قصيرة... مال اللوح إلى الأمام حتى استقر بين اثنين من القوائم المصنوعة من خشب البلوط... صدر صوت مكتوم مع سقوط مثبت الرقبة الخشبي في مكانه... كان هناك تردد للحظة من الزمن... ساد الصمت التام... سحب الجلاد سانسون الرافعة وهوت شفرة المقصلة. سمع الجميع همسها. سرت تنهيدة عبر ميدان الثورة فقد سقط الطاغية في مزبلة التاريخ.

لقد أطيح بالديكتاتور الذي كان يعتبر نفسه معصوماً عن طريق انقلاب عسكري حدث بسرعة مذهلة. كان هو الذي عاش متبجحاً في باريس أيام الثورة، التي لم يشارك في صنعها. وتلك المهارة التي جعلت من «النزيه» شخصية رائعة في صفوف المعارضة وداهية في تنظيم العصيان لم تكن مناسبة للقيادة الدائمة. وقد تجاهل حقيقة أن الجمهورية، بقواها المتضاربة كانت بحاجة إلى الشرعية أكثر مما كانت الملكية بحاجة إليها. والإرهاب الذي أطلقه قبض روحه في النهاية.

كان آخر ضحايا عهد الإرهاب هو صبي في العاشرة من عمره، حكم عليه بالموت البطيء. وانتهت معاناته أخيراً في 8 حزيران 1795. في ذلك اليوم، أعلن رسمياً عن وفاة الملك غير المتوج لويس السابع عشر في سجن المعبد.

لكن لماذا «أعلن عن وفاته رسمياً»؟ لن يكتمل أي سرد لهذه المأساة بدون الإشارة إلى «لغز المعبد». ما هي الهوية الحقيقية للفتى الذي مات في ذلك السجن؟ هل كان ولي العهد، لربما كان أكثر إنسانية وضع هذا الطفل المسكين مع أمه ليتخلص من بؤسه، بدلاً من جعله يعاني من الآلام لمدة سنتين.

في ربيع عام 2000، تمّ إجراء عملية تطابق للحمض النووي بين خصلة من شعر الملكة وقطعة من قلب الصبي. وتبين أنه كان بالفعل لويس السابع عشر، ابن الملكة.

يتعلق اللغز أساساً بخمسة أشخاص. ملك وهمي يبلغ من العمر عشر سنوات؛ وسجّانه الإسكافي سيمون، وروبسبيير واثنان من اليعاقبة هما هيبير وشوميت، الذين دخلوا غرفة الملكة في سجن المعبد وأخذوا الطفل منها. وبعد أن تمّ اقتلاعه من ذراعي أمه، قاموا بحبسه في زنزانة صغيرة موبوءة بالفئران من دون مرحاض، مع لوحة مسمرّة على النافذة لمنع دخول ضوء النهار. وقد تعرض للضرب على أيدي سجانيه عندما رفض أن يغني أغنيات بذيئة، ولم يعط سوى حساء أسود كطعام له،

وترك للنوم مع برازه. حوّل سايمون الإسكافي طفلاً سعيداً ومرحاً إلى مخلوق غبي لم يعد يتكلم أبداً.

في عام 1819، تقدمت امرأة عجوز، وهي زوجة سيمون الإسكافي، وطلبت مالاً من أجل أن تروي قصة تعرفها. ووفقاً لها، قام شوميت بمساعدة سايمون وهيبير بإخراج الصبي من سجن المعبد واستبداله بطفل مريض. ألقي القبض على هيبير وشوميت بتهمة «المساعدة في إعادة تأسيس الملكية»؛ وتمّ اتهامهم بعبارة غريبة: «... تسهيل هروب ولي العهد».

في ليلة 8 حزيران 1795 توفي الصبي. قام الدكتور بالاتان، وكان طبيب الحي، بتشريح الجثة على طاولة المطبخ في غرفة الانتظار في السجن. وعندما لم يكن هناك أي شخص ينتبه، قام بلف قلب الطفل في منديل ثم أدخله إلى جيبه، قبل أن يخيط الجثة. سيكون هذا القلب محور قصة يلفّها الغموض والعاطفة. احتفظ به الطبيب في إناء من الكحول، لكنه لم ينتبه إلى أن السائل قد تبخر وأن القلب جف. وسرق مساعده، الذي توفي بعد فترة وجيزة، الإناء ولكن أرملته أعادته إلى الدكتور بالاتان. بعد سنوات، قدمه الطبيب إلى الملك الذي عاد إلى الحكم وكان عم الطفل الميت، وهو لويس الثامن عشر، لكن الملك رفض استلامه. ثم قدمه الدكتور بالاتان ليكون تحت الحراسة الآمنة لرئيس أساقفة باريس. خلال ثورة عام 1830، نُهِبَ قصر رئيس الأساقفة، وحاول أحد الموالين للملكية ويدعى ليسكروا، أن يخبئه، لكن تمّ القبض عليه من قبل أحد أفراد الحرس الوطني الذي ضربه بقسوة. تحطم الوعاء الزجاجي الذي كان يحمل فيه القلب على الرصيف لكن القلب لم يتضرر بشظايا الزجاج. تمّ نقله إلى كاتدرائية سان ديني، موقع دفن الملوك الفرنسيين. بعدها بدأ عدد من المحتالين باغتنام الفرصة، ادعى أربعون شخصاً أنهم لويس شارل دي بوربون. حُبِسَ معظمهم بتهمة الاحتيال.

أما ذلك الطفل الصغير المسكين الذي مات، فكان في الواقع هو

الملك، وقد حملت الثورة عار استشهاد هذا الطفل لأنها كانت ترتعد من فكرة أنه يمكن أن يصبح ملكاً مرة أخرى.

مات الطفل، ذلك الصبي الصغير الذي كان يهمس مع نفسه: «Toujours seul - كنت دائماً بمفردي، بينما كانت والدتي في البرج الآخر». طفل لم يُخبره أحد أبداً بأن أمه قد أعدمت.

وبعد ذلك...

انتهى عهد الإرهاب مع موت روبسبيير، ذلك الإرهاب الذي لا يمكن أن يغتفر. لم يكن روبسبيير وحده مسؤولاً عن التجاوزات التي ارتكبت باسم الفضيلة والمثالية. كان هناك، أولاً وقبل كل شيء، ملك دفع ثمن إفلاس مملكته أخلاقياً واقتصادياً. كان تقلبه ما بين الحظ وشخصيته التي تتسم بعيوب قاتلة قد تخطّت شخصيات إحدى المآسي التي ألفها الكاتب رابيليه[53]، ووصلت شخصيته إلى الحضيض مع تردده عندما واجهه غوغاء الشارع المندفعون. وقد رفض، بسبب شخصيته الضعيفة، التضحية بالقليل من أجل إنقاذ الكل، وبالتالي تسبّب في حدوث المأساة. وبسببه، سالت الكثير من الدماء. ولهذا، لم يغفر له الفرنسيون أبداً.

وكان هناك الثوار. منهم جون بول مارا، أحد الذين نبذهم التاريخ، وكان يحفزه اعتقاد وطني بأن الدم فقط يمكن أن يطهّر الواقع، وقد خلق طبقة جديدة من المواطنين - أبناء الكومونة الشعبية. وهناك دانتون، الطائش «و» الطموح بشكل متطرف، الذي برّر أعمال القتل التي قام بها عند حاجته إلى دعم ثورة هشة. وبعبارة واحدة حثّ أمة بكاملها على محو عار الهزيمة فقط لتقع ضحية لشخص حقير وطموح وغيور. وهناك سان-جوست، رئيس ملائكة المقصلة الغامض

53- كاتب فرنسي 1494-1553. المترجم.

والهادئ، الذي كان يرغب في ملء المقابر وليس السجون. وقد تحقق ما كان يتمنى. وأخيراً هناك روبسبيير، الذي برّر مكره مسترشداً بفضيلة بعض الكائنات الأسمى الغامضة، وبعض المثل العليا. على العموم كان إرهابه أقل كفاءة وفعالية بالمطلق من ذلك الذي تمارسه أكثر الحكومات الحديثة.

كتبت الثورة الفرنسية صفحة النهاية لعصر البنية الملكية القروسطية في أوروبا. وبقيت آثارها ماثلة على شكل رموز في كل ثورة حدثت لاحقاً. فقد اخترعت تطهير طبقة كاملة من المجتمع. وأوجدت المحاكم الشعبية والمحاكمات بدون دفاع، وعمليات الإعدام بدون محاكمة[54] وجميع الأجهزة الأخرى التي تشكل ما نسميه نظاماً استبدادياً. كان هناك أيضاً العديد من الجوانب الإيجابية. فقد أنجزت لجنة السلامة العامة وظيفتها. فقد أدى التجنيد الإلزامي الذي أدخله لازار كارنو[55] إلى تأسيس جيش من مليون رجل، وحوّله إلى آلة قتالية متمكنة، وقام بإنشاء أول صناعة للأسلحة الحديثة تمكنت من إنتاج أعداد كبيرة من البنادق. رفع سان-جوست من معنويات جيش الراين وتمكن من هزيمة البروسيين والنمساويين. هذه الانتصارات أنقذت الجمهورية الشابة وجعلت أقوى الممالك الأوروبية على حافة خطر الانهيار مثل بيت من ورق. ولدت جمهوريات جديدة من رحم هذا الارتباك. لقد عجلّت الثورة في حدوث أول نزاع عالمي حقيقي، وهي حروب نابليون، التي شاركت فيها الجيوش الضخمة للقوى الأوروبية الكبرى، والتي مهّدت الطريق للهيمنة البريطانية على بحار العالم.

يميل التاريخ إلى انتقاد جان بول مارا، ليتغاضى عن سان-جوست، ويضفي صفات مثالية على دانتون القذر أعلى من النزيه «روبسبيير». لقد تعوّد أن يقول: «لقد قدمت لي الجنة شغفاً بالحرية، ومن واجبي أن أرسم

54- تسببت أعمال الإرهاب بإزهاق أرواح 594.16 شخصاً.

55- سياسي ومهندس وصاحب دور عسكري وعضو في المؤتمر الوطني. المترجم.

للشعب بدم قلبي الطريق إلى السعادة والحرية». وبخلق عهد الإرهاب أراد أن يخلق عهد الفضيلة، وتحقيق السعادة من خلال العنف. وبينما كان الملك منزعجاً من فكرة التسبب في إراقة الدماء، سار روبسبيير قدماً وبجرأة إلى الأمام. إلى أن جاء اليوم الذي تمرد فيه عليه بعض أولئك الذين روّعهم. وبذلك أثبت أنه على مرّ العصور لا يستطيع أن يتسامح مع الكثير من التدخل في روتين وجوده اليومي.

واحداً تلو الآخر وقع الثوار الفرنسيون العظماء ضحية لغرورهم وعندما ارتفعوا عالياً، قُطِعت رؤوسهم.

في النهاية، «فإن الثورة تأكل أبناءها»[56].

فترة فاصلة

1809–1794

استمرت الجمهورية الفرنسية الأولى سبع سنوات. عاد النواب إلى هوايتهم المفضلة، وهي المشاحنات بعد تخلصهم من روبسبيير وعهد الإرهاب الكبير. في عام 1799، أُخْمِدت شعلة الثورة بنفحة من البارود من قبل ضابط مدفعية عبقري شاب، هو الجنرال نابليون بونابرت.

كانت مصالح نابليون معارضة تماماً لمصالح الثوار. لم يكن مهتماً بالصالح العام، لكنه أثبت أنه ديكتاتور مصاب بجنون العظمة لا يهتم سوى بسلطته الشخصية. كان يقول «السلطة هي عشيقتي، لقد بذلت قصارى جهدي للظفر بها ولن أسمح لأي شخص بأخذها مني». ولهذا الغرض، استخدم كل الوسائل لتحقيق ذلك؛ سحق معارضته السياسية. تعامل مع الناجين من الفترة الثورية من خلال نفيهم إلى الريف. لقد جعل عرفاء الجيش ملوكاً والملوك منبوذين. قام بإصلاحات مصممة

56 العبارة الأصلية قالها الثوري الفرنسي بيار فيكتوريان غيروندن، وهو من اليعاقبة تمّ إعدامه بالمقصلة في 1793: «الثورة، مثل زحل، تأكل أطفالها».

خصيصاً لتشديد قبضته القمعية، أولاً على فرنسا، ثم عبر قارة أوروبا بأكملها. حتى إنه وظف الدين لخدمة مآربه، وقد أعلن بشكل قاطع: «لا يمكن أن يوجد المجتمع دون وجود عدم مساواة، وبالتالي نحتاج إلى دين حتى نتمكن من القول: «إنها إرادة الله». ووفقاً لتعليماته، كُتِب دستور جديد، لدعم القيم الثورية مثل الأخوة والمساواة. أساليبه القمعية البوليسية تجاهلت عملياً المبدأ الثالث لأسلافه الثوريين، الحرية.

استمرت العديد من إصلاحاته الاجتماعية على مرّ القرون. مما لا شك فيه أن أعظم إنجازاته هو القانون المدني المدوّن الذي أصبح يُعرف باسم قانون نابليون والذي ما زال قيد الاستخدام حتى اليوم. وقد وضع بلده على أساس مالي متين من خلال إنشاء بنك فرنسا، وإنشاء نظام ضريبي عادل. جاب سفراؤه الثقافيون العالم (وسرقوا الكنوز المعروضة اليوم في متحف اللوفر). حققت سنواته الأولى في السلطة نجاحاً باهراً. هذا الانتصار، وتزلف الجماهير له، أسكرت رأسه. لقد كان شاباً صغيراً للغاية، وطموحاً للغاية، وكان مقتنعاً جداً بدوره الفريد في التاريخ ومقتنعاً بالنجاحات التي حققها. كانت فرنسا ضيقة للغاية بالنسبة لطموحه؛ وسعى ليصبح الحاكم الفريد لأوروبا المتحدة. وهكذا، سحق كل جيوش أوروبا في مناورة استراتيجية رائعة الواحدة تلو الأخرى. في أقل من عشر سنوات، جعل ذلك الكورسيكي المفلس من نفسه على قدم المساواة مع آل هابسبورغ أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذين كانوا يحكمون منذ (ألف) سنة تقريباً وقياصرة روسيا.

إن الخطر الذي شكّلته طموحات نابليون الواضحة تجاه المزيد من التوسع - حتى إنه حلم بإقامة إمبراطورية عالمية جديدة قائمة على ضمّ فرنسا لمقاطعة لويزيانا - ومهاراته العسكرية التي لا جدال فيها، أديا إلى قيام الحرب. في 2 كانون الأول 1805، تعرض جيش نمساوي روسي كانت قيادته غير كفوءة لهزيمة ساحقة في أوسترليتز. في ذروة مجده العسكري، كان لا يمكن لأي جنرال أن يضاهي عبقريته ولا تجرؤ أي

قوة على تحدي قوة جيوشه. استسلم الجنرالات على مرأى من عينيه، انحنى الأباطرة والملوك أمامه. حتى إنه أجبر حاكم هابسبورغ على تفكيك الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كان يبلغ عمرها 844 عاماً. ومن أجل كسر الوحدة الألمانية، كانت إماراتا فورتيمبرغ وبافاريا قد ارتقتا إلى ممالك بنعمة نابليون. وعندما كتب معاهدة السلام لعام 1806 أملى بنداً آخر: ولحماية جناحه في منطقة غاليا كيسالبينا، قام نابليون بتسليم ملك بافاريا مقاطعة نمساوية، وهي التيرول.

بدا نابليون إمبراطوراً لا يقهر. ومع ذلك، وهو في ذروة مجده برز له تحدٍّ خطيرٌ من مكان غير متوقع. لقد كانت حادثة لا تكاد تُذكر، لكن نابليون ارتكب الخطيئة الكبرى حين صنع شهيداً وجعل ألمانيا تتوحد ضده.

الفصل الثاني

13 آب 1809
«أيها الرجال لقد حان الوقت»

Månder, s’ischt Zeit!
أيها الرجال، لقد حان الوقت!
من نداء البطل الشعبي التيرولي أندرياس
هوفر 9 نيسان 1809
Himmelvåtter, s’isch de Sturmglocken:
«الحمد لله، إنها أجراس العاصفة».

سألته زوجته: «هل يتوجب عليك الذهاب إلى الحرب؟ اهتم بنفسك جيداً».

«هذا في يد الله»، أجابها زوجها المزارع وهرع إلى الوادي. ما بدأ كجدول صغير سرعان ما تحوّل إلى سيل هادر من المحاربين المتوجهين إلى القتال.

«Månders’ ischt Zeit! أيها الرجال لقد حان الوقت!». على مدى قرون عدة، كانت هذه العبارة تشير إلى دعوة رجال مقاطعة التيرول لحمل السلاح. وفي هذه المرة أيضاً. تجمّع الرجال لتشكيل سرايا من

المتطوعين، وانتظمت السرايا في تشكيلات الهاوفن Haufen[1]. وكان هؤلاء المقاتلون يصعدون المنحدرات الحادة وهم ينشدون Wir sind die heil'ge G'meind, und steh'n in Christi Huld[2] (نحن الجماعة المقدسة والمسيح معنا) لم يهابوا الصخور الكبيرة واختبؤوا وراءها، وانتظروا هناك أعداءهم وهم الفرنسيون والبافاريون، وقوات الإمبراطور نابليون الذين كان يجب أن يمروا بهذا الطريق لأنه السبيل الوحيد المتاح أمامهم، وقد تحرّكوا على طول ذلك الممر الضيق.

شعر الجنود القادمون من سهول فرنسا الخصبة وكأنهم ينحدرون نحو مركز الأرض، متغلغلين عميقاً في عالم مظلم متوحش من الأودية شديدة الانحدار والغابات الكثيفة والسيول الجارفة. وقد أدّت الانهيارات الصخرية التي حدثت سابقاً إلى وقف المرور في الطريق بشكل جزئي. كانت بعض من الوحدات الفرنسية قد استخدمت هذا الطريق من قبل. وقد صادفوا في مسيرهم أدلة واضحة على حدوث محاولة فرنسية سابقة فاشلة لاقتحام هذا الممر؛ حيث تناثرت بعض الصخور في قاع الوادي، بل وكانت هناك عظام أيضاً، وخرق من بدلات الجنود الباهتة. أكثر ما كانوا يخشونه أن تتساقط بعض الصخور فوق رؤوسهم. بسبب الانهيارات الصخرية القاتلة. كانوا يعلمون أن خلف كل واحد منهم كان هناك أحد المتمردين يحمل فأسه، وجاهزاً لقتله.

كانت أوامر الجنرال بيسون واضحة؛ فقد كان «يجب إحباط هجمات المتمردين وقمع العصيان وإبقاء الاتصالات مفتوحة عبر الممر الجبلي الحيوي». قام بإجراء مسح للمكان. كان يمتد أمامه الوادي المظلم بمياهه الهائجة التي كانت تبدو عدائية تماماً، ولكن أين كان العدو؟ لاحظ وجود خيال شخص على حافة الجرف فوقه. كان الرجل يحدّق

---

1 (Haufen) تعني «حشد» أو «مجموعة»، وهي وحدة قتالية تتألف من ميليشيات ليست بينها روابط قوية وغير خاضعة لقيادات.

2 بالألمانية في الأصل. المترجم.

في الرتل الفرنسي ورفع ذراعه مثلما يفعل الذين يؤدون التحية العسكرية أثناء جنازة قتلى المعارك.

وضع الجنرال الفرنسي يديه حول فمه ليصيح منادياً له: من أنت؟: Qui es tu? وعندما لم يرد الرجل، حاول مرة أخرى، ولكن هذه المرة بلغة ألمانية متعثرة وصاح: «WER seid ihr?».

وتردد صوت صدى عميق من المنحدرات: «أنا أندرياس هوفر، صاحب النزل الشهير!»

نزع الرجل الملتحي قبعته ذات الحواف العريضة ولوّح بها في الهواء. أزّ صوت إطلاقة، ارتد صداها من منحدر صخري إلى آخر. عرف الجنرال بيسون أن أمله الوحيد في البقاء حياً هو إصدار أمر لم يجرؤ أي من جنرالات الإمبراطور على إصداره من قبل التراجع! حتى بالنسبة لذلك الأمر كان الأوان قد فات. كان الموت يتربع فوق المنحدرات. دفنت الصخور الضخمة الفرنسيين والبافاريين. كانوا حلفاء: قاتلوا معاً، وماتوا معاً. لم تسمع هناك صرخات أو أنّات للجرحى، فلم يكن هناك جرحى، كان هناك صمت فقط، الصمت الأبدي. أظهر التيروليون أن أسلوبهم الخاص في القتال كان ملائماً تماماً لتلك التضاريس. كان نابليون يخشى من ذلك ويتوقعه عندما قال: «لا أرغب في التورط في حرب جبلية».

يعتبر أندرياس هوفر كونه ثورياً شيئاً استثنائياً. كان صاحب نزل غير متعلم قاد رعاع الفلاحين ضد أعظم عبقرية عسكرية وجيش في العالم على الإطلاق. ومن أجل ماذا؟ كل ذلك من أجل أن يحافظ القيصر المستبد على عرشه!

«Für Gott Kaiser and uner Tiroler Land! كلنا فداء الله، والقيصر ووطننا التيرول»!

قبل ثلاثمائة سنة، مُنح التيروليون حقاً خاصاً لحمل السلاح. خلق هذا الامتياز نوعاً خاصاً من الأشخاص، العنيدين، غير المنضبطين،

والفخورين بأنفسهم. أُسِّسَت نوادٍ للرماية Schützenverbaende في القرى وكانت تُقام أكبر مسابقة سنوية في لعبة الرماية في إقليم التيرول لهذا الغرض، وكان الجميع يتمرنون بجد على البندقية التي تسمى Stutzen[3] من خلال لعبة الصيد غير المشروع، التي كانت أكثر هواياتهم شعبية. وفي حالات الخطر، كان يتمّ تحويل نوادي الرماية Schützenverbaende إلى وحدات من مائة رجل. كان على كل وادٍ أن ينتخب قائده الخاص، الذي يكون عادة صاحب الحانة في القرية، حيث تجري الاجتماعات المحلية بالقرب من براميل النبيذ الخاصة بالحانة حول مدخنة دافئة مصنوعة من المرمر. كانت وحدات الميليشيا المحلية تتمتع بميزة لا يجاريها فيها أحد: فقد كانوا يعرفون بعضهم البعض وتضاريس أرضهم. والأهم من ذلك كله، كان لديهم سبب وجيه للتحول إلى مقاتلين جبليين شرسين لأنهم كانوا يحمون عائلاتهم ومنازلهم. وكانت روحهم القتالية تعوض عن أي عيب فني عند مواجهة أية قوة عسكرية مدربة. أثبتت هذه الوحدات التطوعية عبر التاريخ قيمتها كقوة دفاعية هائلة ضد الغزاة الأجانب. كانت تيرول عبارة عن حصن طبيعي من الجبال الشاهقة، ترتفع بشكل حاد من السهول الإيطالية العليا وتنتهي في وادي الدانوب في بافاريا. كان موقع الوصول الوحيد لها عند «ممر برينر». وكان الرومان القدماء قد أدركوا الأهمية الاستراتيجية لمنطقة التيرول، وقاموا بتشييد طريق، كان يتلوى مع ممرات كانت قوى الطبيعة قد شقّتها عبر صخور جبال الألب. وكل من كان يسيطر على ذلك الممر كان يسيطر على منطقة التيرول كلها.

في عام 1767، أنجب صاحب نزل زاندفرت Sandwirt ابناً[4] والنزل هذا كان في قرية سانت ليونارد في منطقة التيرول. نشأ هذا الصبي تقياً

3. ستوتزن Stutzen هو سلاح ناري، وميزته أنه أقصر من مسدسات فلينتلوك، وبالتالي سهل الحمل في حرب العصابات. كان ستوتزن هو سلاح الفرسان في الماضي.
4. كان اسم النزل Sandwirt زاندفرت. وكان الشائع أن يخاطب الرجل بلقبه بدلاً من اسمه.

وورعاً، ومؤمناً بالاتجاه الفكري الذي كان التيروليون يصفونه Einheit von Denken und Glauben (وحدة الفكر والإيمان). كان المسافرون، الذين يتوقفون لقضاء الليل في نزله، يتحدثون عن الحمى الثورية الجديدة التي اجتاحت أجزاء من أوروبا. كان هوفر يعتقد فعلاً أن الثورة كانت ضد المسيح شخصياً. انتخب القرويون أندرياس هوفر البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً نائباً لهم في البرلمان التيرولي Tiroler Landtag[5] حيث علم أن المؤتمر الوطني الفرنسي قد أعلن الحرب على النمسا في نيسان 1792. وتساءل مع نفسه كيف يمكن لهذا الأمر أن يهم شعب التيرول. وقعت باريس في قبضة عهد الإرهاب الذي أقامه روبسبيير وكانت منطقة التيرول بعيدة عن مسار القتال الذي كان يجري بين الجيوش! وإذا أراد الفرنسيون نقل حربهم إلى النمسا، فعليهم أن يفعلوا ذلك إما بالمرور عبر بافاريا أو عبر الطريق الجنوبي عبر إيطاليا العليا، ولكن بالتأكيد ليس عبر عبور سلسلة من الجبال تغطيها الثلوج ويبلغ ارتفاعها 10 آلاف قدم!

وقد استمر هذا المنطق قائماً حتى تقدم قائد عسكري كان نجمه صاعداً حينها نحو وادي بو، وهزم قوة نمساوية كانت متفوقة عليه إلى حدٍّ كبير. كانت نية الجنرال بونابرت[6] هي الاندفاع نحو نقطة الضعف في النمسا العدو اللدود عن طريق السهول الإيطالية الشمالية، في حين تقدمت قوة فرنسية أخرى في وادي الدانوب توجهت نحو فيينا. ولأجل أن تلتحم هاتان القوتان كان الأمر يستدعي وجود ممر يمتد من الجنوب إلى الشمال. لم يكن هناك سوى طريقة واحدة ممكنة؛ من خلال المرور بمنطقة التيرول.

عندما تولى هوفر القيادة، كان مقاتلوه أشبه بقطيع من الماعز الجبلي

5- كان لولاية تيرول برلمان خاص بها، أو Landtag. من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن التيروليين كان يخشون سياسة المركزية في فيينا أكثر من أي من الغزاة الأجانب.

6- تم تصوير ما فعله في لوحة شهيرة في متحف اللوفر، جعلت منه بطلاً قومياً.

البري. وقد لبوا نداءه لتعرض منطقتهم للخطر، وكانوا يمتلكون بنادقهم الستوتزن (Stutzen) وبارودها الجاف. وما يأتي بعد ذلك سيحدث بشكل طبيعي. أثبتت المواجهة الرئيسة الأولى بين الفرنسيين المدربين تدريباً جيداً ومقاتلي هوفر Schützenverbaende العنيدين شيئاً غير متوقع. كان التيروليون أقل عدداً. عندما بدا أنه سيخسر كل شيء، أثبت أندرياس هوفر صلابته: لقد وقف مثل الصخرة عندما سقطت قذيفة مدفع بالقرب منه. وكان الأمر بمثابة صدمة لجنود فرنسا la grande nation[7] بأن هؤلاء المقاتلين غير النظاميين قد خلقوا من مادة أكثر صلابة من الجنود النمساويين العاديين، الذين جنّدوا من جميع أنحاء إمبراطورية هابسبورغ الواسعة؛ وكانوا مستعدين للفرار في أقرب فرصة ممكنة. كان متسلقو الجبال هؤلاء مواطنين citoyens[8] يقاتلون من أجل قضية مقدسة. اقتنع الفرنسيون بأنهم كانوا يواجهون أفراداً لم يهتموا كثيراً بالمبادئ الثورية للحرية والمساواة. على العكس من ذلك، كان هؤلاء الوثنيون الريفيون لا يؤمنون سوى بالله والقيصر، واعتبروا الليبرالية الفرنسية بأفكارها التقدمية خطيئة مميتة. وهكذا تحولت الحرب في جبال التيرول بسرعة من صراع الثورة ضد الإقطاعية الملكية إلى صراع ضد حركة وطنية قومية. ومع ذلك، اتخذ ابن نزل زاندفرت (sandwirt)، أندرياس هوفر، موقفاً واضحاً. كانت منطقة التيرول هي عالمه. لم يعد صاحب حانة، بل أصبح وطنياً حقيقياً، شخص يحمل قيم الوطن فوق مصالح العائلة. وقد علّمته المعارك الأولى أن التيروليين سينتصرون طالما أنهم صامدون في بيئتهم الجبلية ويستخدمون عنصر المفاجأة في كمائنهم. أما بالنسبة لسلامته الشخصية Das Schicksal waltet! فقد تركها للقدر! فإن الإله سيقرّر ما إذا كان سوف يسير مرة أخرى عبر حقوله.

---

7 - بالفرنسية في الأصل. المترجم.

8 - بالفرنسية في الأصل. المترجم.

أدرك الأخ الأصغر للإمبراطور النمساوي، الأرشيدوق يوهان، الأهمية الاستراتيجية لمنطقة التيرول وحقيقة أن المقاتلين المتطوعين Schützenkompanien المحليين كانوا أكثر ملاءمة للدفاع عن أراضيهم أكثر من أي جيش إمبراطوري قادم من فيينا. في يوم صيفي من عام 1804، زار الأرشيدوق وادي باسيه. «بينما كنت أمر من نزل زاندفرت، لاحظت رجلاً ضخماً ذا لحية سوداء. لم يكن ينحني مثل الآخرين، وكانت عيناه فطنتين وثابتتين».[9] لقد عرف الأرشيدوق يوهان أن هوفر لم يكن شخصاً مثيراً للمشاكل مثل دانتون، بل كان فلاحاً تيرولياً صلباً يحمل معتقدات وطنية، هذا إن لم يكن ذا جاذبية. عمل الاثنان من خلال محادثات سرية، على وضع خطط مفصّلة لما عرف بـ (Tiroler Erhebung) أو الانتفاضة التيرولية. لم يكن ذلك عملاً عفوياً من قِبل شعب حُرم من حقوقه الدينية، بل كان عملاً سياسياً عسكرياً مخططاً له بعناية وبتوجيه من قبل البلاط الإمبراطوري في فيينا. في خضم حالة النشوة والفرح التي أعقبت انتصار النمسا على نابليون في معركة آسبرن-لوباو، وقع الإمبراطور فرانز الأول على المرسوم المسمى بـ Wolkersdorf Billett: مرسوم فولكيرسدورف: «يا أبنائي التيروليين أؤكد لكم رسمياً أنني لن أوقع أبداً معاهدة سلام لا تجعل من منطقة التيرول جزءاً من مملكتي إلى الأبد». في 6 تموز 1809، انتقم نابليون من هزيمته في معركة آسبرن بتحقيقه نصراً ساحقاً في معركة فاغرام وجنح الإمبراطور النمساوي إلى عقد معاهدة السلام. ونصّت المادة الرابعة تحديداً: يجب على القوات النمساوية مغادرة التيرول على الفور. لقد أخلف إمبراطور هابسبورغ الوعد الذي قطعه لأتباعه المؤمنين التيروليين، وسار التاريخ في مجراه.

بعد أن تخلّص نابليون من عدوه النمساوي، قرر أن يسحق، مرة وإلى الأبد، كل تمرد في جميع أنحاء إمبراطوريته العظمى. كانت منطقة

9- من مذكرات الأرشيدوق يوهان.

التيرول على رأس القائمة. وأمر لوفيفر أحد قادة جيشه Maréchal soyez terrible et sans pitié «كن شديداً ولا ترحم أحداً» وأضاف أمراً آخر، كان فريداً في وحشيته من قبل رجل، كان حتى ذلك الحين، يتجنب سياسة الأرض المحروقة: «أوامري إليك هو أن تحرق ست مدن، وتغرق الأرض بالدم، ما لم يسلّم التيروليون أكثر من 18 ألف بندقية». وبهذه التعليمات، أظهر نابليون وجهه الحقيقي. استطاع المارشال لوفيفر، الذي كان يقود قوة مؤلفة من 30 ألف فرد فرنسي وبافاري وساكسوني، أن يدخل مدينة إنسبروك في 13 آب 1809.

أصبح ذلك اليوم جزءاً من حوليات الحروب النابليونية. في وقت مبكر من ذلك الصباح احتفل الكهنة بإقامة صلاة جماعية لرجال التيرول الذين كانوا على وشك الدخول إلى المعركة. اجتمع هوفر مع قادته. «هل الجميع موجودون، يا أبناء التيرول؟ إذاً دعونا نذهب. لقد استمعتم إلى القداس، وتناولتوا شرابكم، إذاً، باسم الله، لنذهب ونقاتل الفرنسيين!» بهذه الكلمات البسيطة توجهوا لخوض أكبر معركة في حياتهم.

وبحلول الوقت الذي وصل فيه هوفر بصحبة عدة آلاف من الفلاحين المسلحين إلى قمة جبل بيرجيسل، كان هواء الجبل الشاهق المنعش يؤذن بحلول يوم رائع. كانت مدينة إنسبروك القريبة إلى قلبه تمتد أسفل منهم كأنها مدينة ألعاب، وتوزعت ساحة المعركة كأنها خريطة حية. أقام العدو دفاعات متماسكة. نظر هوفر إلى أكثر المشاهد المروعة التي شاهدها على الإطلاق، مجموعة من القوات المصطفة بشكل مثالي، كان ذلك هو أعظم جيش غزا أرضه على الإطلاق. كانت هناك صفوف طويلة من المشاة، وقد تلألأت حرابهم في أشعة شمس الصباح الباكر. وكانت تجثم أمامهم المدافع الفرنسية الكبيرة، مدافع نابليون البرونزية المرعبة مع طواقمها وقذائفها التي تشكلت مثل أهرامات أنيقة من قذائف. على الأجنحة كانت هناك أفواج من (chevau-légers)[10] الفرسان بأسلحتهم

10 بالفرنسية في الأصل. المترجم.

الخفيفة بوصفهم قوات الصدمة، كانوا بدروعهم المعدنية المصقولة اللامعة مثل المرايا، يمثلون قوات نابليون الأكثر رعباً، قوات النخبة (cuirassiers de la garde)[11] من حرسه الخاص وأولاده المدللين. ما الذي يمكن للقائد الأعلى (Herr Oberkommandant)[12] أن يفعله أمام مثل هذه المجموعة من القوات المنضبطة والمدرّبة جيداً؟ وهو يقود مجموعة من الفلاحين صعبي المراس، نصفهم مسلحون بالهراوات والمعازق، والنصف الثاني لا يرتدي أحذية.

بدأ الهجوم من وادي «إن» وتحرك أسفل المنحدرات الجبلية، لم يبدِ التيروليون أي خوف في مواجهة المدفعية الفرنسية؛ وتصرفوا كجنود منضبطين أكثر منهم كمتوحشين هائجين. كان لدى كل واحد منهم أسبابه الخاصة لوجوده هناك؛ لكن مصيرهم الجماعي كان محاربة الأجنبي الذي كان يشكّل خطراً عظيماً على كنيستهم ومعتقدهم. لقد كرّموا إلههم بالدم، سواء كان بدمهم أو دم عدوهم. لقد هجموا بالبنادق والسيوف والفؤوس والهراوات، وماتوا ببسالة. كان «هوفر» يقاتل وسط أشرس المذابح، غافلاً عن الخطر المباشر، كما لو أن المجزرة لم يكن لها علاقة به، كان يتصرف في أهم معركة في حياته بشكل نبيل وهذا فقط ما كان يحتاجه التيروليون، نموذجاً يمنحهم الثقة. فصاح بهم: «أيها التيروليون، لنصعد ونكون عندهم».

فهرعوا وهم يتعثرون. قاموا باستغلال كل منخفض، وكل حاجز نباتي، وكل منطقة مليئة بالأشجار. بدأت الزوجات والبنات -بقدرات تضاهي قدرات رجالهن- بحشو البنادق بالطلقات ونقل الجرحى من خط النار. قامت خمس عشرة سرية من مقاتلي الشوتزن (Schützen) بمناورة سريعة قادت الفرنسيين إلى نهر «إن»، بينما عانى التيروليون الذين كانوا في السهل المفتوح، من انتكاسة شديدة عندما اخترقهم هجوم قام

11- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

12- بالألمانية في الأصل. المترجم.

به الفرسان وقطعوهم إرباً. قبل أن يتوازن موقفهم إثر هجوم مضاد عنيف قاده فرير هاسبينغر، قبل أن يحل سوء الحظ بمقاتليه الهوفن (Haufen). أما في السهل المنبسط فقد سقط عليهم وابل من قذائف أسطوانية (قذائف صغيرة داخل علبة أسطوانية تطلق من المدافع) تسبب في هلاكهم. كان البافاريون هم من هجموا ومن هلكوا. زحفت مجموعات من التيروليين نحو تشكيلات المارشال لوفيفر وذلك باستخدام المسارات والأخاديد كغطاء لهم. ومن خلال مائة موقع قاموا بقطع الأفواج التي كانت منتظمة بشكل مثالي، أو انتظروا حتى أطلقت القوات الفرنسية النار قبل أن يثبوا عليها ليشتبكوا مع العدو في قتال بالسلاح الأبيض.

تعرض كلا الطرفين لخسائر فادحة، واستمرت المعركة لمدة طويلة دون أن تُحسم. فجأة، حدث خرق في وسط القوات التي كان يقودها هوفر. فقط شجاعته الشخصية هي التي أوقفت التيروليين الهاربين. تفادى طعنة حربة أحد أفراد الحرس الإمبراطوري الفرنسي، وأمسك بخصمه من الصدر، وركله في الفخذ، وعندما أحنى الفرنسي جسمه من الألم، ضربه بعقب بندقيته الستوتزن. رسم الراهب هاسبينر علامة الصليب، وشتم فرنسا الثورية باعتبارها عدوة المسيح، واندفع مع رجاله إلى الأمام في هجمة أخيرة يائسة ضد الجناح البافاري الضعيف. وصل التيروليون وهم يصيحون ويصرخون ويلوّحون بالمناجل والمذاري وتلقوا طعنات الحراب البافارية. عندما بدا أن كل شيء ضاع، ظهرت مجموعة جديدة من المقاتلين الهوفن (Haufen). أدى هجومهم على الجناح إلى هزيمة رتل القائد الفرنسي لوفيفر. حاصرت مجموعة أخرى من المقاتلين (Haufen) جيش لوفيفر من الخلف. لوح هوفر بقبعته، ودفع بكل رجل موجود عنده نحو مواضع البافاريين. بات الطريق إلى إنسبروك مليئاً بالجثث. تشكلت جيوب للمقاومة حول كنيسة صغيرة هنا، وحول مزرعة محصنة هناك، لكن المعركة كانت قد حُسمت. كان الظلام قد حلّ عندما انتهى القتال. بعد أن استمر اثنتي عشرة ساعة.

هتفت جموع المقاتلين لهوفر الذي ركع، وأشار نحو السماء، وأجابهم بالعبارة الخالدة:

«I nit, oes a nit, der da drobn لا يعود الفضل لي، ولا لكم، إنه يعود للخالق الذي فوقنا!»

تعرض حاكم البلاد Regent von Tirol (وهو اللقب الذي كان يطلقه التيروليون على هوفر) للخيانة. فقد وقّع الإمبراطور النمساوي معاهدة سلام، والتي تخلّى بموجبها عن إقليم التيرول. قام نابليون بتجميع جيش كبير من بافاريا وسالزبورغ وإيطاليا لسحق التمرد. طوال يوم جميع القديسين[13]، المصادف الأول من تشرين الثاني 1809، شنّ هوفر معركة أخيرة. واصل رجاله القتال حتى عندما مات الأمل. بدا أندرياس هوفر بلا حول ولا قوة بينما كان حلمه في أن يجعل إقليم التيرول خالياً من الاضطهاد الأجنبي قد تلاشى. تحوّلت الحملة الفرنسية إلى مطاردة، وكانت تجري بلا رحمة وبغدر كبير. كان أي زعيم للمتمردين يتمّ القبض عليه يُعدم على الفور. كانت أوامر نابليون تنصّ على شنقهم. اختفى هوفر، وكان أكثر المطلوبين على الإطلاق، وتمّ تخصيص مكافأة قدرها 1500 غولدن لمن يستطيع أن يقبض عليه – حياً أو ميتاً.

في جبال الألب العالية، انتهى فصل الخريف الذي زرع الكثير من الحزن. كانت ليالي الصقيع تنبئ بليال أكثر برودة في المستقبل. ومن البرك التي في المراعي، وصل الجليد من جميع الجهات. كان فصل الشتاء الجبلي قريباً. كان الصقيع قد اجتاح الوديان المتعرجة بالفعل. تجمع آخر أتباع هوفر للتشاور حول خطة للهروب. مدّ أحدهم يده إلى داخل قميصه وأخرج علماً تيرولياً ممزّقاً وملطخاً بالدماء. بدا أن حالته الممزقة هي رمز يعبّر عن حالتهم. لقد وصل معظم أتباع هوفر المخلصين إلى برّ الأمان قبل سقوط أول الثلوج، ولكنه لم يكن بينهم.

---

13 يُعتبر يوم جميع القديسين من الأيام المهمة في الديانة المسيحية، وتحتفل به معظم طوائفها. المترجم.

قرّر العودة إلى المنزل. كان يختبئ في بلدة فانتلايم، التي تقع على ارتفاع ساعات تسلق قليلة فقط من نزل زاندفرت، وهو يحمل في داخله ألماً كبيراً. في يوم عيد الميلاد لعام 1809، جاءته زوجته مع ابنه. بعد أن لمّ شمله مع عائلته تجدّد لديه الأمل، ولأحبائه، وللتيرول. لقد فعل الشيء الصحيح بعدم هروبه، وقد أصبح مقتنعاً به الآن.

في منتصف كانون الثاني 1810، بينما كانت تتجمع في ثنايا الغابة أولى خيوط ظلام ليلة شتوية، صعد رجل من الوادي. انتظر تحت غطاء الأشجار، حتى يحصل على جزاء صبره. وبينما ظهر خياله في مواجهة سماء الليل، رأى شكلاً داكناً يرتدي قبعة واسعة الحواف. كان ذلك الشخص هو أندرياس هوفر، وكان متأكداً من ذلك. وقف ابن زاندفرت Sandwirt صامتاً وسط هواء الجبل الصافي، خلع قبعته وأمسك بها بقبضة يده. كانت تلك القبعة ذات مرة بمثابة تاجه. إنها تمثل ما انتزع منه، السلطة التي لم تعد موجودة. لقد خدم إمبراطوره على أحسن ما يرام، وقاد قوة شعبية، وهزم الجنرالات المشهورين.

كان يوماً حزيناً لإقليم التيرول، ففي فجر ذلك اليوم أُلقي القبض على هوفر. كان لديه لقاء سري مع مزارع يدعى، فرانز رافل، وهو الذي أبلغ الفرنسيين عن مكان وجوده. مقابل 1500 شيكل، لقد خان أحد التيروليين تيرولياً آخر. لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تمّ العثور على «يهوذا التيرول» معلقاً من رقبته في إحدى الأشجار. أعلنت السلطات الرسمية أنها عملية انتحار، لم يكن هناك شخص واحد يصدق ما تعلنه السلطات الرسمية. حُبِس هوفر في قفص حديدي. اصطفت مجموعات من القرويين والدموع تترقرق في عيونها بصمت على الطريق الذي مرّ عليه. ركض طفل إلى قفصه وتمكن من تسليمه من خلال القضبان مجموعة من الزهور المجففة من الجبال. كانت نبتة كف الأسد، نقية وبيضاء كالثلج البكر، وكان ذلك تعبيراً عن الحب وقد ابتسم هوفر للطفل بامتنان. كلا، لم يتخلَّ التيروليون عنه، كما لن يتخلى عنه إمبراطوره. والقيصر فرانز لن

يدعه يموت. استرق لمحة أخيرة من قمم الجبال المغطاة بالثلوج قبل أن يقتاده الحراس إلى قلعة مانتوفا ذات الجدران السوداء.

بدأ هوفر يدرك أخيراً الموقف الذي وضعه به أسياده. ذهب الأرشيدوق يوهان لمقابلة الكونت مترنيخ، الحاكم الحقيقي للنمسا. الذي كان يخطط لتحطيم نابليون، كانت النمسا بحاجة إلى وقت لإعادة بناء جيشها وتشكيل حلف مع عدة دول. ولأجل الفوز في هذه المرة، كان أندرياس هوفر هو الجائزة. بالنسبة له لم يكن هناك حلّ، فلن يكون هناك تأجيل لتنفيذ الحكم. كان الرهينة المنسي، بيدقاً على رقعة شطرنج بين إمبراطوريتين. كان حاكم مانتوفا، الجنرال بيير فرانسوا بيسون، قد تسلم للتو رسالة شخصية من إمبراطوره: أصدروا الأمر بتشكيل محاكمة عسكرية وأعدموه. كلُّ هذا يجب أن يتمّ خلال أربع وعشرين ساعة. التوقيع نابليون. كان بيسون معجباً بخصمه الشجاع، لكنه لم يكن يستطيع أن يعارض أمراً صادراً من إمبراطوره. ومع ذلك، فقد واصل التظاهر الوهمي بالتمسك بالإجراءات القانونية وجلب له محامي دفاع، هو دوتور يواكيم باسيفي.

بدأت المحاكمة، وقُرِئت لائحة الاتهام: أندرياس هوفر، زعيم المتمردين التيروليين، الخارج عن القانون والذي تمرد ضد ملكه الشرعي، ملك بافاريا.

«لكن ملكي هو إمبراطور النمسا»...

«اصمت»، صاح به القاضي.

وصف المحامي دوتور باسفي المتهم هوفر بأنه ضحية للتضليل. وادعى أن المذنبين موجودون في فيينا. توصل القضاة العسكريون إلى حكمهم دون نقاش وبالإجماع: باسم جلالة الإمبراطور الفرنسي، ووفقاً للمادة الثانية من مرسوم 12 تشرين الثاني 1809، حكم على المتهم أندرياس هوفر بالإعدام رمياً بالرصاص. الحكم ساري المفعول.

يوم وفاته، 20 شباط 1810، كانت السماء التي تعلو مانتوفا رمادية

اللون. على صوت الخطى القادمة وقف هوفر منتصباً. دخل كاهن إلى زنزانته، يحمل صليباً في إحدى يديه، والكتاب المقدس في يده الأخرى. ظهرت دموع اليأس في عيني ذلك الرجل القوي الذي لم ينكسر يوماً، حيث أدرك أخيراً ضخامة خيانته. بينما بدأ الكاهن يتحدث بصوتٍ هادئ، وهو يعهد بروح المُدان للنعمة الإلهية، استذكر هوفر تضحيات رجاله من أجل (Gott und Kaiser)[14] الله والقيصر.. شعر بالإحباط، حدّ الغضب. الرجال الشجعان يموتون ببسالة من أجل قضيتهم، الرجال الشجعان الذين اعتقد أنه يمكنه أن يقودهم إلى النصر. صاحب نزل بسيط يواجه العقل العسكري الأكثر عبقرية في ذلك الوقت. كانت مواجهة غير متكافئة. كتب هوفر ملاحظة أخيرة: «كانت إرادة الله تقتضي أن أبدل وجودي الدنيوي بالخلود. وداعاً حتى نلتقي جميعاً مرة أخرى في السماء ونحمد الرب».

بينما كان هوفر يحثّ خطاه خارج بوابة السجن، اقتحمت الشمس الغيوم. سار خلفه جيوفاني مانيفستي كاهن سانتا باربرا، الذي أعطاه صليباً خشبياً صغيراً ليريحه في رحلته الأخيرة. كانت وجوه السجناء الآخرين ملتصقة بالنوافذ ذات القضبان. كان كل واحد منهم، من المتمرد إلى اللص العادي، يصرخ مشجعاً له. مشى هوفر عبر بورتا سيريزا، كان رأسه ينتصب عالياً وقد أمسك الصليب بقبضته الكبيرة؛ كان صليباً بسيطاً وسيصبح علامة على التحدي. سرعان ما تمّ توزيع المزيد من المطبوعات في جميع أنحاء أوروبا وهي تحمل الرسم الشهير إعدام أندرياس هوفر[15] وانتشر بشكل واسع مقارنة بأي كتيب يتحدث عن متمرد آخر. وقد صوّر الرسم المسيرة الأخيرة للبطل حاملاً صليب الإيمان.

عند حافة خفيفة الانحدار خارج القلعة، وقف هوفر قبالة جدار من الغرانيت. تقدّم إلى الأمام اثنا عشر من الرماة، يرتدون أحزمة رصاص بيضاء متقاطعة فوق معاطفهم الزرقاء وقبعات الدب الطويلة الخاصة

14- بالألمانية في الأصل. المترجم.

15- من رسوم الفنان يوهان ديفيد شوبرت.

بالحرس الإمبراطوري (La garde)[16]. قام الضابط بعصب عيني الرجل المدان. هزّ هوفر رأسه. ذهبت نظرته مباشرة إلى قمم الجبال البعيدة المغطاة بالثلوج، وهي تتألق في الشمس الباكر. «I såg leb-wohl mei'm schönen Land Tirol, Dir bleib i ewig treu[17]. وداعاً يا تيرول الجميلة. سأظل مخلصاً لك إلى الأبد». كانت هذه كلمات الرجل الشجاع الأخيرة. وللحظة من الزمن، التقت عيناه بعيني ذلك الضابط. عدّل القبطان الشاب كتفيه وأدّى التحية، قبل أن يصدر الأمر. ركع ستة رجال وظل ستة واقفين. رفع الضابط سيفه. «En joue![18] سدّد على الهدف!». على وقع قرع الطبول، قام أفراد فصيل الإعدام بتصويب أسلحتهم. نظر أندرياس هوفر إليهم مباشرة – وصاح: «Feuer! أطلق النار». دوّى صوت قعقعة اثنتي عشرة بندقية تردد صداه حول الجدران الحجرية. انزلق هوفر نحو الأرض. توجّه الرقيب ميشيل إيفل إلى الرجل الذي كانت إصابته قاتلة. تردد صدى آخر طلقة حول قلعة مانتوفا. لقد سمعت في وديان التيرول وفي النمسا وألمانيا، وحيثما كانت القبضة الفولاذية للقمع تستعبد الأمم.

وبدأت الشعوب تنهض وتضخم تيارها...

وبعد ذلك ...

لم تكن الانتفاضة التيرولية معلماً عظيماً لحقوق الإنسان. ارتكب كلا الجانبين الفظائع. أحدهما بناء على أوامر من الفاتح الذي كان له هدف استراتيجي، وارتكبها الجانب الآخر وتمّ تنفيذها من قبل الفلاحين الذين لم يكونوا ببساطة يعرفون شيئاً أفضل. ولم يكن زعماؤهم نموذجاً للفضيلة. كان العديد من القادة التيروليين يشعرون بالغيرة ويكيدون

16 بالفرنسية في الأصل. المترجم.

17 بالألمانية في الأصل. المترجم.

18 بالفرنسية في الأصل. المترجم.

المكائد. وقد لعبت الكحول دوراً في ذلك. حتى أندرياس هوفر كان معروفاً باسم «الرجل ذو المسبحة وزجاجة الخمر». كان بالتأكيد أفضلهم، رجلاً شجاعاً وصادقاً، وقادراً على التزام الهدوء في وقت الأزمات. لم يكن عبقرياً عسكرياً بارعاً؛ ولكنه كان رجلاً من الناس ويتحدث إليهم على قدم المساواة، بلغة يفهمونها. صاحب نزل، استقى حكمته الاستراتيجية من الحياة القاسية في الجبال، واستطاع تشكيل مجموعة من الأفراد الريفيين وتحويلهم إلى قوة متماسكة. بالنسبة لهؤلاء المزارعين الذين يعيشون في منازل من الحجر الصلب، مع وجود الكثير من الأبقار في إسطبلاتهم ومزارع الكروم وأشجار الفاكهة التي تملأ الوادي الواسع الذي يمرّ به نهر أديجي، لم يكن الدافع وراء تمردهم أبداً هو الحاجة الاقتصادية أو الحاجة إلى التغيير الاجتماعي. لقد قاتلوا من أجل قضية مشتركة؛ قضية تتعارض مع المفهوم الثوري الجديد للحرية. كانت حملة صليبية مقدسة لدعم روابطهم التقليدية مع النظام الملكي والبقاء أوفياء لإيمانهم الراسخ والرجعي تقريباً بالكنيسة الرومانية المقدسة وحاميها الإمبراطور النمساوي.

باتت التيرول أرضاً أصبح فيها كل كوخ حصناً، وكل مزارع ثائراً، وكل صاحب حانة وكاهن قائداً. لقد اصطادوا أعداءهم بالطريقة نفسها التي كانوا يسرقون بها الماعز الجبلي البري: خلسة وفي الخفاء. لم يتفهم قدامى المحاربين الذين شاركوا في معركتي أوسترليتز وإيلاو طريقة التيروليين في القتال؛ كان يهجم عليهم مراراً وتكراراً رجالٌ تتلألأ الحراب في أيديهم وهم يلقون عليهم الحجارة من قمم المنحدرات. كان أندرياس هوفر قائداً ملهماً وورعاً، لا يخلص سوى لإمبراطوره وبلده. يمكن اكتشاف عظمته من خلال محافظته على الروح المعنوية لقوته الشرسة في مواجهة احتمالات مستحيلة. نجح هذا الفلاح الهادئ المتواضع في تحقيق ما حاول الجنرالات النمساويون والروس فعله ولكنهم فشلوا. مثل هذا الرجل كان لا يمكن أن يهزم؛ إلى أن حلّ اليوم

الذي جاءته فيه الخيانه من بني جلدته. ومما يشير إلى قيمة الرجل ما أجاب به نابليون الذي قام بتكريمه؛ حينما سُئل عما اعتبره أكبر خطأ فادح ارتكبه: «إنني أمرت بإعدام ذلك الفلاح التيرولي. لقد صنعت شهيداً. وحّد موته شعوب أوروبا الوسطى ضدي».

بسبب العناد الذي اتسم به لما كانٔ يؤمن به أنه حق، نمت أسطورة الثائر التيرولي (Tiroler Erhebung)[19] وألهمت قارة بأكملها. وتحول ذاك الذي لم يكن سوى قتال للتيروليين ضد «الطاغية الكورسيكي» إلى رمز لتوحيد أوروبا ومن حينها، ولد ائتلاف جديد. وضعت الأمم جانباً نزاعاتها ووحدت قواها ضد الإمبراطور الفرنسي. بعد ثلاث سنوات من استشهاد هوفر، تحالفت بافاريا مع النمسا لهزيمة نابليون في حرب الأمم في لايبزيغ. في السنة التالية، أعاد مؤتمر فيينا[20] ضم إقليم التيرول إلى النمسا. وما زالوا موحدين حتى اليوم.

وضع جميع قادة المشاريع البطولية، الذين كانوا في ثورة مفتوحة ضد المغتصب، والمستعدين للتضحية بحياتهم من أجل العدالة والحرية، الأساس لأسطورة شخصية ستبقى ملكهم إلى الأبد. هذا هو الحال مع بطل زاندفرت من سان ليونارد، فالأغنية الأولى التي يتعلمها كل طفل نمساوي هي ترنيمة إقليم التيرول الشرس وأعظم أبطاله الوطنيين، أندرياس هوفر.

فترة فاصلة

1910–1815

لم يضمن عالم ما بعد نابليون تحقيق السلام. وبينما انتهى مؤتمر فيينا

19- بالألمانية في الأصل. المترجم.

20- مؤتمر لسفراء الدول الأوروبية ترأسه رجل الدولة النمساوي كليمنس فون مترنيش. عقد المؤتمر في فيينا في الفترة من أيلول 1814 إلى حزيران 1815. كان هدفه تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة. المترجم.

سريعاً، وتقاسم ميترنخت وشركاؤه أوروبا، اندلعت الاضطرابات في أرض بعيدة. كان للفلسفة الثورية لجان جاك روسو، والتأثير الضعيف للكنيسة الكاثوليكية، وانتصارات نابليون العسكرية على الملكيات المنهارة في أوروبا -لا سيما إسقاط العائلة الملكية في إسبانيا- تأثيراً هائلاً في العالم الجديد. وكان مقدراً للقاء حدث مصادفة في فنزويلا أن يغيّر مصير القارة.

في عام 1810، التقى اثنان من المفكرين الليبراليين في كاراكاس. أحدهما كان العالم الألماني والمستكشف، البارون ألكسندر فون هومبولت. والآخر، كان النبيل الثري الفنزويلي، سيمون بوليفار. وحينها أوقدت شعلة التمرد. في 19 نيسان 1810، شرع سيمون بوليفار في دوره كمحرر لنصف الكرة الأرضية بأكمله لإزاحة حاكم فنزويلا الإسباني. في عام 1829، توفي المحرر الكبير، سيمون بوليفار، حزيناً مع هذه الكلمات التي كأنها نبوءة:

«من يخدم ثورة، كمن يحرث البحر».

في خضمّ النشاط الثوري في أوروبا، وسقوط أمريكا الشمالية في خضمّ حرب أهلية دموية، كان الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث منشغلاً في خلق إمبراطورية استعمارية لفرنسا. بدأ بالتدخل في الشؤون الخارجية لبلدان ما وراء البحار. عمل أولاً على طول ساحل البحر المتوسط في أفريقيا، ثم في أمريكا اللاتينية. وأرسل إلى العاصمة المكسيكية أرشيدوقاً نمساوياً مسالماً ولطيفاً كان مثل الدمية في يده، وكان ذلك إلى حدّ كبير ضد رغبات المكسيكيين. مع هذه الكلمات الأخيرة له: «لتتدفق دمائي من أجل خير هذه الأرض Viva Mexico![21] (عاشت المكسيك)» فإن الأرشيدوق ماكسيميليان من آل هابسبورغ، والذي أصبح بنعمة فرنسا إمبراطوراً على المكسيك لمدة ثلاث سنوات، لقي حتفه أمام فرقة إعدام مؤلفة من سبعة رجال في مدينة كيريتارو، في

21- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

المكسيك، في 19 حزيران 1867. أراد بينيتو خواريز، الزعيم الثوري، أن يلقِّن القوى الأوروبية درساً، وظل لا يستجيب لنداءات الرأفة. وأدى اليمين الدستورية كرئيس للمكسيك ولفترة ثلاثة عقود، ازدهرت فيها المكسيك، وتطلعت البلاد إلى القرن العشرين بدرجة من الثقة لا مثيل لها في أي فترة سابقة. تدفقت عليها الأموال الأمريكية وكان التقدم مؤكداً ولا حدود له. سارت الفضيلة جنباً إلى جنب مع التقدم. في عام 1910، السنة التي حقّقت فيه رقصة جديدة في أمريكا اللاتينية، وهي التانغو، نجاحاً في قاعات الرقص في العالم، تحطم السلام في المكسيك.

ابتسم جيرانهم غير قلقين وهم يقولون: «إنه تمرد جديد من تمردات الثكنات اللاتينية السخيفة». كانت أكثر من ذلك، أكثر من ذلك بكثير. ما حدث من مرارة وقسوة في هذا الاضطراب الاجتماعي الأول الذي شهده القرن الجديد يكاد لا يُضاهى في العصر الحديث. في أرض قبلت فيها الموت كحدث يومي، كان الحصول على أمة حديثة من رحم مجتمع إقطاعي له ثمن باهظ. ليس فقط للمكسيك، ولكن للعالم كله. لأن «تمرد الثكنة السخيف» كان يقود الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية الأولى.

الفصل الثالث

18 تشرين الثاني 1910
عاشت المكسيك!

أن تموت بشرف خير من أن تعيش ذليلاً

• إيميليانو زاباتا، 1910

عند الساعة الثانية وعشر دقائق من بعد ظهر يوم 10 نيسان 1919، توجّه رجل يرتدي البذلة المكسيكية الشهيرة تشارو (charro) وكانت سوداء اللون، مزيّنة بقطع نقدية من الفضة تجذب الانتباه، وكان يرتدي فوقها حزاماً للرصاص، وعلى وجهه ظل قبعة عريضة ضخمة، ويمتطي حصاناً أبيض. نحو بوابة قصر سيناميكا سيندا (Chinameca Hacienda) اصطف في الفناء حرس الشرف. عرض الجنود أسلحتهم بعد تلقيهم الأمر. ارتفعت في سماء الصحراء الحارة، النغمة الأولى التي عزفها البوق من نشيد التحية العسكرية (Non pardon) ومعناها بالإسبانية لن نغفر ذلك النشيد الذي اشتهر خلال حرب المكسيك مع تكساس. نزل الفارس من حصانه ليتبادل العناق abrazos[1] مع الكولونيل. ثم عاد لتحية حرس الشرف. ارتفعت النغمة الأخيرة من البوق على شكل صوت نواح طويل، علق في الهواء قبل أن يتلاشى تدريجياً. كانت تلك هي الإشارة.

1- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

قام الجنود فجأة برفع بنادقهم على أكتافهم وأطلقوا النار مباشرة على الزائر الموقر. وسقط جسمه ببطء على الأرض.

لقد قتل إيميليانو زاباتا، الثائر المكسيكي العظيم.

بعد عدة سنوات، عندما كان دوروتيو أرانغو يحدق في مسدسه، تذكر تلك الليلة المرعبة عندما كان في السادسة عشرة من عمره. بعد يوم من العمل في قطع القصب في حقول الهاسيندادو hacendado (مالك الأرض بالإسبانية) في دورانغو[2]، عاد إلى كوخ أهله ليجد أخته ممددة على الأرض، وفستانها القطني ممزقاً ومفتوحاً وعينيها متورمتين، لقد قام ابن المالك باغتصابها بوحشية. ومع صرخة روح ممزقة، غادر دوروتيو الكوخ هائجاً. بعدها وفي إحدى الليالي المقمرة، كمن لمغتصب شقيقته Ola، mestizo[3]، صاح به الشاب وهو مكفهر الوجه فقد كان والده يمتلك كل الأرض وجميع العمال (peóns)[4] الذين يعيشون فيها. ثم ركله بحذائه الخاص بركوب الخيل، حينها خرج من وسط الظلام، شخصان ذوا أكتاف بعضلات سميكة وأنزلاه من الحصان. لم يكن لديه الوقت حتى للصراخ قبل أن يقطع الساطور ذو الشفرة الطويلة الذي كان يحمله دوروتيو عنقه، تركه دوروتيو أرانغو على جانب الطريق ينزف حتى الموت.

لقد كان عملاً مروعاً، لم يسمع به أحد من قبل؛ أن يتجرأ أحد الأقنان على قتل ابن سيده. لا يتطلب الأمر إجراء محاكمة، فهناك إجراء سريع ينفذ حال إلقاء القبض على القاتل ابن المستيزو[5] وهو تعليقه في أحد الاشجار وترك الغربان تقوم بالباقي. كان الملصق الذي يحمل صورته

2- قرية في مقاطعة ريو غراندي بالمكسيك.

3- mestizo المستيزو هو شخص نصفه أبيض ونصفه الآخر هندي. (mestizo ola، - نداء بالعامية معناه: هيه أنت الذي هناك).

4- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

5- مجموعة عرقية ناتجة عن تزاوج المستعمرين الأوروبيين والإسبان على وجه الخصوص بالسكان الأصليين لقارة أمريكا الجنوبية. المترجم.

وكُتبت عليه كلمة «مطلوب» موجود على باب كل كنيسة في جميع أنحاء مقاطعة ريو غراندي؛ وُضِعت مكافأة قدرها ألف بيزو ذهبي تُمنح لكل من يدلي بمعلومات عن دوروتيو وتؤدي إلى القبض عليه، «حياً أو ميتاً». لكن لم يتمّ القبض عليه. وفرّ دوروتيو أرانغو، المنتقم (avenger) لشرف أخته، إلى التلال حيث انضم إلى عصابة من الخارجين عن القانون، وسارقي مالكي الأراضي ونهب البنوك. أثبت ذلك الهارب المراهق أنه يمتلك موهبة طبيعية كقائد للرجال. بعينيه السوداوين الحزينتين، وشاربه المتدلي، وبساقيه القصيرتين المقوستين، بدا أشبه بمزارع بدين أكثر من كونه فرد عصابة. ولكن مع ذلك، يمكن أن تكون المظاهر خادعة. فقد خطط لكل هجوم بمكر ذئب، وعندما أصبحت مآثره أكثر جرأة، وكذلك فعلت شهرته، لم يعد اسمه دوروتيو أرانغو. أصبح اسم هذا الرجل، القادر على القيام بأعمال متناقضة جريئة، كلمة مألوفة للملايين حول العالم الذين تابعوا مآثره المذهلة على صفحات الجرائد؛ أصبح اسمه فرانسيسكو بانشو فيا.

أصبح بانشو فيا وإيميليانو زاباتا نموذجاً للفوضى والأعمال الوحشية التي ستكتسح المكسيك

السنوات العشر التالية، كانت عقداً كاملاً من عمليات القتل والإعدامات والخيانات. انتمت نوبات العنف الخاصة بها إلى تلك السمات التي تكثر في جميع الحروب الأهلية، وأضافت الكثير لسماتها الشريرة، في وقت كان يتمّ فيه ارتكاب الجرائم دون عناء وباستهتار كامل.

كانت المكسيك عام 1910 دولة مقسّمة ما بين ملاك الأراضي والأقنان. ترأّس الدولة ديكتاتور عديم الضمير، يدعى بورفيريو دياز، كان نظامه السياسي يتغذى على دماء المحرومين. بعد ثلاثين سنة من الحكم المطلق، اختار أن يتجاهل علامات اقتراب إعصار ثوري. كانت البلاد مفلسة، وتنتشر في حكومتها المحسوبية والفساد الإداري، وكان

نهب الخزانة يجري بشكل لم يسبق له مثيل وبدون حياء[6]. وفي عام 1910، انتهت ولاية دياز ودعا إلى إجراء انتخابات جديدة. وقرّر خوض الانتخابات حزب معارض لدياز تحت قيادة فرانسيسكو إنداليسيو ماديرو. الذي أعلن أن «هذا البلد جاهز للديمقراطية. لقد حان الوقت لأن يتخلى دياز عن السلطة». انتهز دياز هذه الإهانة كفرصة ليأمر باعتقال خصمه. عندما وصل فريق من الشرطة إلى منزله، غادر ماديرو خلسة من الباب الخلفي وهرب إلى مدينة سان أنطونيو، في ولاية تكساس، حيث دعا لقيام انتفاضة مسلحة في بيان ألقاه في مدينة سان لويس بوتوسي المكسيكية.

انطلقت أول رصاصة للثورة المكسيكية في 18 تشرين الثاني 1910، أثناء عملية اعتقال فاشلة للرقيب أكيلس سيردان أحد مساعدي ماديرو، وقد أسفرت العملية عن مقتل سيردان وقائد شرطة مدينة بويبلا. بعد يومين، عبر ماديرو نهر ريو غراندي نحو المكسيك لكنه فشل في رفع الدعم الشعبي له. لكنه كان قد قرع جرس الثورة. وقد سمع النداء أولئك الذين سيتصرفون باعتبارهم قادته العسكريين. من جبال الشمال والقرى في الجنوب جاء الرجال الذين سيعلنون التمرد. من محافظة موريلوس ظهرت أكثر شخصية رومانسية ومبجلة للجميع، له جسم هندي (indio)[7] نحيل وابتسامة شخص آسيوي وشارب شخص صيني. كانت ملامحه الأكثر إثارة هي عيناه، كانتا سوداوين وحادتين مثل الزجاج البركاني. كان الآلاف قد اقتدوا بهتافه الحماسي: «أنْ تمت بكرامة خير من أن تعيش ذليلاً!» كان هذا الرجل هو إيميليانو زاباتا. ومن الشمال جاء بانشو فيا، الذي بدأ مسيرته الاستثنائية وليس معه سوى 15 تابعاً. في غضون أسابيع، ازدادت قوة فيا إلى 500 فارس. طلب منه ماديرو أن يصبح «جنرال الثورة».

حدثت أول عملية كبيرة قام بها بانشو، في سان أندروس، عندما سيطر

6- نقلاً عن لويس لارا باردو، وهو مؤرخ مكسيكي.

7- بالإسبانية في الأصل، وهم السكان الأصليون. المترجم.

على حامية المدينة وكشف حينها عن شخصيته الحقيقية. تمّ إطلاق النار على كل ضابط أُلقي القبض عليه بلا تردد، وشمل ذلك مفتشي البريد والقضاة والمسؤولين الرسميين وجميع الضباط الموالين للرئيس دياز بمختلف أنواعهم. أما الجندي العادي فقد منحه حق الاختيار ما بين الإعدام الفوري أو الانضمام إلى أتباعه المتحمسين. منذ البداية، أظهر فيا كراهيته العنصرية الشديدة جداً لأي شخص «غير مكسيكي». لم تكن هذه الكراهية موجهة ضد الطبقة المالكة للأرض فحسب، والتي اعتبر أفرادها غزاةً إسباناً يتاجرون بموارد البلاد، بل ويضعهم في المرتبة نفسها التي يضع فيها الآخرين الذين يكرههم وهم الأمريكيون الغرينغو gringos[8] الذين استغلوا موارد بلاده المعدنية. كانت هناك أمثلة أخرى لقسوته تجاه الأجانب. بعد سيطرته على مدينة توريون، توفي أحد رجاله بعد تناوله الكحول المهرب. وبما أنّ هذا حدث في مطعم صينيّ، قام باقتياد جميع الصينيين إلى العراء وربطهم من خصلات شعرهم بالخيول، التي قامت بجرّهم على طول الشارع الرئيس وسط صراخ هائج لمن يقودون الخيول[9]. على الرغم من هذا العنف غير المبرّر، اكتسبت الثورة (El Revolución)[10] زخماً أكبر. تحول لوبيز «الأحمر»، وهو من سارقي الماشية إلى جنرال للمتمردين، وهاجم أغوا بريتا، وهي بلدة على طول الحدود بين المكسيك وتكساس. قُتل ثلاثة من الأمريكيين الذين كانوا يتفرجون على النهر من الجانب الآخر. وأصيب رابع، وهو مراسل صحفي ساعد في لفت «انتباه الرأي العام الأمريكي إلى القضية المكسيكية». أمر الرئيس الأمريكي ويليام هوارد تافت 20 ألف جندي[11] بالتوجه نحو الحدود مع المكسيك. كان يخشى، وكان محقاً في ذلك، من أن الإطاحة بالرئيس دياز ستؤدي إلى انتشار

8- لقب يُطلق على الأجنبي في أمريكا اللاتينية. المترجم.

9- مما رواه هنري بيرلين، وهو شاهد عيان.

10- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

11- كانت تمثل في ذلك الوقت 25 في المائة من مجموع القوات الأمريكية.

الفوضى، وما يرافقها من تدمير للممتلكات الأمريكية في المكسيك. اعتبر القوميون مثل بانشو فيا هذه الخطوة تدخلاً أمريكياً في شؤون بلادهم. نشرت الصحافة الأمريكية انتقاداته المناهضة لأمريكا، والتي زادت من افتتان أمريكا بهذا الثوري (revolucionario)[12] الملون. انضم عدد من المغامرين اليانكيز[13] إلى صفوف قواته. كان واحدٌ منهم سام دريبن «اليهودي المقاتل»، وهو سمسار في بورصة نيويورك، تحوّل إلى خبير في المتفجرات وأطلق على نفسه اسم «Dynamite Devil» شيطان الديناميت، وانضم إليهم شخص آخر كان أحد رعاة البقر في تكساس والذي أصبح في وقت لاحق نجماً كبيراً من نجوم أفلام الويسترن، وهو توم ميكس. ساعد أمريكيون آخرون الثورة بطرق مختلفة. كانت إحدى الوقائع النموذجية هي قضية المدفع البرونزي، وهو نصب تذكاري للحرب الأهلية الأمريكية كان موجوداً أمام مبنى بلدية مدينة إل باسو. قام المتعاطفون مع فيا بسحب المدفع من قاعدته، وربطه بسيارة، وسحبوه عبر الجسر الحدودي. كان عليه أن يلعب دوراً حاسماً في معركة منطقة سيوداد خواريز، وهي ملتقى لخطوط سكة حديد استراتيجية. لم تكن لدى ماديرو، وهو سياسي حقيقي، الرغبة في إراقة الدماء وكان على استعداد للتخلي عن الهجوم عندما ظهر فيا. «من المخجل أن نتقاعد من دون قتال»، هكذا أعلن السيد بيستول بانشو. أرسل رجاله على طول قناة للري كانت بدون حراسة. من هناك بدؤوا بمهاجمة الحامية العسكرية المبنية من طوب الطين وبيوت المدينة. عندما سمع ماديرو الطلقات، شحب لونه، كان يعتقد أن قواته تعرضت إلى هجوم. أرسل أحد مساعديه وهو يرفع الراية البيضاء لكي يوقف القتال. لم يتقدم كثيراً، فقد أطلق رجال فيا النار عليه. استشاط ماديرو غضباً، أما فيا فلم يكن نادماً مبرراً ذلك بالقول: «في بعض الأحيان لا يستطيع قائد مدني رؤية

12- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

13- مصطلح يستعمل في أمريكا للإشارة إلى سكان نيو إنغلاند خصوصاً ذوي الأصول الإنكليزية. ويطلق على سكان الولايات الشمالية عموماً.

ما هو واضح لمرؤوسيه العسكريين». عند هذه النقطة، توقفت سيارة، كانت تسحب مدفع بلدية إل باسو رمز الحرب الأهلية. أُطْلِقت أول قذيفة مدفعية لقوات فيا – وأخطأت مدينة سيوداد خواريز تماماً. وكانت القذيفة الثانية مرتفعة للغاية، ولكنها أحدثت حفرة في خزان المياه في المدينة. وسيؤدي الافتقار لاحقاً للمياه إلى استسلام الحامية الفيدرالية. أما المراقبون العسكريون الأجانب، الذين كانوا يشاهدون لأول مرة قتال جيش فيا، فقد غضبوا من قلة الانضباط وأساليب القتال غير التقليدية لدى الثوار revolucionarios، فقد كانوا كلما أرادوا القيام بهجوم، يدخلون ويخرجون كما يحلو لهم. كان الكثير من الرجال المتحمسين الذين يتبخترون بسراويل الفلاحين المصنوعة من القطن الأبيض (calzones) يقاتلون بدون خطة وبالتأكيد بدون تنسيق، وكانوا يحتفظون برصاصاتهم لعمليات الإعدام الجماعية التي ستعقب استسلام المدينة. وعندما يكتفون من القتال والصراخ، كانوا يجلسون في الظل لتناول الطعام والشراب، أو أخذ قيلولة. ومع ذلك، كان هذا هو المنطق السليم. بينما كان أفراد الحامية المحاصرة يفتقدون النوم وقد تدنت معنوياتهم، كان المتمردون دائماً في قمة حيويتهم. عند غروب الشمس توقفت جميع عمليات إطلاق النار، حيث لم يسبق للمكسيكيين أن قاتلوا في الظلام أبداً[14]. في سيوداد خواريز، توصل بانشو الداهية إلى طريقة أخرى لإنقاذ أرواح رجاله: طلب منهم الدخول إلى المبنى الأول من ضمن صف من المنازل، ثم يشقون طريقهم باستخدام الديناميت من خلال الجدران الفاصلة لتوصلهم مباشرة إلى وسط المدينة. بعد يومين من القتال، أصبحت مدينة سيوداد خواريز في أيدي أتباع فيا. توقف إطلاق النار وبدأ النهب. بدأ أفراد قوات فيا يتبخترون وهم يرتدون القمصان الحريرية والأحذية الجديدة التي تحدث صوتاً، بينما كان على الفيديراليين federales (أفراد القوات الحكومية) دفن موتاهم في مقبرة

14- مما رواه تيموثي تيرنر، مراسل صحيفة الباسو تايمز.

جماعية. وماديرو، الذي لم يشترك في تحقيق النصر، دخل إلى البلدة قائداً مظفراً ومنتصراً. امتلأت البلدة بالناس من كلا جانبي الحدود. أخذ العديد من سكان تكساس هدايا تذكارية معهم، بما في ذلك مرض التيفوس.

لا يمكن قياس التأثير الناجم عن سقوط سيوداد خواريز إلّا بتفحص ما حدث بعد ذلك. انهارت معنويات أفراد القوات الحكومية (federales) الفدراليين. استسلمت معظم المدن بدون قتال. تولى المتعاطفون مع ماديرو مهام السلطة التنفيذية في المناطق المحررة، فيما شرع أتباع فيا المنتصرون في القيام بثورة دموية عبر مناطق الريف. تجمع حشد كبير من أنصار ماديرو في زوكالو بلازا الساحة العامة في عاصمة البلاد. وأطلقت المدافع من طراز مكسيم -التي نصبها الحراس الشخصيون لدياز على سطح القصر الوطني- النار على الحشود وقتلت مائتي فرد منهم. أشار حمام الدم هذا إلى نهاية الدكتاتور دياز، فقد هرب إلى ولاية فيراكروز حيث صعد إلى الباخرة الألمانية (Ypiranga) إيبيرانغا التي سرعان ما ستكتسب سمعة سيئة لسبب غاية في الشر. قام ماديرو بتنصيب الجنرال دي لا بارا رئيساً مؤقتاً. وفي حين أن السياسيين في العاصمة تزاحموا من أجل المناصب، وقاموا بتقسيم الغنائم والوظائف المريحة، قام بانشو فيا بحل قواته، واستقر في مدينة تشيهواهوا، وفتح شركة للحوم. لم يجرؤ أحد على البحث عن مصدر قطعان الماشية التي كان يملكها ويبيعها عبر الحدود في تكساس.

شكل إيمليانو زاباتا تحدياً خطيراً لزمرة السلطة الجديدة. أرسل الجنرال دي لا بارا قوات فيدرالية تحت قيادة الجنرال فيكتوريانو ويرتا إلى مقاطعة موريلوس لنزع سلاح أتباع زاباتا. وبالنظر إلى طموحات هذا الجنرال المتشدد في السلطة، فقد كانت خطوة غير حكيمة وأرسلت البلاد إلى أتون الحرب. اعتقد ماديرو بإخلاص أنه يستطيع تحقيق سلام دائم، وأقال الجنرال ويرتا قبل أيام فقط من الانتخابات العامة.

انتُخِب ماديرو رئيساً جديداً للمكسيك. وخلال حفل الافتتاح، همس السفير الألماني هينتز في أذن زميله الأمريكي: «تذكر كلماتي، في النهاية سيتعين عليكم التدخل» وقد ثبت أنه كان على حق».

لم يكن السلام مضموناً في المكسيك، فقد أسس متمرد لا يعرف الرحمة، هو باسكوال أوروزكو، قوته المتوحشة colorados[15] وساد عهد الإرهاب، والاغتصاب، والنهب، والقتل. وقعت مستعمرة بأكملها يسكنها المورمون[16] ضحية لهم... لم يكن بانشو فيا يشعر بأي ود لباسكوال أوروزكو. فقد أغلق محلاته لبيع اللحوم، وجمع قوة من 500 فرد، واتجه نحو بلدة بارال. وبعث رسالة إلى قائد القوات الحكومية جاء فيها. «إذا كنت موالياً للرئيس ماديرو، اخرج واستقبلني. إذا لم تكن كذلك، اخرج وقاتلني. على أي حال، أنا قادم. (توقيع) بانشو فيا. كان تهديده كافياً لفتح البوابات. ألقي القبض على شخص أجنبي (gringo) يعمل في خدمة فيا يدعى توم فونتين، بواسطة قوات الكولورادو(colorados) التي يتزعمها باسكوال أوروزكو وبدلاً من أن يقوم أوروزكو بإعدامه ويخاطر بتعرضه لاحتجاج أمريكي شديد، سلمه دولاراً فضياً وأخبره أنه حرّ في الذهاب وتناول وجبة إفطار. ثم اصطف ضباط أوروزكو على الرصيف واستخدموا فونتين ليكون هدفاً يتمرنون عليه. بعد ذلك، خطف أوروزكو قاطرة، محشوة بالديناميت، وأرسلها لتندفع بسرعة نحو قطار القوات الفيدرالية. اضطر الرئيس ماديرو إلى الاستعانة مرة أخرى بخدمات الجنرال المكروه فيكتوريانو ويرتا، ذي قصة الشعر القصيرة والنظارات ذات الإطار الفولاذي، لتولي مسؤولية قواته الفيدرالية. وبهذه الخطوة، وقّع ماديرو على شهادة وفاته بنفسه.

كان فيكتوريانو ويرتا، جنرالاً ذا كفاءة عالية، ولكنه من ناحية

15- كان يصفهم الأمريكيون بأنهم «ذوو الرايات الحمراء»، وكانوا نخبة من راكبي الخيل أطلق عليهم هذا الاسم بسبب بذلاتهم الحمراء المتربة.

16- مجموعة دينية وثقافية متعلقة بالمورمونية، وهي ديانة انتشرت في أمريكا في أواسط القرن التاسع عشر. المترجم.

أخرى كان وغداً للغاية، واستمر على هذا المنوال. أصبح التخلص من كل الثوار، بما في ذلك أولئك الموالين لرئيسه، مهمته المباشرة. فقد انقض على بانشو فيا المطمئن وحكم عليه بالإعدام بتهمة حيازة حصان مسروق. عندما تمّ اقتياد بانشو فيا إلى جدار الإعدام[17]، اندفع فارس يحمل رسالة نحو ويرتا ليسلمها له. كانت من الرئيس ماديرو، وتتعلق بوقف تنفيذ حكم الإعدام، وهكذا أصبح فيا واحداً من القلائل الذين واجهوا فرقة الإعدام بالرصاص في المكسيك وعاشوا للحديث عنها. «عندما كنت واقفاً في الميدان صعد رقيب الفصيل إلى الجدار ورسم صليباً عليه بالطباشير. ثم أمرني بالوقوف بمحاذاة علامة الصليب. لم أستطع الاستمرار في البكاء لأن الدموع ختنقتني. دفعني الرقيب بقوة نحو الجدار. ألقيت بنفسي على الأرض، وأنا أتظاهر بالتسول، لكنني كنت أقاتل فقط من أجل كسب الوقت. صرختُ: «لماذا أعدم؟ لقد خدمت حكومتي بإخلاص».

اقتيد فيا وكان لا يزال يعاني من الصدمة للوقوف أمام الجنرال ويرتا، الذي حدّق بوجهه من خلال نظارته. سأل بانشو: «لماذا؟»

بعدها تحدث ويرتا بلهجة متكبرة: «الأمر ببساطة يتعلق بالشرف». شرف السيد النبيل، ضابط أبيض يعاقب مستيزو وضيع. استدار الجنرال ليغادر المكان دون أن يلقي نظرة أخرى على سجينه، وأمر بترحيل فيا إلى السجن العسكري في مكسيكو سيتي.

في حين كان الجنرال فيكتوريانو ويرتا مشغولاً بسحق باسكوال أوروزكو، وبالتالي أصبح الرجل القوي الجديد في المكسيك، عقد بانشو فيا صفقة مع مأمور السجن ليفتح له باب زنزانته. في يوم عيد الميلاد عام 1912، خرج من السجن بكل جرأة، ودخل سيارة كانت بانتظاره، اتجهت خارج المدينة. سارت الأمور على ما يرام لأربعين كيلومتراً حتى واجهت السيارة حاجزاً عسكرياً. وبجرأته التي كان معروفاً بها، تصرف

17- توجد صورة لهذا المشهد.

بانشو مثل سيد ثري متغطرس (hacendado)[18] وتظاهر بالغضب بسبب التأخير: «سوف أشكوكم عند العقيد المسؤول عنكم». بهذه الحيلة شقّ فيا طريقه من أمام الجنود المرتبكين. في 2 كانون الثاني 1913، عبر الحدود الأمريكية طلباً للجوء في فندق حقير يدعى الباسو، حيث أجرى مقابلات مع الصحفيين الأمريكيين.

في شباط 1913، اندلعت الثورة من جديد في العاصمة. أجبرت قاذفات المدفعية ورصاص القناصة المواطنين على البقاء في الشوارع. أمر الرئيس ماديرو باستقدام 4000 جندي إضافي لأجل الدفاع عن القصر الوطني. لكنه اختار القائد الخاطئ. قام الجنرال أوريليانو بلانكيه، وهو من رجال ويرتا، بسحب مسدسه وصوّبه نحو صدر رئيسه قائلاً: «أنت معتقل». وصل فيكتوريانو ويرتا إلى القصر وأرسل برقية تقول: «كوني توليت مسؤولية الحكومة. فإن ماديرو سجين عندي. خرجت سيارتان من بوابة القصر. في السيارة الثانية ركب ماديرو المخلوع. وبينما استدارت القافلة نحو إحدى زوايا القصر، حتى لا تكون تحت أنظار المصورين المتجمعين، دوّى صوت إطلاق رصاص. واندفع الصحفيون نحو الزاوية ليجدوا ماديرو ممدداً في مقعده. وألقى الضابط المسؤول عن مرافقته، النقيب فرانسيسكو كارديناس، بياناً موجزاً: «مات ماديرو. حاولوا إنقاذه لكنه كان قد أصيب بإطلاق النار». لم يتمّ إثبات ضلوع ويرتا في عملية الاغتيال.

جرت الانتخابات في أمريكا. وكان رئيس الولايات المتحدة الليبرالي، وودرو ويلسون، ينظر إلى ويرتا البالغ من العمر 39 عاماً بكونه مغتصباً للسلطة وكذلك قاتلاً لرئيسه المنتخب قانونياً. كان ويلسون مصمماً على أن يجعل منه مثالاً على إعادة بناء القيم الديمقراطية في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية. لم يكن بحاجة للتدخل. تولى فينوستيانو كارانزا حاكم ولاية كواويلا، رئاسة حركة مناهضة لويرتا. انضّم رجل

18- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

آخر إلى قضية الثورة وكان شخصاً ثرياً (hacendado)[19] يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، وهو ألفارو أوبريغون، سليل الثوري الشهير، ميغيل أوبريغون، المعروف أكثر من أيام مشاركته في التمرد في أيرلندا باسم مايكل أوبراين. وسار في أثر بانشو فيا. قام باجتياز نهر ريو غراندي مع ثمانية مؤيدين فقط. توافدت الحشود مسحورة باسمه للانضمام لقواته، بما فيهم النساء. وكانت كلما فقدت واحدة من تلك المجندات (soldaderas)[20] زوجها في المعركة، بكت، ثم اصطحبت رجلًا آخرَ إلى فراشها. في مدينة كاسا غرانديس، أمسك فيا أربعمائة فرد من الكولورادوز (colorados) أتباع باسكوال أوروزكو وجعلهم يقفون في ثلاثة صفوف الواحد وراء الآخر، وأطلق النار عليهم وهم في الصفوف لكي يوفر الرصاصات الثمينة. ولتمويل عملياتهم العسكرية، قام رجال فيا بسرقة قطعان الماشية، ومبادلتها في تكساس بالأسلحة والرصاص[21].

عرض الرجل النبيل فينوستيانو كارانزا، على المستيزو (ابن الملونين)، بانشو فيا، إقامة تحالف، وقد التقيا. ووصف فيا بعد ذلك لقاءهما «مع الكلمات الأولى التي تحدث إليّ فيها كارانزا، تجمد دمي. لم ينظر في عيني. منذ البداية، كنت أعرف أنه ليس حليفاً لي ولكنه منافساً». تنامى جيش فيا والأتباع الثمانية الأصليون أصبحوا ثمانية آلاف. عند تجنيد أتباعه، لم يكن فيا يميز بين الثوريين الحقيقيين والقتلة المسعورين. ومن الأمثلة السيئة على ذلك، رودولفو فييرو، الذي عمل اختصاصياً في السكك الحديدية لدى فيا، وكان سفاحاً قاسياً. في حادثة واحدة، قام شخصياً بإعدام 300 فردٍ من قوات الكولورادوز وكان لا يتوقف إلا لمدة كافية لتدليك إصبع زناد البندقية المنهك.

كان هدف فيا التالي هو بلدة توريون، التي كان يسيطر عليها ألفا

19- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

20- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

21- استفاد العديد من سكان تكساس من الثورة المكسيكية لوضع أساس لثرواتهم.

فرد من القوات الحكومية (federales) بقيادة الجنرال ويرتا و3000 من القوات الإضافية. وقد استولى على ثلاثة عشر مدفعاً وست مدافع رشاشة ونصف مليون رصاصة وقطار سكة حديد مدرع وعشرات من القاطرات. تمّ تجميع الضباط المحتجزين في صفوف وأُطلقت النار عليهم. وفي بادرة حوّلته إلى نوع من روبن هود، فرض فيا ضريبة على رجال الأعمال في المدينة؛ ووزع الأموال على الفقراء. منحه انتصاره في توريون فرصة ليمنح جيشه فترة راحة. وأصبح منزله ومقرّ قيادة فرقته في الشمال عبارة عن عربة للسكك الحديدية مطلية باللون الأحمر[22]. كان فيا يجلس ومن خلفه ستارة مطرزة بالألوان، يستقبل جحافل من طواقم العاملين في إنتاج الأفلام الأخبارية الأمريكية القصيرة الذين توافدوا إلى معسكره لتصوير ذلك الثوري الأسطوري. كان «جيشه المتدفق» يعسكر في كل مكان متاح، في داخل عربات السكك الحديدية وفوقها. وكانت المجندات Soldaderas يصنعن الترتية[23] لأزواجهن على نار القاطرات. خلال النهار، كان الرجال يضعون مظلات لحماية أنفسهم من الشمس، ويطلقون النار على كل شيء داخل نطاق مداهم، من نبات الصبار إلى حيوان القيوط. اضطر أولئك الذين سقطوا من العربة أثناء نومهم (أو من جرعة زائدة من مشروب التكيلا) إلى انتظار أتباع فيا على طول الطريق.

في حين جعل هذا الحشد المتنقل الريف مكاناً غير آمن، كان الديكتاتور ويرتا يعاني من نقص في القوى البشرية. اخترع مجنّديه وسائل بارعة لتجنيد الرجال في القوات الفيدرالية. أحدها هو عرض أفلام «للرجال فقط»، ثم تجميع المشاهدين ومحاصرتهم وجعلهم يرتدون بزات رسمية للقتال وإرسالهم لمحاربة جيش «فيا» الذي كان

22- لم يكن بانشو، الذي اشتهر بزيجاته الكثيرة، يبتعد عن زوجته الأخيرة أبداً. في إحدى المرات كانت هناك على الأقل ثلاث من زوجاته يعشن في المدينة نفسها.. عندما مات بانشو، ادعت خمس نساء أنهن أرامله الشرعيات.

23- كعكة مسطحة مدورة من دقيق الذرة. المترجم.

يتحرك حينها في سيوداد خواريز. قرر أن يستولي على المدينة الحدودية بالحيلة، مما يدل على إبداعه وعبقريته العسكرية. ركب مع اثنين من الرجال إلى محطة يتوقف القطار بالإشارة فيها على خط تشيهواهوا - سيوداد خواريز. وهناك وضع مسدساً على رأس عامل التلغراف وأمره أن يبعث برسالة إلى القائد العسكري في خواريز: «تمّ تدمير الخط إلى تشيهواهوا، أرسلوا فوراً قطاراً للتصليح». عندما وصل قطار التصليح، تم إرسال رسالة أخرى: «المتمردون على وشك الوصول. ما هي أوامركم الجديدة؟». فاق الأمر كل توقع وصدرت الأوامر للقطار بالعودة فوراً إلى سيوداد خواريز. قام فيا بحشو العربات بمقاتليه؛ عبر حصان طروادة هذا دفاعات المدينة ووصل إلى قلبها. جاءت المقاومة الخطيرة الوحيدة من المقامرين الأمريكيين في الكازينو الذين تمّ الاستيلاء على نقودهم. استولى فيا على المدينة دون أن يفقد رجلاً واحداً. تمّ إعدام ضباط ومسؤولي ويرتا. ولأجل أن يظهر للأمريكيين الموجودين عبر النهر بأن كل شيء جيد في المدينة، أمر فيا الفرقة العسكرية التي قام بالاستيلاء عليها بإقامة عرضٍ على طول ضفة النهر، حيث كانت تعزف نشيد «الراية الموشحة بالنجوم وهو النشيد الوطني الأمريكي»[24].

أرسل ويرتا آخر قواته الاحتياطية، ولكن قبل أن يُتاح لها الوقت للانتشار، قام رودولفو فييرو، المعاون الخاص لفيا، بتدمير جسر للسكك الحديدية. كانت مدينة تييرا بلانكا (الرمال البيضاء) تبدو مثل مدينة في أحد أفلام الويسترن الهوليوودية: خط السكك الحديدية يمتد إلى الصحراء التي لا نهاية لها. يرتفع خزان مياه على جانب السكك الحديدية؛ وهناك ثلاثة منازل وحانة ذات أبواب متأرجحة وعدد قليل من الحمير مربوطة بعمود التلغراف. أبقى فيا رجاله مختبئين خلف هلال من الكثبان الرملية الصحلة. تصرف الفدراليون تماماً كما توقع فيا: اندفعوا نحو الجوانب في هجوم مركز. شاهدهم فيا من خلال منظاره

24) كانت مجلة كولير تدعوها «الزعامة مثلاً».

وعندما أنزل يده، تصاعدت النيران من البنادق والمدافع. ارتفعت نوافير من رمال الصحراء. خرجت جحافل من مقاتلي فيا وهي تعوي بجنون من وسط الغبار. قام أفراد سرايا بكاملها من قوات الفدراليين بإلقاء أسلحتهم وهربوا نحو قطارهم العسكري، الذي كان متوقفاً على خط السكة الحديد. ركب فييرو حصانه ليلحق بالقطار الفار. قفز من حصانه كما يحدث في أفضل لقطة فيلم ويسترن هوليودي نحو القطار، وبدأ يقفز من سطح عربة قطار إلى أخرى حتى وصل إلى القاطرة، وأطلق النار على المهندس ورجل الإطفاء، وفصل أسطوانة المكابح وأوقف العربات. في عمل وحشي لا معنى له ذبح رجال فيا كل جندي كان على متن القطار. وأمام الصحفيين الأمريكيين المذعورين، برّر فيا ذلك العمل بالضروري «لزرع الرعب في قلب العدو، حيث سيهرب الآخرون دون إبداء مقاومة إضافية». من الناحية العسكرية، كان تقييمه صحيحاً: بعد ثلاثة أيام استسلمت حامية تشيهواهوا دون إطلاق رصاصة واحدة. ولكن من الناحية الإنسانية، كان لا يمكن الدفاع عن هذا الإجراء. سبح ما تبقى من قوات ويرتا عبر نهر ريو غراندي واحتُجزوا في الموقع العسكري في فورت بليس، في ولاية تكساس.

قرر فيا أن يتخذ من تشيهواهوا مقراً له. كان أول عمل قام به هو طرد الإسبان الموجودين في البلدة، الذين كان يعتبرهم من ملاك الأراضي الأغنياء (rico hacendados)[25]، والذين يمثلون الطبقة التي كان يحتقرها منذ سنوات طفولته التعيسة. اضطرت مائتا أسرة لعبور 500 كيلومتر من الصحراء سيراً على الأقدام. لقد واجه أفرادها شمساً حامية، وثعابين سامة، ونباتات صبار حادة. نجا عدد قليل منهم من «مسيرة الموت إلى توريون» تاركين وراءهم مقتنيات وجثث الآخرين.

أسس فيا صحيفته الخاصة وطبع مليوني نسخة من صحيفة «فيا بيسو». «الآن لديّ كل المال الذي أحتاجه»، هكذا تفاخر فيا أمام مراسل

25- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

صحفي أمريكي وهو يريه الصناديق المحشوة بالأوراق النقدية التي لم يجف حبر طباعتها بعد. لقد جعل رجاله يديرون محطات الطاقة، والمطاحن، وبدالة الهاتف. «إن الشيء الوحيد الذي ينبغي فعله مع الجنود في وقت السلام هو جعلهم يعملون»، كانت فلسفته تقول: «الجندي الذي بلا عمل يفكر دائماً في الحرب والقتل». شجعه نجاح هجومه على الفرسان في تييرا بلانكا، على أن يقضي الوقت في تشكيل سلاح النخبة، الذي أطلق عليه اسم دورادوس[26] dorados، والذي سيشكل عنصراً أساسياً في انتصاراته المستقبلية.

وحدث أخيراً ما كان متوقعاً منذ فترة طويلة. دخلت الثورة المكسيكية إلى مسرح الأحداث الدولية. ويرجع ذلك أساساً إلى قرارات السياسة الخارجية غير الحكيمة التي اتخذتها واشنطن، والتي كانت تدفع أمريكا إلى دخول الحرب العالمية الأولى. في خطوة مفاجئة، رفع الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون الحظر الأمريكي على الأسلحة إلى متمردي كارانزا، ووقفت ألمانيا على الفور إلى جانب الرئيس ويرتا. استغل الألمان بذكاء خطوة ويلسون، وقاموا بتصويرها كخطوة أولى لأمريكا لضمّ جميع الأراضي الواقعة بين تكساس وبنما من أجل تأمين وصولها مباشرة إلى قناة بنما المقامة حديثاً. وجد هذا الرأي صدى مدوياً له في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية ولعب دوراً حاسماً في سياسات دول الأمريكيتين لسنوات عديدة قادمة. أدّت سلسلة من الأحداث غير المرتبطة إلى أن تصل الأمور إلى ذروتها. أبحرت من ألمانيا، ثلاث سفن وهي يبيرانغا وبافاريا وكرونبغيزيسن سيسيليا محمّلة بالأسلحة إلى الفدراليين في المكسيك، وكان لصفقة الأسلحة الألمانية هذه تداعيات سياسية أكبر، لأنها حثّت الولايات المتحدة على حماية مصالحها كما حدّدها مبدأ مونرو. والذي صُمّم أساساً للدفاع عن مصالح أمريكا الاقتصادية في أسواق أمريكا اللاتينية من تدخل التجار الإنكليز، فقد

---

26 يعود هذا الاسم إلى وجود شارة ذهبية على قبعاتهم.

حظر على القوى غير الأمريكية التدخل في شؤون نصف الكرة الغربي.

كان الألمان يتلاعبون ببانشو فيلا كيفما شاؤوا. حدثت مواجهة بين وليام بنتون -وهو رجل اسكتلندي قوي الإرادة وصاحب إمبراطورية الماشية في المكسيك- وبين فيا على بعض القطعان المسروقة فقال له: «خذ سارقي الماشية أتباعك وارحلوا من أرضي بحق الجحيم». لم يكن بانشو فيا يقبل أن يتحدث معه أحد بهذه الطريقة، فأمر مساعده فييرو بإطلاق النار على بنتون. أثار مقتل مواطن بريطاني موجة من الاستنكار، وفكرت إنكلترا في إرسال قواتها البحرية. وقد أدخل هذا الأمر السرور على قلوب الألمان، حيث بدأت تلوح في الأفق سحابة الحرب في أوروبا.

وبينما اندفع فيا جنوباً، انتقلت قوة يقودها كارانزا لمواجهة القوات الفيدرالية التي يقودها ويرتا في مدينة تامبيكو الساحلية، حيث كانت ترسو سفن الفرقة الخامسة للبحرية الأمريكية بقيادة الأدميرال هنري تي. مايو كما كانت حاضرة هناك السفينة البريطانية أش أم أس هيرميون والطراد الألماني دريسدن. كان «حادث تامبيكو» شأناً سخيفاً زاد سوءاً بسبب عناد الأدميرال الأمريكي. فقد ألقي القبض على طاقم سفينة تابعة للبحرية الأمريكية، انتقلت إلى الشاطئ للتزود بالوقود، من قبل جنود القوات الفيدرالية، ثم سرعان ما تمّ الإفراج عنهم وتقديم الاعتذار المناسب إلى الأدميرال قائد الأسطول الأمريكي. أصرّ الأدميرال مايو المتعنت أن ترفع الراية الموشحة بالنجوم[27] فوق تامبيكو، وأن يتم بالتزامن مع ذلك إطلاق 21 إطلاقة مدفع تحية لها. نظراً لعدم أهمية الحادث، رفض القائد المكسيكي - وهو محق- هذا الطلب. هذا الحادث لفت انتباه واشنطن فوراً إلى التقرير الذي قدّمه القنصل الأمريكي في مدينة فيراكروز الساحلية، وذكر فيه أن السفينة الألمانية يبيرانغا قد توجهت إلى الميناء وهي تحمل 200 مدفع رشاش و15 مليون خرطوشة لجيش ويرتا. وفي فعل يذكرنا بسياسة الزوارق الحربية البريطانية في القرن التاسع عشر،

27- العلم الأمريكي. المترجم.

صدرت الأوامر إلى قوة من البحرية الأمريكية لوقف السفينة التجارية. اعترضت البارجة يو إس إس يوتا السفينة يبيرانغا. برّر الرئيس ويلسون هذا العمل المقرصن كرد على الإهانة المزعومة للعلم الأمريكي في تامبيكو قائلاً: «ليس لدي أي حماس للحرب، لكني أتحمس كثيراً لمعاقبة من يعتدي على كرامة الولايات المتحدة». جعل هذا الحدث الدول المجاورة في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية تشعر بالخوف.

في 21 نيسان 1914، نزل ثلاثة آلاف جندي من مشاة البحرية الأمريكية على الشاطئ للاستيلاء على دائرة الجمارك ومحطة السكك الحديدية في مدينة فيراكروز الساحلية، مما اضطر القوات الفيدرالية التي يقودها ويرتا إلى الانسحاب. لم يصمد سوى طلاب الأكاديمية البحرية وعانوا من خسائر فادحة عندما قصفتهم مدافع ثلاث طرادات أمريكية هي يو أس أس برايري ويو أس أس سان فرانسيسكو ويو أس أس شيستر. فقد المكسيكيون مئات الرجال، فيما شملت الإصابات الأمريكية 19 فرداً فقط. كان رد فعل ويرتا مفهوماً أنه موقف تحدٍّ، وحملت صحف أمريكا اللاتينية عنواناً عريضاً: «(VENGENZA!) الانتقام» وحتى كارانزا، الذي لم يستفد أحد غيره من التدخل الأمريكي، حذّر واشنطن من أن المكسيك لا تريد أن تنجرّ إلى صراع غير متكافئ. استشاط فيا غضباً كان دائماً يكره الغرينغو[28]، والآن ها هم قد تجرؤوا على غزو بلاده والتدخل في الشؤون التي لا تهمهم. ومع ذلك، توجّه الأدميرال تويدي قائد الطراد الأمريكي أش أم أس إسيكس إلى العاصمة مكسيكو سيتي لنقل 800 مواطن أمريكي إلى بر الأمان، فيما أصدر الرئيس ويلسون أوامره بتعبئة الجيش الأمريكي! وبعد تعرضه للهجوم من قبل الولايات المتحدة، وللمضايقات من قبل زاباتا وفيا أصبح الديكتاتور ويرتا في حكم المنتهي.

أصبح فيا رجل الساعة، والأمل الوحيد لجميع أولئك الذين اجتاحهم

28 - مصطلح يشير إلى الأمريكان. المترجم.

غضب مجنون من الكراهية بين الأخوة والذي دمّر ماضيهم وجعل مستقبلهم مظلماً. قام فيا بتوزيع المواد الغذائية على موجات اللاجئين الذين غادروا القرى التي لم تعد توفّر لهم الطعام أو المأوى، ناهيك عن الأمن. وكما هو الحال دائماً، عانى المدنيون أكثر من غيرهم. ومع ذلك ورغم أنهم حاولوا جاهدين تجنب الوقوف مع أي جانب، فإن وحش الحرب افترسهم. فإذا رفضوا مساعدة الثوار، فسيتم تصفيتهم بدون رحمة، وإذا ساعدوا الثوار، فإن الفيدراليين سيأتون ويبيدونهم. لقد علق الناس البسطاء وسط عجلات سفينة كانت تسحق كل شيء تلمسه.

كان بانشو فيا، مع شاربه المتدلي على شفتيه وكرشه، في ذروة شعبيته. وتمّ الاعتراف به في كل مكان وكانت تتمّ تحيته بحماسة بهتاف عاش فيا «Viva Villa» الذي أصبح مشهوراً للغاية. هذا الأمر أثار غيرة مجنونة لدى كارانزا، إلى درجة عالية لا تتناسب إلّا مع طموحه السياسي. وهذا هو السبب الذي جعله يأمر فيا بالتخلي من مسيرته إلى عاصمة البلاد، حيث يخشى أن ينتهي المطاف بهذا الميستيزو في القصر الوطني وأن يستولي على الرئاسة بنفسه. عندما قام مبعوث من كارانزا بتسليم هذا الأمر إلى فيا، أغضبه ذلك بشدة لدرجة أنه كان أمامه اثنان من ضباط ويرتا اللذين أُلقي القبض عليهما. فسارع بإخراج مسدسه، وأطلق النار عليهما، وتركهما مستلقيين تحت الشمس، فقط ليعلِّم أولئك السياسيين (politicos) درساً. خاطب بانشو مبعوث كارانزا وهو يزأر: «يريد سياسيوك الذين يتناولون الشوكولا أن ينتصروا دون تذكّر ساحات المعارك المليئة بالدماء». لم تؤثر كلماته في كارانزا. انتشرت الكلمات الغاضبة على طول أسلاك خطوط التلغراف، وبلغت ذروتها حينما قدم فيا استقالته من منصبه كرئيس لجيش الشمال الثوري. أضاف «الجنرال أنجلس»، نائب فيا، ملاحظة بأسلوبه الفريد: «سينيور كارانزا، أنت ابن عاهرة». ثار ضباط فيا ولم يقبلوا بخفض رتبة جنرالهم. وبصحبة 23 ألف رجل، اقتحم بانشو مدينة زاكاتيكاس لإمداد جيشه بالتجهيزات والمواد من مخازن القوات

الفيدرالية التي تمّ الاستيلاء عليها[29]. وفي هذه الأثناء، مع تحرك قوات فيا من المحيط الأطلسي في الشرق وقوات أوبريغون من المحيط الهادئ في الشمال، وقعت مدينة مكسيكو في مأزق. في 17 تموز 1914، فرّ الرئيس ويرتا إلى إسبانيا على متن السفينة الألمانية دريسدن، قبل بضعة أيام من «حلول الظلام في جميع أنحاء أوروبا».

في 15 آب، تغلب الجنرال ألفارو أوبريغون على بانشو فيا في السباق للوصول إلى العاصمة مكسيكو سيتي، وباتت حينها القوة الثورية الوحيدة غير المنحازة التي تؤخذ في الحسبان هي قوة إيمليانو زاباتا. اشتبك جنود كارانزا مع قوات زاباتا في مواجهة غير سهلة، بينما كان أوبريغون، وهو أكثر جنرالات الثورة فطنة، يجتمع مع فيا لإغرائه بالعودة إلى معسكر كارانزا، وبالتالي سيحافظ على وحدتهم الثورية. وافق فيا، بشرط أن يقوم كارانزا بالدعوة إلى إجراء انتخابات عامة ولا يترشح لمنصب الرئيس. وافق أوبريغون بسهولة دون أن يتحقق من الأمر مع كارانزا وبينما كانوا يتناولون طعام الغداء معاً، وصلت الأخبار بأن قوات كارانزا قد هاجمت رتلاً من قوات فيا. استبد الغضب ببانشو، وأمسك بتلابيب أوبريغون، وطلب استدعاء فرقة الإعدامات. وبينما قام رجال فيا بدفع أوبريغون باتجاه الجدار، هدأ «بانشو»، وبدلاً من القضاء على منافسه المحتمل، قدّم لـ «أوبريغون» مشروباً، وهي لفتة ندم عليها بمرارة. وقال بانشو: «إن مصير المكسيك في أيدينا أنت وأنا، أنا شخص بسيط (peón)[30] لكنك رجل متعلم، لذلك سوف تصبح رئيساً». وتصافحا على ذلك العهد.

وبدون حضور أوبريغون، اجتمع القادة الثوريون في مؤتمر أغواسكالينتس (الينابيع الساخنة). وقد عيّنوا فيا قائداً أعلى لجميع

---

29) في ولاية زاكاتيكاس، ألقي القبض على نائب القنصل البريطاني وواجه عقوبة الإعدام، ولكن فيا أوقف تنفيذها.

30) بالإسبانية في الأصل. المترجم.

قوات الفصائل المشاركة في المؤتمر، وهي خطوة أجبرت أوبريغون على الانضمام إلى كارانزا وإعلان الحرب على فيا. انتصر بانشو فيا، لولا حدوث أمر آخر، والذي جاء من مكان غير متوقع. فالرئيس الأمريكي ويلسون، الذي كان متردداً بشأن دعم أي جانب، أمر بسحب القوات الأمريكية من مدينة فيراكروز وتسليمها إلى كارانزا مما منحه قاعدة لشنّ عملياته.

بعدها جاء دور إيميليانو زاباتا ليزيد من أنشطته، واستطاع رجاله الصغار ذوو البشرة البنية الذين يحملون أحزمة تحوي الرصاصات حول بطونهم الهزيلة من احتلال مدينة مكسيكو، حيث قاموا بقرع الأبواب بأدب لطلب الطعام. أما فيا، الذي لم يكن يريد أن يتفوق عليه أحد، فقد تحرك هو أيضاً باتجاه المدينة. عُقد اجتماع تاريخي حيث التقى الثوريان المشهوران في مبنى مدرسة ريفية في بلدة سوتشيميلكو التي تقع خارج مدينة مكسيكو. جرى هذا الحدث الذي تمّ توثيقه وتصويره عن قرب في 6 كانون الأول 1914. أعقب عناقهم (abrazo)[31] الأخوي ذاك توترات في العلاقة بينهما بسبب مسائل تافهة، والتي تمّ حلها عندما تمكنا من الاتفاق على نقطة واحدة: سوف يدخلان إلى عاصمة البلاد وهما يسيران جنباً إلى جنب. بعد ذلك، غادرا بصحبة جيشيهما المكونين من 60 ألف فرد مما سمي بالمتعاهدين **Conventionistas** لسحق أوبريغون وكارانزا الدستوريين **Constitutionalistas**. تمّ الاتفاق على أن يتوجه فيا إلى الشمال نحو مدينة فيراكروز ويتجه زاباتا جنوباً من مدينة بويبلا. لم يف زاباتا ولا فيا بوعودهما. أمضيا ما تبقى من شهر كانون الأول كلّ في مكانه، بانشو في مدينة مكسيكو، وزاباتا في مدينة بويبلا. وحيث لم يكن هناك قتال يجعل رجالهما منشغلين، تحول هذا الوقت من الكسل إلى فترة من المشاحنات والاعتقالات التعسفية والإعدامات. كان دايفيد بيرلانغا، وهو أحد المتعاهدين،

31- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

يتناول العشاء في أحد المطاعم عندما رفض بعض «أفراد قوات فيا» -كانوا يجلسون في مائدة قريبة- دفع فاتورتهما. دفع بيرلانغا الحساب عنهم: «أنا ثوري ولا أريد أن أرى الزي الذي ترتدونه يصيبه العار». وبسبب هذه العبارة قام فييرو مساعد فيا المتعطش للدماء بإطلاق النار على بيرلانغا. وأخيراً توجه بانشو فيا إلى الشمال. ومع عدم وجود حماية للعاصمة، سار أوبريغون بجيشه المؤلف من 10 آلاف فرد إلى المدينة. هاجم زاباتا حلقة من الدفاعات الخارجية، وفجّر محطة ضخ المياه، مما حرم العاصمة منها. وتسبب ذلك في حالة من الذعر واجتاح وباء التيفوس العاصمة.

تحرك أوبريغون ضد تهديده الأكبر، بانشو فيا، الذي كان قد جمع الآن جيشاً ضخماً. وقد جعلته جرأته وسرعته يتنقل من نصر إلى نصر. لكن مع الجنرال ألفارو أوبريغون كان يواجه ندّاً له. كان تفوق فيا العددي لا يضاهي المعدات التي يملكها أوبريغون من المدافع الآلية الألمانية المنشأ، أقام الجنرال أوبريغون ومستشاره العسكري، الكولونيل ماكسيميليان كلوس، بالقرب من مدينة سيلايا شبكة من الخنادق المحمية بسلسلة من الأسلاك الشائكة، وهو نظام أثبت قيمته في ميادين القتال الدامية لفرنسا. ومن أجل تحسين معدل القتل، قام الكولونيل كلوس بتنظيم نمطٍ من خطوط النار المتشابكة، بحيث تضطر القوة المهاجمة إلى التعامل مع وابل كثيف من قذائف المدافع الرشاشة. أُعِدّ المكان لكي يشهد المعركة الأكثر دموية على الأرض الأمريكية منذ الحرب الأهلية الأمريكية.

في صباح يوم 13 نيسان 1915 وبالقرب من مدينة سيلايا، اشتبك 25 ألف فرد من قوات فيا مع 15 ألف فرد من قوات أوبريغون. وفي تكرار لتكتيكات الصدمة التي ثبتت جدواها، شنّت قوات النخبة الدورادوس (dorados) التابعة لفيا هجومها ما بين جسر السكة الحديدية وقاع النهر الجاف، وكان بمثابة عمل انتحاري في مواجهة نيران المدافع الرشاشة

المركزة. شنّت أمواج من أفراد الدورادوس -وهم يركبون خيولاً جبلية قوية، وقد أنزلوا قبعاتهم العريضة على وجوههم وارتفعت سيوفهم- هجوماً أعاد من جديد تمثيل هجوم اللواء الخفيف[32] على دفاعات أوبريغون المتداخلة. وقد قوبل الهجوم بقذائف المدافع الرشاشة لقوات أوبريغون الذي كان تأثيرها مدمراً. وخلال دقائق، كانت غالبية أفراد أفواج قوات «فيا» النخبة قد ماتوا أو أصيبوا بجروح بليغة. أولئك الذين تمكنوا من عبور حاجز الرصاص أصبحوا عالقين في الأسلاك الشائكة، حيث التقطهم القناصة. كانت هزيمة الدورادوس (dorados) وهم أفراد قوات «فيا» الذين كانوا مرعوبين قد اكتملت. في جولة اشتباكات واحدة، ضيع بانشو فيا قواته المحترفة وجعلها تتكبد أكثر من ألف قتيل.

بعد يوم من الراحة، جمع «فيا» جيشه المدمر وخطّط لهجوم جديد، استخدم فيه هذه المرة جميع قطع مدفعيته البالغ عددها أربعة وثلاثين. بدأ قصفه يتسلل باتجاه مواضع قوات أوبريغون، بحثاً عن أوكار المدافع الرشاشة. سقطت قذائف من مدفعيته الموجّهة ببراعة على أهدافها، فبعثرت سخانات الماء والأسلاك الشائكة. لقد تعلم أفراد قوات فيا الدرس، وهذه المرة تقدموا بإصرار مشياً على الأقدام، وبحوزتهم البنادق الرشاشة المتبقية، تمكن رجال أوبريغون من إبطاء حركة العدو. سقط أغلب أفراد قوات فيا صرعى، لكن جاء آخرون وهم يندفعون إلى الأمام، بغض النظر عن الخسائر في ما أصبح موجة هجوم بشرية، واصلوا التقدم، وهم يقفزون ما بين الأدغال، ومن خلال ستار من الفولاذ والنار.

كان الكولونيل كلوس في موقع المراقبة، عندما أشار أحد حراسه إلى أحداث دراما مرعبة تتكشف أمام خط خندقهم. تمّ قطع أعناق مجموعة

32- هو هجوم شهدته حرب القرم، قامت به قوات الفرسان البريطانية الخفيفة بقيادة اللورد كارديغان ضد القوات الروسية أثناء معركة بالاكلافا في 25 أكتوبر 1854. المترجم.

من أفراد القوات الفيدرالية. لقد قُتلوا وهم يفرون؛ ولكن لم يكن من بينهم ضابطهم، الذي أشارت بذلته إلى أنه كان برتبة عقيد. كان محاطاً بأشخاص يرتدون قبعات عريضة وقاموا بجرّ الرجل الذي كان يتعثر في مشيته معهم. لم يستطع كلوس فعل أي شيء لإنقاذه وأمر جندي المدفع الرشاش بإطلاق النار على المجموعة. ابتلع الشاب ريقه بصعوبة قبل أن يرسل مجموعة من إطلاقات الرصاص إلى العدو المتجمع، مما أسفر عن مقتلهم جميعاً، بما في ذلك العقيد. كانت تلك رصاصة الرحمة. مزق أفراد قوات فيا نعاله وجعلوه يمشي حافي القدمين وسط نباتات الصبار. لقد فعلوا ذلك من قبل.

أصبح الموقف حرجاً بالنسبة لقوات أوبريغون، لكن جنرالهم كان يخبئ مفاجأة أخيرة. إن وصول الفرسان الخيّالة من القوات الفيدرالية بقيادة الجنرال كاسترو البالغ عددهم 6000 شخص قد جاء في الوقت المناسب، فقد استحوذ على اهتمام جنود استطلاع قوات فيا. عندما ظهر خيالة الجنرال كاسترو واندفعوا من خلال الرمال المنبسطة، لم ينتظر فيا كثيراً وبدأ يهيئ (الدورادوس) أفراد قواته لشنّ هجوم مضاد. لقد بعثرت مدافع أوبريغون الرشاشة رجاله. كانت هزيمة فيا كاملة لدرجة أنه فقد ثلاثين من مدافعه الأربعة وثلاثين الثمينة. أكثر من 3500 رجل لقوا حتفهم وتمّ إلقاء القبض على 8000. بالنسبة لأوبريغون، لم يكن هناك وقت للاحتفال؛ لقد مات المكسيكيون من كلا الجانبين. في ذلك المساء، قدم الجنرال أوبريغون وهو يحدق في العديد من القتلى الذين تجمعوا في قبر مشترك، تحية أخيرة للقتلى، بينما جمع فيا ما تبقى من جيشه الممزق.

شكلت مدينة سيلايا بداية النهاية لبانشو فيا. كان عليه التراجع. وفي مدينة ليون، اشتبك مرة أخرى مع أوبريغون الذي كان على وشك أن ينتصر في المعركة عندما سقطت قذيفة بالقرب منه. أدى الانفجار إلى قطع ذراعه اليسرى. ولكونه خائفاً من الموت البطيء، حاول أوبريغون

إطلاق النار على نفسه. لحسن حظ المكسيك، لم يكن مسدسه محشواً. نجا من الموت وعانى فيا من نكسة أخرى. من تلك اللحظة فصاعداً تصاعدت الأحداث بسرعة ووصلت إلى ذروة تدويلها.

قاد فيا بقية أفراد قواته البالغ عددهم 6500 وتوجه إلى حامية كارانزا في مدينة أغوا بريتا، المتاخمةً للحدود مع الولايات المتحدة. وسيطر على خطوط السكك الحديدية، لذلك لم تتمكن التعزيزات من الوصول إلى خصمه المحاصر. بالنسبة إلى كارانزا، لم يكن هناك سوى حلٍّ واحد: نقل الرجال والذخائر عبر أراضي الولايات المتحدة. مرة أخرى، قامت واشنطن بعمل أخرق. واعترف الرئيس ويلسون بأن كارانزا هو زعيم المكسيك وسرعان ما تدفقت القوات المكسيكية على أغوا بريتا، وهي تنتقل على قضبان السكك الحديد الأمريكية وتسحبها القاطرات الأمريكية. خلال المعركة من أجل السيطرة على المدينة، كان فرسان فيا مدججين بالمدافع الرشاشة وأصيبت عيونهم بالعمى أيضاً بسبب اختراع جديد: الكشافات. وادعى فيا أن تلك الأشعة القوية صادرة من الجانب الأمريكي. لم يكن ذلك صحيحاً: كانت الكشافات موجودة داخل المكسيك؛ ومع ذلك، تمّ توفير الطاقة اللازمة لتشغيل الكشافات عبر الحدود. في طريق الانسحاب من أغوا بريتا، التقى رودولفو فييرو مساعد فيا بصانعها، وعندما تعثّر حصانه ألقاه في البحيرة. وقد غاص فيها بسبب حزام نقوده المثقل بقطع نقدية ذهبية مسروقة.

تملك فيا الغضب وألقى باللائمة في هزيمته على الحدود الأمريكية على «خيانة الغرينغو (gringo) بالقرب من بلدة سانتا إيزابيل، أوقف سبعون فرداً من قوات فيا تحت قيادة العقيد بابلو لوبيز قطاراً يحمل مجموعة مؤلفة من ثمانية عشر مهندساً أمريكياً يعملون في التعدين. «إذا كنتم تريدون أن تستمتعوا ببعض المرح، شاهدونا ونحن نقتل هؤلاء الغرينغو»، هكذا صاح العقيد لوبيز بالمكسيكيين الذين كانوا على متن القطار. أخرج رجاله عدداً من الأمريكيين من القطار وطلبوا

منهم الركض. مع صيحات «Viva Villa» «عاش فيا والموت للغرينغو الأمريكان»، أطلقوا النار عليهم من الخلف. أُجبر الأمريكيون الآخرون أن يتسلقوا سطح القطار، وبدؤوا يصدمون بعضهم مثل كرات البولينغ. غفل رجال «فيا» عن أحد الأمريكيين، وهو توم هولمز، الذي نجح في الهرب وإخبار الصحافيين الأمريكيين عن المجزرة. وسواء أصدر فيا الأوامر لتنفيذ تلك المجزرة أم لا، فإن الصحف الأمريكية حوّلت بطلها السابق في تلك اللحظة إلى غول متعطش للدماء، وأعلنت: «إن الناس الذين يقتلون الآخرين باسم الثورة ليسوا سوى عصابات عادية ويجب التعامل معهم وفقاً لذلك». أعقبت حادثة سانتا إيزابيل تعالي صيحات استنكار شملت جميع المدن الحدودية؛ واضطرت القوات الأمريكية أن تعيد حشوداً هائجة من سكان ولاية تكساس لمنعهم من الدخول إلى المكسيك عبر نهر ريو غراندي. تحوّل قتل المكسيكيين العاديين على يد الرماة المحترفين من سكان تكساس إلى عمليات «قتل» منظمة، مدعومة بمعرفة أن أي هيئة محلفين في تكساس لن تُدين على الإطلاق أي رجل أبيض لهجومه على شخص مكسيكي.

لم يتمكن فيا من التغلب على شعوره بالمرارة إثر هزيمته في أغوا بريتا، وأخذت كراهيته لأي شيء تفوح منه رائحة الغرينغو الأمريكان تسيطر عليه لدرجة أنه فقد كل حذره. ونظراً لحالته الذهنية وشخصيته، لا يمكن أن يؤدي ذلك إلا إلى مأساة؛ وقد حدثت فعلاً. في 26 شباط 1916، غادر فيا ونحو 450 من أتباعه مخبأهم وانتقلوا نحو الحدود الأمريكية. توجهوا إلى كولومبوس، وهي بلدة صغيرة وكئيبة في وسط الصحراء، تقع شمال الحدود المكسيكية على بعد ثلاثة كيلومترات من ولاية نيو مكسيكو الأمريكية. لمح عامل منجم أمريكي رتلاً طويلاً لقوات فيا فامتطى حصانه عاقداً العزم على تحذير سكان المدينة. لسوء الحظ، تلقى الكولونيل سلوكم، قائد سلاح الفرسان الثالث عشر، العديد من مثل هذه التقارير ولم يتخذ أي احتياطات إضافية. عند منتصف ليلة

التاسع من آذار 1916، شقّ رجال فيا طريقهم عبر الأسلاك الحدودية ودخلوا المدينة الهادئة. أول من صار في مواجهتهم جندي أمريكي يدعى فريد غريفين، كان يقوم بواجب الحراسة، فقتلوه. سمع الملازم كاسلمان الطلقة وهرع إلى الخارج وهو في ملابس النوم لمواجهة المكسيكي الذي أطلق النار على الجندي. أطلق الملازم النار على المكسيكي، في حين استخدم أمريكي آخر مضرب بيسبول لقتل أحد رجال فيا. حدث اضطراب داخل الثكنات. صاح كاسلمان «أطلقوا النار!»، بينما أطلق النار على مكسيكي هرع نحوه بساطور. تحولت الدقائق الثلاثون التالية إلى مشهد من فيلم نزاع مسلح في أو كيه كورال (Gunfight at the OK Corral)[33] فقد كان كل شخص يطلق الرصاص على الجميع، وغالباً ما كان يصيب أشباحهم وظلالهم. اختبأت زوجة كاسلمان مع أطفالها تحت السرير. تمّ العثور على سيارة كاسلمان متوقفة أمام غرفة النوم في وقت لاحق وقد ثقبتها تسع عشرة رصاصة.

عندما دخل رجال فِيا البلدة، توجهوا لسرقة مصرفها ومحلاتها التجارية. وكانت هذه الأخيرة ملكاً لسام ريفيل الذي كان نائماً في فندق في المدينة. تمّ جره من سريره من قبل اثنين من أفراد قوات فيا وعبروا به الشارع الرئيس ليفتح الخزنة لهم. تمّ إنقاذه عندما أطلق جندي النار من خلال إحدى النوافذ وأصاب قاطعي الطرق الاثنين. خلال هذه الحادثة، أصابت رصاصة برميلاً كبيراً يحوي مادة البنزين. مع قليل من الشرر انفجر البرميل، وأشعل النار في العديد من المباني. سرعان ما تحوّل الشارع الرئيس الذي يحوي المنازل الخشبية إلى جحيم. لقد زوّدت النيران التي اشتعلت المدافع الرشاشة الأمريكية بالإضاءة اللازمة لكشف أهدافها، وبدأت رصاصاتها في العثور عليها. تمكنت

33- يتحدث هذا الفيلم عن تبادل لإطلاق النار لمدة 30 ثانية جرى بين رجال قانون وأعضاء مجموعة غير منظمة من الخارجين عن القانون سُميت برعاة البقر، وقع في عام 1881 في ولاية أريزونا في الولايات المتحدة. المترجم.

قوات بقيادة الرائد تومبكينز من مطاردة رجال فيا عبر الحدود. عندما أدرك فيا مدى ضآلة هذه المجموعة التي تتعقبهم، هاجمها وأجبر رجال تومبكينز على العودة عبر الأسلاك الحدودية.

نشطت خطوط التلغراف في جميع أنحاء البلاد، وفي صباح اليوم التالي، استيقظت أمريكا على الأخبار المذهلة للمعارك التي جرت في بلدة كولومبوس. أرسل السفير الأمريكي في برلين، جيمس جيرارد، برقية مشفرة إلى وزير الخارجية الأمريكي لانسينغ: «أخبار مؤكدة هجمات قوات فيا تصنع في ألمانيا». وكانت الإشارة واضحة: أرادت ألمانيا إبقاء الولايات المتحدة منشغلة بالمشكلة المكسيكية. لصرف أنظارها عن الانخراط في الحرب التي كانت مستعرة في أوروبا. إذا كانت هذه هي خطتها، فإن ألمانيا كانت على صواب للغاية في تقييمها. أزال التركيز الأمريكي على المكسيك المجاورة أي تفكير في ساحات المعارك البعيدة في الإقليم الفلمندي[34]. وقد أدى حادث كولومبوس إلى أن يصدر الرئيس الأمريكي أمراً بشن غارة انتقامية واسعة النطاق، وتمّ تعيين الجنرال جون جيه. بيرشنغ، الذي كان في الخامسة والخمسين من عمره، في موقع المسؤولية. شُكِّلت قوة مؤلفة من 2000 رجل من قدامى مقاتلي فرقة الفرسان السابعة بقيادة الجنرال كاستر، بالإضافة إلى فوج من الزنوج من فرقة الفرسان العاشرة. أثبتت عملية ملاحقة بانشو فيا أنها مهمة صعبة للأمريكيين كونهم لم يكونوا مستعدين جيداً لها. ومما أعاقها أكثر تلك العراقيل التي كان يضعها السكان المحليون، ورفض كارانزا السماح لبيرشنغ باستخدام خطوط السكك الحديدية المكسيكية. وكانت الظروف التي واجهها رجال سلاح الفرسان الأمريكي مروعة: كانت عيونهم تؤلمهم بسبب الغبار الذي تثيره أرتال الجنود. وكان يزحف على جلودهم البراغيث والقمل؛ الأسوأ من ذلك كله هو عدم وجود إمدادات كافية من الماء سواء للبشر أو الخيول.

34- المقصود أوروبا. المترجم.

كان هناك حدث واحد رائع. فقد توقف ملازم أمريكي شاب من تكساس يقود سيارته الخاصة عبر الريف بالقرب من مزرعة مهجورة. وبدأ السير نحو المباني عندما انفجرت البوابة فجأة وبدأ ثلاثة من راكبي الخيل يعدون بأحصنتهم نحوه مباشرة. قام الملازم الشاب بسحب مسدسه وأطلق النار على الرجل الأول وأوقعه عن سرجه. اتضح أنه كان كبير ضباط قوات فيا وهو، الجنرال خوليو كارديناس. أعاد الملازم حشو مسدسه بهدوء وقتل حصان راكب آخر. وبكل مهارات الفروسية التي تعلمها في تكساس، انتظر حتى نهض الرجل وحصل على وقت لسحب بندقيته قبل أن يقتله. ثم عاد الملازم إلى المعسكر مع ثلاثة من المكسيكيين القتلى ملفوفين فوق غطاء محرك سيارته. كان اسمه جورج باتون. (ومثل باتون، اكتسب العديد من الجنرالات الأمريكيين في المستقبل الخبرة القتالية من الحملة المكسيكية).

أثبت بانشو فيا بسرعة كبيرة جداً، أنه يتقدم دائماً بخطوة على أرتال بيرشنغ الضخمة. مرة واحدة فقط وجد نفسه في ورطة. بالقرب من بلدة غيريرو، اخترقت رصاصة ساقه اليمنى وحطمت عظم الساق. تمّ إبلاغ وحدة تابعة لفرقة الفرسان السبعة تحت قيادة الرائد دود بالهجوم على فيا في بلدة غيريرو وانطلقت في مطاردته. على بعد ميلين خارج المدينة، اتخذ دليلهم الهندي منعطفاً خاطئاً عند مفترق للطرق، وهرب بانشو إلى معقله الجبلي. كان ذلك أقرب ما وصل إليه الأمريكيون للقبض عليه.

من أجل تسوية النزاع الدولي حول غزو اليانكي الأمريكي (Yanqui)، التقى الجنرال ألفارو أوبريغون بالجنرال الأمريكي هيو سكوت لتسوية الوضع وإخراج الأمريكيين من بلاده. لم يتمكن الرجلان من الاتفاق على أي شيء. في ملاحظة حادة وجّهها للجنرال بيرشنغ، طلب كارانزا بعد ذلك أن يحزم الجنرال الأمريكي حقائبه ويعود إلى بلاده وقد قدم

السفير الألماني في واشنطن نصحه لـ حل «المأزق المكسيكي» في برقية أرسلها إلى برلين: «إن الحملة العسكرية لمعاقبة فيا ستؤدي إلى تدخل شامل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية».

انتهت الحملة الأمريكية على المكسيك بالفشل، عسكرياً ودبلوماسياً. ولكن قبل أن تنتهي، حدث أمر كانت له تداعيات أبعد بكثير من معناها الحقيقي. اقترب أربعة وثمانون رجلاً تحت قيادة النقيب تشارلز تي. بويد من مزرعة مملوكة للأمريكيين بالقرب من بلدة كاريزال كانت تستولي عليها القوات الحكومية المكسيكية. أمر النقيب بويد بحماقة بشنّ هجوم جبهوي عليها. تعرضت قواته لوابل من نيران المدافع الرشاشة أسفرت عن مقتل اثني عشر من الأمريكيين. أوصل هذا الحادث المكسيك والولايات المتحدة إلى حافة الحرب، وأدى إلى إرسال برقية زيمرمان المشؤومة[35].

اقترح آرثر زيمرمان، وزير الخارجية الألماني،على المكسيك شنّ حرب على الولايات المتحدة من خلال هذه البرقية إلى سفيره في العاصمة مكسيكو سيتي:

... نقدم إلى المكسيك مقترحاً للتحالف على الأسس التالية: 1. نقاتل معاً، 2. نعلن السلام معاً، 3. نقدم دعماً مالياً ضخماً، 4. ونتفهم من جانبنا أن المكسيك يجب أن تستعيد أراضيها التي فقدتها في كنساس، ونيو مكسيكو وأريزونا.

اعترضت المخابرات البريطانية، الرسالة وفكّت شفرتها السرية، وسرّبتها إلى الصحافة الأمريكية. كانت الضجة التي أحدثتها في أوساط الرأي العام أبعد من الخيال. حتى تلك اللحظة وعلى الرغم من الهجمات السافرة التي كانت تقوم بها الغواصات الألمانية وغرق السفينة لوسيتينيا (سفينة بريطانية كانت تحمل على متنها مواطنين أمريكيين)، بقيت أمريكا خارج الحرب. لكن العبارة الأخيرة للبرقية، التي تعرض

35- راجع Barbara Tuchman, The Zimmerman Telegram.

منح ثلاث ولايات أمريكية إلى المكسيك، دفعت الولايات المتحدة إلى إعلان الحرب على ألمانيا في 6 نيسان 1917[36].

كان افتقار زيمرمان إلى البراعة الدبلوماسية والتوقيت أسوأ من ذلك بكثير. وصل عرضه في اليوم نفسه الذي انسحبت فيه القوات الأمريكية أخيراً من التراب المكسيكي، مما أدى إلى إزالة الدافع إلى التدخل. وأيضاً، لم يكن كارانزا راغباً في خوض الحرب ضد جاره ورفض العرض الألماني. ومع ذلك، يمكن الادعاء -إلى حدّ كبير- أن الأفعال التي قام بها بانشو فيا كانت مسؤولة بشكل مباشر عن دخول الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية الأولى.

كان اهتمام كارانزا منصبّاً في ذلك الوقت على تسوية مشكلة زاباتا العالقة مرة وإلى الأبد. قام بإرسال جيشه ضد زعيم التمرد. تمّ إحراق المزيد من المحاصيل، وتمّ هدم المزيد من قرى الفلاحين، وتمّ سوق المزيد من النساء والأطفال إلى كنائس ثم أشعلت النيران فيها بعد ذلك. كان رد زاباتا مشابهاً. قام بشنق ملاك الأراضي (Hacendados)[37] ونهب المصانع وتفجير القطارات. تمّ الإمساك بكارانزا بعد أن نصب له فخاً. سوف يستغرق التخلص من هذا الهندي (indio) المزعج عامين آخرين وفعل خيانة كبير. في حين كانت مطاردة زاباتا تجري على قدم وساق، قام كارانزا بتعيين فرانسيسكو مورغويا مسؤولاً عن مطاردة فيا. سرعان ما بات الجنرال مورغويا يعرف باسم «شانق بانشو»، حيث كان أسلوبه هو وضع حبل حول عنق كل فرد من أتباع فيا يقوم بالقبض عليه، وعندما يقبض على شخص ما كان يشك فيه، يقوم بشنقه على أي حال لمجرد التأكيد. قام «الجنرالان» بحملة شهدت عنفاً ومجازر لا نظير لها. أصبح عدم العفو تعبيراً رئيساً في كلا المعسكرين، وأدّت

36- بتعبير آخر، كان عادياً للغاية في الثورة المكسيكية، حمل أدولفو دو لا هويرتا السلاح ضد أوبريغون، لكنه هزم وهرب إلى كاليفورنيا، حيث توفي وهو يعمل مدرس موسيقى.

37- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

إلى الذبح بشكل عشوائي لكل من المقاتلين والمارة على حدّ سواء في جولات قتل مستمرة لا تعرف الرحمة. كان مجرد الاشتباه بأن شخصاً ما تجرأ في وقت واحد على الهتاف «Viva Villa عاش فيا» سبباً كافياً لربطه بأقرب غصن شجرة. كانت المكسيك تغرق في نهر من الدماء. وكان الهدف الرئيس لمورغويا هو تدمير المصادر البشرية لقوات فيا، حيث كان أي شخص فوق سن الثانية عشرة يُعتبر إرهابياً محتملاً. في جميع أنحاء الريف الملعون والكئيب، تدلت آلاف الجثث المتعفنة بشدة من الأشجار. ولرد المعاملة بالمثل، كان يتم ذبح مقاتلي الحكومة الفيدرالية الذين يتمّ إلقاء القبض عليهم باستخدام المناجل، أو يجبرون على الركض حفاة الأقدام وسط نباتات الصبار ذات الأشواك الحادة، ثم يتركون للذئاب لتقضي عليهم. كانت جثثهم تتناثر على طول الأسيجة النباتية والحقول، مقطوعة الرأس ومبقورة البطن. في تشيهوهاوا، واجهت مجموعة من أنصار فيا بالصدفة الجنرال مورغويا، في غضون دقائق، قام مورغويا بتعليق جميع أفراد المجموعة البالغ عددهم 256 شخصاً على شكل عناقيد كانت تتدلى من الأشجار ليزينوا شوارع قرية كريستوفورو كولون الأنيقة.

في هذا الوقت تحول بانشو فيا من الثورة إلى اللصوصية. أصبح يجمع الضرائب بنفسه وأجبر الغرينغو (gringos)، الذي كان يعتبرهم مسؤولين عن تدهور أحواله، على المساهمة في مجهوده الحربي. بدأ باختطاف فرانك نوتس، مالك شركة التعدين يوربسيون (Erupción)، وأطلق سراحه مقابل الحصول على فدية مقدارها 20 ألف دولار ذهبي. بعد ذلك، اقتحم مزرعة مواشٍ لشخص من طائفة المورمون جلبت له 20 ألف دولار إضافي. ثم اجتاح بلدة بارال حيث شنق العمدة وولديه أمام مبنى البلدية. كان بقية المواطنين أمام خيارين: دفع 100 ألف دولار أو الموت، فقرروا أن يدفعوا. لم ينسَ تاجر السيارات، غابريال شافيز، محنته، وسوف يلعب فيما بعد دوراً هاماً في حياة هذا الثوري. ثم هاجم

فيا مدينة سيوداد خواريز، ومات عدد من الأمريكان عندما طارت الرصاصات في الهواء وعبرت الحدود. وللمرة الأخيرة، خاض سلاح الفرسان الأمريكي تحت قيادة الكولونيل تومبكينز إجراءات سريعة، وبحلول الليل هرب فيا. وكان آخر عمل له من أعمال رجال العصابات هو الاستيلاء على قطار ركاب كانوا يحملون نقوداً. جعل حراس السكك الحديدية يقفون في صف واحد وقام بإعدامهم شخصياً، ولكن سمح للركاب أن ينطلقوا بحريتهم. وبذلك العمل، اختفى فيا من المشهد.

لقد تمّت هزيمة أمير الحرب، لكن من تبقى من أفراد عصابته ظلوا يزاولون أعمالاً مميتة. كانوا يعيشون خارج البلاد ويقومون بعمليات كرّ وفرّ. توجهت واحدة من قوات الهمج هؤلاء إلى إحدى القرى على طول حدود ولاية تكساس. وكما هو الحال مع أي جيش مهاجم، كانت معنوياتهم في وضع سيئ. كان وصول الثوار إلى أية قرية يمثل دائماً خبراً سيئاً، فبعد ذلك الحدث لن يكون بإمكان المرء قضاء أيام جيدة طوال العام. وبعد أن يأمروا القرويين بتقديم الطعام لهم، يقوم المتمردون بقتل الدجاج والبط، ويأمرون زوجات المزارعين بطبخها في المواقد. بينما يقوم آخرون بخطف الفتيات الصغيرات، أو اغتصابهن أمام عائلاتهن. بعد ذلك يأخذون لأنفسهم أكياساً من الأرز والفول. ثمّ يقومون بتجميع السكان الذكور ويصطحبونهم معهم، ثم لا يعود يراهم أحد مرة أخرى.

في نيسان 1919، أجرى خيسوس غواخاردو، وهو هندي أمريكي من قبيلة الياكي (Yaqi) وكان برتبة عقيد في القوات الفدرالية، اتصالاً مع إيمليانو زاباتا، وعرض عليه الوقوف إلى جانبه. لمناقشة الاقتراح، ركب زاباتا حصانه وتوجه إلى مزرعة سان خوان شيناميكا، حيث كان من المقرر عقد اجتماع بينهما. وعند الفناء، رفع حرس شرف العقيد غواخاردو بنادقهم لتحية زاباتا، ثم أنزلوا بنادقهم فجأة وأطلقوا النار على زاباتا. حصل خيسوس غواخاردو على 10 آلاف دولار لقاء خدماته وتمت ترقيته إلى رتبة جنرال. لكن «أسطورة زاباتا» لم تمت،

وحتى يومنا هذا، يرفض السكان الهنود (indios) في مقاطعة موريلوس التصديق أن بطلهم العظيم قد مات. بالنسبة لهم، ما زال يمتطي جواده الأبيض وسيظهر قريباً ليكون المنقذ لهم.

وضع الرئيس كارانزا توقيعه الذي أهلكه على المادة 27 من الدستور المكسيكي الجديد، التي تنص بأنه يحق فقط للمكسيكيين عن طريق الولادة أو التجنس «استخراج الثروة الموجودة في باطن الأرض» (النفط). سمح ذلك للحكومة بمصادرة الممتلكات المملوكة لأجانب. وقد أصبح حينها في مواجهة مع الأمريكيين؛ وقيامه بذلك تسبّب في سقوطه. في غضون ذلك، شكّل ألفارو أوبريغون تحالفاً مع ضباط الجيش في داخل البلاد وأجبر كارانزا على الفرار. تمّ اعتراض القطار الذي كان يستقله وهرب إلى قرية، سان أنطونيو، في مقاطعة تلكسانكالانتونغو حيث قابل رودولفو هيريرو، وهو أحد قطاع الطرق الذي روّج لنفسه أمام الجنرال. قاده هيريرو نحو كوخ ريفي، وأخبر رئيسه بابتسامة شريرة: «سيكون هذا هو القصر الوطني الليلة». وعند منتصف الليل، اقتحم رجال مسلحون الكوخ وأعدموا الرئيس بدم بارد وأفرغوا ثلاث رصاصات في صدره. وحُكم على هيريرو بالمسؤولية عن جريمة القتل، لكن قاضي المحكمة تمّ تسميمه وأُخلِي سبيل هيريرو. كان هناك هويرتا آخر كرئيس مؤقت هناك، ولكن لا علاقة له بالديكتاتور المخلوع. كان الجنرال أدولفو دي لا هويرتا من مؤيدي أوبريغون بقوة، وقد أفسح المجال للحل السياسي من خلال التوصل إلى تسوية سلمية مع التهديد الوحيد المتبقي، وهو بانشو فيا الماكر، فقد ضمن تقاعداً لهذا المستيزو (mestizo) المفلس بقطعة أرض تبلغ مساحتها 25 ألف فدان في قرية كانوتيلو، التي تقع بالقرب من مدينة بارال، والتي اشترتها الحكومة له، بعيداً عن أي خط سكة حديد أو مدينة كبيرة. كما تمّ السماح لفيا لأجل الحماية الشخصية بالاحتفاظ بخمسين مقاتلاً من الدوراداوس (dorados)، في حين تمّ دمج 800

من الرجال المتبقين في الجيش المكسيكي برتبهم نفسها، أو منحهم منزلاً مناسباً.

مع غياب إيميليانو زاباتا وبانشو فيا عن ساحة الأحداث، تنفّس شعب المكسيك الصعداء أخيراً. وكقربان سلام للمتمردين (peóns)، قام دي لاويرتا باعتقال قاتل زاباتا، الجنرال غواخاردو، وأعدمه علانية. بعد تهدئة الأوضاع في البلاد، استقال أدولفو دي لاويرتا، وكان شخصاً مخلصاً وصالحاً، لصالح الجنرال ألفارو أوبريغون[38]، الذي سيصبح الرئيس الجديد للمكسيك. في 1 كانون الأول 1920، أدى أوبريغون اليمين الدستورية. بعد عشر سنوات من الأعمال الوحشية، كانت الثورة المكسيكية قد انتهت.

وبعد ذلك ...

بدأ عصر جديد. مع تدفق الاستثمارات الأمريكية، أعادت المكسيك بناء مصانعها وخطوط السكك الحديدية المدمرة. لم يتمّ القيام بالكثير لإصلاح الريف المدمر أو حلّ المشكلة العالقة للمتمردين الفقراء (peón) المكسيكيين. تشبث الناس بإيمانهم وتوافدوا إلى الكنائس لطلب نصيحة كهنتهم: لقد مارست الكنيسة نفوذاً حيوياً في شؤون البلاد. تمّ إحياء التحالفات القديمة. حاول الرئيس أوبريغون أن يجعل بلاده تنهض من وسط الرماد ويجعل شعبه ينسى أهوال الماضي. كانت رؤيته لمستقبل البلاد مختلفة ولم يرَ فيها مكاناً للثوريين من الطراز القديم مثل بانشو فيا.

عاشت هذه الشخصية التي تحظى بشعبية بأمان بعيداً في بلدة معزولة ومتربة تبعد أميالاً عن أي مكان مأهول، كانت مدينة بارال مكاناً توقف فيه الزمن، فيها شارع رئيس محفر، تحيط به منازل أحرقتها الشمس،

38- اغتيل أوبريغون على يد فنان مجنون، يدعى ليون تورال، في 16 تموز 1928.

مصاريعها الخشبية في حاجة ماسة للطلاء؛ عدد قليل من المتاجر مع مجموعة متنوعة من رعاة البقر، والبغايا، وسكيري البلدة. الأصوات الوحيدة فيها تأتي من أنابيب العادم في بضع سيارات، والحمير المرعوبة المربوطة بأعمدة إضاءة الشارع، وأعمدة الإنارة نفسها كانت تُستخدم كمشانق. في وسط المدينة كان في «cuartel» (ثكنات) القوات الفدرالية حراسٌ يشعرون بالملل وهم يميلون نصف نائمين على البنادق. لم يكن لديهم ما يخشونه: ذهبت أيام الثوريان، زاباتا وفيا. لكن علامات الحرب كانت موجودة في كل مكان. كانت الجدران المبنية من طين اللبن تحمل آثار طلقات الرصاص التي أنهت حياة الكثيرين، وفي مكاتب الصحف المحلية كانت هناك صور باهتة تذكّر المواطنين الشجعان بأهوال الحرب. بالنسبة للسكان شبه العبيد (peón) العاديين لم يتغير شيء، مصيرهم كان بالكاد أفضل مما كان عليه من قبل؛ كانوا يعيشون في أكواخ بُنيت من علب الصفيح التي كانت تحوي البسكويت الذي تركه أفراد سلاح الفرسان الأمريكي. وكان التغيير الوحيد الملحوظ هو بالنسبة للشباب، الذين أصبح بإمكانهم الآن الذهاب إلى المدرسة التي بناها وتكفل بمصاريفها فرانسيسكو فيا وهو من أعيان البلدة.

كان هتاف «Viva Villa» (عاش فيا) لا يزال صرخة شعبية، لكنه أصبح الآن مصدر إزعاج أكثر من كونه يشكل خطراً على السلطات. ربما أزعج أوبريغون، الرئيس الذي كان يتنافس في شعبيته مع ثوري متقاعد، لأن بانشو فيا لم يكن غنياً فحسب، بل كان من المشاهير. أصبح الموضوع المفضل لمنتجي هوليوود. لقد غمرته الهدايا من الشركات الأمريكية التي كانت تطلب منه الترويج لمنتجاتها، وخاصة شركات صناعة السيارات؛ لأن بانشو ذا الكرش تحوّل حينها من ركوب المهر إلى صعود السيارات المريحة.

وبينما أصبح فيا الثوري الأسطوري والمعروف على نطاق واسع هو البطل الأكثر نجومية في الصحف وشاشات السينما الأمريكية، فقد قاطع

الطريق (bandido)[39] بانشو هالته وسط قسم من الشعب المكسيكي، إلى حدّ أن حملة لجمع التبرعات بدأت تحت عنوان «اقتلوا فيا». كان أول من ساهم فيها تاجر سيارات في مدينة بارال، يدعى غابرييل شافيز، الرجل الذي أجبره فيا أن يدفع له فدية كبيرة. كان يكره رؤية قاطع الطريق هذا (bandido) وهو يتباهى بثروته التي حصل عليها بطرق شريرة، وأن هذا المستيزو الصعلوك يمشي متبختراً في جميع أنحاء المدينة مثل بعض النبلاء. فشلت محاولات قتل فيا لأنه كان تحت حراسة مشددة، إلى أن أخذ غيسوس سالاس بارازا التحدي على عاتقه. استأجر ثمانية مسلحين واشترى أداة قطاع الطرق المفضلة، البندقية الرشاشة من طراز طومسون.

بالنسبة إلى شخص غريب، كانت المنطقة المحيطة بمدينة بارال هي أرض قاحلة لا تصلح للعيش، كآبة من سماء هائلة وآفاق لا حدود لها، أرض محكوم عليها بالموت كل عام، وفي كل يوم، تحت أشعة شمس لا ترحم. لكن هذا الانطباع كان مضللاً. فقد عاش الناس هناك، وحرثوا الأرض، وحصدوا أشجار الفاكهة الخاصة بهم، والآن بعد أن عاد السلام إلى البلاد، باتوا يعيشون حياة كريمة إلى حدّ ما، كل ذلك بسبب رجل واحد ساعدهم على تحسين مستوى معيشتهم.

توجد في هذا السهل الواسع مجموعة من المباني الرائعة المزينة بالبلاط الأحمر. كانت مجموعة من الأشجار المنتشرة والنباتات المرصوفة بطريقة التوباري[40] تحيط بممر يقود إلى ساحة مظللة. كان صاحب أحد القصور يقضي معظم وقته في الفناء مع اثنين من الكلاب عند قدميه، وألسنتهم متدلية. ازداد بانشو فيا سمنة. لدرجة أن الأزرار الموجودة على سترته يجب أن تكون مخيطة بأسلاك بيانو حتى لا تتقطع. لم يكن رجلاً سعيداً؛ لقد كره هذا الشعور بعدم التحرك الذي

39- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

40- أحد أعمال البستنة. وهو عبارة عن تهذيب النباتات المُعمِّرة عن طريق قص أوراق الشجر والأغصان والشجيرات القزمة من الأشجار والشجيرات لتطويرها والحفاظ على أشكال واضحة المعالم، هندسية أو خيالية. المترجم.

فرضه عليه تقاعده المفاجئ. ربما ينبغي عليه إضافة القليل من الإثارة في مقاطعة تشيهواهوا التي يقيم فيها، ولا شيء أكثر من ذلك، بمعنى آخر، فقط بما يكفي لمنع عقله وجسمه من الصدأ. أنجبت زوجة أحد مقاتليه الدورادوس (dorados) ابناً، وجرت العادة في يوم الجمعة، في ذلك اليوم المقدس من الأسبوع، أن يقوموا بتعميد المولود الجديد. وكان سبباً كافياً للاحتفال، مهما كان ذلك الشيء، المهم وجود أي شيء يخلصه من هذا الملل المرير. كان سيحصل على مهرجان احتفالي كبير، يتضمن ألعاباً نارية وموسيقى، ويتحول إلى ثور يلتهم اللحم المشوي والفواكه وكعك التورتيلا. ويحتسي الكثير من شراب التيكيلا. ولكن سيقام أولاً، حفل ديني في كاتدرائية بارال الإسبانية. وافق فيا بلطف على أن يصبح عراباً للطفل. كان يرتدي ملابس بيضاء ناصعة ولن يحمل مسدسه معه. لم تكن الكنيسة مكاناً ملائماً لحمل السلاح، وسيكون خمسون من مقاتليه الدورادوس في الكاتدرائية لحمايته، وسيذهب كما هو مخطط إلى مدينة بارال للإشراف على تشكيل حرس الشرف.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف، من يوم الجمعة، 20 تموز 1923، عندما صعد فرانسيسكو (بانشو) فيا وسكرتيره ميغيل تريلو إلى سيارة الدودج المكشوفة. ومن خلال الزجاج الأمامي للسيارة، الذي كان معتماً جزئياً بسبب الهجوم المتواصل من الرمال، كان الطريق المترب المؤدي إلى المدينة يتراءى أمامه مثل اللوحة. بانت في الأفق أول المنازل في مدينة بارال، وقد أغلقت نوافذها لحماية السكان من أشعة الشمس الحارقة عند أواخر الظهيرة. كان الشارع الرئيس خالياً. وقد اختفت كل علامات الحياة. لم تكن هناك نساء يحملن الأواني والسلال، ويجلسن تحت مظلاتهن على جانب الطريق؛ ولم يكن يوجد رجال، تعوّدوا أن تنزل قبعاتهم العريضة على عيونهم وهم يستريحون تحت ظلال الاشجار التي تزيّن مداخل المدينة. كان هناك شخص واحد يميل كأنه في حالة سكر باتجاه العمود الخشبي للفناء.

كان بانشو قد انحنى خارج السيارة، ليثبّت قمة قبعته العريضة لمنعها من أن تطير وسط الريح.

كان الرجل الوحيد الموجود هو فلاح يرتدي كالزوني calzones[41] أبيض يقف ويراقب. وبشكل ساخر تماماً، كانت الإشارة بالنسبة له أن يصرخ بهتاف «Viva Villa» عاش فيا، وأن يلوّح بقبعته العريضة الحواف. كان جميع القتلة، المتربصون في تجويف مظلل لنافذة مفتوحة، من ذوي الخبرة. كان الرجل الموجود في السيارة المفتوحة لا يزال بعيداً جداً فلا يمكن التعرف على وجهه الذي كان مخفياً تحت قبعه واسعة الحواف. لكن ضوء النهار كان جيداً وتمّ تحديد الهدف تماماً من خلف الزجاج الأمامي للسيارة. إذا كان هذا هو الرجل المطلوب، عندها... مر بانشو من أمام السوق، وكانت أكشاكه مظللة بسقف من الخوص المتشابك بشكل وثيق. لم يكن هناك أحد أيضاً، يا له من شيء غريب. كانت بلدة بارال أشبه بقبر مفتوح... كان الرجل الذي وقف يترصد يحدّق في السيارة القادمة. وفقط عندما يكون على يقين تام سيرفع ببطء قبعته العريضة. من وسط كتلة شعره الداكن المجعد انسابت قطرة من العرق، إنه عرق الخوف. فتح فمه، وأظهر أسناناً سوداء مصفوفة بشكل سيئ... ربما راود بانشو شعور بأنه يتعرض لشيء ما؛ كان هناك شيء غير صحيح بالتأكيد. لماذا لم يكن هناك سوى رجل وحيد في طريق يجب أن يكون مزدحماً؟ ظل بانشو لعدة أسابيع، يحمل شكوكاً مزعجة لا تفارقه في أن هناك شخصاً ما يريد أن يسبّب له مشكلة.

أصبح الهدف قريباً جداً الآن، انتظر المسلحون التأكيد النهائي من الشخص الذي كان يترصده... الذي بات متأكداً الآن. Viva Villa «عاش فيا!» أطلقوا النار عليه صاح هذا الشخص بأعلى صوته ولوّح لهم بقبعته بحماس. مال بانشو فيا جانباً، وارتسمت ابتسامة على وجهه. كان هذا الرجل أحد أنصاره، أو ربما متسولاً. في لحظة نظر إلى الوجه الأسمر

41- اسم يُطلق على سروال من القطن اشتهر بارتدائه سكان المكسيك الأصليين آنذاك. المترجم.

وافترت أسنانه عن ابتسامة ورمى إلى الرجل بعملة معدنية. وبأعلى من قعقعة عادم المحرك سمع القتلة شعار «فيفا فيا!» طارت القبعة في الهواء. كان فيا جالساً في مقعد السائق! قفز المسلحون من عربتهم المحصنة... وكانت السيارة قد وصلت تقريباً إلى مفترق الطرق. من هناك، كان الشارع ينعطف إلى اليسار باتجاه ساحة الكاتدرائية. أبطأ بانشو من سرعته لكي يشق طريقه في هذا الانعطاف الحاد، عندما ارتفع فجأة الصوت المميز للبنادق الرشاشة من طراز طومسون. من ظلال الأبواب والنوافذ، أطلق ثمانية من القتلة وابلاً من الإطلاقات واحداً تلو الآخر على السيارة القادمة. تحطم الزجاج الأمامي، وتطايرت شظايا الزجاج الناعمة في الهواء. ملأت الثقوب جسد فيا وهو يغوص في المقعد، حيث أصابته سبع رصاصات. مات على الفور. كان الأكثر احتراماً ومهابة من جميع الثوار المكسيكيين ومات عن أربعة وأربعين عاماً.

لم يثبت أبداً من دبّر اغتياله. أما القاتل المفترض، غيسوس سالاس بارازا، فقد ألقي القبض عليه، واقتيد للمحاكمة، وحُكم عليه بالسجن عشرين سنة. وبموجب مرسوم رئاسي أُطلِقَ سراحه بعد ستة أشهر، ورقي إلى رتبة عقيد.

تحدث بارازا: وهو على فراش الموت[42]، قائلاً: «أنا لست قائلاً. لقد خلصت الإنسانية من وحش. حتى في موته لم يرقد بانشو فيا بسلام. تمّ تدنيس قبره، وعُثر على جسده، لكن رأسه كان مسروقاً.

يجب قياس الأهمية التاريخية لرجال مثل بانشو فيا من العواقب السياسية لأفعالهم. وقد أدى حادث يشبه حق السيد[43]، وهو اغتصاب شقيقته من قبل ابن ملاك أراض (hacendado) مخمور، إلى أن يكون العامل المحفز لحدوث دوامة من الثأر والتمرد ضد الطبقة الحاكمة

42- توفي بارازا بهدوء في عام 1951.

43- أو حق الليلة الأولى، هو حق لإمضاء ليلة الزواج الأولى وفضّ غشاء البكارة، ممنوح لكاهن أو ملك أو زعيم أو نبيل والمفترض كمباركة للزواج الفردي. المترجم.

من ملاك الأراضي الأغنياء والسياسيين (jefes politicos) المعينين من قبلهم. في فرانسيسكو «بانشو فيا» (وإيمليانو زاباتا)، وجد الناس البسطاء أبطالهم. لقد رفعوه إلى مكانة سامية لم تعرفها أمريكا اللاتينية منذ أيام سيمون بوليفار. مهما كانت الأساليب التي استخدمها فيا، ومهما كان حجم الرعب والقسوة التي عامل بها الآخرين من خلال استخدام ما عُرف بـ «مسدس بانشو»، لكنه غيّر بلاده. لقد تم دفن نمط الحياة المكسيكية الذي كان الطريقة السائدة لقرون عدة وإلى الأبد. كان حادث قرية كولومبوس هو الذي أدى إلى سقوطه، وفّر لأعدائه سبباً على طبق من فضة لكي يوقعوا به. بالمعنى الأوسع، كان حادث قرية كولومبوس ذروة التأثير الدولي لنشاطاته، كونه أدى إلى حدوث قطيعة بين الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. ليس هناك شك في أن غارات «فيا» على الحدود دفعت أمريكا نحو التدخل العسكري غير المرغوب وغير الحكيم في شؤون دولة ذات سيادة. لولا بانشو فيا، لم تكن القوات الأمريكية قد عبرت الحدود المكسيكية لتواجه هتافات مدوية لجموع من الناس تصيح بها «أيها الأمريكان عودوا إلى دياركم»، وهي التي أغرت ألمانيا لتعرض تقديم دعمها العسكري للمكسيك لتخوض حرباً ضد الولايات المتحدة. يمكن القول، إن هذا العرض كان هو السبب في دخول أمريكا إلى الحرب العالمية الأولى.

كان بانشو فيا: أحد العبيد الذين ثاروا ضد الظلم واستمر إلى أن أصبح الشخصية الأكثر غموضاً وإثارة للجدل في الثورة المكسيكية. فلم يكن شيئاً عابراً.

فترة فاصلة

1917–1914

«ماذا لو أعلنوا الحرب ولم يستجب لها أحد؟» كان هذا هو السؤال الجوهري الذي طرحه الكاتب كارل سانديبرغ الذي كان أحد كبار قادة

سياسية وقيادة منسقة كان أكثر من أي شيء آخر، هو من أودى بكل حركة ثورية روسية حدثت سابقاً إلى الفشل. كان رماد ما حدث في أعمال الشغب في تموز ما زال جمراً عندما تجمع عشرات من البلاشفة، حول الشخص ذي الشعر المستعار الرمادي والشوارب الملتصقة وهم مستعدون للأرض السوداء والحريق الأحمر.

الفصل الرابع

7 تشرين الثاني 1917
كل السلطة للسوفيات

Vsya vost Sovetam.

كل السلطة للسوفيات[1].

• لينين، 7 تشرين الثاني 1917

«الحقيقة؟» سأل الرجل ذو النظارات ذات الإطار السميك واللحية الخفيفة. ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه. «لا! ما يجب علينا خلقه هو وهم الحقيقة! التمرد هو فن، ومثل كل الفنون، لديه قوانينه».

كان الاجتماع السري الذي عُقد في 10 تشرين الأول 1917 في شقة غالينا سوخانوفا في كاربوفكا، وهو حي عصري في بتروغراد، قد جعل بروتوس وكاسيوس[2]، وكل المتآمرين معهم يشبهون الهواة السذج. كان للرجال والنساء المتجمعين هناك شيء واحد مشترك: لقد أحبوا المخاطرة. وعلاوة على ذلك، كانوا على استعداد تام لتحقيق هدفهم بأي وسيلة ضرورية دون القلق بشأن مسائل بسيطة مثل إراقة الدماء على نطاق واسع. كانت قائمة المشاركين الاثني عشر، الذين كانوا على وشك إشعال شرارة الانفجار الذي سُجل في كتب التاريخ باسم أكتوبر الأحمر، مثيرة للإعجاب.

1- يكتب المؤلف هذا الشعار باللفظ الروسي وبالأحرف اللاتينية. المترجم.

2- اللذان تآمرا على يوليوس قيصر. المترجم.

كان من بينهم فلاديمير إيليش أوليانوف، وكان يعرف باسم لينين؛ وزوجته، ناديجدا كروبسكايا والمعروفة باسم «السمكة» بسبب عينها المنتفخة؛ وغريغوري رادوملسكي المعروف باسم زينوفييف، وكان هو من يدير المسائل التنظيمية الحزبية، وله من العمر اثنان وثلاثون عاماً؛ وألكسندرا كولونتاي، وهي امراة أرستقراطية بدينة وناشطة نسوية؛ وياكوف سفيردلوف، «المحقق» الشرير الذي، سيأمر في غضون عام بإعدام القيصر وعائلته؛ وفيليكس دزيرجينسكي، مؤسس التشيكا[3]، وهي الشرطة السرية التي لا تعرف الرحمة. وليف روزينفيلد والمعروف باسم كامينيف، وهو مفكر يهودي يرتدي نظارة طبية وأول رئيس تحرير لصحيفة برافدا؛ وشخص نزق كان المسؤول عن التصفيات الجماعية ويدعى جوزيف فيسارونوفيتش دزوغاشفيلي والمعروف باسم جوزيف ستالين؛ وأخيراً، هارب آخر من سيبيريا، وهو منظّر الحزب والخطيب اللامع البالغ من العمر 38 عاماً، ليب دافيدوفيتش برونشتاين، والمعروف باسم ليون تروتسكي.

لتفادي لفت انتباه (جهاز الأوكرانا) الشرطة السرية الروسية، كان قد سافر هؤلاء الأشخاص عبر المدينة وهم يرتدون مجموعة متنوعة من الشعر المستعار واللحى الكاذبة. ارتدى لينين شعراً مستعاراً رمادياً صنعه له مصمم أزياء مسرحي في هلسنكي عندما تسلل عبر الحدود الفنلندية على متن قطار شحن وكان يرتدي زيَّ رجل إطفاء. الآن، وعلى ضوء الشموع، كان هناك نقاش حول اتخاذ قرار: ما إذا... نبدأ الانتفاضة ومتى. ولقرابة ساعة، ناقش لينين مزايا الثورة المسلحة. وقال «لقد حان الوقت الآن. إن البحرية الألمانية في ثورة مفتوحة [كان هذا صحيحاً، ولكن في جزء صغير منه]، وسوف يأتي بحارتنا وينضمون إلينا. بعد ذلك، سيخرج الشعب إلى الشوارع وينضم إلى تمردنا». لقد كان تفكيراً جريئاً، لكنه انتحاري للغاية.

---

3. كلمة التشيكا اختصار للكلمات Chrezvychainaia kommissia po borbe s kontr-revoliutsiei i sabotazhem، ويشار إليها بأحرف مختصرة: chk.

صرخ تروتسكي: «الشعب... أي شعب؟ البروليتاريا؟ لا تعوّل عليها. لا يمكننا على الإطلاق أن نحدّد موقف الطبقة العاملة. ماذا لو كانت ثورتنا تجعل المعسكر الثالث يشعر بالنفور؟» وكان يشير إلى مجموعة تتكون من البرجوازية الصغيرة، وأصحاب المتاجر، والكولاك (الفلاحين الذين يمتلكون الأراضي)، والمسؤولين الصغار.

أما زينوفييف، وقد أخذ في عين الاعتبار تحذيرات تروتسكي فلم يوافق على تقدير لينين العام للحالة: «بدون أن نكون متأكدين من موقف الطبقة الوسطى الحضرية، لا يمكننا أن نراهن».

مستقبل ثورتنا العالمية بيد التمرد المسلح فيما وضع كامينيف، الذي أخافته فكرة الخروج إلى الشوارع وربما الموت، الأمر في إطار أكثر دبلوماسية: «إنها مقامرة، وليس لنا الحق في أن نرهن مستقبل حركتنا بيد انتفاضة مسلحة».

حينها صرخ فيليكس دزيرجينسكي: «لتذهب البرجوازية الصغيرة إلى الجحيم سنهتم بأمرهم».

إذا ضيّعنا المزيد من الوقت للمناقشة التي لا معنى لها، فسوف نرتكب الكثير من الأخطاء، هكذا كان يعتقد تروتسكي. الذي كان يعرف أكثر من أي شخص آخر مقولة ماركس: «ليس للبروليتاريا الحق في تولي السلطة قبل أن تكون مستعدة». ولم تكن البروليتاريا مستعدة حينها.

كان ستالين ابن جورجيا، هو الوحيد الذي كان، بمنأى عن نقاشاتهم الساخنة. فقد كان يراقب تطور النقاش وينتظر لمعرفة من الذي سيخرج فائزاً قبل أن ينحاز إلى جانب معين.

توقف النقاش. ووصل توتر الأعصاب إلى نقطة الانهيار، كان كل شخص في الغرفة قنبلة موقوتة محتملة جاهزة للانفجار في أي لحظة. كان لا بدّ من التوصل إلى قرار. أخذ لينين تروتسكي جانباً. لم يكن معروفاً ما الذي ناقشاه بينهما، وما هو الاتفاق الذي توصّلا إليه، ولكن عندما عاد الرجلان إلى الغرفة، غيّر تروتسكي رأيه. كان الفجر على وشك أن يبزغ

على بتروغراد عندما أعلن لينين أخيراً: «لقد حان الوقت للانتقال من الأقوال إلى الأفعال». اقتطع صفحة من مفكرته وكتب فيها: «الانتفاضة المسلحة حتمية، لقد حان وقتها. تطلب اللجنة المركزية للحزب البلشفي من المنظمين أن يسترشدوا بهذا التوجيه». تمّ تمرير هذا القرار بعد تصويت عشرة لصالحه ومعارضة اثنين، وهما كامينيف وزينوفييف. صوّت ليون تروتسكي لصالحه واقترح أن يتزامن موعد الانتفاضة مع انعقاد مؤتمر الشعب القادم، الذي دعي إلى عقده في 20 تشرين الأول. عندما أحضر زينوفييف الفودكا للاحتفال بقرارهم، انتزع لينين الزجاجة من المنضدة، وصرخ بصوت خشن: «هذه الثورة نقية». الآن وقد تم رمي النرد فلم يعد يتطلب الأمر سوى شرارة فقط لانطلاقها.

كانت روسيا دولة بربرية ووحشية. فقد امتلك القيصر فيها الأرض والبشر. «الروس أناس متعجرفون، لأنهم لا يحصلون على أي تعليم آخر غير الوقاحة والكذب؛ هم دائماً في حالة سكر ووحشية، ويؤمنون بالخرافات بشكل لا يصدق». كان هذا من مبادئ القيصر التي يستند عليها لمنع أفراد شعبه من السفر إلى الخارج، خشية أن يروا مناظر الحرية في مكان آخر[4]. لقد عاش الناس وسط تناقض: فقد كانوا متوحشين، ولذا كان حكمهم يتطلب وجود طاغية ذي جبروت، شخص يستطيع من خلال قوة الإرادة وقسوة لا ترحم أن يجبر رعاياه على إطاعة أوامره. لم يتغير شيء من ذلك على مرّ القرون.

جاءت سلالة رومانوف إلى السلطة بعد وفاة القيصر إيفان الرهيب في 1584. وقد دفع هذا القيصر الذي ينتمي إلى سلالة روريك حدود مملكته عبر جبال الأورال في سيبيريا وضمن بقاءه على العرش من خلال قتله جميع المنافسين المحتملين له من الذكور، بما في ذلك ابنه. أعلن بيتر الأول العظيم (1682-1725) نفسه إمبراطوراً لكل روسيا. كانت سلطة الملك في ذروتها تحت حكم كاثرين العظيمة (1762-

4- من مذكرات كوتوشيكين، بعد هروبه من روسيا.

1796) التي اغتصبت العرش من زوجها الضعيف وغير الكفء. خسر ألكسندر الثاني الحرب ضد الأتراك، لكنه حرّر المزارعين من القنانة. ألقى طالب يهودي يدعى غرينفتسكي، قنبلة على العربة الملكية مستهدفاً حياة القيصر. أدى هذا الحادث إلى حدوث مذبحة منظمة قادها ألكسندر الثالث. وقد خلفه في العرش ابنه نيكولاي، الذي كانت طفولته غير سعيدة. وتغيّرت حياته عندما تزوج من ألكساندرا فيودوروفنا الجميلة، وهي أميرة من هيسن[5]، والتي أطلق عليها اسم «المرأة الألمانية». أصبحت الشخصية المسيطرة في دائرة القيصر. أنجبت أربع بنات، هن أولغا، وتاتيانا، وماريا، وأناستازيا، ووريثاً للعرش هو، ألكسي تساريفيتش، الذي عانى من مرض الهيموفيليا[6]، الذي كان في ذلك الوقت مرضاً غير قابل للشفاء. بدأ عهد نيكولاس بحدث مثير. أثناء احتفالات تتويجه تجمع حشد ضخم في حقل خودينكا[7]، وبينما كانت العربات تقترب وهي تحمل البيرة المجانية، تدافع المحتشدون إلى الأمام ومات ألف شخص دهساً بالأقدام.

كان نيكولاي المثال التقليدي لرجل غير كفء لمنصبه، وهو الملك الوحيد الذي خلق مصيره المأساوي. أدى افتقاره للواقعية والإرادة القوية إلى حدوث المأساة في النهاية. الضعف الذي أبداه جعله يفقد الاحترام والثقة. بات يُعرف بين الأسر المالكة في أوروبا باسم «العم نيكي اللطيف» وهكذا جرت الأمور؛ كان ذا شعور ديني عميق لكنه ملك غير مؤثر، كان يحكم بالتفويض أكثر منه بالإرادة. كانت مقاومة الإصلاح الاجتماعي ممكنة في مجتمع أفراده من الفلاحين، ولكن لم يعد ذلك ممكناً في عصر التصنيع. كانت سياسته الخارجية كارثية. انتهت أول مغامرة عسكرية قام بها بهزيمة ساحقة من قبل القوة الصاعدة آنذاك،

5- إحدى ولايات ألمانيا. المترجم.

6- مرض نزف الدم الوراثي.

7- في ضواحي موسكو. المترجم.

وهي اليابان، في عام 1905. في مضيق تسوشيما، قامت طرادات بقيادة الأدميرال الياباني هيهاتشيرو توغو بمهاجمة الأسطول الإمبراطوري الروسي وجعلته يترك المياه. كان على روسيا أن تقبل سلاماً مخزياً لم يستطع حتى السوفييت أن يتصوروه عندما كانت اليابان تستسلم لهم في عام 1945. كلفت هذه المغامرة روسيا 400 ألف قتيل. مع كارثة تسوشيما، بدأ النظام القيصري يسير مترنحاً نحو هلاكه.

جلبت الانتكاسة العسكرية التي شهدتها روسيا العار لها بين الدول وتحدي قيام عمل ثوري في الداخل. ظهرت الشقوق في القشرة الحديدية لعزلة روسيا. لقد وضع بطرس الأكبر القواعد الأساسية التالية: «ستبقى أوروبا ضرورية لنا لعدة عقود. بعد ذلك سنديرظهرنا لها. خذ بسرعة ما هو جاهز، وما هو أفضل، وأدخل تحسينات عليه في بلادك». على هذا الأساس، كانت سياسة القيصر تحكمها ثنائية غريبة. الرغبة في استيراد الأفكار من الخارج ورهاب الانعزالية الفطري تجاه الأفكار القادمة أيضاً من الخارج. ومن الأمثلة على ذلك السكك الحديدية، وهو اختراع غربي باهر يمكن أن يخدم روسيا بسبب مساحاتها الشاسعة، ولكن بمقياس سكك حديدية أطول من بقية بلدان أوروبا. وكانت النتيجة أن قطاراً من بولندا أو النمسا أو بروسيا تنتهي خطوط السكك الحديدية التابعة له عند الحدود الروسية. وبهذه الطريقة تمّ منع الروس من مقارنة سعادتهم أو بؤسهم مع دول أخرى، وهكذا يتمكن القيصر من أن يرسم صورة لروسيا باعتبارها جنة الله على الأرض.

إن استخدام القوة المفرط ولفترة طويلة يعمي بصيرة الحاكم عن الكرامة الإنسانية والعدالة وحتى الشرف. كان القيصر بطرس والقيصرة كاترين مثل آلهة لا يمكن المساس بها، قاما ببراعة بتحويل أمراء الحرب إلى حاشية راقية. لكن ألكسندر ونيكولاي مارسا سياسة غير عادية لا تلائم الملوك في العصر الصناعي. من حيث الفجوة بين النخبة الغنية والبروليتاريا العاملة الفقيرة والأقنان في الريف، كانت أوضاع روسيا فريدة من نوعها.

تطلبت عملية التصنيع قوة عاملة غير ماهرة شكلت قاعدة لطبقة عاملة بروليتارية جديدة. هذه الفئة عانت من القسوة على أيدي مدراء المصانع. عاشت عائلاتهم في ظروف مروعة، في ثقوب صغيرة في أبنية ضخمة من الطوب المتهالك تعلوها بكثافة طبقات من غبار الفحم الأسود، كما كانت قذرة إلى حدّ أنها لم تكن صالحة للسكن. ودفع سلم الأجور غير العادل إلى تأسيس اتحادات عمالية جبانة للدفاع عن حقوقهم. لكنها كانت منقسمة. وكانت الإضرابات تُقمع بقسوة مفرطة والمظاهرات تفتقر إلى القوة السياسية حيث إن البروليتاريا لم يكن لديها الوسائل للقيام بعمل جماعي فعال. كانت هذه لحظة واعدة لرجل القدر ليتقدم إلى الأمام، ويوحّد البروليتاريا، ولا يشكّل فقط مصير روسيا، بل أيضاً الاعتبارات السياسية لكل القوى الكبرى لفترة طويلة قادمة.

نشأ ليب دافيدوفيتش برونشتاين وهو يتحدث اللغة اليديشية[8] أفضل من الروسية. ذهب إلى الجامعة في أوديسا، ووقع في حب مغنية أوبرا، ودرس المسرح، الذي كان التدريب عليه قد ساعده في مخاطبة الجموع الكبيرة من الجماهير. بَنَت أعمال روسو وماركس ونيتشه ودانونزيو وزولا آراءه. وكتب قبل أن يُنفى ويوضع في قطار متجه إلى سيبيريا في عام 1899: «إن الملكية الروحية للإنسان شاسعة في تنوعها، لذلك علينا أن ندرس أعمال وتجارب أسلافنا العظام». وفي السجن، أقام ليب دافيدوفيتش علاقة صداقة مع صياد للفراء بسيط التفكير كان يعرف ذلك الجزء من سيبيريا. في عام 1902، تمكنا من الفرار، كان صياد الفراء هو من يقود الطريق إلى مدينة إيركوتسك، التي يوجد فيها أقرب خط سكة حديد. من أجل الهروب، قام ليب دافيدوفيتش بتزوير جواز سفر داخلي. كان أحد حراس سجنه من المتنمرين المتوحشين وكان اسمه تروتسكي وكان يكره اليهود الأذكياء. ولكي يسخر برونشتاين منه استخدم في جواز سفره المزور اسم ذلك المجرم. من تلك اللحظة، أصبح ليب

8- لغة يتحدث بها اليهود. المترجم.

دافيدوفيتش برونشتاين يعرف باسم ليون تروتسكي. كان التزوير متقناً بما فيه الكفاية بحيث جعله يتجاوز المسؤولين في إيركوتسك ويصعد على متن سفينة متجهة إلى لندن، حيث انضم إلى اثنين من الثوريين، هما ناديجدا كروبسكايا وزوجها فلاديمير إيليش أوليانوف أو لينين. بالتأكيد لم يكن بينهما حب من النظرة الأولى. وجد تروتسكي آراء لينين السياسية مثيرة للاشمئزاز من الناحية الأخلاقية. وكان لينين ينظر إلى تروتسكي كشخص ثرثار وابن عاهرة راقية.

كان لينين، قصير القامة وأصلع، ذا عينين منغوليتين، ومن عائلة من الطبقة المتوسطة الميسورة. لقد جعلته وجهات نظره الراديكالية المتشددة يقضي سنوات في السجون القيصرية. تغيّرت حياته بعد أن التقى في المنفى مع جورجي بليخانوف، الزعيم الديمقراطي الاشتراكي في روسيا، الذي اتهمه: «بأننا نظهر للبرجوازية الليبرالية وجهنا، وأنت تظهر لهم مؤخرتك». قاد هذا الخلاف إلى حدوث انشقاق في الحزب. شكل بليخانوف المناشفة ولينين البلاشفة. كانت الجماعة المعارضة الوحيدة داخل روسيا هم الثوريون الاشتراكيون، وهم مجموعة مرتبكة ليس لها أهداف محددة بوضوح. ورغم أنها لم تكن فعالة، إلا أنها بدأت تتنامى. وللوقوف في وجه تأثيرهم المتنامي، ساعدت الشرطة السرية (أوخرانكا) في تشكيل اتحاد العمال الروس، الذي كان زعيمه غابون وهو قس أرثوذكسي. بعد الحرب الروسية اليابانية، أغرت الاضطرابات المتنامية في روسيا تروتسكي للذهاب إلى سان بطرسبرغ. وقام بتشكيل سوفييت (وتعني مجلس باللغة الروسية). انطلقت مسيرته السياسية في يوم شتائي صاف وبارد، هو الثاني والعشرين من كانون الثاني 1905. مع تزايد الاستياء في المصانع، أمرت الشرطة غابون بقيادة عمال نقابته في مسيرة علنية تعلن الولاء للقيصر. سار الآلاف من العمال وأسرهم إلى قصر الشتاء، حاملين عريضة تحمل مظالمهم إلى القيصر نيكولاي: «نحن، عمالك المخلصون، وأطفالنا، وزوجاتنا وآباؤنا الذين لا حول لهم

ولا قوة موجودون هنا طلباً للحقيقة والحماية. نحن فقراء، ومضطهدون، إنهم يضحكون علينا ولا يعاملوننا كبشر، ولكن كعبيد. لقد وصل صبرنا إلى الحد الأقصى. بالنسبة لنا فقد حان الوقت الذي أصبح فيه الموت أفضل من العذاب المستمر». جوبهت هذه المظاهرة السلمية، التي كانت بلا أعلام أو لافتات، بحاجز متراص من الجنود والخيّالة القوزاق. فجأة، أطلق الجنود النار على الجموع المحتشدة من مسافة آمنة. استمروا في إطلاق النار لساعات ومات في تلك المذبحة أكثر من ألف شخص. وكتب تروتسكي عنها: «كان حمام الدم هذا بمثابة بروفة عامة لثورتنا في عام 1917». وكانت النتيجة النهائية للأحد الدامي هي موجة الإضراب التي اجتاحت البلاد. قام مليون عامل بتدمير أدوات عملهم؛ حدث كل ذلك دون توجيهات من أي منظمة سياسية. اتسم ردّ فعل السلطات بوحشية مطلقة. تمّ تجميع الآلاف من العمال في قطارات ونقلهم إلى معسكرات العمل القسري في سيبيريا. كانت ثورة 1905 عملاً مشوشاً، بلا تخطيط وبدون قيادة، وأغرقه القوزاق في بحر من الدماء.

في 4 شباط، ألقى الاشتراكي الشاب كالييف قنبلة على عربة عمّ القيصر. كل ما وجدوه من الدوق الأكبر سيرغي أليكساندروفيتش كانت قدمه. لقد بحث النظام عن كبش فداء، وألقي اللوم بشكل مباشر على الثوار اليهود. ارتكب العسكريون وأتباعهم مذابح فظيعة. أُحرقت الغيتوات، ونُهبت المنازل، وقُتل اليهود على أيدي الغوغاء المسعورين. لم يخبر الذي رمى القنبلة المحكمة أبداً من كان وراء ذلك.

كان تروتسكي، على قائمة المطلوبين للشرطة السرية (أوخرانكا) باعتباره أحد نشطاء حركة نارودنيك (أصدقاء الشعب) الثورية، وأحد أعضاء خلايا المثقفين المتزايدة الذين قرروا تعليم العمال «بهجة التحرر من العبودية»، في طريقه إلى سيبيريا مرة أخرى. وكذلك كان الحال مع فلاديمير إيليتش أوليانوف، الذي استوحى اسمه الحركي من اسم النهر الذي يمرّ بالقرب من معسكر السجن، لينا. ولكن قبل أن يضع تروتسكي

قدمه في القطار، تدخل في حدث آخر. فقد وافق القيصر في بادرة لطف منه على «بيان منح الحريات». بالنسبة إلى تروتسكي الذي لا يضيّع الفرص، كانت هذه طريقة لإثبات موهبته كخطيب لامع. وألقى خطاباً في اجتماع للعمال في بتروغراد، ولوّح فيه بورقة قائلاً: «لقد أجبرنا هذا الجزار الجالس على العرش على منحنا الحرية، ولقد وعدنا بمنحنا الحق في التصويت، لكننا لن نحتفل الآن. إذا كانت الحكومة صادقة في صنع السلام مع شعبها، فعليها أن تبدأ في منح العفو لجميع رفاقنا في سيبيريا». بدأ الحشد يهتف العفو! العفو !. استحوذ تروتسكي على انتباههم الكامل. «أيها العمال، قوتنا في أنفسنا. يجب أن نلوّح بسيوفنا وأن ندافع عن حرياتنا. بيان الحرية ليس سوى ورقة. واليوم يعطيها القيصر لكم، وغداً سيأخذها منكم ويمزّقها إلى أجزاء، كما سأقطع هذه الورقة التي تحوي بيان الحرية إلى أجزاء أمام أنظاركم». ثم ترك أشلاء الورقة ترفرف فوق رؤوس الحشد[9]. فعل القيصر ما تنبأ به تروتسكي بالضبط. فقد أدى خوفه من أن يصبح غير مرغوب به وسط أعمامه وأبناء عمه وأبناء أخوته المتسلطين، وبطء الفكر السياسي لديه إلى أن يتردد في تنفيذ ما وعد به. وإلى حين وصل إلى تلك الفترة، لم تكن الثورة السوفييتية أمراً مفروغاً منه، فقد تصرف بحماس. لقد فشل فشلاً ذريعاً، وأصبحت شخصيته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالرحلة نحو قيام الثورة. «إنه أرنب»، هكذا سخرت الأوساط البرجوازية منه، في إشارة إلى افتقاره إلى الشجاعة الشخصية والتدخل المتزايد لزوجته في السياسة. «لا يمكنه أن ينجز عملاً إلا في السرير، ولا يفعل ذلك إلا بعد أخذ الإذن منها».

كان تروتسكي في منطقة التايغا المتجمدة الواقعة أعالي الدائرة القطبية الشمالية، على بعد ألف ميل من أقرب سكة حديد. هذه المرة، بدا الهروب مستحيلاً. لم يحسب حراسه حساب براعة ليون تروتسكي. فقد أصبح صديقاً لأحد رجال قبيلة الزيريان الذي اعتاد أن يكون سكراناً

9 - عن A. Muller, Gespräche zur Weltgeschichte.

والذي كان يزود الحراس بالفودكا محلية الصنع. في إحدى الليالي، قام تروتسكي بحمل صديقه المخمور على زلاجته التي تقودها حيوانات الرنة وخرج من بوابات معسكر الاعتقال وقد خبأ نفسه تحت كومة من الفراء ذي الرائحة الكريهة. من الصعب تخيل رحلتهم التي تبلغ ألف ميل خلال ليلة شتاء في سيبيريا. سافروا في الظلام في القطب الشمالي بينما حافظ تروتسكي على إثارة اهتمام دليله بإخباره بسلسلة من القصص الخيالية. ستكون هذه التجربة مفيدة له في المستقبل، لأنه كرّر القصص ولكن بنهاية مختلفة لتناسب احتياجات معينة. بعد أسابيع عدة وصلوا إلى سكة حديد بوغولوفسكا[10] حيث قدم تروتسكي نفسه كمستكشف قطبي. كان مقتنعاً بأن الحاكم المحلي سيطلب منه التحدث إلى نبلاء المدينة حول مغامراته. والباقي كان بسيطاً. من خلال الأوراق الأصلية التي قدمها «البروفيسور البارز لتروتسكي» من قبل الحاكم الظريف، أخذ ليون القطار إلى موسكو، ومن هناك توجّه إلى لندن وبرلين وفيينا، قبل أن يستقر في باريس. عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، أصبح مراسلاً لصحيفة سرية، اسمها سلوفو. تسبّب لسانه السليط في إبعاده عن فرنسا وذهب من هناك إلى نيويورك، ثم ابتلعه حي اليهود في برونكس.

في روسيا، رفعت الفوضى رأسها القبيح لكن القيصر حصل على مهلة مؤقتة. فمن خلال دعم من فصيل روسي، قامت منظمة صربية قومية باغتيال الأرشيدوق النمساوي في حزيران 1914. في ذروة الحماسة القومية للذهاب إلى الحرب، كان الأطفال يلوّحون بالأعلام، وهتفت النساء بشعارات وطنية، وتمت تعبئة الرجال «للدفاع عن روسيا الأم المقدسة». لم يشارك نيكولاي في الحرب إلى أن يصل إلى قرار مصيري. وأمر جيوشه التي لم تكن مستعدة للقتال (الجيش الأول بقيادة الجنرال رينكامب والجيش الثاني بقيادة الجنرال سامسونوف) بشنّ هجوم غير مدروس على شرق بروسيا. ساهمت الكراهية الشخصية

10- لا توجد رواية تذكر ما حدث لمرشده من قبيلة زيريان.

العميقة بين قائدي الجيش، وحقيقة أن الألمان كانوا يطلعون على الأوامر الروسية حول المعركة بوضوح en clair[11]، في تكبد روسيا هزيمة منكرة في معركة تانينبيرغ، حيث هزم جيش مدرّب ومجهزٌ بشكل جيد جيشاً عملاقاً ضعيفاً للغاية. مات ستمائة ألف فرد بالإجمال. أدى الهجوم الذي شنّه الجنرال بروسيلوف على الخطوط النمساوية المجرية إلى سقوط مليون قتيل روسي آخر. انهارت معنويات القوات، وتحطمت واجهة الوطنية الروسية، وبدأت الملكية تنهار. لو كان القيصر الروسي قد طلب من ابن عمه، القيصر الألماني، إبرام معاهدة سلام مشرّف، لكان قد أنقذ عرشه وعرش ابن عمه، بل وأكثر من ذلك لكان أمكن له أن يجعل من الحرب العالمية الأولى أقصر صراع دولي في التاريخ. تقدمت الجيوش الألمانية، في حين سقط الروس مرة أخرى في الفوضى، وتكبدوا خسائر فظيعة.

لا يمكن إغفال الدور الذي لعبته الهوة العميقة التي كانت قائمة بين طبقة الضباط والجنود من أبناء الفلاحين. كان الضباط يتمتعون بالإجازات المتكررة من خطوط الجبهة، لرؤية زوجاتهم والنوم مع عشيقاتهم، في حين كان الملايين من المجندين المشمولين بالتجنيد الإلزامي لا يعتبرون سوى «وقود للمعركة». كان عليهم أن يقفوا وسط الوحل العميق وقد تدلّت أكتافهم وتطأطأت رؤوسهم إلى الأسفل. وتصدر لهم الأوامر بالتقدم على شكل موجات ليكونوا في مرمى نيران المدافع الرشاشة الألمانية أو ينتهي بهم الأمر وقد عُلّقوا في الأسلاك الشائكة. كان يتمّ إعدام الرافضين الالتحاق بالتجنيد الإلزامي بدون محاكمة. بدأ الجنود الروس يمقتون ضباطهم، وجميع من هم في سلم القيادة بدءاً من النقيب إلى العقيد إلى الجنرال، وصولاً إلى القيصر و«عاهرته الألمانية». وتحولت وحدات الخط الأمامي إلى براميل بارود للتمرد وكان فتيل اشتعالها يقصر يوماً بعد يوم. وقد توسل القائد

11- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

الأعلى للجيش، الدوق الأكبر نيكولاي، القيصر ليقوم بتوزيع الأراضي على الجنود الذين يبدون شجاعة استثنائية. لكن القيصر أعفى الدوق الأكبر من منصبه. وعندما سمع رئيس الأركان الألماني الجنرال إريك لودندورف بهذا الخبر شعر بالسعادة وعلق قائلاً: «لقد تقدمنا خطوة مهمة نحو هزيمة روسيا». حاول القيصر الأخرق الآن أن يجرب حظه مع القتال، فجعل نفسه الشخص الوحيد الذي يهتم بشؤون الحرب. مما جعل جنرالاته يتذمرون قائلين «إن هذا هو من فعلها، تلك المرأة الألمانية وراهبها[12] الملعون سيقوداننا إلى كارثة». أنْ تقاتل العدو هو شيء مفهوم، ولكن عندما تضطر أن تقاتله داخل وطنك الأم، في اللحظة نفسها التي يجب فيها أن تتوحد الصفوف: فإن الأمر يتجاوز كل الحدود.

كانت سان بطرسبرغ، التي سُمّيت بتروغراد لاسترضاء الروس الذين يقاتلون الألمان، مدينة استوحت عمارتها من روما، وأماكن لهوها من باريس، وغرورها من برلين. لقد كانت مكاناً يصنع فيه الأشخاص الفائقو الذكاء ثرواتهم ويأتي أشخاص آخرون ليخلصوهم منها، كانت مدينة الأقنعة والأسرار، تغلي بالغضب على أعدائها المكشوفين والمخفيين على حدّ سواء. كانت تسارينا ألكسندرا فيودوروفنا، المتوترة والمضطربة للغاية، منشغلة بالحالة الصحية التي تتراجع لابنها أليكسي المصاب بالهيموفيليا. لم يفده شيء، لا الأطباء ولا الحج إلى الأضرحة المقدسة. حتى ظهر راهب سيبيري في مشهد الأحداث وسقطت تسارينا تحت تأثير هذا الموجيك (الفلاح الروسي) المخادع. ادعى الراهب الدجال غريغوري يفيموفيتش راسبوتين أنه تلقى رؤية من الله وأنه يمكن أن يشفي مرض ابنها. وعندما كان القيصر نيكولاي في مقرّه الميداني، في مدينة موغيلوف، تُركت قرارات الدولة في أيدي تسارينا وراسبوتين الذي كان يزرع الشر في روحها. كانت التعيينات الحكومية التي قاموا بها معاً كارثية. في كانون الأول 1916، قام الأمير فيليكس يوسوبوف (الذي

12- يقصدون راسبوتين. المترجم.

اشتهر بميله إلى ارتداء ملابس النساء) بإغراء راسبوتين، وكان زير نساء سيئ السمعة، للحضور إلى قصره من خلال وعده بلقاء زوجته الجميلة إيرينا. قتل يوسوبوف واثنان من شركائه راسبوتين. فقد سمّموه، ثم أطلقوا عليه النار، وعندما كانت علامات على الحياة لا تزال تظهر على الراهب، قاموا برميه وسط كتل الجليد الطافية على سطح نهر النيفا. «لقد قتلوه»، كانت تلك هي صرخة الفرح حيث احتفلت البلاد بموته كما لو كان عيد الفصح. بكت تسارينا عليه بمرارة. كانت الحرب يشتد أوارها وكان على الملايين أن يدفعوا حياتهم ثمناً لعجز القيصر، لكنهم كانوا من عامة الشعب canaille[13]، فلاحين ولدوا ليضحوا بحياتهم من أجل قيصرهم. هذا الموت الفريد من نوعه قد وجد خصيصاً للأسرة الإمبراطورية.

«من سيبكي علينا الآن؟» سأل أليكسي بتوسل.

أجابه نيكولاي: «يا حبيبي، ستبكي روسيا كلها».

لقد كان مخطئاً: فالكراهية التي تعتمل بها صدور الناس تركّز الآن على الإمبراطورة، تلك «العاهرة الألمانية». كان الناس يلعنونها بينما يجمّد البرد أقدامهم وهم واقفون ينتظرون في طوابير الطعام. قام الجنود في الجبهة بشتمها: «تلك المرأة الألمانية السفاحة مسؤولة، هي لا تريدنا أن نهزم أبناء عمومتها». هذه الإشاعة الخطيرة سرعان ما نمت إلى مديات خطيرة. تمّ إطلاق النار على البعض لنشره الافتراءات الانهزامية. وأخذ آخرون مكانهم.

بعد ثلاث سنوات من الحرب المدمرة، وتعرض جيوشها إلى قصف عنيف مستمر من المدفعية الألمانية، وحدوث مجاعة في الداخل، ومؤامرات القصر واقتصاد منهار، أصبحت بتروغراد تشبه مدينة روما أيام حكم عائلة بورجيا[14]. والآن بعد أن تمّت إزاحة راسبوتين، عادت السلطة إلى أعمام القيصر، الذين فرضوا إرادتهم على برلمان عاجز،

13- حقيرون بالفرنسية. المترجم.

14- عائلة أوروبية بابوية برزت خلال عصر النهضة. المترجم.

والذي كان يسمى الدوما (المجلس بالروسية). على الرغم من أعداد الخسائر بالأرواح التي تجاوزت الملايين، وعلى الرغم من ازدياد أعداد الجياع في المدن الذين يطالبون بالخبز، إلا أن الأمور بالنسبة إلى الطغمة الحاكمة في بتروغراد، كانت تجري «كالمعتاد». كانت البرجوازية تعلم أن البروليتاريا الغاضبة لا تمتلكُ قوة تهزّ بها المؤسسات السياسية. ولكن هذه المرة كان الوضع مختلفاً. لم يعد ضباط الجيش متأكدين من ولاء جنودهم. بات القادة العسكريون يواجهون مصاعب أكبر في محاولتهم منع الجنود من الفرار من القتال ضد الألمان. أصبح الجيش الروسي «ميليشيا للفلاحين»، يقودها ضباط من رتبة صغيرة (ملازم أول) لا ينتمون إلى الطبقات المميزة. لم يكن السؤال هو، هل ستحدث الثورة؛ ولكن متى ستحدث، سواء كان ذلك من خلال انهيار النظام الملكي غير الكفؤ أو عن طريق حدوث تمرد في الجيش. في مقرّ القيادة العليا للجيش، ناقش الضباط «الاستراتيجية الأكبر» عند العشاء وعلى ضوء الشموع، وقام القيصر بالتجوال مع كلبه، بينما كانت الأفواج في الجبهة تهلك الواحدة بعد الأخرى، وسط الطين المتجمد. في كل صباح كان يجب انتشال الموتى من المستنقع الجليدي الذي يحيط بخنادقهم. كانت جبهة القتال صورة من المخابئ المتحللة والخيام الطبية المتعفنة والملاجئ المنهارة والوحل. كان الانسحاب يعني القبول بالهزيمة. لذلك أمر الضباط جنودهم بالبقاء حتى الموت.

تصل الأمور أحياناً إلى حدّ أنها تجعل حتى أكثر الأشخاص شجاعة أو غباء يعترض عليها. كانت الأمور على وشك أن تصل إلى هذه النقطة. كل ما تطلّبه الأمر هو وجود منظمة تربط الناس معاً. تمّ إيقاد شعلة الحماس لدى الجنود الذين تعرضوا للخيانة من قبل جيل جديد من المحرضين المدربين سياسياً، الذين كانوا يخبرون الجنود كيف كان الأغنياء يزدادون سمنة، وكيف استفاد السياسيون الطموحون وتجار السوق السوداء من الكوارث العسكرية. لم تكن هذه سوى الحقيقة.

على بعد آلاف الكيلومترات خلف خطوط القتال، كان تجار الحروب يذهبون وجيوبهم ممتلئة بالنقود إلى حفلات الباليه مع عشيقاتهم اللطيفات. تلطخت مصداقية رئيس وزراء روسيا، ميخائيل رودزيانكو، بسبب الخسائر الفادحة في الجبهة والاقتصاد المتداعي في الداخل. لم يعد يستطيع التعامل مع تزايد الاستياء في صفوف الناس والعجز المالي. كانت الظروف قاتمة حقاً. برزت من بين الظلال شخصية كان مقدر لها أن تقود عملية وفاة روسيا الإمبراطورية.

كان ألكسندر فيدوروفيتش كيرينسكي، محامياً لامعاً، أمضى بضعة أشهر في السجن بعد ثورة 1905؛ وقد أثبتت أنها كانت مفيدة لأنها منحته دليلاً على أنه كان ثورياً اشتراكياً، لكنه اعتبر الماركسية شيئاً مستورداً من الخارج. في خطوة ذكية من الناحية السياسية، بدأ كيرينسكي التعاون مع سوفييت بتروغراد وهو مجلس يمثّل العمال والجنود، والذي أصبح المجلس المنافس لدوما البرلمان الروسي، الذي كان يفتخر نوابه بأنهم يمثلون «المجتمع المحترم» وينظرون إلى مجالس السوفييت على أنها مكانٌ يضم «الرعاع وأراذل البشر». كانت مجالس السوفييت هذه تدافع عن حقوق عمال المصانع. لقد تمّ إنشاؤها على يد الاشتراكيين؛ وليس من قبل البلاشفة، كما ادعوا في وقت لاحق؛ لم يكن لها علاقة بالبلشفية الناشئة. بهذه الخطوة الجريئة تجاوز كيرينسكي المفاوضات التي وصلت إلى طريق مسدود بين الممثلين المنتخبين للدوما والملك. لقد استطاع كيرينسكي بشكل مذهل أن يجعل بروليتاريا المدن تقف إلى جانبه، لكنه تجاهل خطورة أكبر بكثير: فهو كان يوفر منصة تعبّر فيها الطبقة العاملة في المدن عن مظالمها، وكذلك تنشط الجنود من أبناء الفلاحين المحبطين الموجودين في الجبهة. ومن سخرية القدر أن لينين وتروتسكي، وهما رجلان غامضان سيهزان العالم بطريقة لم يكن من الممكن لأحد أن يتصورها، لم يشاركا في أحداث شباط 1917. في ذلك الوقت، كان لينين يعيش في شقة عادية بلا مصعد في زيوريخ، وكان تروتسكي يلقي

محاضرات في نيويورك حول فشل الأممية الاشتراكية. على عكس الدعاية السوفييتية اللاحقة، لم يكن البلاشفة مسؤولين عن الإطاحة بالقيصر؛ في واقع الأمر، كانوا بالكاد موجودين كحركة سياسية!

بدأ يوم 23 شباط[15] من عام 1917 في بتروغراد مع مظاهرة عفوية قامت بها النساء العاملات في الطابق الأول من مصانع النسيج في مدينة نيفا. في غضون ساعة ازدادت الحشود وهي تهتف فلتسقط الملكية القيصرية! تراصّت أكتافهم وتقدموا على طول شارع بولشوي. أوقفتهم وحدات من الفرسان القوزاق وهم يحملون السيوف فيما اقتحمت الشرطة الحشد بالهراوات. وكانت معجزة، أن ذلك اليوم قد انتهى دون وقوع وفيات أو اعتقالات. لحسن الحظ، وكما قال رئيس بلدية بتروغراد في تلك الأمسية وهو يحتسي الشمبانيا في فندق أستوريا: «يا إلهي، تخيّل ما سيقوله حلفاؤنا الأجانب عنا، إننا لطخنا الثلج بدماء شعبنا». في مجلس الدوما، كان ألكسندر كيرينسكي يريد الكلام وسط هتافات تتوجه اليه بكلمات. «خائن!» عندما هدأت الأصوات في المجلس أشار إلى النافذة. «هل تنعتوني بالخائن؟ هل أنتم عميان؟ هؤلاء النسوة هناك، هن أمهاتكم، وزوجاتكم، وبناتكم، وبالنسبة لهن فإن الجوع هو القيصر الوحيد».

بعد ثلاثة أيام، كان المتطرفون الثوريون، الذين يطلقون على أنفسهم اسم البلاشفة، يعقدون اجتماعاً عندما اقتحم عملاء أوخرانكا (الشرطة السرية) المكان وألقوا القبض عليهم. لكن البعض هرب من مصيدة الشرطة وقاموا بتنظيم مسيرة شارك فيها 200 ألف شخص ضمّت، لأول مرة، الجنود والطلاب. ساروا عبر الجسر المقام على نهر نيفا المتجمد. ولغرض تجنب حواجز الطرق، عبر الآلاف على الجليد. كان القدر، ورفْض الجنرال خابالوف إطلاق النار عليهم وعدم تشقق الجليد، قد خدمهم. انتشر الخبر أن جنود فوج بريوبرازنسكي قد

15- كان يصادف 8 آذار تاريخ اليوم العالمي للمرأة وفق التقويم اليولياني القديم، الذي استمرت روسيا تستخدمه حتى سنة 1918. المترجم.

انضموا إلى الشعب. وحينها قال الكونت العجوز أليكسي بتروفيتش: «الآن سيكون حتى لدى الأتراك سبب لأن يضحكوا علينا». في حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً كان يجلس في ردهة فندق أستوريا، يقرأ جريدته، عندما رأى جموع من الغوغاء تقترب على طول الشارع. ثم حُطِّم الباب الزجاجي الدوار لمدخل الفندق بعقب بندقية وصاح أحدهم: «هناك واحد منهم!» غاص الكونت العجوز في مقعده بسبب تأثير إحدى الرصاصات. كان أول ضحية للثورة. وهرع غوغاء آخرون نحو ساحة زنامينسكايا ومحطة سكة حديد نيكولاييف حيث تعرضوا لنيران الرشاشات. في شارع نيفسكي، تمّ حصد الغوغاء من قبل فوج بافلوفسكي. قام الحشد بجمع شهدائه وحمل الجثث المتناثرة دماؤها عبر شوارع بتروغراد. تلقت الكتيبة أمراً بإطلاق النار عليهم؛ وبدلاً من ذلك، استدار الجنود على قائدهم، العقيد إكستن، وقطعوه إرباً حتى الموت. انضمت المزيد من القوات، التي كانت متواجدة هناك لحماية المدينة من أعمال الشغب، إلى المتمردين. في تسارسكو سيلو، مقر إقامة القيصر على بعد خمسة عشر ميلاً من بتروغراد، كانت فتيات آل رومانوف ينظرن عبر نوافذ غرفهن البلّورية نحو حديقة هادئة مغطاة بالثلج. وبينما اندلعت أعمال العنف في المدينة، كانت العائلة الإمبراطورية بعيدة عن الوضع المتفجر، كما كان القيصر نيكولاي على بعد مئات الأميال في موغيليف.

في تلك الليلة، زادت خطوط التلغراف من بتروغراد إلى مراكزها عبر روسيا من طنينها. وانتشرت أعمال الشغب في موسكو حيث سحب حشد من الناس تمثال القيصر ألكسندر الثالث العملاق وأسقطوه أرضاً، ثم هتفوا عندما كان الأطفال يبولون على رأسه المتوج، حيث ترك محطماً في حالة يُرثى لها. في بتروغراد، بدأت الاضطرابات تأخذ أبعاداً خطيرة. كانت العصابات المسلحة تجوب الشوارع وتحطم نوافذ المتاجر وبدؤوا يستولون على السلع الفاخرة. تمّ إفراغ حانة فندق أستوريا من الفودكا.

على طول شارع نيفسكي طاردت مجموعة من الرعاع المسعورين ضابط في سلاح الفرسان وقاموا بإعدامه دون محاكمة. أطلقت حامية بطرس وقلعة بولس سراح جميع السجناء. بحلول الساعة الواحدة والنصف مساءً. انضمت معظم وحدات الجيش إلى الثورة. بدأت سيارات الأجرة المصادرة بالتجوال على طول الشوارع العصرية، محملة بمتمردين يلوّحون ببنادقهم ويصيحون بأعلى أصواتهم: «سفوبودا! سفوبودا! الحرية!» كان مجلس الدوما في حالة صدمة؛ باتت تندلع موجة ذعر جديدة كل ثلاثين ثانية. توسل بعض الوزراء بالثوار لحمايتهم من الغوغاء في الشوارع. أمر ميخائيل رودزيانكو، باعتباره رئيساً للحكومة، الجنرال خابالوف بإعادة النظام بأية وسيلة ممكنة. أجاب الجنرال أنه ليس لديه المزيد من الجنود الذين يمكن أن يثق بهم. أرسل رودزيانكو برقية إلى القيصر الموجود في موغيليف:

«*الوضع خطير. يجب تشكيل حكومة جديدة فوراً. رودزيانكو*».

كان الأوان قد فات، خرج رودزيانكو ودخل المناشفة ومعهم كيرينسكي واضعاً يده داخل معطفه وهو يقوم بتقليد نابليون، كيرينسكي الذي كان يمكنه أن يتحدث حتى الصباح دون توقف، كان على كيرينسكي هذا نفسه أن يتحرك بسرعة. من خلال الاصطفاف جنباً إلى جنب مع مجلس سوفييت العمال لفترة وجيزة - في عقله البرجوازي كان يعتبره مكانَ الرعاع المثيري الاشمئزاز الذين تفوح منهم رائحة الثوم ويهتفون سفوبودا (الحرية)- كان قد استيقظ التنين والآن يجب تدمير الوحش. بدون وجود تمثيل له في مجلس الدوما، قد يصبح إقناع الأعضاء بالموافقة على تسوية سياسية أمراً صعباً. كان مجلس السوفييت قد أصدر بالفعل الأمر رقم 1، حيث طلب من الجنود أن يتجاهلوا أوامر ضباطهم وأمرهم بتشكيل مجالس ثورية، ولجان منتخبة، ولا يطيعون سوى الأوامر الصادرة من سوفييتات الجنود. وكان كيرينسكي وزملاؤه

الليبراليون قد فتحوا صندوق باندورا؛ وأخرجوا كل شروره[16]... وفجأة لم تعد البورجوازية هي التي تتحكم في الأحداث، بل صوت الشارع. وقد اتخذت القاعات المقدسة في مجلس الدوما هيئة قاعة انتظار في محطة سكة حديد على الجانب الخطأ من جبال الأورال. دخل الشخص الشهير القاعة المقدسة وأحضر معه سلاحه، وعرقه، واضطرابه. تجمع عدد قليل من النواب في زاوية بعيدة. تمكّن كيرينسكي من شقّ طريقه إلى منصة المتكلّم وعزف بورقته الرابحة: فقد هدّد بالاستقالة ما لم يُعاد جميع المنفيين السياسيين من سيبيريا، وهي خطوة كان يعرف أنها ستكسبه هتافات من العمال والجنود السوفييت. أصبح رجل الساعة عندما عرض تشكيل حكومة مؤقتة للإنقاذ. لجعل هذا ممكناً، كان على القيصر أن يرحل!

كان الشخص الذي كان في ذهن الرجل القوي الجديد قد استقل قطاره الإمبراطوري لينقله من موغيليف إلى جانب عائلته المحاصرة. وبقيامه بذلك، فقد عزل نفسه عن جيشه وحكومته. لم يكن هناك هاتف ولا تلغراف في القطار، وكانت المحطات على طول الطريق بين أيدي الثوار؛ كما هو حال نقاط تحويل خطوط السكك الحديد. وهكذا انطلق القيصر في رحلة جالت به في مناطق الريف الروسي. وقام باستدعاء الجنرال نيكولاي روزسكي، قائد الجيوش الشمالية. لم يلزم الجنرال نفسه بأي شيء عندما لا يكون مجبراً عليه. (في نهاية المطاف، ألقى البلاشفة القبض عليه وأطلقوا النار عليه). في حين كان القطار الإمبراطوري يزحف بسرعة بطيئة، قام المتمردون بتغيير نقاط التحويل مما جعله يتحرك بشكل دوائر، لقد تمّ ترك جلالة الإمبراطور في جهل تام بالوضع السياسي. وقد فوجئ تماماً عندما تسلم برقية اقترحت تنازله عن العرش فوراً:

16- حسب الأساطير الإغريقية هو صندوق يتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب وحسد، ووهن. المترجم.

«هناك مطالب ملحّة لتنازلك عن العرش لصالح ابنك».

وكان البديل هو أن «المستبد العجوز الذي أوصل البلاد إلى الخراب المطلق ستتمّ إقالته بالقوة». أُرسِل وفد اختاره كيرينسكي لاعتراض قطار القيصر ولمنع نيكولاي من الوصول إلى وحدات الجيش الموالية له.

عند مدينة بسكوف، في الثاني من آذار 1917. كانت رحلة كابوس نيكولاي تقترب من نهايتها بسرعة. في ذلك المساء، جلس في عربته وكتب في يومياته: «كل من حولي خائن، وجبان وكاذب». كان عمال السكك الحديدية قد فككوا عربته وقضى الليلة في مقصورة غير مدفّأة. استيقظ على صوت صافرة القطار المتجه إلى محطة بسكوف. نزل رجلان: فاسيلي شولغين، وهو نائب كان مناصراً للملكية وتحوّل إلى صف كيرينسكي، وألكساندر غروتشكوف، وهو نائب آخر روّعته الانتفاضة. وقد واجها مهمة مستحيلة: فالطريقة الوحيدة لإنقاذ روسيا من الفوضى الكاملة هي أن يرحل نيكولاي. وخلافاً لتوجيهات كيرينسكي، كان غروتشكوف وشولغين على دراية أن البلاد لا يمكن أن توجد بدون قيصر؛ يجب أن يتنازل نيكولاي لصالح ابنه أليكسي. كان ذلك الترتيب يحتاج إلى موافقة القيصر؛ وهو الوحيد الذي يمكنه الآن إنقاذ روسيا.

خرج القيصر، الذي كان يرتدي معطفاً طويلاً رمادي اللون من ذاك المعروف بالمعطف الشركسي، وأومأ ببساطة إلى الوفد. جلس الثلاثة حول طاولة في مقصورة الضيافة. تمّ تقديم الشاي، ذلك الطقس المقدس الذي لم تستطع إلغاءه لا الحرب ولا الثورة. قدم البرلمانيون الخطوط العريضة للحالة الحرجة، وتوسلا بالقيصر أن يتنازل عن العرش لصالح ابنه. بدا القيصر منزعجاً: سأفكر في طلبكما.

فرك غروتشكوف يديه بعصبية: «صاحب الجلالة، لم يعد هناك من وقت».

«لا يمكنك أن تتوقع مني اتخاذ قرار فوري».

شولغين: «أخشى أننا يجب أن نصرّ على هذا».

كانت الساعة تشير إلى الواحدة مساء. من يوم 2 آذار 1917 (15 آذار، وفقاً للتقويم الغريغوري). عاد نيكولاي إلى مقصورته الخاصة حيث أرسل من هناك برقية إلى رودزينكو (حيث إنه لم يكن يعترف بكيرينسكي) وافق فيها على تشكيل حكومة جديدة برئاسة الأمير غريغوري لفوف. داخل عربة القطار، تحول غروتشكوف إلى شولغين الذي أظهر وجهه الإجهاد الذي كان يعاني منه: «ما الذي يهتم به؛ لقد كان قد تخلى عن العرش منذ أن أصبح قيصراً. كل ما يفكر به هو عائلته».

عاد نيكولاي، ووجهه شاحب، لكنه بدا هادئاً. ربما لم يدرك بعد خطورة الوضع.

«سيدي، يجب أن تتصرف، الوقت ينفد».

سألهما القيصر هل تعتقدان أنه كان من الممكن تجنب هذا الأمر؟ بدأ النائبان البرلمانيان ينظران أحدهما إلى الآخر، بذهول! لو كان ملكاً حقيقياً، لكان بإمكانه الاعتماد على عدد كبير من القوات الموالية التي تمّ تدريبها وتجهيزها بشكل جيد، متفوقة على أي شيء يمكن أن يملكه الرعاع...

ولو كان قيصر من نوع آخر سيأمر وحداته بإخماد التمرد، وشنق المتمردين، وإعادة تأسيس النظام. بطبيعة الحال، سوف يتمّ إراقة الكثير من الدماء؛ ولكن ذلك الأمر كان لا مفرّ منه لإنقاذ البلاد.

يحتاج الأمر إلى رجل قوي لاتخاذ خيار صعب. والآن يسأل هذا الضعيف الحقير عما إذا كان من الممكن تجنبه!

أجابه شولغين: «قبل بضع سنوات، نعم، قبل بضعة أشهر، ربما؛ ولكن ليس اليوم».

قبل لحظات من حلول الساعة الثالثة بعد الظهر نقل جهاز التلغراف رد بتروغراد: «يجب على القيصر أن يرحل. كيرينسكي» بالنسبة لنيكولاي كان ذلك يعني النهاية. لن يسمح له ضميره بالاعتراف بأنه كره نفسه

لفشله في اتخاذ قرارات صلبة وسريعة. وأعرب عن أمله في أنه يمكن أن ينقذ بلده المحبوب من مزيد من سفك الدماء من خلال تضحيته. عاد إلى عربته الخاصة، تناول صورة ذات إطار فضي لعائلته وتمعن فيها لفترة طويلة. كان محظوظاً جداً. كان لديه بنات جميلات، يشبهن تماماً فتيات قابلهن ذات مرة في إحدى مباريات التنس في إنكلترا. تنهد ونادى سكرتيره ليملي عليه خطاب التنازل:

... في هذه الأيام الحاسمة في حياة روسيا، فإن ضميرنا يملي علينا أن نسهّل على شعبنا أقرب اتحاد ممكن وندمج جميع القوى الوطنية من أجل تحقيق النصر السريع. وبالتوافق مع مجلس الدوما الإمبراطوري، قررنا أن نتخلى عن عرش الإمبراطورية الروسية وأن نسلم جميع سلطاتنا العليا... ليكن الله العظيم في عون روسيا!

التوقيع: نيكولاي. 2 آذار 1917، الساعة 3.05 مساءً.

يمكن القول إن نيكولاي أظهر في آخر لحظات حكمه طاقة أكثر مما فعل عندما كان يحكم الإمبراطورية. وقال وهو يسلم برقيته ليتمّ إرسالها إلى بتروغراد «يجب أن يكون هناك قيصر آخر كان هناك دائماً قيصر وسيكون هناك دائماً واحد». ولكن حتى أثناء عمله الأخير ارتكب خطأ. وبدلاً من تسليم العرش إلى أليكسي، الذي كان صبياً بريئاً، تنازل نيكولاي لصالح أخيه، الدوق الأكبر ميخائيل. لقد أهدر القيصر فرصته الأخيرة. وخسر غروتشكوف وشولغين، ومعهم، خسرت روسيا. قال شولغين المكتئب: «ليحمِ الله أمّنا روسيا». رفض كيرينسكي ذلك: «لا للمزيد من القياصرة! في غضون ساعة أجبر الدوق الأكبر ميخائيل على التوقيع على بيان لإنهاء الحكم القيصري: «... أطلب من جميع مواطني الدولة الروسية أن يطيعوا الحكومة المؤقتة التي شكلت والتي تتمتع بسلطة كاملة... (توقيع): ميخائيل».

مع تنازل آل رومانوف، عاد الهدوء النسبي. نقول بشكل نسبي لأن الأسوأ بكثير لم يأت بعد، ولكن هذا لم يعد من صنع القيصر. عاد

نيكولاي إلى ضاحية تسارسكو سيلو حيث سجن هو وعائلته، يحيط بهم حراس معادون لهم. مع كل فطنته السياسية، فشل كيرينسكي في رؤية الخطر الذي يلوح في الأفق ويهدد ديكتاتوريته البرجوازية. كان يقول: «لن أكون مثل مارات الذي مات في حوض الاستحمام الخاص به»، لقد جرفه تيار السلطة. كان منشغلاً بشبح عودة الملكية أكثر من انشغاله بالتهديد المتزايد من المتطرفين البلاشفة. حلّ كيرينسكي والدوما محل النظام الإمبراطوري كجهاز يتحكم في روسيا. وقد تألف هذا البرلمان من عدة أحزاب رئيسة، وهي الحزب الأوكتوبري (يمثل ملّاك الأراضي)، والكاديت (الديمقراطيون الدستوريون)، والاشتراكي الثوري (ذو الممارسات الإرهابية)، والمناشفة (وهم مجموعة منشقة عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي). كان يجلس على يسارهم ممثلون قليلون لتشكيل سياسي جديد: هم البلاشفة، وهو جناح متطرف من الديمقراطيين الاشتراكيين، كانوا مستعدين للجوء إلى أي نوع من العنف من أجل الحصول على السلطة وعلى استعداد للتوقيع على هدنة مع ألمانيا. وهذا هو السبب في أنهم كانوا يطلق عليهم أيضاً الانهزاميين.

وبحلول حزيران، اجتاح المدينة الآلاف من الهاربين من الجيش وهم يهتفون (دالوي فوينا...) ومعناها بالروسية تسقط الحرب! ولم تمر سوى لحظات قليلة، حتى بدأ الجميع يهتف «تسقط الحرب»؛ رفض العمال المضربون من مصانع فيبورغ، والبحارة المتمردون من قاعدة كرونشتاد البحرية، وأفواج كاملة الذهاب إلى الجبهة، كلها كانت تهتف «تسقط الحرب»! أقيمت حواجز الطرق لغلق الجسور عبر نهر نيفا. جرى تبادل إطلاق للنار بين القوزاق والعصابات المسلحة. لكن التمرد كان يفتقر إلى القيادة الموحدة أو الناطق الرسمي باسمه الذي يحثّ الناس العاديين على الانضمام إليه. بدعم من الوحدات الموالية لها، قامت الحكومة المؤقتة بإخماد انتفاضة تموز. كان كيرينسكي قد كسب الوقت. لكن المشكلة لم تختف، اختبأت فقط، بينما اجتاح

الجوع المدن، ارتفعت الأسعار ومعها أرباح تجار الحرب إلى مستويات جديدة، وتوفي المزيد من الجنود في الجبهة. انتظرت روسيا شخصاً يشعل شرارة اللهيب.

في نيويورك، لم ينتبه سوى القليلين إلى ذلك المهاجر اليهودي الذي يتكلم بسلاسة حتى بدأ الكتابة في صحيفة نوفي مير، وهي صحيفة للمهاجرين الروس. اتسعت دائرة نشاطه. وبدأ يلقي محاضرات حول القوة المتنامية للبروليتاريا. كانت نتيجة ما يقوم به كمن يلقي حجارة في «بركة من الضفادع التي تنقنق». أصبح تروتسكي يائساً من القدرات العقلية وشجاعة الاشتراكيين الأمريكيين. تجنب زعماء العمال «اليهودي المغرور الذي يريد أن يكتم أنفاسنا في عقر دارنا». ظهرت الرسوم الكاريكاتورية في الصحف المحلية وهي تصوّر ليون تروتسكي الثوري بشكل ساخر: كتلة كبيرة من الشعر المجعد بلون مثل لون الحديد الزهر المطلي؛ وأنف بارز، وشفاه ممتلئة وبارزة محاطة بشارب أسود ولحية خفيفة؛ مع النظارات السميكة ذات الإطار الصلب. إلى أن حلّ وقت اكتشفت فيه الصحافة الوطنية أن هذا الشخص الغريب الذي يتكلم بسرعة كان جذاباً ولا يقاوم، وأصبحت مقولاته اقتباسات ممتازة. «أوروبا هي برميل بارود جاهز للثورة الاشتراكية. والبروليتاريا الروسية ستوقد شعلتها. ومن يفترض أنها لن تسبب أي انفجار فإنه يناقض قوانين منطق التاريخ».

أراد أن يكون هناك عندما يقع الانفجار. قرر أن الوقت قد حان للذهاب، بعد المحاضرة، وبعد أن توسل أحد البلاشفة وهو، نيكولاي بوخارين (29 عاماً)، به ليعيد اتصاله مع الحزب الذي تركه منذ انشقاقه عن لينين في لندن. في آذار 1917، أبحر تروتسكي من نيويورك على متن السفينة كريستيانفيورد. ألقت الشرطة البحرية البريطانية القبض عليه في هاليفاكس ووضعته في معسكر اعتقال لأطقم الغواصات الألمانية التي تمّ الاستيلاء عليها، من أجل وقف هذا الانهزامي في طريقه للانضمام

إلى الحركة من أجل السلام مع ألمانيا. كانت روسيا حليفاً ثميناً لإنكلترا، حيث أجبرت الكثير من فرق الجيش الألماني على الانسحاب من الجبهة الغربية. في معسكر الاعتقال، أثبت تروتسكي أنه مقنع للغاية لدرجة أنه جعل البحارة المسجونين يعتنقون الأفكار الاشتراكية، وكان ذلك غالباً من أجل إزعاج ضباطهم البروسيين، وبمساعدة ضخمة منهم تمّ إطلاق سراح تروتسكي وواصل رحلته وسط هتافات التوديع من البحارة الألمان.

عاد بطل آخر إلى روسيا. فقد وصل نيكولاي[17] لينين وسط ترحيب صاخب من قبل أتباعه. وقد وقف فوق قطار مدرع في محطة فنلندا في بتروغراد، ليهتف: «عاشت الثورة الاشتراكية العالمية!» اتهم كيرينسكي لينين بأنه عميل ومحرّض يدفع له الألمان، لأن الألمان أوصلوه عبر قطار خاص إلى الحدود الروسية لإثارة الاضطرابات وجعل روسيا تنسحب من الحرب. هرب لينين إلى فنلندا وبات المتطرفون مرة أخرى بدون زعيم.

لم تمر فترة طويلة، حتى عاد تروتسكي إلى روسيا. ومن دون الكثير من اللغط، بدأ يشارك في نقاشات مجلس الدوما، وتجاهل اليمينيين وتوجه بخطابه مباشرة إلى النواب البلاشفة من مجالس سوفيتيات الجنود والفلاحين، والمثقفين اليساريين: «لا تثقوا بالبرجوازية، واعتمدوا فقط على قواكم الخاصة». في ظل اختفاء لينين، ووجود خلاف بين زينوفييف وكامينيف، وعدم استقرار بوخارين إلى حدّ بعيد، وكون الوجه الجديد، جوزيف ستالين، شخصاً فظاً للغاية وقاسي القلب، أصبح تروتسكي هو ممثل البلشفية المعلن. انتشرت بسرعة الفكرة التي كان يعتقد بها البلاشفة أيضاً، من أن ليون تروتسكي هو من أكثر الشخصيات إثارة للجدل التي قابلها مجلس الدوما على الإطلاق. لقد اتهم كرينسكي بزعامة حكومة

17 يورد المؤلف هذا الاسم تكراراً رغم أن الاسم الأول للزعيم لينين هو فلاديمير. المترجم.

خيانة قومية، والدعوة لمواصلة الحرب لصالح المستغلين، واستغلال قسوة الجوع كسلاح لقمع البروليتاريا. ردّ كيرينسكي على ذلك بوعده بإجراء انتخابات، وهي حيلة لم تكن ذات فائدة للبلاشفة لأنه ليس باستطاعتهم الفوز بأغلبية مطلقة. لذا، فإن الانتفاضة المسلحة كانت هي البديل الوحيد، وكان يجب أن تتمّ قبل الانتخابات.

ويوماً بعد آخر، كان يقف تروتسكي على مقعده المفضل في الحديقة العامة ويلهب مشاعر الجماهير: «من هو أصل مصيبتنا؟ إنها البرجوازية؛ فكروا في الثروة التي تتلاعب بها أيدي هذه الطفيليات». كانت الجموع الواقفة تزمجر بغضب «من يخلق هذه الثروة؟ من الذي يحرث الأرض، من يستخرج الكنوز، ومن الذي يتصبب عرقاً ويكدح فوق المكائن؟» ارتفعت الأصوات وتحوّلت إلى صراخ متهكم «من يخلق هذا العالم الذي يستمتعون به ويملؤون بطونهم منه؟» واهتزت الأرض الملتهبة بهتاف: «تسقط البرجوازية!» كانت البلاد على شفا الفوضى. لقد أُغلقت البنوك، وكان يتم دفع الأجور بأوراق نقدية لا قيمة لها، واتخذت الإضرابات أبعاداً لا يمكن التحكم فيها. احتدمت الفوضى في الريف. بدأ المزارعون، وهم مسلحون بالمذاري، يتجمعون مع الفارين من الجيش لملاحقة وقتل ملّاك الأراضي. وبدأ الجنود، الذين أرسلوا لفرض النظام، يعصون أوامر ضباطهم ويشاركون في أعمال النهب والقتل. أصبح قانون لينش[18] هو القانون الوحيد السائد. انتشرت الفوضى مثل مرض معدٍ؛ باتت الإمبراطورية مقسمة بين مجموعات قومية انفصالية. فقد طالبت أوكرانيا وبيلاروسيا ودول البلطيق وحتى سيبيريا بإقامة جمعياتها التأسيسية. طالب القوزاق والمغول والأرثوذكس والمسلمين،

18- يعود هذا المصطلح إلى شخص أمريكي يدعى ويليام لينش كتب اتفاقية في عام1782 تقضي بإدانة ومعاقبة المتورطين في جرائم بمقاطعة بنسيلفانيا دون الحاجة للإجراءات القانونية المتبعة في المحاكم الأمريكية وذلك بسبب عدم قدرة المحاكم على أداء دورها في تلك المنطقة المضطربة، ويعني غالباً الإعدام بدون محاكمة. المترجم.

والتتار واليهود بالحكم الذاتي.أسست كازاخستان جيشاً إسلامياً. وأطلق جنود القوات السيبيرية العنان لغضبهم وبدؤوا يقتلون قادتهم. باتت البلاد ناضجة للتغيير.

تحوّل رهاب كيرينسكي من عودة النظام الملكي إلى هوس دائم، بسبب الضغط الداخلي. وأصبح وجود القيصر المخلوع في تسارسكو سيلو قضية رئيسة في الصراع الدائر داخل ازدواج السلطة، بين الحكومة المؤقتة، التي تحاول تهدئته، ومجالس سوفيتات العمال والجنود، التي لا تطالب بأقل من رأس القيصر. «لم يرث نيكولا الثاني من أسلافه إمبراطورية عملاقة وحسب، بل ورث أيضاً ثورة. ولم يورثوه صفة واحدة تجعله قادراً على حكم إمبراطورية أو حتى مقاطعة من مقاطعات البلاد»، كانت هذه هي كلمات هجوم تروتسكي الصاخب. «إن التخلص منه لن يجعلنا نخسر أي شيء، أما بقاؤه فسيعيد النظام الملكي»[19].

تنامت الضغوط الخارجية. كانت الإمبراطورة هي ابنة عم الملك جورج الخامس، وقد راقبت الحكومة البريطانية الوضع الخطير للعائلة الإمبراطورية الروسية بقلق. واقترحت إرسال طراد إلى مورمانسك، وحصلوا على وعد بالسلوك الآمن من القيصر الألماني من أجل إنقاذ ابن عمه نيكي. وأعرب وزير خارجية كيرينسكي عن قلقه قائلاً: «يجب أن نضع القيصر في مكان آمن». إن السماح للقيصر بالذهاب إلى المنفى في الخارج قد يثير خطر عودة الملكية. وبينما تردد كيرينسكي، سحب الإنكليز عرضهم بتقديم اللجوء. في هذه الأثناء، كان يعود قطار ممتلئ بالفارين من الجبهة. بالنسبة للمناشفة، تحول الوضع من الإرباك إلى الخطر التام. استدعى كيرينسكي مستشاريه المقربين للحصول على المشورة. وقد نصحوه بأن «علينا أن نعمل لاسترضاء العمال والجنود. اللعنة على السوفييتات وذلك اليهودي الذي يحرضها؛ سترون، إن هذا الأبله سينتحر».

19- من كتاب تروتسكي: تاريخ الثورة الروسية.

وأضاف آخر: «تروتسكي شخص ذكي وما هو أكثر من ذلك، فإنه يمثل العنصر الموحد للبلاشفة. فقم باسترضائه، وأصدر أمراً بنفيه».

نظر إليهم كيرينسكي، فاغراً فمه: «من هو، تروتسكي؟».

«كلا ليس تروتسكي؛ القيصر. وهكذا سيهدأ هذا اليهودي الشرير. بعد ذلك، اضربه واسحقه هو وكلابه المسعورة».

أبلغ كيرينسكي أخيراً القيصر السابق بأن حكومته قد اختارت مدينة توبولسك في سيبيريا لتكون مقرّ «الإقامة المؤقتة» للملك. وبرر هذه الخطوة بالخطر على عائلة القيصر. «إنه ملجأ، وليس منفى». لقد كان يحاول إظهار جانبه المخلص، ولكن نصف الحقيقة مكروهة أكثر من الكذب، كانت خطوته لأغراض سياسية. كانت توبولسك تبعد عدة أميال عن أي مكان مأهول، وهي مكان منعزل وساكن إلى الشرق من جبال الأورال. والطريقة الوحيدة للوصول إليها كانت بواسطة الباخرة؛ طالما لم يكن النهر متجمداً، والذي يكون على هذه الحالة لمدة سبعة أشهر على الأقل من السنة. أصدر كيرينسكي أوامر صارمة لحراس القطارات بالمحافظة على أفضل ما لديهم من سلوك. «لا تعاملوا الناس بشكل سيئ عندما يكونون في موقف ضعيف». كان عليه أن يتذكر تحذيره.

في الأول من آب 1917، رافق خروج العائلة من قصر تسارسكو سيلو شيء من الاحتفال الفخم. في المحطة، انحنى كيرينسكي بتصنع للقيصر. ودخلت الأسرة عربة القطار. غادر القطار وكانت الستائر مغلقة ووضعت عليه لافتة «بعثة الصليب الأحمر اليابانية» إلى سيبيريا. بعد أربعة أيام عبر القطار سلسلة جبال الأورال. من تيومين، استقلت العائلة الباخرة النهرية (روسيا). وظلوا على سطح السفينة، وهم يعجبون بسعة بلدهم التي لم يروها من قبل، وغاباته التي لا تنتهي التي تملؤها أشجار الصنوبر والبتولا. عندما وصلوا إلى توبولسك، اصطف سكان المدينة بأكملها على ضفة النهر للتحديق بهم، لم تدفعهم مشاعر معادية، ولا سعيدة، بل دفعهم الفضول فقط، كما لو كانوا ينظرون إلى حيوانات محنطة في

متحف. أُسكنت العائلة في دار الحرية، التي كانت سابقاً مقرّ الحاكم، وهو مبنى من الطوب الأبيض مكون من طابقين. بالنسبة للأطفال، الذين اعتادوا على وجود مساحات واسعة في تسارسكو سيلو، كان المكان أشبه بالسجن. أُعطيت لوالديهم غرفة في الطابق الأول. وأُعطيت غرفة الخادمة لتساريفيتش أليكسي. وكانت للفتيات غرفة واحدة يفصل بينها ورق الحائط المزهر. من أجل وهم من الخصوصية، قاموا بحجب أنفسهم من خلال ملاءات السرير. كان الماء الساخن نادراً وكان لا بدّ من مشاركته.

لم تكن دار الحرية مثل قصر ألكسندر، ولم تكن توبولسك مثل بتروغراد. هنا، كان الناس يأكلون السمك المجفف، ويدخّنون التبغ المفروم الملفوف بورق الجرائد، ويشربون الفودكا بشراهة بكلتا اليدين. لكن البيت كان بعيداً عن الطريق المألوف وخلق شعوراً كاذباً بالأمن.

لم يفقد نيكولا الأمل أبداً بأن أصدقاءهم الأوفياء سيأتون قريباً لتخليصهم من منفاهم السيبيري. ثم ماذا؟ ربما عبر السكك الحديدية التي تمرّ عبر سيبيريا إلى فلاديفوستوك، ومن هناك إلى اليابان. لم تكن تحركاتهم مقيدة، ولكن دون مساعدة خارجية لم تكن لديهم وسيلة تمكنهم من الهروب. بالإضافة إلى أن صحة تساريفتش كانت تتدهور بسرعة. فقد أصبح مجرد هيكل عظمي، غير قادر على المشي. لم يتمكن الدكتور بوتكين، الذي كان يتبع العائلة بأمانة في المنفى، من وقف نزيف الطفل.

في سيبيريا، اجتمعت مجموعة من الضباط الموالين للقيصر في مقرّ القيادة المؤقت للجنرال كولتشاك. يجب أن نحرّر جلالة الملك وأن نشكل حكومة ملكية جديدة. سيفعل الجنود كل ما نقوله لهم.

قال ضابط آخر: «اختُرِقت العديد من وحداتي من قبل المحرضين».

«أعتقد أنني مستعد أن أحب كيرينسكي إذا كان سيطلق النار على كل مثيري الشغب في بولشوي. فهم هناك أكثر من البراغيث على الكلب».

«دعوا البلاشفة يهتمون بأمر المناشفة»، هكذا اقترح عليهم رئيس

الأركان كولتشاك. «بمجرد أن يخرج كيرينسكي، ويتولى البلاشفة السلطة، لن تدوم سيطرتهم أسبوعاً واحداً».

سارت روسيا نحو نبوءة سرعان ما تحققت. كانت الأخبار من الجبهة مثبطة للهمة، ولكن ليس بسبب هجوم ألماني متجدد. لم يكن على الألمان أن يتحركوا؛ لقد انتظروا ببساطة تفكك الجيش الروسي. كان المحرضون يهتفون قائلين: «إنهم يقولون لنا، إننا في حالة حرب مع الألمان. كلا نحن في حرب ضد الرأسماليين، ولم يعد من حقهم أن يحكمونا».

ساعد كيرينسكي على المساهمة في تغذية التطرف. فمع وعوده المنهارة قام بتأجيج الانفجار في جميع أنحاء روسيا، الأمر الذي لن يغفره له التاريخ. لم ير هو وأتباعه من المناشفة البؤس في الأحياء الفقيرة بالمدينة، التي كانت على مرمى حجر من مساكنهم الرائعة على طول نهر نيفا. لقد فشلوا في إدراك التغيير العميق الذي حصل في تفكير ومشاعر الناس وتجاهلوا حقيقة أن هذه الأحياء الفقيرة أصبحت أرضاً خصبة لقيام ثورة أخرى أكثر ترويعاً. لقد اعتقدت البرجوازية أن العقيدة اليسارية المبنية على أن «الجماهير الجائعة ستصحو من سباتها» كانت مجرد مبالغة كبيرة ليس لها أساس. يا لها من فكرة سخيفة أن جميع الجماهير تصرفت مثل قطيع الغنم! كان البلاشفة يفكرون خلاف ذلك. مع شعارهم «كل السلطة للجماهير»، توقعوا أن يكونوا في مركز الصدارة.

كان يجب أن يتجاوز نجاحهم نطاق أكثر أحلامهم جموحاً. في مباراة صاخبة جرت في مبنى الدوما، خاطب المندوبون من الأغلبية البورجوازية تروتسكي بوصفه «زعيم عصابة قاسي القلب لمجموعة من المشاغبين». وأجابهم: «نحن نعلم أن حكومة الخيانة الوطنية هذه تستعد للهروب وفتح أبواب هذه المدينة للمغامرين البرجوازيين». أخفى ضعف حزبه وراء عبارة جريئة: «إن الشعب معنا!» وبذلك، انسحب النواب الستة والستين الذين يمثلون الأقلية البلشفية من الجلسة. «خيراً فعلتم» صاح المندوبون الذين يمثلون الغالبية وعددهم 500. لم يكونوا

يعرفون أن تروتسكي وأتباعه كانوا متوجهين مباشرة إلى المتاريس. ومع احتمال الاضطرار إلى المعاناة خلال فصل شتاء مرعب آخر، بدأ صبر عمال المصانع ينفد. إن البروليتاريا الروسية التي عاشت الذل وأهملت لفترة طويلة، كانت على وشك أن تستحوذ على اهتمام الحكومة المؤقتة ومعها، العالم. عرف البلاشفة أن المدافع الرشاشة في أيدي الجنود المتمردين تتحدث لغة أكثر إقناعاً من العبارات الفارغة للبرلمانيين. بدأ تروتسكي يطبق عملياً «وهم الحقيقة»[20]. لقد أعطى الجماهير ما يريدون أن يسمعوه: «السلام للجيش، المصانع للعمال، الأرض للفلاحين». هتفت له الجماهير ورفعته على أكتافها. لقد ولدت شخصية قيادية.

عبر الحدود الفنلندية، كان لينين ينظر إلى صعود تروتسكي بعينين قلقتين. ومن أجل المطالبة بموقعه القيادي، تسلل إلى بلاده عبر الحدود الفنلندية الروسية. عقد الاجتماع المصيري للمجلس البلشفي الداخلي، أو كما سيعرف لاحقاً، باللجنة المركزية، في 10 تشرين الأول 1917. لقد لعب القدر لصالحه. شنّ الألمان هجوماً تمكنوا من خلاله الاستيلاء على ريفال أكبر موانئ بحر البلطيق. استغل البلاشفة بذكاء هذه الفرصة. فكان شعارهم «الدفاع عن الوطن في الدولة البروليتارية هو واجب ثوري، لكنه في الدولة البرجوازية خيانة». هذه الدعوة البلشفية الرقيقة المقنعة إلى حمل السلاح أدّت إلى تشكيل لجنة عسكرية ثورية أو ما عرف بالميلريفكوم Milrevkom، والتي سوف تصبح الذراع العسكرية لثورة أكتوبر. مما لا شك فيه أن أحد أعظم إنجازات تروتسكي هو تشكيل سلسلة من لجان العمل للتأثير على الجماهير والتحكم فيها. كان يقول «ستساعدنا لجان العمل على الانتقال من العنف العفوي إلى العنف المنظّم». لقد أدرك أن الأزمة القادمة لن تكون على شكل منافسة

20- مصطلح يُطلق على حالة اكتشفت من خلال تجارب علم النفس، وباختصار يحدث هذا التأثير عندما تسمع الحديث لمرة واحدة أو أكثر حتى دون الالتفات أو التركيز أو التثبت منه، فإنك وبدون وعي تكون أكثر قابلية للاقتناع به عندما يتمّ طرحه عليك في موضع خلال مناقشة ما. المترجم.

على السلطة التنفيذية، بل تمرد ناجم عن اليأس من حرب قاتلة، ومن المجاعة في المدن، ومن اضطهاد القنانة. كان المطلوب من لجان العمل أن تخلصه من الأوهام، وتقوم بتأسيس أرضية مشتركة بين البروليتاريا والبلاشفة، الذين يمكنهم بعد ذلك من تحويل إحباطات الجماهير إلى اتجاه سياسي هادف. فنجاح الثورة يعتمد على ذلك. ورغم كونه رجلاً داهية فإن كيرينسكي تعامل مع كل الأمور بشكل خاطئ - كان قلقاً من أن تؤدي الانتفاضة البلشفية إلى انقلاب ملكي مضاد. وكان واثقاً من أنه يمتلك تحت تصرفه ما يكفي من القوة لسحق أي تمرد.

كانت «ثورة أكتوبر» - أو «أكتوبر الأحمر» - عملاً غير متقن أدهش الجميع، ومعظم من خطط لتحقيق ذلك. استولى البلاشفة على السلطة مع أقل من 5 في المائة من قوة حامية لمدينة رئيسية واحدة. كان سبب نجاحها يعود في معظمه إلى رجلين: ليون تروتسكي، ومهارته كخطيب، ولينين، الذي كان تعامله بقوة أعصاب مع الأحداث في الساعات الحاسمة هو الذي أحدث كل ذلك الفرق. حصلوا على دعم من السكان الذين كانوا يطالبون بالخبز والسلام. كانت الاستراتيجية العسكرية للانقلاب البلشفي المزمع قد أوكلت إلى فلاديمير أوفسينكو. كان يعلم من التجربة أنه من الأهمية بمكان الاستيلاء على المراكز الحساسة للمدينة، مثل وسائل النقل والصحف والجسور والتقاطعات الرئيسة. وكان بحاجة إلى السيطرة على محطات السكك الحديدية والبدالات الهاتفية ومحطات الكهرباء ومحطات ضخّ المياه، وعلى احتجاز أكبر عدد ممكن من أعضاء مجلس الوزراء. تمّ التخطيط لكل شيء إلى حد أصغر التفاصيل، وعُيِّنت وحدات عمل خاصة لكل نقطة محددة. لم يُتَجاهل أي هدف - باستثناء واحد. أما بالنسبة لمعهد سمولني، وهو أكاديمية فخمة لبنات الأثرياء، فقد فشل في تعيين حارس واحد له. ومع ذلك، كان سمولني قلب العملية برمتها، حيث ضمّ المقر التنسيقي البلشفي مع جميع قادته.

بدأ اليوم الحاسم، 6 تشرين الثاني 1917، بدون ضجة كبيرة. في منتصف الصباح، خرج بضع عشرات من العمال، يوجّههم محرضون محترفون، إلى الشارع للاحتجاج على فشل الحكومة المؤقتة بتوفير الغذاء. وشكّلت الميليشيات الحمراء لجاناً للإضراب، وأقيمت بضعة طوابير للعمال المضربين. وصلت مفرزة شرطة صغيرة إلى مكان الحادث، وألقت نظرة واحدة على الحشد، ورأت أنها أكبر من أن تتعامل معها لأنها فوق طاقتها. في قصر مارينسكي، أعلن كيرينسكي: «لقد أطلق البلاشفة الدعوة للتمرد». فليكن واضحاً أن الحكومة المؤقتة ستدافع عن شعب بتروغراد ضد رعاع الشوارع». اتصل هاتفياً بالعقيد فاسيلييف، قائد حامية قلعة بطرس وبولس، فأجابه صوت يقول: «معك بلاغونرافوف، رئيس مجلس سوفييت الجنود. نحن ننفذ فقط أوامر المجلس الثوري». بعدها توجّه بلاغونرافوف إلى المدينة مع ثمانين من جنوده وهم يحملون بنادق آلية من طراز كولت.

صعد تروتسكي إلى تمثال لفارس يمثل أحد جنرالات القيصر وكان يشير بسيفه نحو إله بعيد، ربما كان يلتمس مساعدته في تخليصه من الحمام الذي بنى عشاً فوق رأسه. قوبلت كلمات تروتسكي الأولى بالصفير وهتافات الاستهجان وصيحات «البلشفي السفاح»! ويعود الفضل لموهبة تروتسكي العظيمة فهي التي جعلت الحشود تميل إلى جانبه. ومثل خطاب مارك أنطونيو الشهير في مجلس الشيوخ في روما، بدأ يخاطب موبخيه بنغمة هادئة قبل أن يتحول بها إلى مرحلة الحماس.

عندما يعاني شعب ما وقتاً طويلاً، لا بد أن يحين الوقت ليقول لا. والشعب الروسي عانى طويلاً. وفي هذا الصباح قال لا! هذا الصباح خرجت جموع الشعب إلى الشوارع للمطالبة بوضع حدٍّ لحرب قاتلة. صاح أحدهم: «إنه على حق! أوقفوا الحرب!». صرخ آخرون: «اسكت! إنه مثل جميع الآخرين، مليء بالكلمات الفارغة». ظل

تروتسكي ثابت الجأش، مستمتعاً بازدياد حدة النقاش. «نحن نقول، أوقفوا هذه الحرب! أعيدوا أبناءنا وأحباءنا. أعيدوهم من خنادق الدماء قبل أن يتمّ التضحية بهم! يريد الملايين في كل جزء من أمنا روسيا هذا، والملايين في صفنا. لنتخلص من زمرة المدافعين عن الحرب وتجارها الذين يريدون استمرار الحرب الدموية لا لشيء سوى منافعهم الشخصية. لا تثقوا أبداً بما يقولونه، لأنه لا يوجد أي ظالم سيقول الحقيقة للمظلوم!». كان توقعه صحيحاً. عرف تروتسكي أنه لم يسجل حتى ولا نصراً صغيراً. ربما لن يدعمه هؤلاء الرجال والنساء، لكنهم بالتأكيد لن يعيقوا كفاح رفاقه.

من اللافت للنظر أن الحياة في المدينة كانت تسير كما لو أنه لم يحدث شيء يُذكر. فالترام كان يعمل، والمصابيح الكهربائية تتلألأ خارج دور السينما، وكان فيودور شاليابين يؤدي دور البطولة في أوبرا بوريس غودونوف. في ليلة 6–7 تشرين الثاني 1917، احتفلت بتروغراد بعرض أوبرا «الرقص على البركان». استمتع النظارة بالنقانق المتبلة في مطعم بير. وكانت الغانيات المرتفعات الثمن يتمشين مع ضباط في شارع فوسنيسنسكي؛ وبدأ المشاهدون بعد انتهاء عرض الأوبرا يحتسون الشمبانيا في فندق أستوريا. في تلك الليلة، كتب لينين ملاحظة أخيرة: «من الواضح لنا جميعاً أن كل شيء معلّق على شعرة، وأن مهامنا الضرورية لا يمكن أن تحلّ من قبل اللجنة، ولكن من قبل الجماهير المسلحة فقط. في كل الظروف، يجب أن نطيح بالحكومة هذا الصباح، أو نخاطر بفقدان كل شيء». قرب منتصف الليل، نهض لينين، ارتدى معطفه وقبعته، وخرج مع صديقه راهيا إلى الشارع المهجور. فجأة لحق بهما من إحدى زوايا الشارع فارسان من القوزاق وهما يهددانهما بالسوط لغرض اعتقالهما. وقد جاءه الإلهام في تلك اللحظة، مثّل راهيا دور السكير واصطدم بحصان الفارس القوزاقي. أما لينين فقد دخل في زقاق جانبي واختفى في أمان الظلام. كم كان سيمكن تغيير مجرى

التاريخ على يد اثنين من فرسان القوزاق. في غضون بضع دقائق، سيحل يوم الأربعاء 7 تشرين الثاني 1917[21].

استيقظت بتروغراد لتجد الشوارع مغطاة بالوحل الجليدي. كان السابع من تشرين الثاني يصادف عيد ميلاد ليون تروتسكي. أصبح عمره اليوم ثمانية وثلاثين سنة، ولكن أحداً لم يحضر له كعكة. دخل فصيل من فوج قصر أورانينباوم مطابع صحيفة البلاشفة رابوتشي بوت وسولدات وحطم صفائح الطبع والمكابس. «يجب على الصحيفة أن تصدر»، هكذا أمر تروتسكي، وهو مقتنع تماماً بأن المعارضة شنّت هجوماً أحمق. وهذا من شأنه إضفاء الشرعية على ادعاء البلاشفة بالتصرف «دفاعاً عن النفس ضد المؤامرة الخسيسة». ولأجل حماية المطابع، استُدعي الجنود المتسربون من فوج ليتوانيا، بينما أرسل جهاز الإرسال اللاسلكي في الطراد أورورا، الذي كان في أيدي البحارة المتمردين، دفقاً مستمراً من النداءات إلى حمل السلاح. «لقد شن أعداء الشعب هجوماً خلال الليل. ضعوا وحداتكم في حالة تأهب وانتظروا المزيد من التعليمات من اللجنة الثورية العسكرية». استولى الحرس الأحمر على محطة نيكولاييف وقصر بوتيمكين، فقفز أحد عشر من طلاب أكاديمية البحرية المراهقين من الطراد أورورا لغرض الدفاع عن جسر نيكولاييف الاستراتيجي.

كان لينين في سمولني. قطع كيرينسكي خطوط الهاتف عن سمولني واستدعى فوج حراسته الثالث والعشرين المؤلف من الجنود القوزاق. بعد أن اكتشف فيليكس دزيرجينسكي أن خطوط السكك الحديدية قد أُغلقت عن طريق وضع عربات في مسارها. وأن جميع خطوط الاتصالات قد قطعت، سلّم ورقة مكتوبة على عجل إلى رجلين تصادف وجودهما في الممر. «هذا الأمر الموقّع لكما للاستيلاء على بدالة الهاتف. أعيدوا الاتصالات». هرع الاثنان وقدما الورقة إلى

21- وفقاً لتقويم روسيا القديمة أو التقويم الجولياني، فإن هذا التاريخ يصادف 25 تشرين الأول (أكتوبر)، لذلك أصبحت تلك الأحداث تعرف باسم «أكتوبر الأحمر».

الحراس عند مدخل بدّالة الهاتف، قبل أن يشقا طريقهما إلى غرفة العمليات الرئيسة في البدالة المليئة بمقسمات الهاتف اليدوية. خطوط الهاتف في سمولني عادت للعمل. سقطت محطة وارسو في أيدي المتمردين دون قتال.

في هذه الأثناء، كان معهد سمولني - وهو مبنى رمادي احتله البلاشفة ويشبه متحفاً أكثر من موقع قيادة ثوري - محروساً من قبل شاب وحيد مراهق. كان بإمكان أي مجموعة من الموالين للقيصر دخول المبنى والإجهاز على القيادة البلشفية برمتها. كان يقع على مرمى حجر من مبنى الشرطة المركزي، ومع ذلك، لم يحدث شيء ولم تظهر أية قوات مسلحة.

في الدوما، أمرت لجنة الإنقاذ بأن يتمّ قمع أعمال الشغب باستخدام السيارات المدرعة المزودة برشاشات محمولة مرعبة من طراز برونيفيك، وهي الأداة المثالية لتفريق المظاهرات. أرسل تروتسكي حامل الراية الشاب نيكولاي كريلينكو لإثارة المتاعب بين أطقم الدبابات. وجادله كريلينكو قائلاً: «إن الحكومة بين يديك، وروسيا العظيمة هي ملكك، لا تسلمها لأحد». أجرت طواقم الدبابات تصويتاً وقررت «ألا تعيد إلى الحياة إمبراطورية روسيا العظمى». أما قائدهم، الذي توسل إليهم لدعم الحكومة الشرعية، فقد تمّ إطلاق النار عليه.

في منتصف الصباح، وصلت الأخبار إلى سمولني أن كتيبة الدراجات النارية الخامسة من فرقة سافاج[22] المخيفة كانت في طريقها إلى المدينة. أمر سفيردلوف واحداً من أبرع المحرضين لوقفهم. إذا كانت هناك حاجة لدليل على تفوق قوة الكلمة على قوة البندقية، فقد ظهر ذلك في الدقائق القليلة التالية. مع عدد قليل من الرجال، وقف الرفيق أوردزونيكيدز في طريقهم وخاطب راكبي الدراجات النارية المدججين بالسلاح. «لقد انتقلت السلطة إلى مجالس السوفيتات. تحولت حامية بتروغراد

22- تشكيل فرسان في الجيش الإمبراطوري الروسي تتألف من متطوعين من الشيشان وإنغوشيا وغيرها. المترجم.

بأكملها إلى الثورة. لن يؤدي تدخلكم إلا إلى سفك دماء لا داعي له». ومع توقف الدراجات النارية في ضواحي بتروغراد، فُتِحت أبواب مبنى مجلس الدوما على مصراعيها ودخل الحرس الأحمر إلى القاعة المقدسة. هرع أحد المفوضين إلى مكتب رئيس الجمعية أفكسنتيف وأعلن «هذا الاجتماع مغلق!»

حتى تلك اللحظة، أُنجز الانقلاب بقليل من إراقة الدماء. كانت الأوامر إلى الحرس الأحمر هي إلقاء القبض على جميع وزراء كيرنسكي، لكن هذه المهمة لم تكن مُتقنة ولم يُحْتجز أي مسؤول كبير. لم تكن هناك أي محاولات لإلقاء القبض على كيرينسكي، أو لاحتلال مكاتبه في قصر الشتاء. ومن دون التشاور مع المجلس الثوري العسكري، قام لينين بصياغة مذكرة بثّها على الفور جهاز الإرسال اللاسلكي على متن السفينة أورورا: «إلى مواطني روسيا! لقد انتقلت سلطة الدولة إلى أيدي اللجنة الثورية العسكرية، التي هي على رأس البروليتاريا».

قام جنود قوات القوزاق النخبة من الفوج الأول والرابع والرابع عشر بإجراء تصويت وقرروا البقاء محايدين. عندما أبلغ كيرينسكي بقرار القوزاق، سلم القيادة للأدميرال فيردرفسكي، لكنه رفض هذا الشرف المريب. كان متردداً، نظراً لهزيمته. سوف يطلق الثوريون عليه النار قريباً ويردونه قتيلاً. شقّ تروتسكي طريقه بصعوبة بالغة وسط المندوبين المرتبكين الذين تلّفهم الفوضى في سمولني. «يا رفاق!» كان عليه أن يصيح عدة مرات لإسكات هذا الهرج والمرج. «أيها الرفاق! لم تعد حكومة كيرينسكي موجودة». رفع ذراعيه في محاولة ليجعل نفسه مسموعاً وسط الهتافات وأشار إلى الباب: «أيها الرفاق! بيننا في هذا اليوم التاريخي الرفيق لينين». طارت القبعات في الهواء كما دوّى في القاعة التصفيق. دخل لينين، وكان قصير القامة وقد حلق لحيته بشكل جيد، وصعد على المسرح. ساد الصمت في القاعة.

«أيها الرفاق! لقد تحققت ثورة العمال والفلاحين، التي كنا نناضل

من أجلها في الحزب البلشفي. حُطِّمَ الجهاز الحكومي القديم. لن يسمح للبورجوازية بالمشاركة في حكومة الاتحاد السوفياتي. لقد حل عصر جديد».

لقد اختفى كيرينسكي المكتئب. لتجنب سفك دماء الروس، عندما ضغط عليه مرؤوسوه للقيام بعمل جذري، لم يتمكن من التوصل إلى أي قرار. كان كيرينسكي مجرد رجل ضعيف آخر، ومع ضعفه، كانت روسيا محكوم عليها بالفشل. (في عام 1970، قبل وفاته بوقت قصير في نيويورك، قال كيرينسكي: «كنا ساذجين للغاية»). كان لينين يجري مقابلة مع صحفي أجنبي صديق له، هو جون ريد. وقال له: «يجري الآن اقتلاع جهاز الدولة القديم وإنشاء آلية جديدة»، لكنه لم يذكر كيف أو بواسطة من. وبدأت العملية برمتها تبدو وكأنها «تغيير للحرس، ولكنها تفتقر إلى الدقة العسكرية». لم تكن السفن الحربية التي كان من المفترض أن تعيد البحارة المتمردين في أسطول بحر البلطيق، قد وصلت أبداً، لأن سيارة البلشفي بافل ديبنكو نفد منها البنزين وهو في طريقه إليها.

أمر لينين بحصار قصر الشتاء، وهو رمز قوي يشبه جدار برلين الذي سيشيّد بعد سنوات عديدة. وكان يدافع عن هذا المبنى الفخم المؤلف من 1000 غرفة و2000 نافذة 800 طالب من الأكاديمية البحرية في سن المراهقة وكتيبة نسائية. كانت الإشارة للهجوم هي اشتعال ضوء أحمر من قلعة بطرس وبولس. ومع ذلك، لم يتمكن القائد السوفياتي من العثور على مصباح أحمر. في نهاية المطاف أطلقت مدفعيته قذيفتين، تخطتا البناء الضخم على بعد عدة مئات من الياردات، وهدرت مدافع الطراد أورورا بعدة إطلاقات باتجاه القصر. ولما كانت السفينة قد أكملت للتو عمليات الإصلاح ولم تحمل أي ذخيرة حيّة، فقد أطلقت المدافع فعلياً إطلاقات فارغة. اندفع الآلاف من «الحرس الأحمر»وهم يطلقون النار بوحشية بقوة إلى الأمام. كانت الإطلاقات تصدر أزيزاً على امتداد الممرات، وتدفق الدم إلى أسفل الدرج الضخم، كما ظهرت

الثقوب في اللوحات الزيتية وألواح تكسو الجدار مصنوعة من خشب الماهوغاني. لم يتبق سوى باب واحد أخير، واقتحم أول أفراد الحرس الأحمر غرفة مزدانة بالملكيت (الفسيفساء الروسية). أريقت زجاجات الحبر على السجادة الخضراء. وتناثرت الأوراق على الأرض. قرب طاولة كبيرة وقف وزراء حكومة كيرينسكي المؤقتة. «باسم الثورة، أنتم جميعاً قيد الاعتقال». كانت الساعة الموضوعة فوق الموقد الرخامي تشير إلى الساعة 2.10 صباحاً، من يوم 8 تشرين الثاني 1917.

«لقد استولينا على قصر الشتاء!» أحدثت هذه الصرخة هرجاً في قصر سمولني حيث كان مجلس السوفييت يعقد جلسته. عند مدخل قاعة الاحتفالات البيضاء والذهبية المزينة بشكل مذهل مع تمثال كيوبيد المصنوع من الجص والسقف المزين بالرسوم، حيث كانت تتمّ مراسم تقديم الفتاة النبيلة التي تظهر للمرة الأولى لطالب يدها الأرستقراطي، كان هناك شريط من القماش الأحمر الممزق من ستارة القاعة يتدلى على عصا المكنسة الطويلة. انتشرت غمامة زرقاء من دخان السجائر في قاعة المؤتمرات، وكانت البنادق مسندة على الجدار، وجلس الرجال الذين لم يحلقوا لحاهم وهم يرتدون ملابس العمال الملوثة بالأوساخ بجانب مندوبين من الجنود يرتدون قبعات مستدقة الرأس، وهي القبعة التقليدية لأفراد جيش القيصر. كان هناك مندوبون من موسكو ودول البلطيق وسيبيريا وأجزاء أخرى كثيرة من البلاد. ووفقاً لرسالة كتبها أحد المندوبين وصفهم بأنهم مثل رعاع زحفوا خارجين من الجحور والزوايا أكثر من كونهم ممثلين للشعب الروسي. كان كل شخص يدعي أن له الحق في الكلام، وكان الجميع يتكلمون في الوقت نفسه. تمّ الإعراب عن آراء عنيفة، بعضها محسوب، وبعضها عفوي، كان الجميع متأثرين بالأجواء المشحونة. وبينما اقترح الإصلاحيون حلولاً أكثر اعتدالاً، فإن القيادة البلشفية المتشددة كانت في ذروة حماسها غير المقيد للثورة. كانت هناك هواجس من الرعب ومخاطر نشوب حرب أهلية دامية.

وصفه تروتسكي بأنه البرلمان الأكثر ديمقراطية في تاريخ البشرية. وقبل كل شيء، تميّزت ثورة أكتوبر بإنشاء عدد هائل من اللجان والتجمعات العفوية التي تدير شؤونها الخاصة. وقام أفرادها بتنظيم أنفسهم في الفصول الدراسية، واختيار رئيس لها، ومن ثم مواصلة أعمالهم. لم تكن لديهم خبرة في السياسة أو الاقتصاد - لم يعرفوا شيئاً عن الثورة وكانوا يفكرون في أكثر الخطط غرابة. في هذا الحدث الكبير، كان الكثيرون حاضرين عند انطلاقها، لكن لم يبق الكثير منهم حتى النهاية.

كان الفجر الرمادي يرتفع فوق روسيا. من بعيد، بدت بتروغراد وكأنها مدينة لا روح فيها. لأول مرة، لم ترتفع أي سحابة مألوفة من دخان المصانع فوق المدينة. من أعلى قصر الشتاء كان يرفرف العلم الأحمر. نُصبت المتاريس التي وضعت على عجل في كل تقاطع رئيس ومعبر نهري وأُوقِفَت حركة المرور. سارت كتائب العمال والجنود إلى نزاع لا تعرف عنه شيئاً، حيث حلّت الفوضى والعنف والتدمير محل قواعد الاشتباك والانضباط. واعترف تروتسكي قائلاً: «سيموت الكثيرون قريباً جداً. ليس لديهم خبرة ولا يعرفون ما ينتظرهم».

كان أغلب المواطنين يراقبون ولا يفعلون شيئاً لأنهم لم يصدقوا أن حكم البلاشفة يمكن أن يدوم. في سمولني، كان الجميع في انتظار وصول لينين، في حين شكّل تروتسكي (Soviet Narodnik Komissarov)[23]، أي مجلس مفوضي الشعب. تمّ توزيع مناصبه كالتالي: لينين رئيساً، وتروتسكي مسؤولاً عن الشؤون الخارجية وشؤون الحرب، وستالين مسؤولاً عن الشؤون الداخلية. كان هذا التعيين الأخير خطأً فادحاً، لأن تروتسكي جعل ستالين يسيطر على جهاز الشرطة الداخلي. وقد جعل ستالين من فيليكس دزيرجينسكي، وكان قاتلاً موالياً له فقط، مسؤولاً عن التشيكا - جهاز الشرطة السرية. كان هذا الرجل مصاباً بجنون الارتياب لدرجة أنه أمر حراس السجن بتغيير أماكن السجناء كل ساعتين، حتى لا

23-بالروسية في الأصل. المترجم.

يتعرفوا على سجانيهم. أنيطت إلى كامينيف وزينوفييف مناصب ثانوية. سُلِّم ريتانوف المسؤولية عن شؤون التجارة، على الرغم من أنه لم يكن لديه خبرة سابقة في التعاملات التجارية، وسُلِّم مينجينسكي منصب وزارة المالية، لأنه كان يعمل كاتباً في بنك. عندما وقف طالب يبلغ من العمر عشرين عاماً ليعلن أنه كتب مقالاً عن الاستثمار الأجنبي، عيّنه مينجينسكي فوراً مديراً لمصرف الدولة.

التصويت الأول الذي قام به الاتحاد السوفييتي الجديد كان إلغاء عقوبة الإعدام. ظهر رئيسه المنتخب حديثاً، لينين، في بذلة سوداء مع ربطة عنق مزهرة، وخاطب تروتسكي متذمراً: «كيف يَمكنك قيادة ثورة بدون عمليات إعدام؟ ما هي وسائل القمع الأخرى التي سيتركها هذا التصويت تحت تصرفنا؟» تبدل نزلاء زنزانات السجن فقد خرج البلاشفة، ودخلها الوزراء الذين أمروا باعتقال البلاشفة. كل ما كان مطلوباً للحصول على رصاصة في الرقبة هو ارتداء معطفٍ من الفرو، فقد كان ذلك رمزاً لمستغلي الشعب. بطريقة ما، كان لينين وتروتسكي يتصرفان مثل روبسبيير الرخيص.

في سمولني، أعلن لينين أنه أمر بوقف فوري للأعمال العدائية مع قوات القيصر الألماني، قذف الجنود قبعاتهم في الهواء. سوف تُلغى جميع ملكيات الأراضي الخاصة، وبدون تعويض. هذه المرة جاءت الهتافات من مندوبي الفلاحين. وقد أضاف تروتسكي الماكر قولاً من عنده وهو يشير إلى الأنباء المزعجة التي تقول إن القوزاق الموالين لكيرينسكي يتجهون إلى المدينة، «بالطبع، لن تتم مصادرة أراضي القوزاق الشجعان الذين يخدمون في قواتنا الثورية». (في الواقع، كانت هذه الأراضي الأولى التي قامت الدولة بمصادرتها) وقد صوّت المندوبون لصالح إنشاء «مجلس نواب الشعب السوفييت» من مائة عضو، كان «فقط» سبعون منهم من البلاشفة، لأنه كان من السابق لأوانه الضغط من أجل تحقيق حكم الحزب الواحد. «نحن نعمل من أجل العدالة الاجتماعية

والمساواة للجميع». سرعان ما رفرفت الأعلام الحمراء في كل مكان، كانت الحكومة المؤقتة تترنح. لقد حقق لينين ورفاقه النجاح بطريقة ما، على الرغم من أنه تحقق غالباً من خلال الصفقات الجانبية والاستحواذ البطيء. كان شعار كل السلطة «للسوفييتات» هو النداء الذي يحشدهم. في موسكو، اقتحم الطلاب المخلصون للثورة من فيالق تدريب الضباط أبواب الكرملين. مات الكثير من الناس في ذلك اليوم.

في الحادي عشر من تشرين الثاني وفي مدينة غاتشينا، اجتمع كيرينسكي أخيراً مع قائد فيلق القوزاق الجنرال كراسنوف. بحلول منتصف الصباح، وصل القوزاق إلى مرتفعات بولكوفو، وهي تلة أكثر منها جبل. ومن هناك، كان بإمكانهم السير إلى المدينة ووُضِع حدّ لـ«الإزعاج البلشفي». عندما استدعى الأمر القيام بالعمل بأعصاب باردة، لم يأت أحد. كان كيرينسكي متردداً ورفض إعطاء الأمر بالتقدم إلى المدينة، بينما واجه كراسنوف مشكلة انخفاض الروح المعنوية لأفراد فيلقه من النخبة غير النشطين، أمر كراسنوف بالتقدم، لكنه توقف عند ضواحي المدينة عند حواجز الطرق المهترئة والتي أقيمت على عجل. لم يكن كيرينسكي رجل الساعة، بل كان لينين. وقد أشرف شخصياً على ما يمكن أن يتحول إلى عرض حاسم للقوة. تمكن من تحشيد الجميع وجعلهم تحت تصرفه وأرسلهم «إلى الجبهة الثورية».

عند فجر الثاني عشر من تشرين الثاني، وقعت معركة الثورة الحاسمة. اشترك في المواجهة 700 من جنود القوزاق بقيادة الجنرال كراسنوف، المدربين تدريباً جيداً والمجهزين بالمدفعية الميدانية. على الجانب الآخر كانت هناك 12000 حربة في أيدي عمال المصانع الذين لا يملكون الخبرة، وأربع عجلات مزوّدة بأسلحة رشاشة، واثنان من المدافع الصغيرة. تقدمت الموجة الأولى من البلاشفة، التي يبلغ قوامها نحو 5000 شخص، ببطء إلى خط الاشتباك، وهي تواصل إطلاق النار. وتمكنوا من أسر عشرة من جنود القوزاق. قرر القائد البلشفي بافل ديبنكو

أن ينتزع انتصاراً سريعاً. جعل الأسرى يصطفون على مرأى من راكبي الخيول القوزاق وأطلق النار عليهم، واحداً تلو الآخر. أنتج ذلك تأثيراً سلبياً. غضب القوزاق وشنّوا بخيولهم الصغيرة هجوماً على الخطوط البلشفية، واخترقوا صفوف أرتال الجيش الأحمر، وفجروا عجلاتهم، وقتلوا أعداداً كبيرة من الجنود. وقد أصابت قذائف مدافعهم الهاون كومة من صناديق الذخيرة، مما أدى إلى انطلاق ألعاب نارية متعرجة في السماء. كانت مجموعات من البلاشفة المذعورين يركضون، خوفاً من أن تقطعهم سيوف القوزاق الحادة، قبل أن يتعثر «فرسان» قوزاق «الدون» في أرض مستنقعات ناعمة. لم تعد خيولهم قادرة على التقدم. كان القوزاق مقاتلين خيالة ولم يتعودوا على شيء أو ينفرون منه مثل السير على الأقدام. عندها توقفوا، وأخفق آخر هجوم مضاد قام به كيرينسكي، كان الوقت قد فات لإيقاف البلاشفة. هرب كيرينسكي، واستولى البلاشفة على السلطة، كل السلطة.

مع وقف الأعمال العدائية الداخلية، أمرت اللجنة المركزية قائد القوات الروسية، الجنرال أنتونين دوخونين، بعرض وقف فوري لإطلاق النار على الألمان. عندما رفض دوخونين خيانة بلاده، وضع لينين معلماً سابقاً يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، و«بطلاً ثورياً»، هو الملازم في البحرية نيكولاي كريلينكو، على رأس أكبر قوات مسلحة في أوروبا. (أُعدِم بناء على أوامر ستالين في عام 1938). قام كريلينكو، وهو شخص هستيري وسرعان ما بات يسمى «القزم الأكثر إثارة للاشمئزاز في روسيا»، بإطلاق النار على الجنرال. في غضون ساعات، التقى مندوبو الهدنة الألمان والروس. وبصفته المفوض المعين حديثاً للشؤون الحربية، ترأس تروتسكي الوفد الروسي. وُقِّعَت الهدنة عند حصن بريست ليتوفسك في 3 آذار 1918. حُلَّ الجيش الروسي. وانتهت الحرب بالنسبه لأفراده. ما سيبدأ الآن سيكون أسوأ بكثير ممّا حدث للأمة من قبل.

في 6 كانون الأول 1917، أعلن البلاشفة أنفسهم هيئة التمثيل التشريعي الوحيدة في البلاد. اعتمدت استراتيجيتهم على صيغة بسيطة: «اقتلوا ملّاك الأراضي واسلبوهم أراضيهم». كانت دعوة للقتل والنهب تجذب أحطّ الغرائز. تدفق المجردون من ملكية الأراضي للانضمام إلى الحركة البلشفية دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عما كانت عليه مبادئ البلشفية. قدّم الحزب لهم مهرباً. وبمجرد دخولهم إليه، وجدوا السلطة والسلامة ومفهومهم الخاص للقانون والنظام. في الحزب، «يشعر الشخص بالانتماء»؛ يحترمه رفاقه على شجاعته أو قسوته. وفجأة يصبح شخصاً مهماً قد وجد «عائلته»، وكان عليه إثبات ولائه. كان المبدأ الذي يسير عليه هو القضاء على أفراد طبقات النخبة السابقة. أعطى تروتسكي هؤلاء الرجال الإشارة عندما أعلن: «لا يوجد شيء غير أخلاقي في كفاح البروليتاريا لإنهاء الطبقة التي تحتضر». كان الخوف والكراهية اللذان أثارهما هؤلاء القتلة حقيقيين للغاية، رغم أنهم كانوا يمثلون نسبة تافهة من السكان. خيّم الليل على روسيا، وجرت عمليات الثأر، ومات الناس. أُطلقت النار عليهم، وضُرِبوا بالهراوات، وشنقوا، وطعنوا، وأحرقوا - وذبحوا مثل الماشية. برر فيليكس دزيرجينسكي، المساعد الوحشي لستالين، ديكتاتورية البروليتاريا بقوله: «لسنا بحاجة إلى العدالة، نريد تصفية الحسابات».

أصبح جهاز الشرطة السرية التشيكا سيئ السمعة (سُمِّي في وقت لاحق باسم KGB) الذي يرأسه دزيرجينسكي هو المسؤول عن مكافحة «العناصر المضادة للثورة» وكان بمثابة جهاز تنفيذ العقوبات التي تقررها الدكتاتورية الشمولية، ومسؤولاً بشكل مباشر أمام القيادة العليا للحزب. لا يوجد إحصاء دقيق بعدد الذين تعرضوا للتعذيب والاغتصاب، وإطلاق النار. وقد امتلك دزيرجينسكي، وهو رجل لا يرحم، الحق في تنفيذ الإعدام الفوري دون محاكمة. عندما طُرح هذا الأمر في المجلس الأعلى، رفض لينين مناقشته. كان يشعر أن دزيرجينسكي يتصرف بشكل

صحيح. تسلم جهاز التشيكا الختم الرسمي بالموافقة على أنشطته عندما أصدر الرفيق سفيردلوف دعوة للإرهاب الجماعي بلا رحمة. أصبحت هذه الدعوة تُعرف باسم مرسوم الإرهاب الأحمر الذي صدر في 5 أيلول 1918، والذي ينص على أن أي شخص يتمّ العثور عليه، أو يُتهم ببساطة بأنه كان على اتصال مع قوى الثورة المضادة، سيتم إطلاق النار عليه. وعلى الفور وضع دزيرجينسكي المرسوم موضع التنفيذ من خلال العمل عن طريق إصدار أوامر بإعدام 500 رهينة.

فجأة، كان يلوح في الأفق خطر جديد قادم من الشرق في شكل وحدات الجيش الموجودة في سيبيريا والموالية للقيصر، والتي بدأت تعد بإحياء الملكية. وقد دعا هذا إلى التنحية الفورية للشخصية الرئيسة في الإمبراطورية، وهو القيصر رومانوف.

بالنسبة لصيادي الأسماك وصيادي الفراء في توبولسك، كانت الأحداث التي تجري على الجانب الآخر من جبال الأورال مقلقة للغاية. حلّ الشتاء وحضرت معه درجات الحرارة السيبيرية. الأخبار من بتروغراد كانت نادرة. كان عليهم أن يعتمدوا على خطوط التلغراف التي نادراً ما كانت تعمل بمجرد ظهور الصقيع، تتحطم أبراج الأسلاك تحت ثقل الثلج وتصبح الأسلاك المعدنية هشّة مثل الزجاج. تجمعت العائلة الإمبراطورية حول موقد معدني في غرفة المعيشة. قضت الفتيات أيامهن بالتطريز. وشغلت الإمبراطورة وقتها بالقراءة، أما القيصر فكان يقضيه بالتجول في الغابات. في يوم شتاء هادئ، وصلت الأخبار التي تفيد أن كيرينسكي قد أطاحت به مجموعة من البلاشفة تحت قيادة ليون تروتسكي ونيكولاي لينين.

تناهى إلى سمع رئيس مجلس السوفييت لمنطقة الأورال الرفيق ساشا بيليوبورودوف والمفوض العسكري لبلاشفة الأورال فيليب غولوشيكين، عن وجود مؤامرة لتحرير القيصر. وقد وضعوا مسألة هذه المخاطر الأمنية العالية في أيدي تابع غولوشيكين الموثوق، ياكوف

يوروفسكي. عُقد اجتماع سري في موسكو لمناقشة خطط أخرى للقيصر. تقرر إرسال مفرزة من 200 رجل مسلح إلى توبولسك. وقد أخبر سفيردلوف، الرجل الثاني بعد لينين، الرجل المسؤول عن الوحدة، فاسيلي ياكوفليف، أن القيصر والعائلة يجب إعادتهما إلى موسكو لزيادة الأمان. وخلال الإحاطة الإعلامية التي قدّمها، نوقِشَ إيجاد وجهة بديلة بشكل مبهم في حال أصبحت الحالة العامة حرجة: وهي مدينة إيكاترينبرغ.

في توبولسك، كان الربيع قاب قوسين أو أدنى. وللمرة الأولى، شعرت العائلة الإمبراطورية بالقسوة الحقيقية للبلشفية عندما وصل ياكوفليف من مدينة تيومين، حيث أُخبِر أن قوات الجيش الأبيض الروسي بقيادة الأدميرال كولتشاك كانت في طريقها لإنقاذ القيصر.أكد ياكوفليف للقيصر نيكولا أنه سيُرَحَّل إلى إحدى الدول الاسكندنافية. جُمِّع أفراد الأسرة في الزلاجات وتركت القافلة البلدة وهي تسير بسرعة خطيرة جداً. في 28 نيسان 1918، وصلوا إلى تيومين. أرسل ياكوفليف برقية إلى سفيردلوف يطلب فيها تعليماته، فأجابه: «انقلوا الحمولة إلى موسكو». لم يسمع المفوض ساشا بيليوبورودوف، رئيس مجلس سوفييت الأورال ذو النفوذ، بأمر التنازل عن «أسيرهم الثمين». كان القيصر نيكولا بيدقاً في صفقة من أجل توسيع رقعة القوة والسلطة. عمل جيش كولتشاك بحرية في سيبيريا. أعلنت أوكرانيا استقلالها في 22 كانون الثاني 1918، تلتها أرمينيا وأذربيجان وبيلوروسيا والقوقاز وقوزاقيا وإستونيا وجورجيا ولاتفيا وليتوانيا. وهكذا، لم تصل «الحمولة» إلى موسكو. غُيِّرت وجهتها النهائية إلى «يكاتينبرغ الحمراء» حيث نُقِلت الأسرة بسرعة إلى نزل إيباتيف في شارع فوزنيسينسكي[24]. قرأ ساشا بيليوبورودوف المرسوم: «بأمر من اللجنة المركزية، يُنقل القيصر السابق نيكولاي رومانوف وعائلته إلى الأورال السوفييتي، ومن الآن فصاعداً

24- وتعني الكلمة جادة الصعود -صعود المسيح إلى السماء. المترجم.

سيكون لهم وضع السجناء». كان ذلك أسبوع عيد الفصح المقدس، وكانت روسيا تفيض بالدم. وفي إيكاترينبرغ، فاضت السجون بالنزلاء وكانت الأوامر تصدر يومياً إلى فرق الإعدامات البلشفية بإطلاق النار على مجموعة من السجناء المختارين. انتشرت في الزنزانات روائح زنخة من العرق والخوف. لم يُبَتّ في مصير الرهائن الأكثر قيمة.

كان أعضاء آخرون من عائلة رومانوف أقل حظاً. في 12 حزيران 1918، اقتحم ثلاثة من أفراد الشرطة السرية فندق كوروليف في مدينة بيرم. واقتادوا الدوق الأكبر ميخائيل وسكرتيره الخاص الإنكليزي، برايان جونسون، إلى ضواحي المدينة، حيث تمّ إطلاق النار عليهم ورموا بجثثهم في منجم مهجور. أرسل ميشنيكوف رئيس منظمة الحزب البلشفي في «بيرم»، الذي كان هو من أطلق النار، برقية إلى موسكو: «قام رجال مجهولون يرتدون ملابس الجنود باختطاف ميخائيل رومانوف وسكرتيره. لم تؤد عمليات البحث إلى نتائج. واتُّخِذت إجراءات أكثر فاعلية»[25].

في مكان احتجازهم الجديد، وهو مسكن برجوازي مكوّن من طابق واحد مبني على نمط فن الروكوكو الروسي، أصبحت الروابط العائلية لآل رومانوف أقوى من أي وقت مضى، وكان الجميع يبحث عن العزاء في الصلاة المشتركة. نصبوا مذبحاً صغيراً وكانوا يقيمون قداساً في كل يوم. كانوا يستعدون لعودتهم إلى موسكو، لكن رحلتهم الأخيرة كانت تسير في طريق أقصر بكثير. لحل مشكلة العائلة الإمبراطورية، استقل المفوض جولوشخين قطاراً إلى بتروغراد لعقد اجتماع مع الرئيس لينين. قبل وصوله، دعا لينين إلى اجتماع سري للجنة المركزية.

بوخارين: «رومانوف؟ أنت تشغل نفسك بحياة رجل واحد؟».

سفيردلوف: «يجب أن يكون الأمر قانونياً. يجب اتهامه بالخيانة...».

---

25 كشف القاتل الثاني، أندريه ماركوف النقاب عن هذا في عام 1965 في تصريح له وهو على فراش الموت.

كان على لينين أن يجسّ نبض بقية أعضاء اللجنة. «يجب أن نزن عواقبه السياسية بعناية...».

وكان ردّ فعل تروتسكي أن سأله: «لماذا؟»

«الرأي العام العالمي...».

أجاب تروتسكي، مع كراهية مكبوتة لآل رومانوف منذ أيام المذابح التي شهدها في شبابه: «يجب أن نضع حداً لثرثرة الكنيسة حول قدسية الحياة البشرية!»[26]. وهكذا أخذ لينين إجابة من الشخص الذي يعتمد عليه حقاً: كان ليون تروتسكي معه! لذلك من الواضح أن تروتسكي كان هو من ختم صفحة القدر على آخر قيصر من سلالة رومانوف عندما أضاف: «السؤال الأول الذي يُطرح عادة هو: ما هي الطبقة التي ينتمي إليها القيصر؟». أحد الذين لم يشاركوا في المناقشة الساخنة كان رجلاً من جورجيا، يدعى ستالين، كان جالساً بصمت، يراقب رفاقه، ويدوّن الملاحظات حول سلوكهم لاستخدامه في المستقبل. كان تروتسكي صاحب الكلمة الأخيرة: «حالما يموت الملك، لن تكون هناك فرصة للعودة إلى الوراء!».

ولكن ماذا تقرر بالفعل في هذا الاجتماع الاستثنائي، لا أحد يعرف على وجه اليقين. فقد مات جميع المشاركين فيه ولم يُجْرَ تصويت وتُرك القرار النهائي بيد رجل كان لديه هوس مجنون بالتخلص من رموز روسيا القديمة.كان لينين على استعداد لإهانة الرأي العام العالمي في خضم بحث البلاشفة عن السلطة المطلقة. كانت دراما القيصر السابق تسرع الخطو نحو ذروتها.

من يزُرْ مدينة إيكاترينبرغ، كونها عرضاً للقوة الصناعية السوفييتية، والتي سُمّيت في الأصل نسبة إلى قيصرة روسيا «كاثرين العظيمة»، سيجدها موقعاً صناعياً كئيباً تنتشر فيه المداخن التي تقذف بأبخرتها

26- العبارة مقتبسة من أقوال م.شلاتيس، وهو عضو سابق في رئاسة جهاز التشيكا خلال عهد الإرهاب الأحمر.

الضارة عبر الغابات التي باتت جرداء بسبب الأمطار الحامضية. ولكن في صيف عام 1918 الحار، كانت مجرد سكة حديد هادئة تحاذي خطوط سكك حديد عبر الأورال، إلى أن شهدت حدثاً دفعها إلى مسرح الأحداث، وهو حدث شائن إلى حدّ لم يستطع النظام الجديد أن يخفيه على مدار سبعين عاماً من الحكم الشيوعي. أعظم لغز لجريمة قتل في القرن، محاط بالسرية والخرافات والأكاذيب. ماذا حدث في تلك الليلة الصيفية الحارة عام 1918؟ كان عملاً حقيراً وغبياً وجباناً، قام به عدد من السكارى. جريمة أثبتت أن الكراهية ليست بحاجة إلى منظمة تدميرية؛ ومع ذلك، كان قائد المنظمة هو الذي يأمر بها، وقد أدانوا أنفسهم بفعلتهم تلك. في غضون فترة وجيزة، كان معظم المجرمين قد ماتوا، ضحية للإهانات التي وجهوها إلى أشخاص بلا حول ولا قوة، وضحايا أشخاص آخرين أجبروهم على السكوت لإخفاء سر رهيب. شيء واحد مؤكد. لم يتعرض أي عمل قام به البلاشفة إلى إدانة عامة مثلما تعرضت إليه عملية القتل بدم بارد التي جرت بحق القيصر نيكولا الثاني وزوجته ألكسندرا فيودوروفنا وأطفالهما.

منذ وصوله إلى إيكاترينبرغ، ملأ البياض شعر القيصر نيكولا وأصبحت نظرات عينيه يتملكها اليأس. كان لديه سبب جيد لليأس. فقد أصبح مصير عائلته حينها في يد ياكوف يوروفسكي القاسي، الذي وصفه القيصر بـ «رجل الظلام». كان قاتل الملك في المستقبل هو ابن يهودي يعمل في تركيب الزجاج وكانت أمه خياطة. عاش شبابه في فقر مدقع وعانت أسرته من الجوع. كان يكره الله، والقيصر الأرثوذكسي، ورؤساءه. وكرئيس للمحكمة الثورية سيئة السمعة في إقليم الأورال، أرسل المئات إلى فرقة الإعدام. والحوادث التالية ستفصح عن معدن الرجل. كلما كانت العائلة الإمبراطورية تقيم صلوات المساء، لم يكن يوروفسكي يغادر الغرفة أبداً. في إحدى المناسبات سمح لكاهن بأن يقيم قداساً في المنزل. وارتبك الكاهن الذي كان معيناً من قبل الحكومة

من وجود القيصر، وأخطأ في ترديد المزمور: «ارقد بسلام مع القديسين»، الذي لا يُتلى عادة إلا خلال الجنازة، فضحك يوروفسكي قائلاً: «يا له من تمرين مفيد». وعندما لاحظ وجود صليب في سلسلة ذهبية رفيعة علقتها الإمبراطورة في سرير ابنها المريض، مزقها. انتابت أليكسي الصغير موجة من السعال والدموع تتدفق من عينيه. «من فضلك»، قال له الطفل: «أرجوك اترك صليبي». ضحك يوروفسكي قائلاً: «إلى أين تظن نفسك ذاهباً، لن تحتاج إلى صليب».

في نهاية حزيران 1918، سقطت مدينة أومسك في يد الجيش الروسي الأبيض، وتقدم كولتشاك من الشرق نحو إيكاترينبرغ. بدأ هجومه في أشد الأيام حرارة في الصيف. حارب جنود الجيش الأحمر ببسالة، متمسكين بأرضهم إلى آخر رصاصة. كان هذا الاختراق كافياً لجعل اللجنة البلشفية المحلية تعيش في ذعر، الأمر الذي أدى إلى أن يبدؤوا نقاشاً حول القيصر وعائلته. وصل غولوشيكين مرة أخرى من موسكو ووضع حداً للقلق. أمر يوروفسكي بالبحث عن موقع دفن مناسب، مخفي وعميق بحيث لا يمكن لأحد أن يجد آل رومانوف. «أُجْلِيت العائلة إلى مكان آمن»، هذا ما كان عليه أن يكتبه. هذا المكان الآمن سيكون بعمق ستة أقدام تحت الأرض. قام ياكوف يوروفسكي، يرافقه بيوتر أرماكوف، المفوض العسكري لمقاطعة إسيتسك، ونائبه، البحار فاغانوف، بالتجول في المنطقة بحثاً عن موقع مناسب للتخلص منهم. وقد وجدوا واحداً: منجم غانينا في غابة كوبتياكي.

دُفِن لغز مصير القيصر في برقية من ثلاثة أسطر.

تمّ تأكيد ملاحظات يوروفسكي الحيوية التي تضمنتها البرقية خلال فترة حكم خروتشوف:

إيكاترينبرغ 16 تموز 1918، وصلت برقية تتضمن مرسوم التخلص من عائلة رومانوف وأُمر غولوشيغين بتنفيذ ما جاء في المرسوم.

مهما كان حجم القسوة التي ارتكب بها يوروفسكي جريمته، فإنه لم

يكن سوى ترس بسيط في آلة كبيرة من الإرهاب، وهو شخص سادي لم يكن ليجرؤ أبداً على التصرف دون توجيهات صارمة من الأعلى. كان رئيس يوروفسكي، والشخص الوحيد الذي كان يتسلم الأوامر منه، هو الرفيق «فيليب غولوشيكين»، وانتظر «فيليب» مجدداً الضوء الأخضر من موسكو. الذي وصل في شكل رسالة من زينوفييف، وهو عضو بارز في اللجنة المركزية. وهذا هو نص تلك البرقية الشهيرة:

الرقم. 14228، التاريخ 16 تموز، 21.22 مساءً

إلى موسكو، الكرملين، سفيردلوف

نسخة منه إلى لينين

بناء على إجراءات المحاكمة وما تمّ الاتفاق عليه مع فيليب [غولوشيكين] بسبب الظروف العسكرية، لا يمكن تحمل التأخير. لا نستطيع الانتظار. بشأن هذا الموضوع اتصل بنفسك بإيكاترينبرغ. زينوفييف

من الذي حرّض على أمر المحاكمة، اسم مشفّر للقاتل؟ لم يكن زينوفييف - فلم تكن لديه أي سلطة لمثل هذه الخطوة. يجب أن نتذكر أن زينوفييف كان هو الشخص الذي يقوم بالأعمال الكتابية الخاصة بلينين، وأن إضافة عبارة نسخة منه إلى لينين تشير إلى أن لينين هو نفسه الذي طلب نسخة من أمره الخاص. من خلال توجيه العنوان إلى سفيردلوف، والصيغة: لا يمكننا الانتظار - اتصل بإيكاترينبرغ بنفسك، يصبح من الواضح أن سفيردلوف هو الذي أصدر التعليمات الشفهية لإعدام العائلة المالكة بعد تأخر طويل. إلى من كان يتحدث سفيردلوف خلال هذه الساعات؟ والحقيقة هي أن هذه البرقية وصلت إلى الكرملين بعد وقت قصير من الساعة 21.22 مساءً، أو قبل ست ساعات من تنفيذ الإعدام. بعبارة أخرى، إذا لم يكن لينين هو من أمر بالقتل بشكل مباشر، فهو على علم بالتأكيد بالخطة ولم يفعل شيئاً لإيقافها!

من المؤكد أن الوحشية المفرطة التي نفّذت بها عملية القتل كانت من صنع يوروفسكي. في سنوات لاحقة، تمّ شرح وحشيته بشكل يقلل منها بوصفها عملاً أحمقَ ارتكبه شخص يهودي كان ينتقم من المجازر المنظمة التي عانى منها شعبه تحت حكم القيصر.

في منزل إيباتيف، في 16 تموز 1918، عند الثامنة مساءً. كانت أمسية الصيف الحارة الخانقة هذه لا توجد إلا في سيبيريا. تناولت الأسرة العشاء في وقت متأخر. كان أليكسي طريح الفراش ويلعب بلعبته المفضلة، وهي سفينة حربية خشبية، قامت أخواته بالخياطة قبل أداء صلوات الليل. ثم ذهبوا جميعاً للنوم. لم يعلموا أنها كانت المرة الأخيرة.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء. ومدينة إيكاترينبرغ تغفو في وسط الكتلة المظلمة للغابة، غير عارفة بالقتلة الذين سيأتون عند منتصف الليل. كان الجميع صامتين داخل منزل إيباتيف. المفارقة في كل ذلك الأمر: أن دير إيباتيف هذا كان قد شهد مراسم مباركة تتويج أول شخص من سلالة رومانوف، وهو ميخائيل، بالتاج الروسي، قبل 304 سنوات. والآن أصبحت الأحداث على وشك أن تدور دورة كاملة. كانت تفوح من صالة الطعام رائحة كريهة للفودكا والتبغ المتعفن. كانت هناك ذبابة، لا تتحرك بسبب الحرارة، تزحف على رأس حليق لجندي في واجب الحراسة. كان متعباً جداً وسكراناً جداً إلى حدّ لا يستطيع إبعادها عن رأسه ذي العنق الممتلئ. بعد أن تجشأ تناول جرعة أخرى من الزجاجة قبل أن يقضم قطعة من النقانق، مليئة بالثوم. ثم تجشأ مرة أخرى. من مكان ما تحت السلالم جاء صوت شخير متثاقل من حارس ثان. وفي وقت سابق من بعد ظهر ذلك اليوم، كان الحراس الذين لم يكونوا في الواجب قد ذهبوا إلى البلدة بحثاً عن الفودكا، ومنذ ذلك الحين وهم يشربون أما الآن فقد كانوا نائمين: كان بإمكان القيصر وعائلته أن يخرجوا من الباب الأمامي، ولم يكن أحد سيوقفهم. كان نيكولاي آخر شخص يغتسل. في طريقه إلى غرفته نظر إلى الحراس

ستولوف وبروسكورياكوف وهما غافلان عن العالم ويرتديان بذلتيهما القذرتين. بدا كل شيء كالمعتاد، ولكن حتى تلك الليلة كان هناك شيء مختلف. وفي حين أن البلاشفة مثل هذين الاثنين تخلصوا من خوفهم بشرب الفودكا، كان الجيش الأبيض يقترب جداً، كان ذلك مؤكداً. لقد حانت لحظة اتخاذ القرار، ويجب أن يدرك القيصر السابق نوع المأساة الوشيكة. لقد سلبوا منه إمبراطوريته. وسيأخذون الآن عائلته وربما حياته. مع ذلك، فإن الموت على هذا النحو قد يحقق شيئاً ما. فهو سينبّه العالم إلى الخطر الأحمر، ووقف مرض البلشفية المعدي قبل أن تتاح له الفرصة للانتشار.

حُدِّد وقت تنفيذ الخطوة الأخيرة عند منتصف الليل. لقد انقضت ساعة ويوروفسكي ينتظر بفارغ الصبر. وكذلك كان يفعل غولوشيكين، فقد كان في حالة ترقب بانتظار وصول توجيهات له من موسكو.

كانت الساعة 1:30 صباحاً عندما أمر غولوشيكين بتوجه شاحنة إلى بيت إيباتيف، يقودها سيرجي ليوخانوف، سائق شاحنة من مصنع فيرك-إيسيتسك. وصلت الشاحنة إلى بيت إيباتيف قبل الساعة الثانية صباحاً بقليل. دخل يوروفسكي غرف العائلة الإمبراطورية وأمر أن يرتدي الجميع ملابسهم ويتجمعوا في الفناء حيث أتت شاحنة لتأخذهم بعيداً. وأوضح لهم أن الاضطرابات المعادية للثورة قد اندلعت في البلدة وأنه لم يعد من الممكن ضمان سلامتهم. التقط القيصر ابنه المريض وحمله بين ذراعيه. كان الاثنان يرتديان سترتين عسكريتين خضراوين زيتونيتين، وقبعتي جنود عاديتين تمّ إزالة الشارات منها. وارتدت الإمبراطورة زياً أرجوانياً؛ فيما لبست بناتها التنورات الطويلة الداكنة والبلوزات البيضاء. حملت أناستازيا كلبها الصغير، جيمي. وضمّت الخادمة ديميدوفا، بإحكام، وسادة إلى صدرها[27]. وكانت تحوي في داخلها جزءاً من

27 كانت ديميدوفا بدينة، لكن الخادمة التي قُتلت في القبو وصفت بأنها طويلة ونحيفة. لذلك، ليس من المؤكد أن ديميدوفا كانت موجودة في تلك الليلة.

مجوهرات التاج. اقتيدت العائلة إلى الفناء وكان أفرادها يتعثرون في مسيرهم، فقد كانوا لا يزالون نصف نائمين، رأوا شاحنة واقفة ومحركها يدور. طُمئنوا أنهم سيُنقلون إلى محطة القطار. أمرهم يوروفسكي بالتوجه نحو زوج من الأبواب المزدوجة التي تؤدي إلى قبو رطب. أطاعوه بهدوء ونزلوا السلالم. كانت الغرفة ضيقة، فيها قوس مقبب على أحد الجوانب وحاجز خشبي يفصلها عن غرفة للتخزين. وعندما طلب القيصر أن يُسمح له بالجلوس، قام يوروفسكي بإصدار الأمر بسرعة، وجلب نائبه، غريغوري نيكولين، ثلاثة مقاعد من الطابق العلوي. أبلغ يوروفسكي العائلة أنه سيتمّ التقاط صورٍ لهم، وبدؤوا يصطفون.

كان المشهد بالفعل بمثابة وضع لالتقاط صورة عائلية. كان آخر الجالسين هو القيصر نيكولا الثاني. الإمبراطور السابق لجميع أنحاء روسيا ويحيط به القوس الحجري، وبجانبه اتكأ أليكسي تساريفيتش الصبي العليل الذي رمى والده بنظرات خائفة وكان يريد أن يطال يده. وبجانب أليكسي جلست الإمبراطورة ألكسندرا فيودوروفنا ومسّدت على رأس ابنها المحبوب وتمتمت ببضع كلمات مهدئة في أذنه. وقفت وراءهم بناتهم، أولغا، وأناستازيا، وتاتيانا، وماريا وقد رُتِّبوا في صف واحد. وقد انتقل إلى الجانب الآخر طبيب الأسرة الدكتور بوتكين، والخادمة ديميدوفا، وفردان آخران، هما الخادم تروبي والطاهي خاريتونوف. لم يحدث شيء لدقائق عدة؛ كل شيء بدا هادئاً. لكن شعور عائلة رومانوف بالخلاص لم يدم طويلاً. كانت أحذية ثقيلة تنزل أسفل درج القبو. واجه اثنا عشر من الجلادين المدانين الأحد عشر. نهض نيقولاي ووقف منتصباً كما لو كان على وشك أن تُؤدى له التحية من قبل جيشه، وأسند بذراعه الصبي الضعيف أليكسي تساريفتش وللحظة ظلت محفورة في الأذهان، وقف إمبراطور روسيا فخوراً وغير منكسر. أخذ يوروفسكي ورقة في يده وبدأ بقراءة حكم الإعدام.

مرسوم من اللجنة التنفيذية لمجلس سوفييت نواب العمال

والفلاحين والجيش الأحمر في منطقة الأورال. نظراً لورود معلومات بأن العصابات التشيكوسلوفاكية تهدد إيكاترينبرغ العاصمة الشعبية للأورال، ومع الأخذ في الاعتبار أن الجلاد المتوج يمكن أن يختبئ ويهرب من محكمة الشعب، فقد أصدرت اللجنة التنفيذية، تنفيذاً لإرادة الشعب، مرسوماً بإعدام القيصر، نيكولاي رومانوف، المذنب بجرائم لا تُحصى...

هزّ الملك السابق رأسه. ماذا؟ ماذا؟ وسأله: «هل يمكن أن تكرر ما قلته؟».

نظر يوروفسكي إلى الأسفل نحو ورقته، ثم وضعها في جيبه. «نظراً لأن عملاءك يواصلون هجومهم على روسيا السوفييتية، فقد قررت اللجنة الشعبية إعدامك رمياً بالرصاص».

تحول القيصر لمواجهة عائلته قائلاً: «ادعوا الرب أن يرحم أرواحنا».

سحب بيوتر أرماكوف مسدسه من نوع ماوزر من جرابه الجلدي. لكن ميخائيل مدفيديف كان أسرع. هزّ دوي الانفجار الذي صدر من مسدسه الأوتوماتيكي من طراز براوننغ أركان القبو، وتردد من الجدران صوت حاد ورنان. وقفز جسد القيصر. لم ينطق بأي صوت وهو ينزلق على الأرضية الحجرية. بعد صدمتهم بسبب وفاة أبيهم، تجمع أفراد العائلة حوله وهم يحدقون. «أوه، لطفك يا إلهي»، همست الإمبراطورة. فأصابتها طلقة مسدس. كانت تلك إشارة لبدء المجزرة، ومثل بعض العواصف الرعدية الشيطانية، تردد بتزامن واحد صوت الصراخ والطلقات في غرفة الاحتجاز. أزّت المسدسات، بجنون ووحشية. هجمت على العائلة الإمبراطورية عاصفة من الرصاص. لقد ماتوا قبل سقوط أجسادهم. كانت برك من الدم الطازج تغطي الأرض. توقف إطلاق النار فجأة مثلما بدأ. انتشر في المكان زفير كريه مثل أنفاس التنين، وغشاوة من الدم الأصفر المنساب بغزارة. ارتفع سعال القتلة وانزلقت أحذيتهم في البلل. فجأة سمع صوت صراخ. كانت ديميدوفا،

التي كانت تقف جانباً، لا تزال على قيد الحياة. «اطعنها بحربتك»، صاح إيرماكوف المهتاج. طُعنت الخادمة مراراً وتكراراً حتى رقدت بلا حراك. كل شيء انتهى... ولكن ليس تماماً. تردد صوت نحيب من الدور السفلي. «الكلب»، صاح الحارس نيكولين، «أناستازيا كان لديها كلب صغير». لم يكن الكلب، ولكن أليكسي تساريفيتش. صُدم الجميع في الغرفة لرؤية الصبي يفتح عينيه وبذراعه النحيف يحاول الوصول إلى سترة والده الملطخة بالدماء. قام غريغوري نيكولين بإفراغ كامل مخزن عتاده في رأس الطفل. بعد أن عاش بعد والده، ولو للحظات فقط، أصبح أليكسي في الواقع آخر قيصر لروسيا.

تصرف جنود فرقة الإعدام بجنون. قام أندريه ستريكوتين بتجريد النساء من مجوهراتهن، بينما لفّ آخرون الجثث التي لا تزال دافئة في قطع من القماش المشمع. (عندما وضعنا الجثث التي لا حياة فيها على نقالة، تبين أن بعض البنات ما زلن على قيد الحياة. لم يعد بإمكاننا إطلاق النار، لأنه كان بالإمكان سماع الطلقات بسبب أن أبواب القبو كانت مفتوحة. أخذ يرماكوف الحربة مني وبدأ بطعنهن. عندما حاول طعن إحدى الفتيات، فإن الحربة لم تخترق مشدّ خصرها). كان هذا التصريح غير المعقول للجندي أندريه ستريكوتين هو الذي قاد إلى تأليف القصة الملحمية عن معجزة هروب أناستازيا. ثم قام عناصر فرقة الإعدام بعد وضعهم أفراد عائلة رومانوف في الشاحنة المسطحة، بتغطيتهم بالقماش المشمع. كانت هذه عملية سرية للغاية. كان يوروفسكي في حالة ذعر عظيم وكان يغري الرجال الذين كانوا من حوله بزجاجة من الفودكا أثناء عملهم. (كان حرس كولتشاك المتقدم، وهو الفيلق التشيكي، على بعد أميال فقط، وعلى وشك الدخول إلى إيكاترينبرغ، وهذا يساعد على تفسير السبب وراء ذعرهم). بدأ إيرماكوف، الذي كان من المفترض أن يشرف على هذا الجزء من العملية، يشرب الفودكا بشراهة. ثم قامت مجموعة أخرى تحت قيادة ميخائيل ميدفيديف بمسح الدم من أرضية

القبو. (لإزالة علامات الجريمة بالكامل، دُمِّر المنزل في نهاية المطاف). تبعثرت فرقة القتلة، فقد انتهت مهمتهم. فيما اهتمت مجموعة أخرى بالتخلص من الجثث.

في يوم 17 تموز 1918 وقبل شروق الشمس بقليل، انطلقت شاحنة متجهة غرباً، كان عادمها يفرقع كأنه صوت إطلاقات نارية، أيقظ سكان المدينة فراحوا يحدّقون بحذر عبر الألواح الخشبية لمصاريع أبوابهم. ورأوا عدة رجال متعلقين بأبواب شاحنة، كانت تسرع عبر الجدران المتصدعة المبنية من الطوب لمصنع فيرك إيسيتسك المهجور ثم انتقلت شمالاً عبر معبر خط السكك الحديدية عبر الأورال. عند مخزن للأدوات يقع بالقرب من معبر السكك الحديدية، قام السائق ليوخانوف بإخبار يوروفسكي أن عليه إيقاف الشاحنة لأن حرارة محركها أصبحت شديدة. (كان هذا الحاجز عند المعبر رقم 184 يُدار بواسطة رجل يدعى لوبوكين. في نيسان 1919، أكّد لوبوكين لنيكولاي سوكولوف، وهو محقق من الجيش الروسي الأبيض، وجود شاحنة متوقفة بالقرب من مقصورته). ترك السائق ليوخانوف الشاحنة، ظاهرياً «لجلب الماء من أجل مبرد الشاحنة»؛ ذهب الحراس وراء الكوخ «ليقضوا حاجتهم»، ولكن في الحقيقة كانوا يريدون أن يرتشفوا من قنينة شراب خبّأها أحدهم تحت سترته. وكان إيرماكوف قد مرّ من فوق رؤوس الجثث، وهو في حالة سكر. انطلق يوروفسكي بحثاً عن مفرزة الدفن التي كان من المفترض أن يقابلها عند هذا المعبر، لكنها لم تكن قد لاحت بعد. أصبح السبب واضحاً بمجرد أن تعقبهم: كانوا جميعاً في حالة سكر. استغرق بحثه عنهم نصف ساعة.

ما حدث في الساعة التالية أصبح مادة لقصص الإثارة والغموض والأغاني والأفلام. لأنه إذا تمكنت إحدى بنات القيصر من الهرب، بمساعدة أو بدون مساعدة، أو إذا كان هناك تحويل في خط السكة الحديد مفتاح، وإذا... وإذا... وإذا... فإن ذلك قد حدث في ذلك الكوخ

بالقرب من معبر السكة الحديد رقم 184. ومع ذلك، فمن غير المرجح للغاية حدوث ذلك. الشخص الوحيد الذي يمكن أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية هو لوبوكين الرجل المسؤول عن الحاجز، وإذا كان يعلم، فقد أخذ السر الكبير معه إلى قبره.

بعد تأخير لمدة ساعة تقريباً تحرّكت الشاحنة. انحرفت إلى الغابة، إلى منطقة معروفة لدى السكان المحليين باسم الأخوة الأربعة من كوبتياكي. وبسبب ذعره، لم يلاحظ السائق ليوخانوف بقعة أرض سبخة فيها بعض الأعشاب على الطريق فتعطلت العجلات الأمامية. كانت لا تزال تبعدهم عدة مئات من الأمتار عن منجم غانينا الذي اختير موقعاً لدفن الجثث. التي نُقلت إلى نقالات مؤقتة. وبينما كانوا يقومون بنقل النساء إلى النقالة، لاحظ يوروفسكي أن مشد إحدى الفتيات قد مزقته رصاصة وأن بريق الماس قد بدا يتلألأ في شمس صباح ذلك اليوم. وأمر بتجريد الفتيات من ملابسهن. عُثِر على 18 رطلاً من الماس واللؤلؤ مخيطة في بطانة الملابس. أرسل يوروفسكي مفرزة «لحماية محيط موقع الدفن من الدخلاء». ربما يكون قد فعل ذلك لأنه أراد استرداد الماس، أو ربما اكتشف فجأة أن واحدة أو اثنتين من الجثث مفقودة وأن ذلك كان يعني تعرضه لعقوبة الإعدام. كان التفسير المعقول أنه أرسل تلك المجموعة لأنه لا يريد لأحد، عدا أولئك الذين سمح لهم بشكل خاص أن يعرفوا موقع الدفن بالتحديد. بقي فقط يوروفسكي وإيرماكوف ونيكولين وراءهم، واذا ما حدث شيء ما بشكل خاطئ فلا بد أن يواجهوا مصيراً مثل مصير يوروفسكي.

وسط تسرعهم، نسوا إحضار المجارف، لذا أرسلوا ليوخانوف ليعود إلى المدينة لجلب الأدوات وحمض الكبريتيك والبنزين. استغرق هذا الأمر بعض الوقت، وقضوا بقية اليوم، وقد اختبؤوا في الغابة بالقرب من الجثث، التي غطوها بأغصان الأشجار. في الليلة التالية، قاموا ببناء محرقة للجثث من عوارض السكك الحديدية الخشبية التي عثروا عليها

بالقرب من المنجم المهجور، ثم أحرقوا الجثث، وسكبوا الأحماض فوق العظام المتفحمة. ثم قاموا بحفر حفرة دائرية، بعمق ثلاثة أقدام وقطرها عشرة أقدام. تخلصوا فيها من بقايا الجثث. بعد ذلك قاموا بنثر الجير الحي والتراب فوق الحفرة. اختلفت الروايات التي ذكرها يوروفسكي وإيرماكوف فيما بعد بشأن ذلك الحدث. فبينما قال الأول إن الجثث أُلقيت أسفل المنجم، كانت قصة الثاني تشير إلى أنها دفنت في قبر ضحل. لقد ثبت صحة قصة الدفن التي قال بها يوروفسكي، لكنها لم توضح حقيقة الجثث المفقودة

غنّت الريح بحزن وهي تحرك الأشجار العالية. كانت تكمن هناك خلف أسوار أشجار الصنوبر الداكنة والأشجار الفضية، في الغابة القاسية والمكفهرة، وفي قبر ضحل لا يحمل علامات، بقايا أسرة قيصر جميع أنحاء روسيا. كان الأمر كما لو أنها لم تكن موجودة أبداً. لقد دخل القتلة، ومعهم كل روسيا، إلى عالم من الظلام لا نهاية له.

ما حدث بعد ذلك أصبح يكتنفه ضباب التاريخ. لم يكن هناك شهود، على الأقل لم يعش أي منهم مدة طويلة من الزمن. تأكد القيصر الأحمر الجديد في روسيا من ذلك. لكن حتى أفضل من يحتفظ بالسر لديه نقطة ضعف. كانت هناك زوجة صياد تحمل اسم أناستازيا زيكوفا تسير في طريقها إلى المدينة لبيع صيد ذلك اليوم. فجأة، اندفع خارج الغابة اثنان من الفرسان. كان أحدهم رجلاً جلفاً ضخماً يرتدي قبعة حافتها عالية وهناك نجمة حمراء مخيطة بها. «عودي إلى المكان الذي أتيت منه، أيها العجوز، واصلي المشي ولا تنظري حولك والا سأطلق عليك النار». قبل أن تستدير، رأت شيئاً كبيراً وأسودَ يخرج من وسط سحابة من الغبار. كانت شاحنة، انحرفت إلى الغابة. ركضت المرأة الخائفة إلى المنزل وأخبرت زوجها عن الشاحنة. انتابه الفضول. ذهب الصياد زيكوفا، بصحبة اثنين آخرين هما، نيكولاي بابين وبيير زوبريتسكي، لإلقاء نظرة فاحصة. لقد تعثروا في الغابة بالقرب من موقع تعدين سابق كما

طوردوا من قبل أحد الحراس. بمجرد مغادرة الحرس الأحمر للمنطقة، عاد المزارع بابين. هذه المرة اصطحب معه ابنه أوليغ. لقد اتبعوا شقوقاً عميقة في الأرض اللينة، مما أدى بهم إلى مكان فارغ. هناك اكتشفوا كومتين من الرماد ومقبض فرشاة للشعر مع الأحرف الأولى لاسم ما أ.ف. بابين. لم يتمكن بابين من القراءة، ولم يكن يعرف أن أ.ف تشير إلى ألكسندرا فيدوروفنا لكنه لم يتبين شيئاً آخر: كان منقوشاً فوق الحروف التاج الإمبراطوري. رفع الولد الصغير أوليغ بصره. اعتقد أنه سمع أنيناً. أم إنها الريح؟

«لا تكشف هذا المكان لأي شخص، يا ولدي، فهو مسكون بالأشباح والشر».

أسدل الفجر ستارته الحمراء وعلى الأغلب كان على الغموض أن ينتهي هناك. المكان مسكون ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، بل ولم يجرؤ أحد على التحدث عنه. توفي الصيادون والمزارعون المحليون وهم في سن الشيخوخة وحكم على موقع الدفن بالنسيان، إلا لأحد الفلاحين الذي أخذ ابنه الصغير أوليغ إلى المكان وجعله يقسم أن يحافظ على السر. بعد 61 سنة، اصطحب أوليغ، الذي أصبح حينها رجلاً عجوزاً، اثنين من الجيولوجيين ومخرج أفلام محلياً إلى الموقع الذي اكتشفه هو ووالده، في أحد أشهر الصيف قبل سنوات كثيرة.

استولى الفيلق التشيكي التابع للجيش الروسي الأبيض بقيادة كولتشاك على مدينة إيكاترينبرغ. وبالكاد استطاع ياكوف يوروفسكي أن يلحق آخر قطار غادر المدينة، حاملاً معه صندوقاً محكم الإغلاق يحوي أوراق القيصر الشخصية ودفتر مذكراته[28]. هرب نائبه، غريغوري نيكولين، مرتدياً ملابس عامل رثة، وهو يحمل حقيبة قماشية. كانت تحتوي على الأحجار الكريمة لعائلة رومانوف. عثر الجيش الأبيض على مكان سجن القيصر، وهو بيت إيباتيف. وجدوا جدار قبو فيه ثقوب

28- عن إدوارد رادزنسكي، القيصر الأخير.

وكان هناك دم، الكثير من الدم. لكن لا توجد جثث. قادهم التحقيق الذي أجروه في المدينة إلى (تشيلوفيك) وتعني النادل بالروسية الذي سمع أحد الحراس من الجيش الأحمر يتكلم عن فتحة منجم، وهو الموقع المفضل للبلاشفة للتخلص من النفايات. لكن أي واحدة؟ كانت الفتحات منتشرة في جميع أنحاء المنطقة، وكثير منها غمرتها المياه.

تمّ تأكيد الإعدام بواسطة نسخة من برقية مشفرة:

18 تموز 1918. إلى مجلس مفوضي الشعب

رئيس اللجنة التنفيذية، الرفيق سفيردلوف واللجنة التنفيذية لمدينة الأبايفسك أرسلت برقية عن قيام عصابة من قطاع الطرق المجهولين، بالهجوم على الدار الذي يعتقل فيه السجناء إيغور كونستانتينوف(29)، وإيفان كونستانتينوف وسيرغي ميخائيلوفيتش وباليي. على الرغم من المقاومة البطولية التي أبداها الحراس، تمّ إعدام جميع السجناء. كانت هناك خسائر من كلا الجانبين. نحن نجري تحقيقات. 4853.

تمّ تمشيط البلدة بحثاً عن الشهود. قد لا يتخيل المرء جيداً حجم المفاجأة التي أصابت أفراد الجيش الأبيض عندما عثروا على بروسكورياكوف وياكيموف وليتيومين، وهم ثلاثة من الحرس الأحمر كانوا موجودين في وقت حدوث المذبحة. جميعهم كانوا سكارى لدرجة أنهم فشلوا في الهروب في الوقت المناسب. قُبِضَ على الأول، ليتيومين، لأنه اصطحب كلب الأميرة أناستازيا الصغير، جيمي، وأخذه إلى كوخه. وهكذا أصبح جيمي الناجي الوحيد المعروف من تلك الدراما. كل الرجال الثلاثة تحدثوا كثيراً، لأن مصيرهم كان أمراً مفروغاً منه. تمّ الكشف بسرعة عن السر الذي كان من المفترض أن يُحتفظ به بأفضل شكل.

تعامل القدر، والشرطة السرية للزعيم ستالين، مع أولئك الذين يمكن أن

29- اسم رمزي للقيصر نيكولا وعائلته.

يشهدوا على ذلك الفعل الإجرامي، وتمّ محو كل شيء. توفي بعضهم على الفور «لأسباب طبيعية»، وأُلقِي القبض على آخرين وأُطلقت النار عليهم.

عاش ياكوف سفيردلوف، الرجل الثاني بعد لينين، بعد قتل القيصر بضعة أشهر فقط.

أما بروتير إيرماكوف، رئيس مفرزة القتلة فقد مات مقتولاً[30].

أُعدِم غريغوري نيكولين، وهو الشخص الذي أفرغ مخزن عتاده بأكمله في رأس الصبي تساريفيتش.

ميخائيل ميدفيديف-كودرين، الذي ادعى أنه أطلق النار على القيصر أُعدم أيضاً.

أما ألكسندر ستريكوتين وأليكسي كابانوف وبافيل ميدفيديف فقد أعدموا جميعاً.

أُعدِم بروسكوراكوف وياكيموف وليتيومين.

كما أُعدِم ستة من «القناصين اللاتفيين»، غير معروفة أسماؤهم.

مات «جزار سفيردلوفسك»، ياكوف يوروفسكي، وكان سبب الوفاة رسمياً نتيجة «القرحة المعدية».

أُعدِم المفوض «فيليب» غولوشيكين.

وأُعدِم رئيس مجلس سوفييت الأورال ساشا بييلوبورودوف.

فقط سيرجي ليوخانوف، الرجل الذي نقل الجثث في الجزء الخلفي من شاحنته، وترك شاحنته «لجلب الماء للمحرك»، هرب؛ وظل هارباً بقية حياته. وعندما توفي وهو رجل مسن دُفن معه سر كبير.

وفي مفارقة كاملة، أعيد تسمية المدينة الشهيرة بجريمة القتل باسم سفيردلوفسك على شرف الرجل الذي ذبح القيصر وهو ياكوف سفيردلوف. مع زوال الحكم الشيوعي، كان أول مكان استعاد اسمه الأصلي، هو مدينة إيكاترينبرغ.

30- بعض الروايات تقول إنه مات بالسرطان. المترجم.

في عام 1918، قامت فاني كابلان، وهي عضوة إرهابية في الحزب الثوري الاشتراكي المعارض، بإطلاق النار على لينين وأصابته بجروح خطيرة. لم تتحسن صحته أبداً وتوفي في عام 1924. أما تروتسكي، الذي كان يحب الشهرة و«كان سيتمنى الموت في القتال عن طيب خاطر - إذا كان هناك جمهور كبير بما فيه الكفاية»[31]، فقد نحّاه جانباً ذلك الجورجي ذو العيون الحادة والفم القاسي، جوزيف ستالين... بدأ إرهاب ستالين في أواخر العشرينيات، في ما أصبح يعرف حينها بالاتحاد السوفيتي (تمّ تغيير الاسم في عام 1922). استمر الإرهاب طوال السنوات الإحدى والثلاثين التالية التي قتل خلالها أتباعه الساديون أكثر من 20 مليون روسي[32]. وكان أول الضحايا هم الفلاحون الذين كانوا يملكون الأرض، أو ما يسمون بالكولاك، والذين عانوا من الجوع حدّ الموت خلال عمليات التطبيق القسري للزراعة الجماعية. ثم أتبعتها سلسلة من عمليات الإعدام التي لم تنتهِ، ومعظمها كان بدون محاكمة.

كان هناك فرق كبير بين الرعب الذي حصل في بدايات الثورة والرعب الذي قام به ستالين. لقد أصدر لينين أوامره بالإعدام ضد طبقة معينة، وبالتالي لم تعد البورجوازية الروسية موجودة، ليحل محلها حزب نومنكلاتورا، الذي سرعان ما بدأ في التصرف مثل البرجوازية القيصرية. كان هدف تروتسكي هو إنشاء دين جديد. وأن تكون الدولة، أو الحزب، هي من يمثل الدين الجديد، وليس الكنيسة. توجّه هوس ستالين ضد كل أولئك الذين تآمروا ضده. «أن يختار ضحية، أو يقوم بإعداد خطة بدقة، أو القضاء على عملية انتقام عنيفة، ثم يذهب إلى النوم؛ ليس هناك بالنسبة لستالين أحلى من هذا الشيء في هذا العالم»[33]. ولهذا السبب، لم يسلم أحد في أيام رعبه العظيم. قد يعتبر من العدالة المطلقة أن أعوانه

31- عن رواية أفاد بها روبرت بروس لوكهارت، القنصل البريطاني العام.
32- وفقاً للإحصاءات السوفيتية، استناداً إلى التعداد الذي جرى في عام 1959.
33- عن كتاب بوريس سوفارين، ستالين.

قد أعدموا من قبل أتباع آخرين عانوا بعد ذلك من مصير مماثل. كون المرء بلشفياً حقيقياً، أو كما بات يسمى حينها، بالشيوعي، لم يكن أبداً ضماناً للبقاء على قيد الحياة.

شرع ستالين في عملية قمع -والتي ما إن بدأت- حتى أصبح من غير الممكن أن تتوقف. على رأس قائمة المستهدفين كانوا أولئك الأقرب إلى دوائر السلطة؛ وبعبارة أخرى، الأقرب إليه. وكان يعتقد، أن جميعهم رجال ذوو نوايا شريرة ومستعدون لتدمير أسطورته. لم يقلق بشأن الرأي العام العالمي. كان لدى العالم وسائله لإغماض أعينه على سوء حظ الملايين. ربما فهم المحنة التي عاشها الروس، لكنه لم ينزعج بشكل خاص من دكتاتور عزّز سلطته بتكديس الجثث. أصابت الموجة الأولى قدامى أعضاء الحزب، من أمثال كامينيف وزينوفييف وبوخارين. قام أربعة ضباط من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية[34] بإعدام الثلاثة رمياً بالرصاص في قبو الإعدام الخاص في مبنى المفوضية في ميدان دزيرجينسكي، وبعد أيام قليلة، كان الجلادون قد ماتوا؛ تبعاً لسياسة ستالين الثابتة بعدم الإبقاء على شهود. «أفضل أن يدعمني الناس بسبب الخوف بدلاً من الاقتناع بشخصي، لأن القناعة يمكن أن تتغير»، هكذا أوضح ستالين لغيزيخ ياغودا، الرجل الدموي الذي شغل منصب مفوض الشعب[35] للشؤون الداخلية وكان مضطرباً عقلياً، والذي أُعدِم أيضاً. التالي كان الجيش. كان ستالين قد أعدم كامل طاقم الضباط الكبار. استولى الزعيم المنتصر على كل شيء: على جهاز الحزب، وعلى أراضي القوميات الأخرى، وعلى جميع أنحاء البلاد. وامتد نفوذه حتى خارج حدود بلاده. لقد عانى ستالين المصاب بجنون العظمة بشكل متزايد من الكوابيس المتكررة. كان لا يزال هناك عدو واحد: ليون تروتسكي، الذي صاغ عبارة مشهورة لوصف هيجان ستالين:

34- بمثابة جهاز الأمن الداخلي السوفييتي. المترجم.

35- رئيس الجهاز. المترجم.

«قد تبرر الغاية الوسيلة؛ طالما كان هناك شيء يبرر الغاية».

كان ستالين قاتلاً مهووساً لا ينسى أبداً وجه عدوه. لا سيما ذلك الشخص الذي حاول ذات مرة أن يسرق الأضواء منه، والذي كان لا يشير إليه إلا باسم «اليهودي». في صراعهما الذي يشبه قصة قابيل وهابيل، كان ستالين وتروتسكي يشتركان في تعطش متساوٍ للسلطة المطلقة. وإلى حدٍّ ما، اعتقد كلاهما أن الصدام المتوقع بين الاشتراكية والرأسمالية من شأنه القضاء على النظام الرأسمالي ويقود الشيوعية إلى الهيمنة على العالم. (وكما اتضح، كان الصدام بين أيديولوجيتين متشابهتين، وهما الفاشية والاشتراكية).

تمكن تروتسكي من الهروب من الاتحاد السوفييتي أيام حكم ستالين عبر الحدود التركية. منحه الرئيس المكسيكي كارديناس حق اللجوء السياسي في عام 1937؛ من هناك، كان ينوي أن يقضي على ستالين بالسلاح الذي كان بارعاً في استخدامه وهو القلم. في 20 آب 1940، قام جايمي رامون ميركادير، وهو عميل للكي جي بي[36]، بقتل تروتسكي بضربة فأس في رأسه[37].

وصف تروتسكي ذات مرة ستالين بأنه «لا يهاجم خصمه، في أفكاره، ولكن في جمجمته ولقد تحقق ما توقعه.

وبعدها...

لمدة ثمانين عاماً، ظلت الشيوعية تحدد مصير نصف سكان العالم.

من بين العديد من آثار ما بعد الحرب العالمية الأولى، كان الحدث الأكثر ديمومة هو الثورة الروسية. فقد تسبّبت بموجة من الصدمات

36- جهاز المخابرات السوفييتية. المترجم.

37- تمّ تقديم ميركادير للعدالة لكنه لم يكشف أبداً عن اسم الجهة أو الشخص الذي أمره بقتل تروتسكي. حكم عليه بالسجن عشرين عاماً.

انتشرت في دوائر كانت آخذة في الاتساع. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك الحماقات التي ارتكبتها القوى الديمقراطية الغربية في ذلك الوقت، حيث كانت إنكلترا وفرنسا تلعقان جراحهما بسبب خسائرهما في الحرب، وأصبحتا خارج اللعبة، أضف إلى ذلك عدم رغبة الرئيس الأمريكي ويلسون التفاوض مع القيصر فيلهلم الثاني. وقد أدى تدمير بروسيا التي كانت تُعتبر درع أوروبا الشرقي إلى غياب أي دولة ذات نفوذ في تلك القارة، كل ذلك أدى إلى حالة من عدم الاستقرار العالمي على مدى السنوات السبعين التالية، والتي أدت بدورها إلى اندلاع حرب أخرى مدمرة وجرّ العالم إلى حافة الدمار النووي المتبادل.

بالنسبة للشعب الروسي، أثبتت عواقب أكتوبر الأحمر أنها كارثية. استُبدِلت المسيحية بالشيوعية، التي كان نبيها كارل ماركس وبيانه الشيوعي كان هو الإنجيل الجديد. وقد ساوت الشيوعية بين تحقيق التقدم المادي والسعادة الوطنية وأن فكرة التمييز الطبقي باتت فكرة قديمة. ظهرت «ديكتاتورية البروليتاريا» (عبارة استُعيرت من كارل ماركس) إلى حيّز الوجود، وحل محل الحكم الاستبدادي -القائم على الأعمال الخيرية للقيصر نيكولا رومانوف- نظام شمولي لرجال مثل تروتسكي ولينين وستالين، حيث أصبح الدم والعنف بمثابة قابلة للتاريخ.

أدى ضعف نيكولا إلى سقوطه. عندما استدعى الأمر الحزم، لم يتمكن القيصر من استخدام الأساليب الوحشية نفسها التي استخدمها الرجال الذين سيقتلونه دون أن يترددوا للحظة واحدة، وعلاوة على موته، فإن المجزرة طالت بناته المراهقات لتجعل العالم المنذهل مدركاً لظهور شبح عقيدة جديدة، تتغذى على الظلم والإرهاب. أما بالنسبة لكيرينسكي، ففي لحظة الخطر، استولى عليه التردد نفسه الذي استولى على القيصر من قبله. فقد استولى على السلطة أشخاص آخرون، أكثر وحشية منه.

كان لينين يقول: «إن الثورات هي قاطرات التاريخ. علينا أن ندفعها

بأقصى سرعة إلى الأمام ونبقيها على القضبان»، ربما كان بإمكانه إبقاء ثورته على القضبان، لكنه مات بعد وقت قصير جداً من قيامها. أما بالنسبة لستالين: «الذي كان الكل في الكل، فإنه كان وحشاً، فمع تمسكه بالأفكار الطوباوية المجردة والمطلقة والأساسية، لم يكن لديه في الواقع أي معيار للعمل سوى النجاح؛ وهذا يعني العنف، والإبادة الجسدية»[38]. كانت الستالينية انحرافاً، سبّبت تشويهاً للحركة العمالية بشكل متعمد، مما جعله يقفز إلى السلطة. وقد تبعته الجماهير بصورة عمياء؛ فكان ستالين والدها. والطاعة العمياء لا تخلو من التواطؤ؛ يجب على المرء أن يناور بشكل ما، لخدمة الكذبة التي هو أحد ضحاياها. لقد كان تروتسكي ثورياً وظل يصرّ بلا هوادة على أن يكتسب الاحترام، لكنه أصبح ملوثاً بالذنب والوحشية في فترات عمله الثوري، وكثيراً ما تصرف كما لو كان عليه الانتقام من البشرية جمعاء. وإجمالاً، أشاع البلاشفة الأمل في أوساط مجتمع مضطهد عندما وعدوه بعالم جديد شجاع. كل ما فعلوه كان تغييراً في اسم البلد. أصبحت روسيا القيصرية تسمى الاتحاد السوفييتي، حيث حولت التوربينات الشيوعية الناس إلى أجزاء من آلة ضخمة، حيث كان الأخ الأكبر يراقب الجميع، والإرهاب الكبير من دكتاتور محب للانتقام ومصاب بجنون العظمة، أرسل الملايين إلى حتفهم.

إذا كانت البروليتاريا الروسية تعتقد أن «أكتوبر الأحمر» قد أضاء حياتها بالشمس المشرقة للتاريخ، فإن تروتسكي حاول أن يخبرها أن التاريخ يتقدم بشكل رئيس من خلال الجانب المظلم. لهذا، تمّ إسكات صوته. لم يكن هناك في التاريخ الحديث ما هو أكثر غموضاً من تاريخ روسيا في القرن العشرين. إذا كان المرء يؤمن حقاً بفكرة مثالية، فقد يتجاهل الحقائق التي تبدو صغيرة جداً والتي تزوّق حتى لا يمكن وصفها بأنها باعثة على السخرية. في الاتحاد السوفييتي، اكتشف المؤمنون به أن

---

38 عن كتاب ميلوفان دجيلاس، حوار مع ستالين.

لا شيء أبدي، لا الإمبراطورية ولا المجتمع. مع سقوط جدار برلين[39] توفي نبيهم ماركس.

استغرق الأمر ثمانين سنة حتى يُحَلّ لغز جريمة القرن. وهل حُلَّ؟ فحينما تعلق الأمر بمعظم الجوانب الأخرى من عمليات القمع التي أعقبت أكتوبر الأحمر، تسببت مراوغات الدعاية السوفييتية في خيانة واسعة للأمانة التاريخية بشكل يبعث على الذهول، فلماذا لا يحدث الأمر ذاته هنا؟ هناك شيء واحد مؤكد: لو لم يُصفَّ القيصر وعائلته بهذه الطريقة القاسية، ربما نكون قد نسينا أنه كان موجوداً في يوم من الأيام، مثل الملكين الأخيرين لتلك الفترة، كارل الأول، آخر أباطرة هابسبورغ، والقيصر فيلهلم الثاني، آخر ملوك بروسيا. وبموته، فإن آخر قيصر لكل الروس، هذا الرجل الضعيف الذي فضّل القرب من دائرة عائلته على تحمل عبء المناصب العامة، كان واثقاً من أن العالم سيتذكر الضحية الأولى للإرهاب الأحمر. لا يزال هناك لغز أخير: من بين الأشخاص الأحد عشر الذين ماتوا في تلك الليلة، انتُشِلَت تسعة هياكل عظمية فقط من هذا القبر الضحل. جثة أليكسي تساريفيتش وإحدى الفتيات ظلت في عداد المفقودة. لكن من هي الفتاة؟ إلى هنا، يستمر الغموض الكبير. وقد أظهرت الاختبارات أنها لم تكن تعود لأناستازيا.

في أيامنا هذه، كثير من الروس يطلقون على أطفال القيصر اسم، голубчик، وتعني بالروسية الصغار الأعـزاء. ويلحقونها بعبارة (Желаю тебе вечную жизнь. – ندعو لكم بالجنة)[40].

فترة فاصلة

1918-1917

وصلت الحرب العالمية الأولى إلى ذروتها. القوات التي تمكن

39- في 9 تشرين الثاني 1989.

40- في النص الأصلي كُتبت بالأحرف اللاتينية ولكني آثرت كتابتها بالروسية. المترجم.

الألمان من جعلها لا تقاتل من خلال مناورتهم بإخراج روسيا من الحرب ظلت مشغولة بما يكفي بخصم جديد: الولايات المتحدة الأمريكية. لقد بدأت الصخرة العملاقة للنزعة العسكرية البروسية تتصدع.

إن تجنب موت الأبرياء يجب أن يترافق كلياً مع أي تغيير يحصل في الاتجاه عند أي مجتمع متحضر. وكان التغيير هو القاعدة، وليس الاستثناء. وقد وصلت قوى جديدة إلى السلطة. إن الاضطراب الذي أوجدته الحرب مثل (Völkerwanderung–[41] وتعني هجرة الشعوب) لأمم بأكملها، وتبدل خضوع الفلاحين من النظام الإقطاعي إلى استعباد البروليتاريا الحضرية - كان من المحتم أن يؤدي إلى اضطرابات في جميع أنحاء العالم. وهكذا كان من المفترض أن يكون ذلك خلال الأيام الأخيرة من عام 1918 في ألمانيا. لم يكن هناك تسامح أو عدالة؛ وهو بالضبط ما كانت ألمانيا، وبقية أوروبا بحاجة إليه أكثر من أي شيء آخر في تلك الأوقات المضطربة.

توفر فترة ما بعد الحرب واحدة من تلك اللحظات التاريخية المدهشة عندما تنير ومضة من البرق فجأة المشهد الاجتماعي بشكل حاد. لقد أظهرت كيف أن أوروبا المضطربة كانت خاضعة لنظام لم يكن لدى أساطيرها السياسية سوى القليل من الإجابات لتفسير سرعة تقدم المجتمع فيه. وبينما كانت روسيا متورطة في حرب أهلية دموية، اندلعت الإضرابات في إنكلترا وفرنسا والنمسا وألمانيا. في البداية بدا فعلاً أن الإضرابات حدثت لأسباب اقتصادية، لكنها سرعان ما اتخذت طابعاً سياسياً واضحاً. وفي ألمانيا، لم تكن إضرابات البحّارة والعمال، التي أدت في النهاية إلى تنازل القيصر، مؤشراً كبيراً على نهاية حقبة وبداية عهد جديد. كل ما كان يتطلبه الأمر هو أن يقوم شخص ما بتوحيد مختلف تلك الفصائل بشكل وثيق لتقديم قائمة واحدة من المطالب.

41- بالألمانية في الأصل. المترجم.

خرجت من وسط الظلال امرأة. تتحدث بلغة نارية، تحدّت حدود الحاضر وحددت إمكانيات المستقبل.

لأعظم الرجال في العالم، ننشد أغاني البطولة... إذا كان الأمر يحتاج إلى دليل، فقد قدمته: إن النساء لسن متساويات مع الرجال فقط، ولكن في كثير من الحالات، يتفوقن عليهم.

الفصل الخامس

9 كانون الثاني 1919
عاشت الأممية

Es lebe die Internationale!

عاشت الأممية!
الحرية دائماً وأبداً هي حرية
من يفكر بطريقة مختلفة.

• روزا لوكسمبورغ، 1918.

«يجب أن توقفهم، يجب أن توقفهم!» صرخ القيصر. كانت الأجواء في الغرفة المكتظة بالخرائط، يسودها الخوف والارتباك، وأعصاب الجميع متوترة، كان خضوع المرء لمزاجه في مثل هذه الظروف غير لائق. ارتسم على وجه القيصر الألماني تعبير ينمّ عن يأس عاجل ممزق. ظل لفترة طويلة بلا حراك، وحائراً للغاية لشعوره بالإهانة من اللهجة المتغطرسة التي يوجّهها رئيس أركان جيشه القوي. لقد غرق الملك في كابوس، بدا الجميع من حوله مجانين والآن هو نفسه كان يتصرف وكأنه مجنون، تغلب عليه شعور بالظلم لا يوصف. كان هو نفسه الوحيد الملوم. كان هو الذي رمى بالنرد.

Verlässt die Kugel erst den Lauf, haelt sie kein Kaiser Willi»

auf»[1] ما إن تنطلق الرصاصة من الفوهة، لا يستطيع حتى القيصر ويلي أن يوقفها». كانت تلك هي الكلمات التي يترنم بها الأطفال في الشارع، والمزارعون في حقولهم، وكان معنى ما يقولونه يدخل الرعب في نفوس الدبلوماسيين ابتداءً من «قصر وايتهول في إنكلترا» إلى مبنى «كي دورسيه في فرنسا» وصولاً إلى سان بطرسبرغ في روسيا... أطلق ويلهلم العنان لوحش الحرب عندما فضّل «تصادم الحضارات» على الحوار الدبلوماسي. كان الإمبراطور مرتبكاً. ما الذي أوصله إلى هذا؟ كانت ألمانيا قد تلقت تهديداً و«ألمانيا» تعني «الموظفين العامين البروسيين». وقد عبّأت النمسا قواتها، عندما قدمت روسيا دعماً لصربيا، لكن إيطاليا ظلت محايدة. وقد رفضت فرنسا بالفعل الإنذار النهائي التي وجّهته لها ألمانيا، وكذلك فعل البلجيكيون الذين لم يسمحوا بمرور القوات الألمانية عبر أراضيهم المحايدة. وُرِّطَت بريطانيا بالاشتراك في الحرب بسبب «قصاصة من الورق»[2]، لحماية حياد بلجيكا. لقد تجاوز القيصر هذه المرة حدوده بالفعل. وبمجرد أن شرعت هذه الآلة الحربية الجهنمية - جيشه البروسي - بالتحرك، انطلق وحش الإبادة بشكل أسرع وأسرع، ولم يكن بوسع أحد أن يوقفه. «كان عليك أن تمنعهم من ذلك». هذه الدعوة كانت تُقال همساً، وهي نداء تضرع موجّه إلى رجل كانت هناك شرائط حمراء على طول خطوط سرواله الرمادي، الذي قام بتضييق نظارته ذات الزجاجة الواحدة بشكل أكثر قوة في عينه وهو يتظاهر بقيامه بإمعان النظر في إحدى الخرائط. كان صوت الجنرال حازماً: Ihre Kaiserliche Majestät وتعني بالألمانية «لقد تمّ تخطيط كل شيء، كل شيء قد شرع في الحركة، ولم يعد بالإمكان وقفه»، وأشار إلى خط أزرق يقسم خريطة جدارية كبيرة لقارة أوروبا: «لقد عبر الجيش الألماني نهر الراين». وقد حدث ذلك في 3 آب 1914، أُطلِقت فرامل

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

2- يقصد معاهدة لندن 1839 التي اعترفت بها القوى الأوروبية بحياد بلجيكا. المترجم.

القطار المحمل بالجنود الذين كانوا يهتفون، والذي كان يتهادى عبر الجسر الذي يفصل ما بين ألمانيا وفرنسا.

استمرت الأسرة الملكية لآل هوهنزوليرن تحكم لمدة 503 سنوات. وقد برزت إلى الصدارة في صيف عام 1415، وانتهت بتنازل القيصر فيلهلم الثاني عن العرش في خريف عام 1918. وليس هناك ما جعل آل هوهنزوليرن يهيمنون على العالم أكثر من الحظ الوافر تاريخياً الذي تألقوا به. وأصبح ما بدأت كأرض مستنقعات وغابات مظلمة بين نهري أودر وإلبه قوة إمبريالية امتدت سيطرتها عبر أوروبا. بعد مرور مائة عام على تأسيس العائلة، جرى حادث لم يغيّر مصير بروسيا فحسب، بل وكذلك العالم. في المساء الذي يسبق عيد جميع القديسين في عام 1517، كشف راهب أوغسطيني[3] عن انتقاده الجريء لمبادئ الكنيسة الكاثوليكية التي لم يكن بالإمكان المساس بها في ذلك الحين عند أبواب كنيسة مدينة فيتنبرغ. كان اسمه مارتن لوثر. لقد قبلت مرغريفية براندنبورغ[4] بسرعة المذهب الجديد، ليس إيماناً منها به ولكنها انتهزت الفرصة بذكاء حيث استخدمته كوسيلة لتخليص نفسها من إمبراطور هابسبورغ الكاثوليكي. أدّت حرب الثلاثين عاماً المدمرة (1618-1648) إلى الانفصال الكامل بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي. كان اسم الرجل الذي حوّل بروسيا إلى قوة عظمى هو Der Grosse Friedrich (فريدريك العظيم). ولوضع حدّ للطموحات التوسعية لآل هابسبورغ، أسس Füerstenbund، أي نادي الأمير للفنون وكان يطبق مخططات مكيافيللي بالكامل. وأصبح يُعرف بالعهد السياسي لفريدريك العظيم.

بعد رحيل نابليون، قامت بروسيا بتأسيس دويتشين زوليفيرين، وهو الاتحاد الجمركي الألماني تحت حماية الملك البروسي. سيطرت إنكلترا

3- الأوغسطينية جماعة رهبانية. المترجم.

4- مرغريفية براندنبورغ هي إمارة كبيرة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لعبت دوراً محورياً في تاريخ ألمانيا وأوروبا الوسطى. المترجم.

على البحار وأقامت إمبراطوريتها الاستعمارية، وأعادت فرنسا بناء قوتها العسكرية، وظل النمساويون مشغولين في القضاء على المشاكل في إيطاليا وهنغاريا. حدّد الملك البروسي الجديد فيلهلم الأول أولوياته في خطاب التتويج: «إن الجيش البروسي سيكون حامي الأمة البروسية». قام بتعيين الرجل الحديدي، الكونت أوتو فون بسمارك، مستشاراً. وقام بسمارك باختيار ضابط عسكري شاب رائع، هو الكونت فون مولتك، وجعله رئيس أركان الحرب البروسي. في عام 1864 قام الجنرال مولتك بتحسين استراتيجيته الحربية من خلال قيامه بعملية عسكرية قصيرة لكن ناجحة ضد الدنمارك. كان بسمارك يعلم جيداً أن ضمّ شليسفيغ هولشتاين لا بدّ أن يؤدي حتماً إلى الحرب مع النمسا. لقد خطط لها على هذا النحو وفي النهاية كان هذا ما حدث. كان أكبر إنجاز لبسمارك ذا شقين. أولاً، تماشياً مع استراتيجيته للقتال على جبهة واحدة، فقد احتاج إلى إبقاء فرنسا خارج نطاق الحرب ضد النمسا. ثانياً، كان عليه هزيمة النمسا في حرب خاطفة دون إهانة قيصر آل هابسبورغ، ومع ذلك ترك الجيش النمساوي سليماً بما فيه الكفاية ليكون عامل توازن ضد فرنسا.

في 3 تموز 1866، وفي منطقة كونيشغيتز (Koeniggraetz)[5] أو سادوفا، وقف الحظ إلى جانب البروسيين. لم يكن أكبر الخاسرين هم النمساويون، ولكن الإمبراطور الفرنسي، نابليون الثالث، الذي فقد توازنه بسبب النجاح السريع للجيش البروسي. لو خسرت بروسيا ذلك اليوم، ربما لم تكن جزمات عساكر بروسيا قد شقّت طريقها إلى الحربين العالميتين. كان هدف بسمارك هو توحيد الدوقيات (الإمارات) الألمانية تحت القبضة الحديدية لبروسيا. وبالمثل، كان الهدف الوحيد لفرنسا هو منع حدوث مثل هذا التوحيد. وقف الحظ مع البروسيين. في عام 1870، عندما وصلت الأمور إلى حدوث الصراع الذي صمّمه بسمارك بذكاء،

5- منطقة كونيغراتز والتي شهدت المعركة الحاسمة للحرب النمساوية البروسية والتي هزمت فيها مملكة بروسيا الإمبراطورية النمساوية.

سار الجيش الفرنسي برجليه نحو الفخ.كانت السرعة التي تقدمت بها قوات بروسيا إحدى أعظم الجيوش في أوروبا غير مسبوقة في التاريخ. وكان لها أيضاً عواقب وخيمة، فقد أغرت القيادة العليا البروسية بالاعتقاد الخاطئ بأن فرنسا كانت ضعيفة، وسوف تسقط بالسرعة نفسها التي يجب أن تكون فيها هناك حرب أخرى. في 18 كانون الثاني 1871، أعلن «المستشار الحديدي»، أوتو فون بسمارك، رسمياً أن فيلهلم الأول ملك بروسيا، هو قيصر ألمانيا. أقحم الفرنسيون أنفسهم في حركة خبيثة للانتقام. أما بالنسبة لبقية أوروبا، حيث كانت معظم الأسر الحاكمة مرتبطة بعلاقات مصاهرة، فقد استمرت في القيام بأنشطتها، التي كانت تتضمن الاستيلاء على مستعمرات جديدة في قارتي أفريقيا وآسيا. أدى هذا إلى التنافس التجاري وبدأت إنكلترا ترى إمبراطوريتها التجارية مهددة.

في عام 1888، أصبح لدى ألمانيا قيصر جديد، هو فيلهلم الثاني. بعد ولادته بوقت قصير، كتبت أمه، الأميرة فيكتوريا المولودة في إنكلترا، إلى العاهل البريطاني: «إن حفيدك فيلهلم نشط للغاية ويستطيع القيام بجميع أنواع الحيل». وكان هو بالفعل كذلك فسيكون لفيلهلم الثاني سلطان كبير وغرور أكبر؛ مستبد جلف تجاوزت طموحاته حنكته السياسية، شخص لا يعرف الدعابة ويفرض الطاعة العمياء. لقد بالغ في تقدير قدراته الفكرية إلى ما هو أبعد مما يتصوره العقل، ولم يتوافق ذكاؤه مع طموحاته السياسية في أي وقت من الأوقات. كان أول عمل يقوم به هو إقالة أوتو فون بسمارك، وبالتالي إزالة الرجل الوحيد القادر على نزع فتيل الوضع السياسي المتفجر. وبينما كان الهدف الأكبر لبسمارك هو إبقاء فرنسا وروسيا في حالة من عدم توحيد قواتهما، فإن حماقات فيلهلم السياسية أزعجت جيرانه لدرجة أنهما وقّعا تحالفاً دفاعياً، أعقبه تحالفهما الودي entente cordiale[6] مع إنكلترا.

في شهر آب من عام 1914. انخرطت دول من الزوايا الأربع

6- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

لأوروبا، بسلاسة في المحرقة. حمل أبناؤها السلاح «دفاعاً عن أرضهم المقدسة»؛ أو «الوطن الأم»، حسب المكان الذي خرجوا منه. الألمان والروس والنمساويون والفرنسيون والبريطانيون والصرب والأتراك. الجميع صرخوا «هورا» ثم لقوا حتفهم جرّاء رصاصة أو قذيفة أو بمرض الزحار. كانت غاية القيصر هي أن يحكم العالم، لكن الثمن كان باهظاً للغاية، حيث قيّد بروسيا بأغلال الحرب. إذا ما سيطرت بروسيا على العالم بأسره، فإن الصراع الناتج عن ذلك سيؤدي حتماً إلى انقراضها. استندت استراتيجية بروسيا على (Vernichtungsschlacht)، وتعني بالألمانية معركة الإبـادة[7]. لذلك لم يُلَقَّن شباب بروسيا القتال من أجل وطنهم، بل لُقِّنوا الموت من أجله. كانت بداية حقبة جديدة، وهي «التضحية بالغالي والنفيس». كان ذلك هو الجو السائد الذي هيمن على الخطب والصحف. واعتبرت أعداد الضحايا مقياساً للتفاني في خدمة الوطن. انتهى الهجوم الألماني الأخير على الجبهة الغربية بفشل ذريع. في آب 1918، تسبّبت قوات الحلفاء في انهيار خطوط الدفاع الألماني. خسر الجيش الألماني 1.5 مليون رجل كانوا يدافعون عن شيء لا يمكن الدفاع عنه. لقد ولّت أيام الدفاع عن الوطن منذ زمن طويل، وتحوّلت الحرب إلى أكبر مقبرة[8] من القتلى والدماء في ألمانيا.

وألقى الجنرالات باللائمة في فشلهم على خيانة السياسيين في الداخل. كانت المذبحة التي جرت في الجبهة الغربية الحلقة الأخيرة في سلسلة من الأحداث التي بدأت هناك ولكنها لم تنتهِ. قبل أكثر من 150 عاماً، كتب ديتريش هاينريش فون بولو، وهو ضابط بروسي من اليونكر (لقب يطلق على الضباط من أبناء الطبقة الأرستقراطية)، أطروحة[9] حول العلاقة بين

7- ابستراتيجية عسكرية يسعى فيها الجيش المهاجم إلى تدمير القدرة العسكرية للجيش المعارض في معركة محورية واحدة مخطط لها. المترجم.

8- في الأصل «جثمانية» وهو بستان في جبل الزيتون في مدينة القدس يعرف بأنه المكان الذي صلّى فيه يسوع في الليلة السابقة للصلب وفقاً للعقيدة المسيحية. المترجم.

9- عن: Der Geist des neuer Kriegssystems, 1799.

السياسة والحرب. وقد أصرّ فيها بشدة على الحاجة إلى شخص ذكي يوحّد ويقود الأمة التي تخوض حرباً، وأكد أنه في ظل الظروف الاستراتيجية الحديثة، لا يمكن أن يكون هناك فصل بين السياسة والحرب. فشل القيصر فيلهلم بشدة في هذين الجانبين. شهد شتاء 1917-1918 اندلاع سلسلة من الثورات الدموية في البلدان الواقعة إلى الشرق من ألمانيا. كما كشف ذلك الشتاء الأضرار السياسية والاقتصادية لأربعة أعوام من الحرب الرهيبة. وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي وهو الحزب الأكبر في البلاد مصاباً بالشلل، ولم يكن القيصر المتعب مؤهلاً بالكامل للسيطرة على الأوضاع. وقد اطلع بنفسه على الأوضاع الداخلية المرتبكة خلال زيارة قام بها عام 1918 إلى مدينة كييل. في أحد الأيام لم يكن هناك خبز، ولكن كانت حافلات النقل تسير. وبعد بضعة أيام عاد الخبز، لكن الحافلات توقفت. كان الناس يتذمرون، لكن بلا بديل، كان عليهم أن يكدحوا ليحافظوا على وجودهم اليومي البائس. أصبحت الملصقات، التي تُوضع على عجل على جدران المنازل، حدثاً يومياً: «Kaiser raus يسقط القيصر!». كانت مجموعات من الناس تتجمع في زوايا الشوارع، وأصبح النشطاء النقابيون أكثر جرأة. وكان رد فعل القيصر هو القول «إنهم دائماً الحمر اللعينون». لم يلطف الجنرال هيندنبورغ من عباراته وهو يقول: «يا صاحب الجلالة، جيشنا في حالة فرار جماعي؛ يجب علينا أن نتفاوض من أجل وقف فوري لإطلاق النار». في تلك اللحظة، يجب أن يكون القيصر قد علم أن دوره _باعتباره الحاكم الأعلى_ كان يقترب بسرعة من نهايته. وبينما كان لا يزال يفكر في خطوته التالية، اقتحم الجنرال لودندورف الغرفة وصرخ قائلاً: «هل تشكلت حكومة جديدة؟»

«أنا لست ساحراً» صرخ فيلهلم بحنق.

«صاحب الجلالة، ليس هذا هو الوقت المناسب لإضاعة الوقت في المناقشة. الخط الأمامي بأكمله سينهار وسيغزو العدو أراضينا».

في 3 تشرين الأول 1918، اختار القيصر ابن عمه ماكس فون بادن

مستشاراً لألمانيا. بعد يومين، تمّ قبول «النقاط الأربع عشرة» التي عرضها الرئيس الأمريكي ويلسون نيابة عن الحلفاء كأساس للتفاوض على الهدنة. طالب ويلسون بـ «فرض الحصار على الحكومة التي لا زالت تفرض إرادتها على الشعب الألماني». لم ترد ألمانيا. بعد عشرة أيام جاءت رسالة واضحة من الرئيس ويلسون: «لم يعد بإمكاننا التعامل مع القيصر الاستبدادي، ولا يمكننا التفكير في وقف لإطلاق النار. لا شيء غير الاستسلام».

هناك سببان رئيسان أديا إلى قيام ثورة تشرين الثاني عام 1918 في ألمانيا. الأول هو النكسة التي تعرضت لها القوات الألمانية على الجبهة الغربية. لقد سئم الجنود من الحرب التي يشتد سعيرها يوماً بعد يوم، فيما كانت عناوين الصحف تحتلها العبارة الشهيرة:«Im Western nichts Neues. - كل شيء هادئ على الجبهة الغربية». ثانياً، إن رفض الحكومة لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعية قد أوجد انقساماً بين الطبقة الحاكمة والبروليتاريا الحضرية. وأصبحت ألمانيا برميل بارود.

ظهرت في صدارة الأزمة الألمانية التي كانت تلوح في الأفق، منظمة سياسية تعرف باسم سبارتاكوس. وضعت مبادئ تأسيسها سلسلة من الرسائل التي كتبتها امرأة أثناء وجودها في السجن بسبب أنشطتها المناهضة للحرب. كان الاسم الذي اختارته لحركتها يرمز لثوري آخر قاتل ضد الاحتمالات المستحيلة، وهو المصارع الروماني سبارتاكوس، كان عبداً تجرأ على أن يتمرد! ومضى ليهزم جحافل روما قبل أن يُأسر ويُصلب. كان اسمها روزا لوكسمبورغ.

ولدت روزا لوكسمبورغ في مدينة زاموسك الواقعة في الجزء البولندي من روسيا، في واحدة من العديد من (غيتوات) أحياء اليهود الموجودة في أوروبا الشرقية. كان (شارع اليهود) ضيقاً ومليئاً بالحفر على الدوام. في فصل الشتاء، كانت تعلوه طبقة من الجليد. تتحول في فصل الربيع إلى بحر من الطين. وفي الصيف، يخنق الغبار كل من يعيش فيه. لكن العيش هناك

كان له ميزة واحدة: حيث كانت معظم المعابد اليهودية الكهنوتية تضمّ (مدرستها الكبيرة)، وهي مركز للتعلم المكثف الذي أنتج رجالاً يتمتعون بحكمة عظيمة. وفي كل عشر سنوات كانت تحدث في جميع أنحاء مناطق الاستيطان[10]، أعمال شغب ومذابح يقوم بها المعادون للسامية وهدفها تدمير الجالية اليهودية. كان أسوأ وقت هو حلول عيد القيامة، أو عيد الفصح. عندها يطالب فيه القساوسة الأرثوذكس الروس من كل يهودي يواجه منزله الكنيسة بأن يغلق نوافذه بالطوب. وفي روسيا البولندية لم يكن هناك من يحمي اليهود. في عام 1881، اغتيل القيصر ألكسندر الثاني على يد إرهابي يهودي شاب. أعقبت ذلك فترة رهيبة وهرب عدد كبير من اليهود إلى أمريكا أو ألمانيا. من بينها عائلة لوكسمبورغ. فقد تخلت عن أعمالها وبيتها وجميع ممتلكاتها باستثناء ما يمكن أن يذكّرها بالماضي، وانتقلت إلى سويسرا.

كان قدر روزا لوكسمبورغ أن تصبح الشخصية المهمة والقيادية لمنظمة سياسية ناشئة والتي ستتحول مستقبلاً إلى الحزب الشيوعي الألماني (KPD). لم تكن قبيحة ولا جميلة. كانت قوتها تكمن في ذكائها المتوقد ولغتها الحادة وشغفها الاستثنائي، كان كيانها كله موجهاً نحو تحسين ظروف حياة البروليتاريا. لم تلعب العلاقات الشخصية أبداً دوراً في حياتها. لم تقم سوى علاقتين، إحداهما مع طبيب شاب توفي في خنادق الحرب، والأخرى مع ابن أفضل صديق لها[11]. ابتعد الرجال عنها، معظمهم كان قد صدّهم ذكاؤها المتوقد. أطلق عليها المعجبون لقب دانتون الألماني[12]، أما النقّاد فقد أشاروا إليها بقسوة بأنها «أكثر التأثيرات تدميراً في جهودنا للانتصار في الحرب». في عام 1889 حصلت على درجة في القانون مع مرتبة الشرف من جامعة زيوريخ. في

10- منطقة في روسيا سمح لليهود بالعيش فيها.

11- الدكتور هانز ديفنباخ وكوستا زيتكن على التوالي.

12- على اسم البطل اللامع للثورة الفرنسية.

عام 1899 انتقلت إلى برلين وتزوجت غوستاف لوبيك للحصول على الجنسية الألمانية. لم تتوقف صحف المعارضة أبداً عن تذكيرها بأنها لم تكن سوى «يهودية بولندية». وفي عام 1904، حُكم عليها بالسجن لثلاثة أشهر بسبب ملاحظة ساخرة ذكرتها علانية عن صاحب الجلالة الإمبراطور الألماني.

حدث أول ظهور علني لها في عام 1907؛ حين خاطبت مؤتمر الاشتراكيين، وانتقدت بحدة مقولة لينين التي مفادها أن الديمقراطية الاجتماعية هي مثل منظمة يعقوبية للبروليتاريا. في العام نفسه، أصبحت محاضرة في جامعة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (SPD) وفي الفترة من 1912 إلى 1914 كانت طاقاتها مركزة بالكامل على تحذير الناس من خطر الحرب الذي كان يلوح في الأفق. وقد استلهمت صرختها التحذيرية من «نشيد الفرح» وهي قصيدة كتبها الشاعر شيلر وعبارته: «كل الناس أصبحوا أخوة». في عام 1916، صوّت الاشتراكيون في الرايخستاغ (البرلمان الألماني) بأغلبية كبيرة لمواصلة الحرب. واعتبرت روزا هذا التصويت خيانةً للطبقات العاملة، واختلفت مع الحزب، ونشرت وجهات نظرها[13]. وأدلت بتصريحات مثل: «عندما يُطلب منا استخدام سلاح قاتل ضد إخواننا الفرنسيين، فيجب أن نقول: إننا نرفض». أمضت روزا معظم سنوات الحرب في السجن. وعندما تمّ إطلاق سراحها لفترة وجيزة في عام 1916، استغلت تلك الفترة لتشكيل عصبة سبارتاكوس.

كان شريكها كارل ليبكنخت، وهو سليل عائلة اشتراكية معروفة. كان والده فيلهلم اشتراكياً بارزاً وعضواً في الرايخستاغ. في عام 1875، أسّس كل من أوغست ببيل وفيرديناند لاسال، حزب العمال الاشتراكي الألماني. كان فيلهلم ليبكنخت أيضاً مؤسس صحيفة «Vorwärts» (إلى الأمام) الاشتراكية، والتي قُدِّر لها أن تلعب دوراً حاسماً في أحداث عام 1919. كان كارل الشاب، شخصاً ذا مظهر لا يثير الانتباه ويرتدي نظارات

13- عن كتيب Junius.

سميكة (نسخة من ليون تروتسكي)، سار على خطى والده وعمل في السياسة. انتُخِب في الرايخستاغ، حيث أصبح معارضاً صريحاً لدخول ألمانيا في الصراع العالمي. هاجم الحرب عندما كتب منشوراً غير قانوني عنوانه «العدو الرئيس هو داخل بلادنا»، والذي كلفه عدة سنوات في السجن. أُطلق سراحه في تشرين الأول 1918، وهو الوقت المناسب ليتسبب فيه بمشاكل خطيرة للحكومة.

تكوّنت عصبة سبارتاكوس من حفنة من المتطرفين اليساريين من داخل الحزب الأم، الحزب الاشتراكي. كان يجمعهم شيء واحد: رفضهم الحرب. كان تركيز روزا لوكسمبورغ في العمل الثوري على مناهضة الحرب نفسها. وكتبت في إحدى رسالاتها: «إن العمل المناهض للعسكرة هو أكثر أشكال الصراع الطبقي تركيزاً ضد الحرب وهيكل السلطة في النظام الرأسمالي»[14]. وهذه العبارات كلفتها ثمناً باهظاً. ومثل ليبكنخت، أُطلق سراحها في نهاية المطاف من السجن عندما اقتحمت الجماهير السجون.

على مدى عدة سنوات، كان ما تنشره الصحافة يومياً يخضع لرقابة صارمة من الجيش، وإن معرفة أن ألمانيا كانت على وشك مواجهة الهزيمة كانت صدمة بكل ما للكلمة من معنى. وكانت ألمانيا غير مستعدة لمثل هذا الاحتمال. ومع وجود وحدات عسكرية متمردة متعبة لا تريد الموت من أجل قيصر غير راغب في مساعدة عائلاتهم الجائعة، كان الخوف من استيلاء البلشفية على ألمانيا يلوح في الأفق. منذ تلك اللحظة فصاعداً، أصبحت الثورة الألمانية مثل لعبة جرّ الحبل للحصول على دعم الجماهير، ما بين الاشتراكيين المتطرفين وعصبة سبارتاكوس من جهة، والاشتراكيين الوسط في الحكومة من جهة أخرى. بالنسبة لأي شخص داخل الحكومة الألمانية، أصبح أمر واحد واضحاً: كان على القيصر أن يرحل، ومعه الملكية. ومع ذلك، لم يجرؤ أحد على معارضة سلطة الإمبراطور علانية.

14- عن كتاب كارل ليبكنخت Antimilitarismus.

في الأول من تشرين الثاني 1918، أرسل الأمير ماكس فون بادن وزير خارجيته إلى مدينة سبا في بلجيكا حيث مقرّ إقامة القيصر ليحاول إقناعه، لكن فيلهلم كان لا يسمح بالحديث عن التنازل عن العرش. ثم أخذت الأحداث منحًى مفاجئاً نحو الأسوأ. تحولت النقطة المحورية في الحرب مرة أخرى إلى ألمانيا أو على نحو أدق، إلى مدينة كييل، الميناء الرئيس لأسطول أعالي البحار الألمانية. انطلق السرب الثالث للأسطول، الذي كان يضمّ الطرادات الحربية بايرن، وكونيغ، وكرونبرينز فيلهلم، وماركغراف، وغروسر كورفورست، إلى موقع كيلير شيلينغورف ليقوم بهجمة نهائية شاملة ضد الأسطول البريطاني. كان هذا الأمر بمثابة حماقة تصل إلى الانتحار. في ميناء كييل، جُمِّع 25 ألف بحار و15 ألف من مشاة البحرية لقيادة السفن. حدث تمرد طفيف قُمِع واعتُقل زعيمه. طالب بحارة الطراد ماركغراف بالإفراج الفوري عن رفاقهم. أمر قائد القوات في ميناء كييل جميع الوحدات أن تبقى في ثكناتها وقام بتسليح مجموعات الضباط.

عندما رفض البحارة الانصياع، أمر قائد قوات الميناء سرية من مشاة البحرية بتفريق المظاهرة. قفز وقّاد السفينة كارل آرتيلت، وكان عضواً في المجالس العمالية الألمانية (وهي مشابهة لمجالس السوفييت التي تأسست في روسيا في تشرين الأول 1917)، على حاجز أقيم على عجل وخاطبهم: «نحن لسنا هنا لإيذائكم!» أعقب ذلك رفض مشاة البحرية إطاعة أوامر ضباطهم، صدرت الأوامر إلى السفينة ماركغراف للإبحار لكن الوقادين أخمدوا النار تحت المراجل. استُدعي المزيد من مشاة البحرية ولكن الجميع رفض إطاعة الأمر عدا ثلاثة عشر منهم أصدر Stadtkommandant[15]، القائد الأدميرال سوشون، أوامر جديدة، ولكنها لم تكن أبداً الأوامر المناسبة. وبدلاً من تهدئة الجنون المتنامي، الذي كان يتجه نحو المذبحة، أعلن الأميرال عن تطبيق الأحكام العرفية،

15- بالألمانية في الأصل. المترجم.

متجاهلاً حقيقة أنه بموجب الأحكام العرفية، يصبح العنف لا مفرّ منه. وتحسباً لمسيرة احتجاج البحارة في المدينة، قام بتشكيل «الحرس الأبيض» المكون من طلاب ضباط لم تكن لديهم خبرة قتالية بعد. أصبحت العملية نسخة مطابقة لما حدث في بتروغراد.

كان كل شيء مهيّأً لإطلاق الشرارة النهائية وتحطيم هيكل السلطة الإمبراطورية بالكامل. أصيب الطلاب من«الحرس الأبيض» بالذعر وأطلقوا النار على جموع البحارة الذين كانوا يرددون الشعارات. قُتل سبعة وثلاثون. ووسط هتافات «Es lebe die International![16] عاشت الأممية!» اقتحم البحارة مستودع الأسلحة التابع للبحرية واستولوا على البنادق والرشاشات. في الساعات الأولى من يوم 4 تشرين الثاني، أقسم 260 بحاراً من السفينة غروسر كيرفيرست، بقيادة أحد الوقّادين ويدعى بودولسكي، اليمين المقدس بأن ينتقموا لمقتل رفاقهم. قام المتمردون بتشكيل Soldatenrät[17] (مجلس الجنود)، وكان الأول من بين العديد من المجالس التي تأسست فيما بعد. انتشرت الانتفاضة كالنار في الهشيم. بحلول الظهر، كانت هذه المجالس (Soldatenräte) تمتلك بالفعل 20 ألف بندقية، وكذلك معظم مدفعية السفينة الثقيلة، التي كان يحرسها جنود مدفعية البحرية الذين انضموا إلى التمرد. وأعلنوا مطالبهم. المادة 1: «تنازل آل هوهينزوليرن عن العرش والدعوة إلى الإضراب العام. ومن دون سابق إنذار، اقتحم ممثلو Soldatenräte مجلس الجنود مكتب الأدميرال سوشون. زمّ الأدميرال شفتيه بعد أن سمع مطالبهم، لكنه عرض الدخول في محادثات معهم. أحب أن يلقي محاضرة على مرؤوسيه، ولكن هذه المرة لم يعد الأمر مناسباً. فلم يعد الجنود يستمعون إلى خطبه.

«إذا لم يُقبَل طلبنا...» أعلن قائدهم.

16- بالألمانية في الأصل. المترجم.

17- بالألمانية في الأصل. المترجم.

فأجابه سوشون «أنت تهددني؟».

كان هناك شيء واحد واضح: لم يعد هناك وقت للمناقشة. نجا الأمير هينريش، القائد العام لأسطول البلطيق الألماني، بنفسه من خلال الفرار من الباب الخلفي. جاء وفد حكومي من برلين لمناقشة مثيري الشغب. لم يتمكنوا من فعل شيء سوى مشاهدة عدوى ثورة البحارة وهي تنتشر بسرعة. فقد امتدت من مدينة كييل إلى مدن لوبيك، وترافيموينديي، وفيلهلمسهافن، وبرونسبوتيل، وبريمن، وهامبورغ. كان المتمردون بحاجة إلى توجيه سياسي. عندما رأى رئيس الوفد الذي قدم من برلين، الاشتراكي غوستاف نوسكي، أنه لا يمكن فعل شيء لوقف التمرد، انضم بسرعة إليه وتمكن من كسب ثقة البحارة. انتخب رئيساً لمجلس الجنود Soldatenräte، وطرد الأدميرال سوشون، وعيّن نفسه حاكم مدينة كييل العسكري. بعد ذلك، قام بتشكيل حكومة مؤقتة وشكّل بسرعة «لواءً حديدياً» من الجنود المحترفين والمناهضين للبلاشفة لسحق «البحارة الحمر» الذين انتخبوه.

لم يكن السبب الرئيس وراء فشل Matrosenbewegung (ثورة البحارة الألمان) في عام 1918 هو عدم تعبئة الجماهير، ولكن عدم وجود قيادة سياسية، مثل لينين وتروتسكي اللذين قادا الناس خلال أكتوبر الأحمر.

عندما بزغ فجر التاسع من تشرين الثاني 1918، كان كئيباً وبارداً. ارتفعت سماء رمادية اللون فوق مدينة «سبا» البلجيكية، وامتد الطقس السيئ طوال الطريق الموصل إلى برلين حيث وُضِعت في الساعة 9.15، برقية على مكتب Reichskanzler[18]، المستشار الأمير ماكس فون بادن. تذكر بشكل قاطع: «*أن القيادة العليا للقوات المسلحة قررت إبلاغ جلالته بأنه لا يمكن أن يعتمد على الجيش للوقوف خلفه في حالة نشوب الحرب الأهلية*». عندما قرأ المستشار البرقية، صاح غاضباً: «هذه هي النهاية!»

18- بالألمانية في الأصل. المترجم.

في مواجهة الوضع المتفجر في بلاده، فكر القيصر بقيادة قواته الموالية في خط الجبهة لمواجهة البحارة المتمردين. لقد أدّت الإهانة التي تسبب بها تمرد أسطوله إلى جرح مشاعره بأكثر مما فعلت به الهزيمة المذلة في فرنسا. قام بعقد اجتماع لمجلس التاج Kronrat في قلعة لافغينوس Château de la Fraineuse في مدينة سبا لمناقشة «القيام بعملية عسكرية في الوطن تحت قيادة القيصر». ومع ذلك، كان جنرالاته يعرفون أن الوقت قد فات. الجيش الألماني الذي كان ذات يوم مصدر فخر قد بدأ يتفكك. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب، بل كان أسوأ من ذلك بكثير. كان الجنود المنتصرون في معارك سيدان وواترلو ولوثن متمسكين حدّ النخاع بالتقاليد البروسية المتمثلة في الطاعة العمياء لقادتهم العسكريين، والآن فإن هؤلاء الجنود أنفسهم يعلنون تمرداً واضحاً، ويعتقلون ضباطهم، ويغلقون الطرق، ويقطعون الاتصالات بين موطن آبائهم وخطوط الجبهة.

صاحب الجلالة، إنه لم يعد تمرداً، إنها حرب أهلية. يسيطر المتمردون على جميع الجسور الرئيسة عبر نهر الراين. لقد هربت معظم قواتنا وانضمت إلى الثوار. بدا للحاضرين أن القيصر لم يكن يدرك خطورة الوضع.

أخيراً، أخذ الجنرال غروينر نفساً عميقاً وقال: «صاحب الجلالة لم يعد هناك جيش».

تقدم القيصر إلى الجنرال وصاح: «صاحب السعادة، أريد أن تكتب لي تصريحكم على قطعة من الورق! أريد أن أقرأ بالأسود والأبيض أن الجيش الألماني لم يعد يتبع قادته (Kriegsher)[19] لقد أقسموا بولائهم لي»!

نظر الجنرال غروينر حوله في الغرفة؛ لم ير سوى وجوه شاحبة فقط. «يا صاحب الجلالة، مثل هذا القسم أصبح الآن مجرد خيال».

19- بالألمانية في الأصل. المترجم.

لم يعد القيصر قادراً على فعل شيء. وألقى باللائمة على كل من حركة التمرد، (التي اعتبرها هجوماً شخصياً عليه كإمبراطور)، وعلى تلك الحكومة الحمراء في برلين، وأولئك الاشتراكيين الديمقراطيين الذين حاكوا مؤامرة لا تهدف سوى إلى الإطاحة به.

في هذه اللحظة رنّ جرس الهاتف. كانت المكالمة من برلين وكان على الخط، الأمير ماكس فون بادن. كان الوضع في العاصمة تسوده الفوضى: «بعد ظهر اليوم، ستقوم مجالس العمال والجنود بإعلان جمهورية بزعامة الشخصية البلشفية كارل ليبكنخت... لقد انضمت جميع القوات إلى حركة التمرد... وحكومتنا بدون سلطة... ليس هناك سوى ثلاثة أفواج فقط لا تزال معنا...». بعد لحظات، أعلنت مكالمة أخرى أن أفواج النخبة الثلاث هذه قد انشقت أيضاً؛ تجمع حشد هائل خارج مقر (مجلس الوزراء) Ministerrat في شارع ويلهلم Wilhelmsstrasse وكان مستعداً في أي لحظة لاقتحام المبنى.

بعد خمس دقائق، كان الأمير ماكس مرة أخرى على الهاتف. «صاحب الجلالة، تمّت الدعوة إلى الإضراب العام. يجب أن تتنازل عن العرش، أو ستغرق ألمانيا في حرب أهلية».

رفض القيصر أن يجيب وأغلق سماعة الهاتف. لا يزال السياسي قصير النظر الذي في داخله يعتقد أن أياً من هذا الذي يحدث لا يمكن أن يمسّ شخصه المهيب. «سنحقق انتصاراً عظيماً»، لم يكن يخاطب شخصاً معيناً على وجه الخصوص، وهو يتمعن في خريطة للوحدات العسكرية التي لم تعد موجودة، أو كانت مشاركة في تمرد مفتوح. «يجب أن نضع المزيد من الرجال هنا...». نظر الموجودون من حوله إلى بعضهم البعض بصمت.

مرت بضع دقائق، ورنّ الهاتف مرة أخرى. كانت صرخة من الذعر قادمة من برلين. «يا صاحب الجلالة، إنها مسألة دقائق. إنني أتوسل إليك ...».

أجاب فون شولنبرغ على الهاتف. «لا يمكن اتخاذ مثل هذه الخطوة

المهمة على عجل. يقوم صاحب الجلالة بصياغة مذكرة ويجب أن تكون بين يديك خلال ثلاثين دقيقة».

...«سيكون ذلك متأخراً جداً...».

بدا فون شولنبرغ وهو يتوسل بقيصره. سرت رعشة بين أتباعه المقربين عند رؤية حالة الملك العصبية، فمه المرتعش وعينيه المتعبتين. جعل دوي خفيف صادر من مدفعية بعيدة كؤوس الخزف الرقيقة ترتعش. وأخيراً، غادر القيصر المجموعة المحيطة به وتوجه إلى مكتبه للكتابة. «أنا على وشك أن أفقد إمبراطوريتي»، واصل فيلهلم المسير وهو يغمغم، وغالباً مع نفسه، قبل أن يجلس لصياغة برقية تعلن قراره بالتخلي عن لقبه كقيصر ألمانيا. ومع ذلك، أضاف شرطاً أخيراً: «سنحتفظ بالتاج باعتباري ملك بروسيا». لم يسمح له غروره بقبول مزيد من الإذلال. لم يعد قيصراً، ولكنه سيظل ملكاً.

في برلين كان الوضع قد خرج عن السيطرة تماماً. مع الآلاف من المتظاهرين الذين يهتفون من أجل أن يتنازل القيصر عن عرشه وحشد غاضب على وشك انتزاع السيطرة من الحكومة المنتخبة قانوناً، وهو عمل سينتهي بمأساة كبيرة، إن الأمر يتطلب اتخاذ خطوة جريئة لإنقاذ ما تبقّى من ألمانيا من مرارة حرب أهلية دموية. لحسن حظ البلاد، كان هناك رجل مستعد لاتخاذ مثل هذه الخطوة. حتى قبل أن تصل برقية القيصر إلى برلين، ظهر ماكس فون بادن على شرفة مبنى الحكومة Wilhelmsstrasse. استغرق الأمر عدة دقائق قبل أن يتمكن من إسكات الغوغاء من خلال التلويح بذراعيه.

«Seine Kaiserliche Majestät hat abgedankt لقد تنازل صاحب الجلالة عن العرش».

تفاجأ الحشد للحظة وبقي ساكناً. وكرر ماكس فون بادن هذا الإعلان: «Seine Kaiserliche Majestät hat abgedankt... لقد تنازل صاحب الجلالة عن العرش».

ارتفعت أصـوات الحشد المتجمع في مبنى الحكومة وبدأت

الهتافات. بدأ الناس يحتضنون ويقبّلون بعضهم البعض، ويصيحون: «لقد رحل القيصر ويلي، انتهت الحرب...».

ولمنع المزيد من إراقة الدماء، اتصل المستشار بوكالة أنباء وولف ليبلغها رسالة تقوم بإذاعتها فوراً:

قرر القيصر الألماني والملك البروسي التخلي عن العرش. سوف يبقى المستشار في منصبه للتعامل مع أي قضية تتبع قرار القيصر، وسوف تُحَلّ قضية حقوق ولي عهد الإمبراطورية الألمانية وبروسيا في العرش.

ثم أدرك ماكس فون بادن أنه ليس لديه الحق في إرسال مثل هذه الملاحظة دون أن يتناقش أولاً مع قيصره، لكن سير الأحداث لم يترك له أي خيار. في مدينة سبا كان الوقت يشير الآن إلى الساعة 2.30 بعد الظهر. وأرسلت أخيراً برقية القيصر. مرت بضع دقائق. ثم وصلت رسالة من برلين. كانت قصيرة وواضحة وأجابت على رسالة القيصر السابقة:

«الوقت متأخر جداً، لم يعد الأمر يحتمل أكثر من ذلك. لقد أبلغ المستشار الناس بالفعل أن القيصر تنازل عن العرش وأن الأمير ماكس سيكون وصياً على العرش وأن نائبه إيبرت سيكون المستشار الجديد».

«خيانة!» صاح القيصر، عندما وصلت نسخة من برقية بادن إليه. وأصبح وجهه شاحباً. وبدأت قطرات كبيرة من العرق تنهمر على جبهته. «إنها الخيانة العظمى الخسيسة!» ثم أملى سلسلة من الرسائل المتناقضة. ولم يكن هناك جدوى منها. كان الجنرالات يعلمون أنه كان من غير الوارد أن يبقى القيصر حتى ملكاً لبروسيا. وفي تلك الأثناء كان زعيما عصبة سبارتاكوس كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ قد اقتحما القصر الملكي في برلين.

أصاب الذعر الحزب الاشتراكي بقيادة فريدريك إيبرت. لم يكن أعضاء الرايخستاغ (البرلمان) ذا اتجاه واحد؛ بدأ العديد من الاشتراكيين الآن يتحركون وسط الغوغاء الهائجين في ممرات البرلمان، حيث اصطفوا إلى جانب أعدائهم السابقين أعضاء عصبة سبارتاكوس

(الشيوعيين)، الذين قاموا بملء ساحة المعركة في البرلمان بالشعارات الثورية. علت الضوضاء داخل القاعة الفخمة. قام فيليب شايدمان، وهو وزير دولة في مجلس الوزراء الذي يترأسه ماكس فون بادن ونائب عن الحزب الاشتراكي- بتسلق السلم الرائع للمبنى الفخم، وهو السلم المخصص للزيارات التي يقوم بها صاحب الجلالة الإمبراطور. ومن أعلى السلم أعلن بلهجة فخمة «Brüder, das deutsche Volk hat auf der ganzen Linie gesiegt. إخوتي، لقد انتصرت الأمة الألمانية». وتلا بيانه هتافات ترحيب كبيرة من مندوبي اليسار. رفع شايدمان، الذي كان مأخوذاً بجو الإثارة في تلك اللحظة، ذراعيه وساد الصمت في القاعة. وبجملة واحدة قذف نفسه في كتب التاريخ. «Ich erkläre hiermit die Deutsche Republik!... أعلن هنا قيام الجمهورية الألمانية»! كسر أعضاء الرايخستاغ الصمت بهتافات متشنجة، مختلطة مع بعض الصيحات المسيئة. ساد شعور بالارتياح لدى أغلبية المندوبين لأن الحرب انتهت أخيراً. ضرب النواب طاولاتهم وخبطوا الأرض بأقدامهم. أما أولئك الذين كانوا يسيطر عليهم في السابق الشعور بالخوف من ملك أوتوقراطي فقد تركوا لأنفسهم العنان لتنخرط في موجة من المشاعر الفياضة وتعالت هتافاتهم «Lang lebe die Republik Deutschland! عاشت الجمهورية الألمانية»! أولئك الذين كانوا قد أظهروا بعض من شرارة الولاء لقيصرهم قبل دقائق فقط، تخلوا الآن وعلى عجل عن الملك المحطم. بعد أكثر من خمسة قرون، تمّ خلع سلالة هوهنزولرن عن الحكم. أصبحت الملكية الألمانية شيئاً من الماضي. «Lang lebe die Republik Deutschland! عاشت الجمهورية الألمانية».

في حين أن هذه الأحداث الخطيرة وقعت في برلين، كان الوضع داخل أوساط حاشية القيصر في مدينة سبا يسوده الارتباك المطلق. وقد أُبلغوا بأن جسور نهر الراين كانت تحت سيطرة الجنود الذين يحملون العلم الأحمر وأن جميع الطرق المؤدية إلى برلين قد قُطعت من قبل

كتائب المتمردين؛ وأن معارك دامية في الشوارع قد اندلعت بين وحدات الشرطة الموالية للحزب الاشتراكي المحافظ. ولم يُفرَج عن السجناء المنتمين إلى عصبة سبارتاكوس فحسب، بل أُطلق سراح جميع السجناء السياسيين، وكانت من بينهم روزا لوكسمبورغ. كان الجميع يقاتل على أنقاض إمبراطورية هوهنزولرن. في الرايخستاغ، صوّت البلاشفة لصالح إقامة دولة للعمال على الطريقة الروسية à la Russe[20]، بينما اختار الاشتراكيون البارزون الجمهورية البرجوازية المعتدلة.

لم يعد هناك قائد أعلى للجيش الألماني. قال هيندنبورغ للقيصر: «بصفتي جنرالاً بروسياً، لا يمكنني تحمل مسؤولية رؤيتك وقد أُلقي القبض عليك من قبل قواتك الخاصة وتُقتاد للوقوف أمام محكمة ثورية». وكان من الواضح أن القيصر قد يلاقي مصير الحكام المخلوعين الآخرين. لم يعد هذا تمرداً بل ثورة.

وقف فيلهلم منتصباً، كما لو كان يحدق من أعلى ارتفاع وهو على ظهر أحد خيوله، وقد اتسع منخراه قليلاً، وتدفق الدم إلى وجنتيه. كان احتقاره لمثيري المشاكل في عاصمته البغيدة ليس له حدود. وكذلك كان غضبه من عدم قدرته على منع جنرالاته من وضعه في موقف سخيف. «هل تعتقد حقاً أنني أخشى البقاء مع قواتي؟».

كان تعبير هيندنبورغ جاداً: «ليس لديك المزيد من القوات، يا جلالة الملك. أدعو من الله أن يكون الأمر مختلفاً».

كان القيصر فيلهلم يقف في موقعه المفضل، جاداً وطويل القامة، وكانت قدمه اليمنى في حذائه المصقول ممدودة إلى الأمام قليلاً، وكأنه على وشك أن يخطو إلى الأمام ويُخضع العالم لسطوته. لكن شيئاً في داخله قد تغيّر. وقد قبل أخيراً بالوضع القائم، وأصبح الآن في الحالة نفسها من التعب التي تغلبت على العديد من القادة في لحظة أزماتهم. بات يتذكر أيام المجد العظيمة، والاستعراضات الرائعة في برلين، وزيارات الملوك،

20- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

وحين كان رجال بلاطه ينحنون ويركعون أمامه. وهو يتقدم الاستعراض العسكري الذي تزينه الأعلام أمام عمود النصر (Siegessäule)[21] في برلين الذي يرمز لانتصار عمه فيلهلم الأول على فرنسا في عام 1871. والجادات الواسعة التي كانت تصطف على جانبيها الأعلام المرفرفة وهتافات سكان برلين؛ والخطوات العسكرية الدقيقة لجنود كتائبه البروسية. لا بدّ أن يكون قد خطر في باله لأول مرة أنه قد تسبّب في ارتفاع دخان الأجساد المحترقة من فوهات حفرات القذائف، وتعفن أجساد الرجال الذين، عندما كانوا أحياء، أقسموا الولاء الأبدي للقيصر والرايخ والذين كانوا قد حاربوا وجثوا على ركبهم وصلوا وماتوا في الميادين والخنادق المفتوحة... أثبتت الذكريات أنها مؤلمة للغاية. كانت عباءة الليل قد خيّمت على إمبراطوريته. يا للبؤس الذي لا ينتهي الذي جلبه على شعبه. لا يمكن لأي أمة البقاء على قيد الحياة وسط مثل هذا الدمار. لا يوجد ملك مهما بلغ من قوة محصناً ضد غضب شعبه أو ذل الهزيمة. ومن دون أن يقول كلمة أخرى، خرج فيلهلم الثاني، القيصر السابق لألمانيا، من الغرفة لإبلاغ ولي العهد بنيته الذهاب إلى المنفى في هولندا.

كان قطاره ينفث بخاره وسط ظلام اليوم الأخير من الحرب. أمره بالتوقف في مدينة لياج. تسبّب القلق بشعوره بالبرد أكثر مما فعل برد الليل. توقف للحظة في مدخل عربته الإمبراطورية كي يغلق أزرار معطفه الرمادي، وكأنه يلف نفسه بعناية بغطاء من الأمان. عندها فقط نزل من القطار. على الرغم من كل الضجة التي كانت تسود برلين، كانت لياج مدينة ميتة في هذا الوقت من الليل. اضطر مساعده، سيغورد فون إيلزمان، إلى اقتراض مصباح بنزين من المسؤول عن المحطة لإضاءة الطريق للقيصر عند سيره عبر باحة القطار وخارج المحطة. ولأول مرة في حياته، وقف القيصر الألماني وحده في شارع مهجور، دون وجود حشود تهتف له.

21- بالألمانية في الأصل. المترجم.

توقفت سيارتا ليموزين. ركب فيلهلم في الجزء الخلفي من السيارة الثانية وسُلّمت له بندقية محشوة. أثناء مروره بمركز مدينة لياج، رأى القيصر مدينة مثل كل المدن الأخرى التي دخلتها جيوشه المنتصرة. كانت الجدران مغطاة بفتحات الرصاص، والمداخن تقف مثل شواهد القبور بجانب أنقاض المصانع المنهارة. بين الأنقاض كانت هناك بعض المقابر التي أُقيمت على عجل مع صفوف متجاورة من الصلبان البيضاء، كلها تشهد على أيام الصيف الحارة لشهر آب 1914. هل كان ذلك قبل أربع سنوات فقط؟ ... نعم، أربع سنوات فقط، تلك التي غيّرت العالم وجلبت الموت للملايين. بعدها أصبحوا خارج المدينة، كانت المصابيح الأمامية تتراقص مثل الأشباح حتى الطريق الطويل والمستقيم الذي يؤدي إلى الشمال. بعد أن انحنى الطريق، وصلت القافلة المؤلفة من سيارتين إلى قرية صغيرة وجسر خشبي ضيق. فجأة بدأت تلوح في الأفق أمام سياراتهم أشكال لرجال تؤشر لهم بالبنادق. كان ذلك حاجزاً. توقفت السيارة التي في المقدمة بسرعة مما نجم عن توقفها زعيقاً عالياً فيما أحاط رجال يرتدون الخوذات الفولاذية وملابس القتال الرمادية بالسيارات. لحسن الحظ كانت الوحدة لا تزال تظهر الطاعة للجنرال، لذلك تمكن الجنرال فون فولكنبرغ من شقّ طريقه.

انقضت ساعة أخرى. وصلت السيارتان أخيراً إلى سلسلة مزدوجة من الأسلاك الشائكة، والتي امتدت بعيداً. على الجانب الآخر كانت تقع هولندا المحايدة. على ضوء المصابيح الأمامية ظهر حاجز آخر، يحرسه رجال من إحدى وحدات الجيش البافاري، خبت آمال القيصر عندما شاهد راية حمراء مربوطة بعمود مغروس في الأرض. وسط الضوء الصادر من كشاف الخندق الذي أعمى كلا السائقين، وجّه الجنود بنادقهم نحو السيارتين. وعلى النقيض من الحاجز السابق، كان هؤلاء الرجال يهتمون كثيراً بالقافلة، خاصة عندما اكتشف أحدهم آثار شعار

الإمبراطورية على باب السيارة. سار العريف (Feldwebel)[22] إلى الأمام مع مسدس في يده. كان على الأغلب في الرابعة والعشرين من عمره، لكنه بدا أكبر من خمسين سنة، مع وجه لفحته الشمس وأيدٍ كانت حمراء جرّاء العمل الشاق. أرخى قبضته بثبات على عقب مسدسه. وقال «Das sind Offiziere هؤلاء ضباط»، قال أحد رجاله بلهجة بافارية ثقيلة، «وفارون جبناء feus ausreisser»، وشدّد أصبعه على الزناد بينما أشار مسدسه مباشرة إلى رأس الجنرال فون فالكنبورغ. لوّح له العريف بالتحرك وأدخل رأسه من خلال نافذة السيارة: إلى أين أنت ذاهب. «Wohin willst Du»[23] بدون أن يحييه بعبارة، سيدي الجنرال «Herr General»، واكتفى بكلمة «Du» المألوفة المستخدمة بين الجنود العاديين.

في السيارة الثانية، كانت أصابع القيصر التي شحبت تلتف حول بندقيته. كان يتنفس بصعوبة. ويترقب ما يمكن أن يحدث وهذا جعله ينتفض بعصبية. هل سيجرؤون على وضع أيديهم على شخص مقدس مثل قيصرهم؟ كان صمتهم أكثر إزعاجاً مما لو صاحوا بغضب.

همس بصوت مرتعش: «ماذا سيفعلون بنا؟».

«دعنا نأمل أن يسود الحس السليم»، همس إيلزمان وهو على حافة الذعر، وقد تبخر فتوره بسرعة.

حضر المزيد من الجنود من الخلف، قاطعين بذلك كل تراجع محتمل. أدرك فيلهلم أنه قد ضاع. كان يجلس هناك محاصراً، رأى أن الكابوس قد وصل إلى نهايته، وكان هو نفسه المسؤول الوحيد. تخلل الشعور بالهزيمة كل نواحي جسده. ربما في أي لحظة من الآن، سيتعرف العريف على الوجه الذي كان يحدق به من خلال آلاف الصور الفوتوغرافية والأوراق النقدية. وقبل أن يُمنح العريف فرصة التعرف على ركاب السيارة الثانية، قفز الجنرال فون فالكنبرغ من المركبة التي

22- بالألمانية في الأصل. المترجم.

23- بالألمانية في الأصل. المترجم.

في المقدمة. بانت شرائطه الحمراء بوضوح في الأضواء الساطعة. وصاح كأنه يصدر أمراً:«ما معنى هذا Was soll denn das ؟».

نجح صوته السلطوي في تمرير الخدعة. لم يعرف الجنود الذين حاصروا سيارته في البداية كيف يتصرفون، حتى رفع العريف يده ببطء، وأدى التحية لضابطه الأعلى الذي صاح في وجهه: «الجنرال فون فالكنبرغ في مهمة عاجلة في طريقه إلى هولندا». كانت خدعة جريئة، لكن الجنرال اعتمد على الطاعة العمياء المتأصلة في كل جندي ألماني. وقد ثبت أنه على حق تماماً. كان العريف ألويس ميترماير من كتيبة الجيش البافاري 193، وهو جندي كان قد خاض في الجحيم لأربعة أعوام طويلة، وأصبحت نظراته متجمدة لا روح فيها ولا أمل، حاله حال أي جندي عادي، قد وقف في حالة استعداد ورفع يده بموازة خوذته الفولاذية Stahlhelm وأدّى التحية العسكرية: تمام «Jawohl سيدي الجنرال الطريق من هنا».

تبع ذلك الأمر التالي: «ارفعوا الحاجز Schranken auf». بدا أن العريف يدرك إلحاح الجنرال؛ كان قد سمع إشاعة عن التوقيع الوشيك على الهدنة وتصور أن راكبي السيارتين يمثلون الوفد الألماني قائلاً: «هؤلاء هم أعضاء برلماننا».

قفز الجنرال فون فالكنبرغ وصعد في المقعد الأمامي حيث لوحة تشغيل السيارة التي في المقدمة وتوجّه إلى السائق قائلاً بهمس عال: «والآن اعبر الحدود بأقصى سرعة، ولا تتوقف مهما يحدث». كان القيصر لا يزال بحال من الارتباك والصدمة ولم يعرف ما الذي حدث للتو.

لقد شعر فقط بسيارته وهي تزيد من سرعتها وهي تمرّ من أمام الرجال ذوي الخوذات الفولاذية والبذلات ذات اللون الرمادي. رُفعت العارضة المخططة، واستراح فيلهلم الثاني في مقعده، وحيّا العريف البافاري السيارات المارة. كانت آخر تحية عسكرية للقيصر الألماني يوجهها جندي ألماني.

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الحادي عشر من الشهر

الحادي عشر، في السنة الميلادية 1918، صمتت المدافع وتوقف الموت. أينما كان يلتقي الألمان ببعضهم البعض، كانوا دائماً يطرحون السؤال نفسه: كيف يمكن لأمة، منتصرة في مائة معركة، أن تخسر الحرب؟ تمّ تقديم الجواب قبل قرن من ذلك التاريخ، من قبل نابليون: «في مواجهة تفوق ساحق، يمكن للمرء أن يربح العديد من المعارك، ولكنه لن يكسب حرباً أبداً».

لم تزل هناك مشكلة الإرث السياسي داخل ألمانيا. كان من الواضح أن القوى العظمى التي قاتلت لإسقاط القيصر لم تكن في حوزتها أبداً أية فكرة عن أسنان التنين التي زرعتها بمطالبتها باستسلام غير مشروط. لقد أذلّوا أمة فخورة بنفسها وبقيامهم بذلك فقد خلقوا وحشاً. لكن هذا سيأتي لاحقاً. ما يهم الآن هو أن المدافع قد صمتت في نهاية المطاف وأن الحرب الرهيبة قد انتهت، ولكن سفك الدماء لم ينتهِ: كانت حرب جديدة تلوح في الأفق في ألمانيا حيث تسلحت الطبقة العاملة بالإضافة إلى الجنود المتمردين. النضال من أجل السلطة جعل الحرب الأهلية حتمية. في الحرب، تُعرف العوامل الحاسمة. في الصراع الأهلي، لا يكون أكبر حزب دائماً هو صاحب أكبر تأثير. ومن ثم فإن العوامل الأخلاقية والفكرية تلعب دوراً أكبر بكثير مما تلعبه في الحرب، عندما تُدَمَّر أسس المجتمع فإن رد فعل الجماهير يمكن أن يكون مليئاً بالمفاجآت.

في 9 تشرين الثاني، جاء في المقال الافتتاحي للعدد الأول من الصحيفة الجديدة العلم الأحمر، Die Rote Fahne، التي كتبها كارل ليبكنخت: «أيها العمال والجنود. لقد حانت ساعتكم... عاشت الأممية! Es lebe die Internationale![24] عاشت عصبة«سبارتاكوس»». حدّد المقال الافتتاحي عدداً من النقاط: التخلص من السلالات الحاكمة؛ تشكيل مجالس الجنود والأمر العاجل: إجراء اتصالات مع البروليتاريا العمالية الروسية. حقّق المقال تأثير الصدمة المطلوب. منذ

24- بالألمانية في الأصل. المترجم.

تلك اللحظة وصاعداً، بدأ كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ يتحدثان من شرفات الشوارع، وفي باحات المصانع، والساحات العامة، وحتى في ثكنات الجيش. وكان الآلاف يهللون لخطبهم المثيرة. في 22 كانون الأول 1918، عُقدت جلسة خاصة للأعضاء السبعة للجنة التوجيهية في عصبة سبارتاكوس. لقد حان الوقت لاتخاذ قرار بشأن العنوان الدائم لحزبهم الجديد. كان اسم سبارتاكوس رمزاً جيداً للتحدي، لكنه لم يكن مناسباً لتشكيل سياسي دائم. كان اختيار روزا لوكسمبورغ هو الحزب الاشتراكي «Socialistiscische Partei»، ولكن ليبكنخت وثلاثة أعضاء آخرين في اللجنة صوّتوا لصالح تسمية الحزب الشيوعي الألماني «Kommunistische Partei Deutschland»[25]. وكما ثبت بشكل واضح، توقعت روزا لوكسمبورغ المشكلة التي قد يخلقها الاسم، وحذّرت من أنه يرتبط بشكل سافر مع حكومة لينين في روسيا.

لم تكن هذه المعركة تدور حول رمزية الاسم فقط؛ بل كانت تحوي فتيلاً بطيء الاشتعال، والذي سينفجر حتماً في وجوههم. عُقد المجلس التأسيسي للحزب الجديد (KPD الشيوعي)، المكون من ثلاثة وثمانين عضواً من عصبة سبارتاكوس، وتسعة وعشرين عضواً من الاشتراكيين الراديكاليين، وثلاثة أعضاء من مجلس الجنود الأحمر. صدم البلشفي كارل راديك المجتمعين عندما عرض تبني توجيه تحية للحزب البلشفي الروسي. اعتبرها المندوبون نوعاً من الإذلال وكان ردّهم: «نحن ألمان، ولسنا روساً». بعدها، نهض المندوبون ليتهيؤوا لمغادرة القاعة. ولأجل وقف الكارثة، قفزت روزا من مقعدها وهرعت إلى منصة المتحدثين. وتمكنت من تهدئة المندوبين عندما بدأت تتحدث عن «برنامجنا والوضع السياسي في ألمانيا». وأصبح خطابها أبرز ما في حفل التأسيس عندما شدّدت على أهمية الحصول على دعم الجماهير البروليتارية:

25- كانت هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها اسم الشيوعي للحزب، وحدث ذلك قبل أن يتبناه الحزب الشيوعي السوفييتي بعشرين عاماً.

العمال والفلاحين والجنود الذين عادوا من الحرب. «إن الكفاح من أجل الاشتراكية ممكن فقط من خلال دعمهم. علينا محاربة الرأسمالية من داخل المصنع والريف. لا يمكن بناء الاشتراكية بمرسوم. فحيثما أقامت الرأسمالية قيود الاضطهاد، فإن هذا هو المكان الذي يجب كسر القيد فيه. ما هو سلاحنا لتحقيق ذلك؟ الإضراب! يجب أن تنتقل أساليب العمل في الاقتصاد إلى صدارة نضالنا». ثم أوضحت أنها ليست على وشك اتباع المثال الذي قام به البلاشفة في روسيا. «كانت الثورة التي قادها رفاقنا في روسيا مختلفة. لم يواجهوا المشاكل نفسها التي يجب أن نواجهها. كان نضالنا ويجب أن يبقى ألمانياً. وينبغي أن يظل حزبنا ألمانياً».

كان هذا الخطاب آخر عمل لها في العلن. لقد عملت بجد، في كتابة المقالات، وترؤس الاجتماعات، ومواجهة السياسيين والمتطفلين على الحزب. أثبتت روزا أنها تمتلك نشاطاً وحيوية وقوة أعصاب شديدة. بدا كما لو أن سنواتها في السجن خزّنت طاقة فائضة في هذه المرأة النحيلة. لكن كل هذه الثقة بالنفس لم تكن إلا ظاهرية: فبعد كل ظهور علني، كانت تعاني أكثر فأكثر من الصداع ونوبات القيء. لقد أمضت ليلة رأس السنة مع كارل ليبكنخت الذي قدم لها صحبة مسلية. في الأيام الأولى من كانون الثاني 1919، كانت روزا تجوب الشوارع في أغلب الأحيان لتشعر بنبض الحشود، سواء كمشاركة أو متفرجة. سرعان ما أدركت أن الغالبية العظمى منهم لم تكن تفهم ما هي الثورة.

للمرة الأولى، توحّدت الجماعات الراديكالية الثلاث الرئيسة وشكلت مجلساً ثورياً، لكن دور المجلس لم يكن واضحاً في النضال للحصول على سلطة البروليتاريا. واعتمد على الدعم المسلح لجزء من فرقة فولكسمارين تحت قيادة دورّينباخ. وبحسب ذلك البحّار السابق، فإن جميع القوات، بما في ذلك تلك الحامية المتواجدة على مشارف برلين، على استعداد للاندماج معاً وإسقاط الحكومة الاشتراكية. أثبت تقييم دورّينباخ أنه متفائل بحماقة. كان تفكير روزا متجهاً على الدوام للوسائل السياسية.

واعتبرت أنه في نهاية المطاف، فإن اندفاع الجماهير، التي يمكن تنظيمها، وتوجيهها، وترشيد طاقتها، سيكون في حدّ ذاته كافياً لإحراز النصر. لكنها كانت مقتنعة أيضاً بأن موعد الانتفاضة، التي يمكن إذا لزم الأمر أن تدعم بالرصاص والحراب، لم يأت بعد. أفضل ما كان يمكن أن يأمله هو الاستيلاء على السلطة في برلين. وكانت أمام معضلة حقيقية: لم يكن حزبها الجديد يمتلك الأعداد اللازمة لمثل هذا العمل الضخم، ولا وسائل كسب الجماهير إلى جانبه. لكن روزا لم يكن لديها خيار آخر سوى البقاء مع العناصر الثورية ومشاركتها النصر أو الهزيمة. كتبت ماتيلدا جاكوبس، رفيقتها، «أعيش مع روزا وأحضرها كل ليلة من المحطة. وجهها محفور بخطوط عميقة. إنها متعبة ومرهقة، ولكنها تتعافى سريعاً عندما أجعلها تتناول فنجاناً من الشيكولاتة، وهي نادرة في هذه الأيام حيث نحصل عليها من رفاقنا البلاشفة في السفارة الروسية». لقد أدى ذلك إلى انتشار القصة التي تقول إن معظم الأموال لشراء الأسلحة جاءت من روسيا بواسطة السيد يوف سفير الحكومة البلشفية في برلين[26].

كان السبب وراء الأحداث التي وقعت في برلين في كانون الثاني 1919 سلسلة من الحوادث غير المتصلة. وكان المستشار فريدريك إيبرت قد دعا إلى إجراء انتخابات عامة في 19 كانون الثاني. وأجبر قائد الشرطة على التنحي. غمرت المظاهرات الضخمة التي نظّمها العمال المضربون شوارع برلين. وفي ثقل موازن للعمال المضربين، ظهرت ميليشيات الجمهورية المتطرفة، التي عادت مؤخراً من المذابح على الجبهة الغربية والمتمرسة جيداً بالقتل، تحت القيادة الكاملة للجنرال فون لويتويتز. وكانوا يطلقون على أنفسهم الفريكوربس لقد تمّ جرّ الحزب الشيوعي الناشئ إلى دوامة العنف من قبل المتطرفين الجامحين. إذا حدث صراع مفتوح، فسيضطر الثوار، الذين تكتلوا جميعاً مع عصبة سبارتاكوس، إلى مواجهة بنادق الفريكوربس الجمهوريين. وبينما كانت

26- عن: E. Bernstein, Die Deutsche Revolution.

كل هذه المناورات تجري، تردد اشتراكيو الوسط والمستشار إيبرت إلى أن أصبحت الأمور في نهاية المطاف خارج نطاق السيطرة.

كان إميل آيخهورن، قائد الشرطة في برلين، قد عمل ذات مرة في وكالة أنباء روسية، وكانت صحيفة فورواتس قد وصفته بأنه عميل بلشفي. ما بدأ كسلسلة من المقالات تحول إلى ما عُرف بحادث آيخهورن، وكان ردّ فعل صحيفة العلم الأحمر Die Rote Fahne مع الهجوم على قائد الشرطة، بدأ الهجوم على الحركة الثورية الألمانية. أخرجوا إلى الشوارع من أجل تنظيم مظاهرة قوية تعبر عن إرادة الشعب... كان ذلك كل ما هو مطلوب لجعل المرجل يصل إلى درجة الغليان.

بدأ «أسبوع سبارتاكوس» في 5 كانون الثاني 1919. نشرت صحيفة العلم الأحمر دعوة روزا لوكسمبورغ إلى العصيان المدني. في أكبر مظاهرة شهدتها العاصمة الألمانية على الإطلاق، خرج مئات الآلاف إلى الشوارع. حاول حزب الوسط الاشتراكي(MSPD) حلّ التوتر بطريقة سلمية، لكن الحزب الشيوعي الألماني (KPD) أصدر أمراً آخر بتوقيع روزا لوكسمبورغ: «لا تتحدث! لا تتفاوض! اعمل فقط»، اقتحمت بعض الجماعات مبنى صحيفة إلى الأمام Vorwärts وطبعت صحيفتها الخاصة، التي طالبت بالقضاء على «الخونة إيبرت وشايدمان وبالقوة إذا لزم الأمر!» في اليوم نفسه، قرّر المجلس الثوري -وقد أبهره الإقبال الكبير على الدعوة إلى الإضراب- إسقاط الحكومة من خلال الدعوة إلى تمرد مفتوح. جاء قراره هذا على الرغم من عدم يقينه من موقف ذراعه العسكري، المتمثل بفرقة فولكسمارين، التي لم تعط أي ضمانات بأنها ستنضم إلى الانتفاضة. لقد انكشفت خطة المجلس، مما سمح للمستشار فريتز إيبرت بالعمل، وبحماس في هذه المرة. تحركت القوات الموالية للحكومة في برلين. رفض أعضاء عصبة سبارتاكوس التخلي عن خطتهم للانقلاب المسلح. تمّ تجهيز البنادق ونقل المقاتلين إلى المتاريس.

كتبت روزا لوكسمبورغ مذكرة متوترة لوقفهم، مجادلة بأنه «يتمّ

تجاهل القواعد الأساسية للعمل الثوري». حتى كارل راديك، المتطرف البلشفي الذي لم يكن يتحاشى أبداً العمل العدواني، طالبهم بأن يوقفوا هذه الحماقة. لم يستمع المجلس الثوري الثلاثي لهم، ولم تُترك روزا لوكسمبورغ أمام خيار آخر سوى الانضمام إلى التمرد. كان سببها بسيطاً: فقد أدركت أن المرء لا يستطيع استخدام جماهير الشعب في وضع معين وفي اليوم التالي، يستخدم الجماهير نفسها ويتخلى عنها مرة أخرى. وصدر الأمر القاتل إلى كوادر عصبة سبارتاكوس: «سنقاتل جنباً إلى جنب مع إخواننا الثوريين عندما ينطلق العمل الثوري». الآن سيتدفق الدم ولا يمكن لأي شيء أن يوقفه.

لا يُعرف سوى القليل عن تحركات روزا لوكسمبورغ أو مكان وجودها في الأيام الدموية التي تلت ذلك. كانت برلين مشغولة للغاية في محاولة البقاء على قيد الحياة، فلم تكن مهتمة لامرأة صغيرة وتسريحة شعرها. منذ اللحظة التي بدأت فيها الأحداث، أصبحت روزا لوكسمبورغ متفرجة منقطعة الصلة، تلاحظ من على جانب خط التماس «Götterdämmerung»[27] لكل ما كانت تؤمن به. ليس من المؤكد ما إذا كانت على علم بالخطر القاتل الذي كان يحيط بها سواء من خصومها المتطرفين أو من اليونكرز[28] البروسيين على قدم المساواة، أو ما إذا اختارت ببساطة تجاهلهما. وفي 11 كانون الثاني، كتبت رسالة إلى أقرب صديقاتها، كلارا زيتكين: «لقد مات العديد من أبنائنا الشجعان. اليوم يجب أن أقول وداعاً». كانت تلك هي وصيتها.

في أعقاب الاستيلاء غير الدموي على صحيفة فوروارتس Vorwärts، دعا المجلس الثوري إلى التصويت على القيام بتمرد مسلح، وهو اقتراح تبنته الأغلبية. بدأ صدى الرشاشات يتردد في شوارع برلين. كانت المشكلة

27- شفق الآلهة (وهي أيضاً اسم أوبرا من تأليف فاغنر) ويشير فيها المؤلف إلى أمور المجد. المترجم.

28- لقب كان يطلق على الإقطاعيين الأثرياء في بروسيا. المترجم.

مع هذا المجلس الثوري هو عدم أهليته البائسة. وفي 6 كانون الثاني، أصدر إعلاناً، انتهى بـ: «المجلس الموقَّع أدناه تولى شؤون الدولة». لم يكن هذا صحيحاً: كان المستشار إيبرت لا يزال في السلطة، على الرغم أنه حاول بشدة. أصدر بياناً صاغه بذكاء، دعا فيه غالبية الألمان المخلصين لدعم الحكومة المنتخبة: «أيها المواطنون، لقد أعلن قادة سبارتاكوس نهاية الحكومة الشرعية؛ وستكون أعمال القتل والحرب الأهلية الدموية وسيلتهم لتأسيس ديكتاتورية حمراء. وسيكون انتشار الفوضى والجوع هو النتيجة». استمع الألمان الموالون وتغيّر المد. حدث الشرخ الأول في الوحدة الثورية عندما اختارت فرقة فولكسمارين البقاء في ثكناتها. مع ذلك، تحسن الموقف العسكري للحكومة بسرعة. لقد تغاضى الثوار عن أهمية الاستيلاء على مبنى واحد يرمز إلى السلطة في ألمانيا، وهو الرايخستاغ. قام أربعون فرداً من الموالين غير المسلحين بالحصول على بعض الأسلحة، وأغلقوا أبواب الرايخستاغ، وقاموا أيضاً بملء بوابة براندنبورغ بالرجال، مما أغلق المحور الرئيس عبر العاصمة (كما حدث عند إقامة جدار برلين سيئ السمعة بعد ذلك بسنوات). واندلع القتال: أُطلقت رشاشة النار من خلف الركائز بينما كان الرصاص يضرب المنحوتات الموجودة فوق بوابة النصر العملاقة. اندلع المزيد من القتال حول محطة أنهايتر للنقل العام. في هذه المناوشات الافتتاحية عانى كلا الجانبين من خسائر فادحة.

بحلول 8 كانون الثاني، أصبح من الواضح أن إيبرت كان على استعداد لاستخدام التكتيكات العسكرية العدوانية للسيطرة على الوضع. أصدر أمراً في ذلك اليوم: «يا أبناء وطني، إن عصبة سبارتاكوس تقاتل من أجل الحصول على السلطة المطلقة! لقد اتخذت الحكومة جميع التدابير اللازمة للقضاء على تهديدات هذا النظام الإرهابي. ساعة الانتقام قريبة». اندفع المجلس الثوري إلى ما يفوق قدرته، وتمّ حله في 9 كانون الثاني. حينها، اتخذ إيبرت قراراً بإلزام الوحدات الموالية

باقتحام المباني التي لا تزال في أيدي المتمردين. خلال ليلة 10-11 كانون الثاني، بدأ فوج مايشيفير نشاطه في المنطقة التي تضم المؤسسات الصحفية. اندلع قتال عنيف للاستيلاء على مبنى صحيفة فوروارتس Vorwärts. كانت مكاتب التحرير التابعة لها موجودة في مصنع حوّله الثوار إلى حصن هائل. قاد العقيد راينهاردت والرائد ستيفاني الهجوم. كان المبنى محاطاً بقوات. تمّ نصب ثلاثة مدافع من طراز هاوتزر من عيار 105 ملم ونصف دزينة من رشاشات من طراز سبانداو. أطلقت الرشاشات نيرانها في البداية، تلتها المدافع الثقيلة. وفُتِحَت ثقوب كبيرة في جانب المبنى حيث تدفقت نيران المدافع الرشاشة من خلال فتحات صغيرة من وسط أكياس الرمل. ورد المتمردون بإطلاق النار واستمروا لمدة ساعتين. وأخيراً، حاولوا التفاوض على وقف إطلاق النار. وطالب الرائد ستيفاني باستسلامهم غير المشروط: فقد تلقى بالفعل أوامر محددة من قائد قوات الفريكوربس لإطلاق النار على جميع الثوار المحتجزين عندما يكونون خارج نطاق السيطرة. لم يوافق أفراد عصبة سبارتاكوس على مطلبه. بعدها هاجمهم جنود قوات الفريكوربس باستخدام قاذفات اللهب وقذائف الهاون الثقيلة بلا رحمة أو شفقة. كان كلما يظهر رأس إنسان، يتمّ إطلاق النار عليه. تناثرت الجثث في الفناء. «كل شخص يُعثر عليه ومعه سلاح يتمّ إطلاق النار عليه».

أدرك أعضاء عصبة سبارتاكوس أن موقفهم ميؤوساً منه تماماً. خرج سبعة متمردين مع أسلحتهم من المبنى الذي يتعرض للقصف للتفاوض على الاستسلام. وكان من بينهم المؤلف فولفغانغ فيرنباخ، وهو المنظّر الفكري للعصبة. قبل أربع وعشرين ساعة فقط، كان قد نشر دعوة لحمل السلاح: «Auf zum Streik. Auf zu den Waffen! انهض واضرب واحمل سلاحك»! مما جعله لا يتمتع بشعبية لدى القوات النظامية، التي عانت من خسائر كبيرة. وقد وقف السبعة باتجاه الجدار وأُطلقت النار عليهم. كان رد أعضاء عصبة سبارتاكوس إطلاق وابل من النيران

فيما أطلق رجال مدفعية الفريكوربس المزيد من القذائف على المبنى. مرّت ساعة أخرى قبل أن تفتح الباب ويخرج من تبقى من أعضاء عصبة سبارتاكوس وهم يترنحون، رافعين أسلحتهم، مختنقين، ويسعلون، وبعضهم يبكي، وجميعهم في حالة من الذعر المطلق. أُلقي القبض على 300 أسير. وتعرضوا جميعاً للضرب وتمّ إطلاق النار على عدد كبير منهم على الفور في الفناء. ثم وُضِع البقية في السجن[29].

اندلعت معارك أخرى في ميدان ألكساندربلات حول مقر قيادة الشرطة Polizeipräsidium، حيث قام أعضاء من عصبة سبارتاكوس بتسليح أنفسهم بمسدسات وبنادق استولوا عليها من رجال الشرطة المهزومين. شنّت سريتان من فوج مايكافير تحت قيادة اللفتنانت شولز هجوماً على مجمع للمباني صباح يوم 12 كانون الثاني. وقعت الحركة الأولى حول مبنى ألكسندر كاسكرن حيث احتجز أعضاء عصبة سبارتاكوس 600 ضابط شرطة. اقتحم اللفتنانت شولتز المجمع، ووزّع رجال الشرطة، وسلّحهم بالأسلحة التي استُعيدت. تمّ إطلاق النار على عدة عناصر من عصبة سبارتاكوس في الفناء. وحالما اتخذت أول قطعة مدفعية موقعها في ميدان ألكسندر، انطلقت النيران من مدفع رشاش وُضِع فوق مقرّ الشرطة وتسببت في قتل جميع من كان في الخلف. حمل الرقيب ويستفال فصيله المكون من خمسين رجلاً، في عدد من الشاحنات، وقادهم إلى الجزء الخلفي من مجمع الشرطة. عندما استداروا إلى أحد زوايا شارع برينزلاوير Prenzlauerstrasse، قوبلوا بوابل من النيران تسبّب بمقتل سائق الشاحنة الأولى، وحطم أحد المنازل، وأصيب أو قُتل معظم الجنود التي كانوا فيها. وعندما حاول الناجون الزحف إلى مكان آمن، التقطهم القناصة. تحركت سيارة مدرّعة أخرى ببطء إلى الأمام، وتبعها الجنود. تدفقت النار من أسطح المنازل ونوافذ الطابق الأرضي، تفرقع وأرعد كل شيء حولهم. كانت الرصاصة

29- عن: F. Runkel, Die Deutsche Revolution.

تضرب السيارات والأجساد ثم ترتد. أمسك الناجون برفاقهم الجرحى وقاموا بسحبهم من خط النار. مرت رصاصة من فوق رأس الرقيب ويستفال واصطدمت بالجدار. وبينما كان رابضاً خلف عمود للنور، رأى رأساً يرتفع. أطلق النار فاختفى الرأس. ألقى الجنود قنابل يدوية عبر النوافذ السفلى وأوقفوا مقاومة الثوار مؤقتاً. دخل مدفع هاوتزر آخر إلى العمل، وأطلق خمسين طلقة في تتابع سريع نحو المبنى. كانت نتيجة إطلاق النار المكثف هذا مدمرة. بدأت الأجساد تتطاير من النوافذ. كان هناك رجل، ومن الواضح، أنه كان مصاباً، قد ظهر شكله واقفاً بشكل واضح عند نافذة الطابق الثالث، وهو يمسك بخصره. قام ثلاثة جنود بإطلاق النار عليه فتناثرت جثته في الشارع الذي في الأسفل. تقدم ويستفال بصحبة رجلين.

أصابت قذيفة جانب المبنى، تناثر الطوب والشظايا فوق خوذاتهم الفولاذية. كان إطلاق النار لا يزال كثيفاً عندما انطلق الرقيب راكضاً إلى الباب الرئيس المحصن للمبنى. فجأة اندفع الباب وفُتِح. خرج نصف دزينة من عناصر سبارتاكوس، غير مسلحين ورفعوا أيديهم. سألهم ويستفال عما إذا كانوا مستعدين للاستسلام، فقالوا نعم، لكن لم يكن لديهم قائد يقوم بالتفاوض. واقترح ويستفال أن يختاروا على الفور زعيماً من بينهم، وأضاف: «لا شي أمامكم إلا الاستسلام غير المشروط». عندما ترددوا، أخبرهم ويستفال أنهم إما أن يقبلوا بالاستسلام أو يموتوا داخل المبنى. توجه أحد عصبة الداخل للتحدث إلى الآخرين. بعد بضع دقائق، فُتح الباب على مصراعيه وظهرت مجموعة من 150 فرداً من أعضاء سبارتاكوس من وسط دخان الحطام. دخل الملازم شولتز والرقيب ويستفال إلى داخل المبنى المظلم؛ كانت تصدعات الطلقات متواجدة في كل مكان. صرخ شولتز باتجاه ضجة صادرة من مكان ما، وأصدر أمراً بوقف إطلاق النار، وأعلن بصوت عالٍ موازٍ للضجة أنه سيتمّ إطلاق النار على أي شخص يتمّ العثور عليه وبحوزته سلاح. وهذا

ما حصل. انتهى القتال من أجل الاستيلاء على مقر الشرطة[30]، لكن هذا لم يمنع أعمال القتل. أُعدم ما لا يقل عن خمسة من عناصر سبارتاكوس المتشددين في الفناء.

استمر القتال في أجزاء أخرى من المدينة. واصلت مجموعات من أفراد عصبة سبارتاكوس متواجدة في المواضع الاستراتيجية إطلاق النار على وحدات من الفريكوربس، مات الكثيرون من عناصر عصبة سبارتاكوس، والجنود، والمتفرجون الأبرياء. تكبّد فوج حماية مبنى الرايخستاغ أكثر من مائة من الضحايا. ولأجل إنهاء عمليات القتل، كان فريدريش إيبرت بحاجة إلى عرض للقوة. كانت هناك حامية بالقرب من برلين هي فرقة فرسان حرس الجنرال فون هوفمان. خشي المستشار من عواقب إصدار أمر للجنرال الأرستقراطي بالتحرك ضد الجماهير البروليتارية. ولذلك عيّن أحد رجاله، وهو غوستاف نوسكه وهو شخص مشهور في مدينة كيل، قائداً للجيش. عندما تسلم نوسكه الأمر، قال: «يجب أن يكون أحدنا بلودهاوند[31]. أنا لا أخاف من المسؤولية، وتوجه إلى العاصمة على رأس ثلاثة آلاف فرد من القوات الموالية، وأُعيد تسميتها بهذه المناسبة باسم فريكوربس نوسكه. وصلت القوات حوالي ظهر يوم السبت، 11 كانون الثاني، وكان قد فات الأوان لإحداث أي فرق في الأنشطة العسكرية الرئيسة. قبل أن يصل نوسكه إلى هناك، حُسِمت المعركة. ومع ذلك، أقام رجاله عرضاً عسكرياً وساروا بوجوه متجهمة في موكب باتجاه شارع كورفرستاندام أشهر شوارع مدينة برلين مما ساعد في طمأنة سكانها.

وفي 13 كانون الثاني، أعلنت المجالس الثورية نهاية الإضراب العام، وعاد العمال إلى مصانعهم، وانتهى «أسبوع سبارتاكوس». وكانت حملة التطهير التي قادها نوسكه ووحداته في أعقاب ذلك سيئة مثل أي شيء

30- كما أفاد اللفتنانت شولتز خلال استجواب له جرى لاحقاً.

31- كلب بوليسي ضخم. المترجم.

حدث في ذروة الإرهاب الأبيض للقياصرة. كان الجنود يقومون بتحطيم الأبواب بأعقاب البنادق، ويعتقلون الناس بدون أوامر قضائية، وكانت الشاحنات تخرج كل صباح لتلتقط مئات المتعاطفين مع المتمردين. كان أعضاء عصبة سبارتاكوس المجموعة الأكثر تعرضاً لتلك الاعمال. قام جنود الحكومة بنهب مكاتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني (KPD) وزادت حدة التهجمات على القادة الثوريين إلى درجة الحمى في سلسلة من افتتاحيات الصحف. ووصلت إلى ذروتها في الصحافة الحكومية، كما تبين من خلال قصيدة نشرتها صحيفة فوروارتس كتبها آرثر زيكلر: مات المئات تباعاً - ولم يكن البروليتاريون! كارل، وروزا، وراديك من بينهم...

اقترح قادة قوات الفريكوربس إلقاء القبض على جميع القادة الشيوعيين وكتابة نهاية سريعة لكل هذا الهراء. بدأت تنتشر المنشورات التي تدعو إلى موت روزا لوكسمبورغ، وليبكنخت وزمرتهما. أخذت المأساة مسارها المحتوم. خُصِّص مبلغ 100 ألف مارك كمكافأة للتخلص من الخائنين«روزا لوكسمبورغ» و«ليبكنخت»، سواء كانا أحياءً أو أمواتاً[32]، ثم تمّ تعقبهما في جميع أنحاء المدينة وهما يفران من مخبأ إلى آخر. لم يكن هناك مكان آمن. لم تكن روزا تعتقد حتى بعد الإعدام السريع لبعض المتعاونين معها، أنها كانت في خطر حقيقي. لن يجرؤوا على مسها! كانا يقضيان ليلة 12-13 كانون الثاني 1919 في شقة للعمال في حي نويكولن. عندما صعد الجنود الدرج، نزلا من مخرج الحريق. في الليلة التالية انتقلا إلى حي بورجوازي حيث كتبت روزا مقالها الأخير تحت عنوان ساخر: «القانون يسود في برلين». لقد كان هجوماً مدمراً على فكرة النظام البورجوازي في بسط القانون بكل وحشيتها وقمعها: «ليس لدى الثورة وقت لتضيعه؛ إنها تندفع إلى الأمام بكل قوتها، فوق

32- من المفارقات الكبرى أن هذا المبلغ عرضه شايدمان، وهو اشتراكي كان منتسباً للحزب على مدى العامين الماضيين كمكافأة لمن يلقي القبض عليهما.

المقابر المفتوحة، والنصر والهزيمة، ولا يمكن وقفها عن تحقيق هدفها النهائي». ولمنع حدوث ذلك، فقد حان الوقت لإغلاق فمها إلى الأبد.

تعرضت روزا وكارل إلى الخيانة. كان مخبؤهم النهائي منزلاً فخماً في فيلمرسدورف، في 53 شارع مانهايمر، في شقة صديقة روزا، السيدة ماركوسون. إن وجود شخصيتين غريبتين في هذا الحي البرجوازي لم يمرّ دون أن يلاحظه أحد، وقد قام أحد الأشخاص بالتبليغ عنهما عند لجنة المجلس المحلي اليمينية. حدث ذلك في وقت متأخر من الليل في يوم 15 كانون الثاني 1919. كان فيلهلم بيك، عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الألماني KPD، قد وصل للتو إلى الشقة لتزويد الزوجين بهويات مزيفة، عندما قام الجنود تحت قيادة الملازم ليندنر، بصحبة ميهرينغ، رئيس المجلس المحلي في ويلميرسدورف، بتحطيم الباب. كانت روزا مستلقية على أريكة تعاني من الصداع النصفي. في البداية حاولت خداعهم من خلال إظهار أوراقها المزورة، لكن ذلك لم ينجح. أدركت روزا أنه لا يمكن تجنب قضاء فترة زمنية أخرى في السجن، لذلك قامت بتجهيز حقيبة صغيرة فيها بعض أغراضها وبعض الكتب. وبينما كانت في غرفة النوم، كان ليبكنخت يُقتاد إلى سيارة كانت تنتظره ثم تبعه كل من روزا لوكسمبورغ وبيك تحت حراسة مشددة في سيارة أخرى. وقد اقتيد الثلاثة إلى فندق إيدن، الذي كان مقراً لفرقة الحرس الخاص للقائد نوسكه (Gardeschützen). وعندما دخل ليبكنخت إلى بهو الفندق، تلقى ضربتين من مؤخرة مسدس على رأسه وسقط منهاراً على الأرض. ورفض الجنود تضميد جرحه النازف بغزارة. بعد ذلك بفترة وجيزة، دُفِعت روزا إلى البهو وقوبلت بالشتائم وصيحات الاستهجان. رأت جسد ليبكنخت وهو طريح الأرض وحاولت مساعدته للوقوف على قدميه، ولكنها مُنِعت من قبل الجنود الذين لكزوها بحرابهم. ثم اقتاد الملازم ليندنر السجناء إلى الطابق الأول إلى مكتب رئيس الأركان الفرعي، النقيب بابست، الذي كان مسؤولاً عن

«إجراءات الاعتقال». أبقى بابست مسجونيه واقفين بينما كان يتحدث على الهاتف. وكان ينظر إليهم من وقت لآخر وقال للتو للشخص الذي كان معه على الخط الآخر: «ja.... Ich habe verstanden... jawohl Ja نعم، نعم... أفهم ذلك... نعم». لم يتثبت أبداً من الشخص الذي أصدر الأمر، أو من كان يعلم بخطة إعدام الزعيمين الشيوعيين.

تمّ وضع فيلهلم بيك تحت الحراسة في الممر بينما كان النقيب بابست يستجوب ليبكنخت ولوكسمبورغ. كان بإمكان بيك أن يسمع أصواتاً عالية. وقد خمّن أن ملاحظات روزا القاسية قد أثارت غضب محققها إلى حدّ الانفجار. كان الباب مفتوحاً؛ ربما لإيهام الشهود أنه لم يكن هناك شيء خارج عن المألوف على وشك الحدوث، قال النقيب بابست بصوت عال: «خذوهم إلى السجن في حي موابيت». أما بيك، الذي كان لا يزال في غرفة الانتظار، فقد سمع بوضوح النقيب وهو يصدر تعليمات بصوت خافت تقتضي بأن لا يترك الاثنان السيارة وهما على قيد الحياة.

كان ليبكنخت أول من نزل من السلم وكان لا يزال يتمايل بسبب الإصابات التي تلقاها؛ ضربه أوتو رانج الخسيس، الذي كان يقف حارساً على الباب، مرة ثانية على رأسه بعقب بندقية. سقط ليبكنخت على الأرض وسحبه جنديان وهو فاقد الوعي عبر البهو، وسط ملاحظات ساخرة من السكارى في حانة الفندق: رغم كل شيء لا يبدو على أفراد عصابة سبارتاكوس آكلي لحوم البشر أنهم مرعبون للغاية. سُحِب ليبكنخت إلى سيارة كانت منتظرة وكان يقودها الرائد هورست فون بفلوغك هارتنغ. أما الركاب الآخرون فكانوا النقيب هاينز فون بفلوغك هارتنغ والملازم ليبمان، وفون ريتجغن وستيغ، وشولتز، بالإضافة إلى الجندي فريدريش.غادرت السيارة الفندق ولكنها لم تتوجه إلى سجن موابيت. وبدلاً من ذلك، سارت في الاتجاه المعاكس، نحو برلين تيرغارتن أكبر حديقة داخل المدينة، والتي كانت في هذا الوقت من الليل مظلمة ومهجورة تماماً. هناك، سحب الجندي كارل

ليبكنخت وهو في نصف وعيه من السيارة وأمره بالخروج. تعثر في مشيته، وقد أضاءت المصابيح الأمامية للسيارة المكان. أما الرصاصة التي قتلته فقد أطلقها الرائد هورست فون بفلوغك – هارتنغ. اكتشف أحد المتشردين جثة ليبكنخت عند ممر جانبي واقتيدت إلى المشرحة مثل بعض الجثث غير المعروفة التي سقطت في القتال. وكانت الرواية الرسمية التي قُدِّمت هي أن السيارة قد تعطلت، وعندما حاول ليبكنخت القفز إلى الغابة، قام أحد الضباط بإطلاق النار عليه.

في تلك الأثناء، نزلت روزا لوكسمبورغ إلى بهو فندق إيدن حيث قام الجنود بمضايقتها بالأسئلة والكلام. تحدث الملازم كورت فوغل بضع كلمات مع رونغ، وكان جندياً مسعوراً، فتقدم نحوها وحطم رأسها بعقب البندقية المصنوع من الفولاذ. سقطت روزا لوكسمبورغ على الأرض دون أن يصدر منها صوت. قاموا بسحب جسدها الذي لم يعد فيه حياة إلى الخارج وألقوها في سيارة كانت تنتظر خارج مدخل الفندق. أخذت السيارة الطريق نفسه إلى حديقة برلين تيرغارتن، حيث ألقي بجسدها من السيارة. عندما كانوا على وشك الخروج، تبين للملازم فوغل أنها لا تزال تظهر علامات على الحياة. فأطلق الملازم البحري هيرمان ويلهلم سوشون رصاصة على رأسها[33]. لفوا جسدها ببطانية، ووضعوا بعض الحجارة معها ليزيد ثقلها، ورموها في (Landwehrkanal) لاندفيركانال وهي قناة مائية في برلين من فوق جسر ليخنشتاين. عاد الملازمان فوغل وسوشون إلى فندق إيدن للإبلاغ عن رواية للأحداث كان قد تمّ الاتفاق عليها: كانوا في طريقهم إلى سجن موابيت، عندما أجبر حشد من الناس سائقهم على إيقاف السيارة وأخذوا سجينتهم منها. لم يعرفوا ما فعلوه لها. انجرفت جثتها إلى الشاطئ في أيار 1919.

لكن حتى قبل ذلك بوقت طويل، كانت الحقيقة قد بانت. ظهر

33- ساد الاعتقاد لسنوات عديدة أن الملازم فوغل هو من أطلق الرصاصة القاتلة. وقد بينت التحقيقات النهائية أنه كان هناك ضابط آخر في السيارة، هو الملازم سوشون.

أول تقرير يثير الشكوك حول الرواية الرسمية في صحيفة فوروارتس Vorwärts. ازدادت أعمال القتل بدم بارد بشكل أكثر من اللازم بالنسبة للمواطنين المحترمين في برلين. وفي مقال افتتاحي لها، طالبت الصحيفة بمعاقبة أولئك «المذنبين بارتكاب جرائم القتل». كانت هذه أول مرة تُستخدم فيها مثل هذه الكلمات القاسية. وللحيلولة دون تفاقم الاحتجاجات من جانب الطبقة العاملة، وجدت الحكومة نفسها مجبرة على إصدار بيان تهدئة: «أمرت الحكومة على الفور بإجراء تحقيق كامل بشأن وفاة الدكتورة روزا لوكسمبورغ والدكتور كارل ليبكنخت. فالاثنان، رغم أنهما ارتكبا خطايا كثيرة بحق الأمة الألمانية، فإن لهما الحق كأي مواطنين آخرين في محاكمة عادلة». وعلى النقيض من ذلك، فإن صحيفة تيغليش روندشاو الناطقة باسم الجمهوريين كتبت في مقالها الرئيس: «إن الدم يؤدي إلى الدم! فحمام الدم الذي حرض عليه كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ هو الذي أدى إلى الانتقام». حدث ذلك سريعاً، وفي حالة روزا لوكسمبورغ، كان قاسياً ولكن عادلاً. وبحلول نيسان 1919، لم تكن الحكومة وحدها تعرف الحقيقة حول جرائم القتل فحسب، بل والرأي العام أيضاً. كان هذا بسبب شعور الجندي المختل عقلياً أوتو رونغ بأن دوره في عمليات الإعدام الوحشية لم يتم الإشادة به بما فيه الكفاية. فقام بالتفاخر أمام الصحافة بخمس عشرة دقيقة عن أعمال المجد التي قام بها. وفي النهاية، اضطرت الحكومة إلى الاستسلام تحت ضغوط الرأي العام، وأجرت محاكمة عسكرية للقضية. وكان الاتهام الوحيد الموجه ضد الملازم فوغل هو «إخفاء جثة وتقديم تقرير مزيف إلى رئيسه». وقد حُكم عليه بالسجن بالحد الأدنى، لكن أصدقاءه نجحوا في تخليصه من السجن في الأسبوع نفسه وساعدوه في الهرب عبر الحدود السويسرية. وُجِّه الاتهام إلى أوتو رانغ، القاتل المجنون، باستخدام سلاح خدمته لإلحاق الأذى، وحكم عليه بالسجن لمدة عامين. أما أولئك الذين كانوا مذنبين حقاً فلم يقدموا للمحاكمة.

تجرأت روزا لوكسمبورغ على هزّ أركان الحواجز الطبقية التي شكّلت النظام الاجتماعي المهيمن في ألمانيا على مدى أجيال. انتهت محاولتها بالفشل. حُرِقت أعمالها علناً بعد استيلاء هتلر على السلطة. وتمّ تدمير نصبها. دفع العديد من تلاميذها ثمن ولائهم لها احتجازاً في معسكرات الاعتقال التي أقامها هتلر أو في معسكرات الغولاغ التي أقامها ستالين في سيبيريا. والأسوأ من ذلك أن أتباعها أساؤوا استخدام اسمها بنشر أفكار لم تكن لها ولم تكن ستوافق عليها أبداً. وأخيراً، حاولوا محوها من الذاكرة. لكن روح روزا لوكسمبورغ ظلت حية، حيث لا يمكن أنْ تمحو أية محرقة جنائزية أو مرسوم دكتاتوري فكرة ما، ما دامت قد زُرعت في أذهان الناس. يمكن أن تكون المرثية الأكثر مناسبة لها تعليق أوسكار وايلد:

«إنهم الأشخاص، وليست المبادئ، هم من يحركون العصر».

وبعد ذلك ...

إنها واحدة من المآسي العظيمة في التاريخ الحديث، أن أول لقاء لألمانيا مع حكومة ديمقراطية كان مرتبطاً بالهزيمة والبؤس. يمكن إلقاء اللوم كاملاً على الكارثة التي حصلت في اللجوء إلى استخدام الرصاص في حل مشكلة سياسية. قام الشيوعيون، وهم يستمعون إلى نصيحة متفائلة بشكل أحمق، بتأسيس خطتهم بناءً على القوة الغاشمة، ثم ارتكبوا خطأً مأساوياً أدى إلى الأزمة. وقام الديمقراطيون الاشتراكيون، باستخدام قوة الجيش من أجل الحفاظ على النظام، وقمعوا الثورة الشيوعية بالوحشية ذاتها[34]. وصل النشاط الثوري إلى ذروته مع اندلاع معارك الشوارع الضارية التي بدأت في كانون الثاني 1919، والتي وصفها المؤرخ رودولف هيلفيردينغ بأنها تشبه «معركة المارن في داخل

34- بما في ذلك نظام كورت إيسنر في بافاريا.

ألمانيا»[35]... كان العمل النهائي للثورة الألمانية هو دفن هزيمتها في مقبرة فريدريشسفيلد في برلين في 25 كانون الثاني 1919.

هيمنت عملية اغتيال قادة عصبة السبارتاكوس والشيوعيين، وعدم التسامح والكراهية التي اتصفت بها عملية تصفية الحسابات فيما بينهم، على جوهر المشهد السياسي في ألمانيا لسنوات قادمة[36]. أدّت الوحشية التي أظهرتها عصابات جنود نوتسكه إلى أن يتحول الكثيرون إلى معسكر المعارضة. وقد أوحت عمليات القتل ضمنياً بأن الدولة كانت هشّة إلى درجة أن المحافظة عليها كانت تتوقف على ذبح خصومها. لقد تبع ذلك فترة من التشوش اتخذ المترددون جانب الحكومة، أما الأقل تردداً فقاموا بتشكيل أحزاب جديدة. تأسس أحد هذه الأحزاب في أقبية مصنع للجعة في ميونيخ. كانوا في البداية أفراداً قليلين، حتى وجدوا في شخص عريف نمساوي زعيماً لهم ذا جاذبية، لم يتردد في جعل الإرهاب سلاحاً ووسيلة.

اصطفت المنظمات السياسية الرئيسة معاً لتؤسس جمهورية فايمار. وقد أثبتت أنها فاشلة تماماً، مثلما كان حال رئاسة هيندنبورغ. استمر الصراع العنيف داخل الرايخستاغ. ودمر التضخم اقتصاد البلاد. من وسط هذا الارتباك نما حزب جديد تحت زعامة هتلر الذي توحدت فيه العناصر الثلاثة للاستبداد. كان يمثل النسخة الشعبية لحكم القيصر، وكان يطالب بالطاعة غير المطلقة والولاء لشخصه باعتباره الفوهرر الذي لا ينافسه أحد. ولم يكن يحمل مبادئ أخلاقية. وكانت صفاته الانتهازية تجعله يقوم بتغيير أي برنامج سياسي كان قد تعهد به أو حتى التخلي عنه.

35- معركة المارن الأولى هي معركة مهمة بين القوات الألمانية والقوات الفرنسية والبريطانية في الحرب العالمية الأولى، حدثت في الفترة 6-12 أيلول 1914 على نهر المارن، وانتهت بانتصار القوات الفرنسية والبريطانية. المترجم.

36- هناك رسم كاريكاتوري للرسام الكاريكاتوري الشهير جورج غروز، يظهر فيه أحد الضباط مع رجل أعمال وهما يتناولان الغداء بينما يهاجم الجنود العمال بحراب البنادق: فبينما كان يسقط الشيوعيون كانت الأموال تتراكم.

كانت خطاباته الكاريزمية، التي تحمل نغمات عنصرية، غذاء للجماهير. كان تبنيهم للمبدأ الأول؛ قد خلق مناخاً للمبدأ الثاني، فقام بهندسة الفوضى في الشوارع؛ أما بالنسبة للثالث، فقد كان يعد بأي شيء تريد الجماهير سماعه، في حين أنه كان لا ينوي الوفاء بتلك الوعود. كانت لديه عبارته الأليفة: «ist der Wille seines Führers القانون الألماني هو إرادة الفوهرر». وبهذا، دفن هتلر جمهورية ألمانيا الناشئة.

فترة فاصلة

1920–1944

«اللاعنف هو أعظم قوة تحت تصرف البشرية. إنه أقوى من أعظم سلاح صمّمته عبقرية البشر»، قائل هذه العبارة هو زعيم الهند غاندي، الذي شرع في إثبات أن قوة السلاح لا يمكن أن تسود أبداً على قوة الروح. في عام 1930 قام هذا الشخص الزاهد نصف العاري بحثّ الناس على إعلان العصيان المدني ضد قانون بريطاني غير عادل يحكم إنتاج الملح، ثم جمع أتباعه في «مسيرة إلى البحر ليحصلوا على الملح دون دفع الضريبة». انضم الناس من كل جزء من البلاد وكل طبقة من طبقات المجتمع إلى مسيرته. شعر الإنكليز بالخزي من التفاوض مع هذا الرجل الذي يتمتع بالإقناع السلمي. كانت بداية صراع جماهيري غير عنيف قام به الهنود لنيل الحرية من أسيادهم الاستعماريين. وحين حدثت مشاكل بين أبناء شعبه قرر أن يصوم عن الأكل حتى يقتنع أبناء شعبه من الهندوس والمسلمين على حدّ سواء أن يعيشوا سوية في وفاق[37]. ومع ذلك، قتله أحدهم في عام 1948. كان غاندي، رسول اللاعنف، كان وما يزال هو الاستثناء. ثم جاء اثنان من ورثته، الذين أخذوا الدروس من نهجه اللاعنفي، وهما نيلسون مانديلا ومارتن لوثر كينغ.

37- بدأت الكراهية الشديدة بين المسلمين والهندوس مع الفتح الإسلامي للهند على يد السلطان محمود الغزنوي في عام 1000 ميلادي.

لم يكن كل ثوار تلك الحقبة يتصرفون مثل غاندي وأتباعه في ضبط النفس. شهدت الثلاثينيات صعود فرد إلى السلطة كان يبشر بالقومية المتطرفة والكراهية العرقية والعنصرية والقتل المنظم من قبل الدولة. فشل العالم لبعض الوقت في فهم أن أدولف هتلر كان يشكل تهديداً للديمقراطية والسلام أكثر مما كانت عليه الشيوعية. زادت مطالباته، وبدت شخصيته لا تقاوم. وأصاب أولئك الذين عارضوه مصير مزوع، كان صعود هتلر يحثّ الخطى بلا هوادة، وكذلك الطريقة التي أخضع بها جيرانه القريبين: لم يكن عليه القتال، كان عليه فقط أن يقنع القوى العالمية بأنه ينوي القتال. معظم الدول انسحبت ببساطة وأذعنت، على الرغم من الأصوات العالية التي كان يتحدث بها السياسيون. هؤلاء الرجال المساكين الذين يرتدون بذلاتهم المجعدة وقبعاتهم المضحكة، قد أذلتهم الجزمات العسكرية اللمّاعة والزي العسكري الأخضر - الزيتوني الأنيق لجنرالات الجيش النازي، كانوا ينظرون بحسرة إلى بلادهم وهي محتلة ويتمّ تفكيكها كقطعة من سمك يتمّ تجريدها من أشواكها.

كانت آلة الحرب الألمانية تزمجر دون أن يتحداها أحد في جميع أنحاء أوروبا حتى تغيّرت مسارات الحرب. بحلول عام 1944، لم يكن الوضع بالنسبة لألمانيا يائساً فحسب، بل كان ميؤوساً منه. في حزيران من ذلك العام، مع تحرك كماشة من قوات الحلفاء نحو نهر الراين وجاهزية السوفييت لضرب قلب ألمانيا، اضطر هتلر للتوقف، ولكن ليس من قبل الحلفاء، ولكن من قبل أشخاص من الداخل. بعض الرجال الشجعان الألمان تآمروا معاً. كانوا يعلمون أن انكشاف أمرهم يعني تعرضهم للتعذيب البربري أو الموت المؤلم. وكثير منهم كانوا مستعدين لخسارة حياتهم من أجل تجنيب ألمانيا رعب الهزيمة. ما حدث كان تمرداً. وكانت خطة مجنونة، ومهمة في قلب الجحيم.

الفصل السادس

20 تموز 1944
شعب واحد، دولة واحدة، قائد واحد

Ein Volk, ein Reich, ein Führer.

شعب واحد، دولة واحدة، قائد واحد

شعار الحزب النازي في أوائل الثلاثينيات

Wir haben das Letzte getan für Deutschland

سنبذل كل ما في وسعنا من أجل ألمانيا

• الجنرال فريدريك أولبريخت

توجه الجنرال فريدريك أولبريخت، نائب رئيس الجيش الوطني الألماني، بالحديث إلى العقيد الطويل القامة ذي العين المعصوبة قائلاً: «أنت الشخص الذي نحتاجه». لم يكن الجنرال يتحدث عن إحراز «نصر نهائي» وهمي، ولكن عن مشكلة عاجلة وبالغة الجدية. كان يعرف العقيد كمخطط لامع ورجل شجاع. حينما كان في الصحراء الأفريقية تحول إلى شخص معوق إلى الأبد إثر موجة من القصف الجوي الذي شنّتها الطائرات الأمريكية. كان من الرجال النادرين، وعلى الرغم من إعاقته البدنية، فقد عيّنته القيادة العليا الألمانية مساعداً للقائد العام للجيش الاحتياطي، العقيد جنرال فروم.

كانت هذه أيام قاسية للرايخ الثالث. فمن حول حدوده كانت القوات النازية وقوات الحلفاء مشتبكة في قتال عنيف. وكان الألمان يترنحون تحت هجوم لا هوادة فيه شنّه الجيش الأحمر في الشرق والقوات المشتركة للأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين في الغرب. لقد واجهت ألمانيا الدمار، وكان الألمان في سباق مع الإبادة. لا شيء، ولا حتى الأسلحة السحرية Wunderwaffen المدمرة التي في الخيال يمكن أن تخفي حقيقة أن الأمة كانت متجهة للهزيمة بمقاييس كارثية. وكانت تلك هي اللحظة المناسبة للرجال الألمان الطيبين للعمل على منع اندفاع بلادهم المتهور نحو الهاوية.

كان الجنرال قد درس شخصية هذا الرجل الذي سحب فوجه بشجاعة من مطحنة معركة القصرين الدموية. رأى وجهاً لا تهزه أبسط ومضة من العاطفة. تحدث الجنرال أولبريخت، قائلاً: «لسنوات كنت أسير على حافة الهاوية، بين الحقيقة والأكاذيب، والخير والشر. إذا تحدثت علناً ضد الطاغية، فسوف أموت شهيداً، وهذا لن يحقق شيئاً. الله يعلم، هناك بالفعل ما يكفي من الشهداء في سجون الرايخ الثالث المجيد. لكنه لا يمكنني أن ألتزم الصمت بعد الآن وأنا أرى بلدي المسكين ينتقل إلى عالم من الظلام اللانهائي. ولست أنا وحدي في هذا الأمر». وهو يستمع إلى الجنرال، عرف العقيد أنه على وشك الاشتراك بمؤامرة على أعلى مستوى عسكري. «هدفنا النهائي هو تحقيق سلام يتمّ التفاوض عليه»، تابع الجنرال، وقبل أن ينظر إلى العقيد الشاب مباشرة في عينه قال: «لكي يحدث هذا يجب علينا القضاء على هتلر. هل أنت معنا؟».

نظر العقيد كلاوس شينك غراف فون شتاوفنبرغ من النافذة إلى الخارج. ما كانت في يوم من الأيام العاصمة البراقة لبروسيا، موطن كبار رجال الأدب والفكر، أصبحت الآن مكاناً مليئاً بالحفر. نعم، كان الجنرال على حق: قبل أربع سنوات مضت، كانوا قد تخلوا عن كل

شيء، العائلة، والبيت، وحتى المستقبل. والآن أصبح الوطن مقبرة. لم يتردد وقال: «يمكنك الاعتماد عليّ، سيدي الجنرال».

سيادة العقيد Oberst[1]، أستطيع أن أرى أننا سنفهم بعضنا البعض. أنت رجل ذو مواهب لا شك فيها. أمر العملية هو سر لا يعرفه سوى عدد قليل. لوضع خطتنا قيد التنفيذ، فإن الاسم الرمزي لها هو عملية فالكيري Operation Walküre.

دفعت الانتكاسات الخطيرة التي واجهتها القوات الألمانية عدداً من الضباط الألمان رفيعي المستوى إلى محاولة كسر قبضة هتلر الوحشية على الأمة. كان الاعتماد على انتفاضة شعبية واسعة النطاق غير وارد في ظل النظام الشمولي في ألمانيا. منذ بداية الحرب أبقى هتلر نفسه بمعزل عن العالم الخارجي، محمياً ليلاً ونهاراً من قبل الحراس الشخصيين. لم يكن هناك سوى مجموعة من أتباعه المقربين الذين لهم حق الاتصال مباشرة به، رجال مثل هيملر، وغورينغ، وغوبلز، أو أكثرهم شراً، مارتن بورمان، الرجل الوحيد الذي لا يلفت الانتباه والذي يكتنفه الغموض بين جنرالات الرايخ الثالث الذي يحمل ميدالية أو أكثر. إن محاولة اغتيال هتلر، إذا ما نجحت، كان يجب أن تقوم بها وحدة صغيرة ذات تنظيم جيد من الضباط ذوي الرتب العالية الذين يتمكنون في بعض الأحيان من الاتصال المباشر مع هتلر. سبق وأنْ حدثت عدة محاولات سابقة لكنها انتهت بالفشل. فقد حدثت آخر محاولة لاغتيال الفوهرر في 13 آذار 1943، عندما كان يزور مجموعة الجيش المركزي على الجبهة الروسية. وُضِعت قنبلة في طائرته الشخصية، بين زجاجتين من مشروب الشنابس. فشلت صمامات القنبلة المعدة مسبقاً في العمل، وهبطت طائرة هتلر بأمان دون أن يكون أي شخص على متن الطائرة على بيّنة من نجاتهم بمعجزة. وأظهر أحد المتآمرين، وهو الكونت فابيان فون شلبرندورف، شجاعة كبيرة عندما اقتحم مقر قيادة هتلر لإزالة الجهاز من الطائرة قبل اكتشافه.

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

انتشرت في ألمانيا مظاهر معارضة لهتلر بشكل كبير[2]، مع ازدياد حوادث فشله العسكري، لكن العناصر الأساسية للمعارضة بقيت في أوساط طبقة الضباط الذين لم يعودوا يؤمنون بسطوته مثل الفيلد مارشال فون فيتزلبن؛ والجنرال لودفيغ بيك، رئيس الأركان السابق للجيش؛ وعقيد جنرال فروم، رئيس الجيش الاحتياطي؛ ونائبه، الجنرال فريدريك أولبريخت؛ والدكتور كارل غورديلر، رئيس بلدية لايبزيغ السابق والسفير أولريش فون هاسل والأدميرال كاناريس، رئيس الفرقة الألمانية أبوهير Abwehr (الخاصة بمكافحة التجسس). أما البقية فهم عددٌ من اليونكرز (الأغنياء) البروسيين مثل الكونت هيلموث فون مولتكه والكونت فابيان فون شلابريندروف والكونت كلاوس شينك غراف فون شتاوفنبرغ ومساعد الجنرال فروم من قيادة الجيش العليا.

كانت المؤامرة متقنة في تنظيمها... كونها تضمنت احتمال الهزيمة وإمكانية تفكك الأمة بأكملها. بحلول نهاية عام 1943، كان الجنرال أولبريخت قد أكمل مسودة المخطط: قتل هتلر، والسيطرة على الفيرماخت (القوات المسلحة الألمانية)، والقضاء على قوات الأمن الخاصة SS. ثم التوجه للتفاوض على توقيع معاهدة سلام مع الحلفاء ترضي الطرفين. كان العنصر الأساس في العملية هو القضاء على هتلر، وهي مهمة احتفظ بها شتوفينبرغ لنفسه. كانت عملية فالكيري[3] اسماً ملائماً، سوف يلاقي هتلر وأتباعه نهايتهم على يد المشاركين في العملية ويتوجهون نحو الجحيم.

نوقشت هذه الخطة ضمن الحلقة الداخلية للمتآمرين: الكونت أولريتش فيلهلم فون شفيرين شوانفيلد، وآدم فون تروت زو ستولز، والكونت

2- في شباط 1943، قام اثنان من طلاب جامعة ميونيخ، هانز شول وشقيقته صوفي، بتأسيس مجموعة Weisse Rose المناهضة للحرب. قُبِض على كليهما وقُطع رأسيهما.

3- الفالكيري في الميثولوجيا النوردية اثنان من مجموعة آلهة يختاران المقتولين في المعركة، ويأخذان من ماتوا بشجاعة منهم إلى قاعة الأبطال. المترجم.

فريتز ديتلوف فون دير شولنبرغ، والعقيد ألبرخت ميرتز فون كويرنهايم، والعقيد جورج هانسن، والملازم كيسار فون هوفاكر، والكونت بيتر يورك فون وارتينبيرغ. كان جميع هؤلاء من سلالات عائلات النبلاء (اليونكرز) الألمان من الطراز القديم ومن النبلاء الفخورين بأنفسهم، والذين لا يقارنون في الشدة القتالية مع المقاتلين القذرين في كتائب العاصفة أو قدماء النازيين من أتباع هتلر المخلصين. لكن كلهم كانوا على استعداد للموت من أجل المثل العليا الوطنية، فقط إذا ما حسموا ما يريدون. وقال الجنرال أولبريتشت: «إن ما نريده هو الرجال الذين سيسحبون الزناد من أجل ما يؤمنون به. نحن بحاجة إلى نتيجة سريعة. سوف ينزل الحلفاء في مكان ما على طول ساحل فرنسا هذا الصيف. عندها يصبح القتال على جبهتين أمراً موكداً لجيشنا. ونظراً لأنكم جميعاً قد حصلتم على دور موثوق به في خططنا، فقد حان الوقت لمعرفتها».

لم يكن كلاوس شينك غراف، كونت فون شتاوفنبرغ، ثورياً بل ألمانياً من محتد نبيل عظيم تمرد على الدكتاتورية القمعية لهتلر وأتباعه. وقد أعطت شخصية شتاوفنبرغ العنيدة دفعة جديدة للمؤامرة وأصبح هو القوة الدافعة للانقلاب. ومع ذلك، لم يكن قاتلاً وكان بالتأكيد اختياره لقتل هتلرخطأً كبيراً. وقد تسببت إصاباته بإعاقة شديدة لحركاته: فقد فقد إحدى عينيه، وأصيبت ذراعه اليمنى بالشلل، وفقد اثنين من أصابع يده اليسرى. وهذا منعه من استخدام السلاح اليدوي، وترك أمامه البديل الوحيد: قنبلة يدوية قوية.

وتماماً مثل القيادة العليا الألمانية، فقد تفاجأ المتآمرون عندما قامت قوات الحلفاء بتنفيذ إنزال في ساحل النورماندي في 6 حزيران 1944. قام شتاوفنبرغ بمحاولة الاغتيال الأولى في 11 تموز، ومرة أخرى في 15 تموز. في كلتا المناسبتين لم يظهر هتلر. في 17 تموز، اكتُشِف جزء من المؤامرة. لم يقلل المتآمرون من كفاءة محققي الغستابو. قرر الجنرال لودفيغ بيك، والجنرال أولبريتشت، والعقيد فون شتاوفنبرغ أن تحدث

العملية في أية فرصة قادمة متاحة للاقتراب من هتلر. وقد جاءت تلك الفرصة في وقت أقرب مما هو متوقع.

في 18 تموز، دعا الجنرال أولبريتشت العقيد شتاوفنبرغ إلى مكتبه: «أمر عريفنا [هتلر] بإصدار تقرير موجز حول حالة استعدادنا». وسلم أولبريخت رسالة إلى شتاوفنبرغ. «ستتوجه إلى وكر الذئب (Wolfschanze)[4] في تمام الساعة عشرين». صافح يد العقيد. «لقد حان وقتنا...». كانت المحاولة الثالثة لاغتيال الفوهرر على وشك أن تبدأ.

كان الوضع العسكري ميؤوساً منه. وكان هتلر مدركاً لذلك وكذلك جنرالاته. ومع ذلك، وبينما كان يتناول الجرعة اليومية من الأقراص المسكنة مع الشاي لتهدئة أعصابه، واصل حديثه: «إن جزءاً من العظمة الألمانية يكمن في أنها تصنع النصر وهي تواجه الهزيمة.» لقد بدا الواقع مختلفاً تماماً. فقد حرّر الجيش الأحمر مدينة لينينغراد واستولى على مدن مينسك وفيلنا وبينسك وغرودنو. وباتت القوات الألمانية على وشك أن تصبح مطوّقة في دول البلطيق عندما بات تقدم الروس يهدّد بروسيا الشرقية. على الجبهة الداخلية، قامت أساطيل القاذفات التابعة للحلفاء بزيارة مدن ألمانية بشكل روتيني وبانتظام ممل ودفنها تحت طوفان من القنابل. في 4 حزيران، دخلت قوات الحلفاء إلى روما، وبعد يومين، نزل أسطول بحري ضخم على شواطئ النورماندي. كان هتلر قد بدأ يشعر بما تعنيه الحرب على جبهتين. تدهورت صحته. كان شاحباً وفاتر الهمة. أثناء اجتماعاته مع موظفيه، كان يلعب بنظارته بعصبية أو يلوك بفمه قلمه الرصاص. كان عليه أن يجلس بينما كان جنرالاته يمعنون النظر في خرائط لأوروبا وهي تظهر كيف تقلصت بسرعة مساحة المناطق التي تسيطر عليها النازية. كان هتلر يحس بالمرارة ويشعر بالخيانة، وألقى

4- هو الاسم الذي يُطلق على مقر هتلر. كان هناك أيضاً مقر ثان لوكر الذئب خاص بمسرح العمليات الحربية في الجبهة الغربية بالقرب من قرية مارغيفيل في شرق فرنسا.

باللوم على جنرالاته في السماح للحلفاء بالقيام بالإنزال في فرنسا. كان عاجزاً عن إصدار أوامر متماسكة، وكان يهذي في حوارات عن أسلحة خيالية، وعن صواريخ الانتقام Vergeltungswaffen، وهي صواريخ بعيدة المدى والتي سيمحو بها العدو. لم تكن هناك حدود لجنون الارتياب الذي يتملكه وعاش في خوف دائم على حياته[5]. لم يسافر أبداً بدون سترة مضادة للرصاص وحتى قبعته كانت مصنوعة من صفيح واقٍ ضد الرصاص. كان لديه متذوق للطعام، وطبيب دجال يصف له أقراصاً وأدوية. واستمر بالإيمان بقدره، والذي يقرؤه عليه يومياً مستشاره لشؤون التنجيم. «الشعب الألماني لا يستحقني»، وظل يكرر قول ذلك أمام حاشيته.

أمضى هتلر أول أسبوعين من شهر تموز مع عشيقته إيفا براون في مقر إقامته في منطقة أوبرسالزبرغ. وهكذا نجا من المحاولتين السابقتين لاغتياله. في الأسبوع الثالث من الشهر عاد إلى مقر قيادته الميداني (وكر الذئب) Wolfschanze، الذي يقع وسط غابة قرب منطقة راستنبرغ شرق بروسيا حيث كان يتهيأ لزيارة يقوم بها بينيتو موسوليني في 20 تموز. لهذا السبب قام فريق مساعديه بتقديم موعد الإيجاز اليومي للقائد (Führer Lagebesprech)[6] إلى تمام الساعة 12:30 ظهراً. وبسبب الحرارة الخانقة، نُقِل الاجتماع من القبو الخرساني المعتاد، الذي كانت جدرانه الصلبة ستزيد إلى حدّ كبير من تأثير أي انفجار يحصل، إلى مقصورة خشبية ذات تهوية في الغابة. وقد ثبت أن هذه الخطوة لها عواقب حاسمة.

في 20 تموز 1944، قام الكونت فون شتاوفنبرغ بصحبة أحد المتآمرين، وهو الملازم أول فيرنر فون هايفتن بمهمة نقل معلومات من برلين إلى راستنبورغ حيث كان من المتوقع أن يقدم نبذة عن مواقع وحدات الخط الأمامي التي شُكِّلَت حديثاً من وحدات الجيش

5- كما كان يفعل دكتاتور آخر هو، جوزيف ستالين.

6- بالألمانية في الأصل. المترجم.

الاحتياطي. لم تكن حقيبته تحمل ملاحظاته فقط، بل كانت هناك عبوة ناسفة تستخدم المادة الأكثر فتكاً المعروفة آنذاك: كيلوغرام واحد من الهكسونيت، مرتبط بصاعق كيميائي يعمل بساعة توقيت[7] والذي من المقرر أن ينفجر في غضون دقائق، بمجرد كسر القارورة الزجاجية. هبطت طائرة شتاوفنبرغ في راستنبورغ في الساعة 10.15 من صباح ذلك اليوم. وتمّ نقله من المطار، إلى مبنى مقر القيادة العليا حيث مرّ بالعديد من نقاط التفتيش التابعة لقوات الأمن الخاصة SS بدون عائق. خرج الجنرال كيتيل من الكوخ الخشبي.

«إيه يا، شتاوفنبرغ، هل أحضرت لنا أخباراً جيدة؟»

«آمل ذلك، سيدي الجنرال»...

سبق الجنرال كيتيل العقيد إلى غرفة الإحاطة، حيث كان هتلر محاطاً بجنرالاته وموظفيه الشخصيين[8]. وقد انحنوا فوق خريطة وضعت أمامهم على طاولة خشبية ثقيلة ولم يلاحظوا وصوله. وقف شتاوفنبرغ بجانب العقيد براندت الذي كان يقف بجوار هتلر. كان قد كسر بالفعل قارورة الصمامات، وكان على القنبلة أن تنفجر في غضون دقائق. وقد وضع حقيبته على الأرض واستخدم قدمه لدفعها أسفل الطاولة، قبل أن يتجه إلى الجنرال كيتيل ويهمس في أذنه: «سيدي الجنرال، هل تأذن لي بالخروج لدقيقة، يجب أن أتصل ببرلين». أومأ الجنرال برأسه وغادر شتاوفنبيرغ الغرفة. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة وخمسين دقيقة بعد الظهر. وبمجرد أن خرج من الكوخ الخشبي (من المؤكد أنه لم تمضِ أكثر من دقيقة واحدة)، حتى هزّ انفجار عنيف الغرفة التي كان هتلر متواجداً فيها. سقط السقف وتفتتت الجدران الخشبية إلى ألف

7- استخدم مصهراً كيميائياً إنكليزياً كان مخزوناً حيث ثبت أنه الأكثر موثوقية.

8- شملت قائمة أسماء الضباط الذين كانوا مع هتلر في المقر: كيتيل وجودي وفارليمونت وهيسينغر وبوهل وبودينشاتز وتسيغف وكورتن وفوز وبوتكامير وبراندت وبيلوف وآيسمان وفيزنغر وبيوخ وفيغلين وغوينشه وبيرغر وزونليثنر.

قطعة. وبينما أمر شتاوفنبرغ سائقه بالتوجه إلى المطار، رأى سحابة سوداء ترتفع فوق قمم الأشجار. مرة أخرى كان الحظ معه. في وسط الارتباك، لم يصدر أي أمر إلى نقاط التفتيش في المناطق المحيطة بالمنطقة لوقف أي عجلة من مغادرة المعسكر.

ساد المكان سحابة من الغبار والحطام، كان الجرحى يئنون، والحراس يصرخون، ارتفعت صفارات الإنـذار - وتعثر هتلر في مشيته وسط الخراب! كان على قيد الحياة! كانت ساق بنطاله اليمنى مفقودة، وقد غطاه الغبار والدم، واحترق سطح شعره وتدلت ذراعه اليمنى وهمدت بجانبه. كانت هناك علامات حروق شديدة على ساقيه وجرح عميق في ظهره حيث ضربته عارضة خشبية وهي تسقط. تعرضت طبلة أذنه إلى أضرار وكان يهزّ رأسه في محاولة لتنظيف حاسة السمع. سجلت عيناه لحظة صدمة عميقة وعدم التصديق الكامل. كان كل شخص آخر ممدد في نهاية الغرفة إما ميتاً أو جريحاً. لقد نجا هتلر بواسطة الطاولة الثقيلة، التي كانت تحمي جذعه العلوي، والجدران الرقيقة، التي تهاوت تحت تأثير الانفجار. تمايل هتلر وهو يتفقد المكان من حوله، كان مخدراً ومذهولاً، وغمغم قائلاً: Es gibt eine Vorsehung... Es gibt eine Vorsehung! إنها العناية الإلهية!. لقد اعتقد أنه كان قد نجا من القصف الجوي، وفقط بعد فترة طويلة نما إلى علمه أنها كانت بالفعل محاولة لاغتياله - وخُطِّط لها داخل ألمانيا.

في خضم الفوضى التي أعقبت الانفجار، نجح الكونت شتاوفنبرغ في شق طريقه متخطياً قوات الأمن الخاصة SS التي كانت تحرس مبنى مقرّ القيادة العليا، وأقلعت طائرته من طراز He-111 إلى برلين. سنحت له الفرصة أن يلقي نظرة متفحصة عما حدث أثناء مرور الطائرة فوق بقعة سوداء في الغابة، وآخر ما رآه منها هو أن الناس كانوا يركضون مثل أسراب من النمل المتهور.

كانت الخلية المسؤولة عن المؤامرة قد اجتمعت في مكتب الجنرال أولبريخت في مقرّ القيادة العامة للجيش الاحتياطي (Ersatzheer) في

شارع بيندلير في برلين. حضر الاجتماع الفيلد مارشال فون فيتزلبن والجنرال بيك والجنرال هوبنر وأولبريخت. كانت خطوتهم الأولى تتضمن إصدار بيان عن طريق الراديو، يحذر الأمة من أن مجموعة منشقة من قادة قوات الأمن الخاصة SS الذين لا يرحمون قد حاولوا اغتصاب السلطة من الجيش. ولإحباط هذه المحاولة، وجد الجنرالان بيك وفيتزلبن أنه من الضروري تولي السلطة بعد اغتيال الفوهرر. وعلى المستوى العسكري، فإن على القوات الاحتياطية المحلية للجيش أن تعمل على نزع سلاح قوات الأمن الخاصة SS في برلين، واحتلال محطات الراديو، وتغلق المقارّ الحكومية. وحسب المتآمرون أنه مع موت هتلر، لم يعد ضباط الجيش النظامي يشعرون بالالتزام بقسَم الولاء، وهو اليمين الذي أقسموه للزعيم النازي. كان كل شيء يتوقف على عاملين: أولهما، موت هتلر؛ وثانيهما، قطع الاتصالات بين المقر الميداني لهتلر والمكاتب الحكومية في برلين.

استغرقت رحلة شتاوفنبرغ ساعتين حتى عاد إلى العاصمة. هبط في الساعة 15.45، وتوجه مباشرة إلى شارع بيندلير، حيث أرسل تقريراً يفيد أنه لا يمكن لأحد أن ينجو من الانفجار. استند تقييمه على سحابة الحرائق وما لاحظه أثناء تحليقه. لسوء الحظ كان مخطئاً. كان من الممكن أن تنجح المؤامرة، لولا العامل الثاني: لم يُقطع نظام الاتصالات بين برلين ووكر الذئب (Wolfschanze)، وهذا هو الذي أدى إلى فشل المؤامرة. مع «تقرير القتل» الصادر عن شتاوفنبرغ، اندفع الجنرال أولبريخت إلى مكتب الجنرال فروم وأصرّ على أن يصدر القائد الأعلى للجيش الاحتياطي فوراً إشارة البدء بعملية فالكفيري. كان فروم متردداً، حيث لم يرد تأكيد نهائي (بخلاف تقرير شتاوفنبرغ الشفهي) عن وفاة هتلر. ورفض إعطاء الأمر وحدث شجار هزم فيه الجنرال وتمّ احتجازه. في غضون ذلك وبدون تعليمات من الجنرال أولبريخت، شرع العقيد ميرتز فون كويرنهايم بالفعل في القيام بالإجراءات الأولية لعملية فالكيري.

وقد وصلت الأوامر في الساعة 16.05 إلى الحاميات العسكرية في داخل برلين وحولها. وعلى الرغم من أن الأوامر كانت مربكة، إلا أن وحدات الجيش أطاعتها: تحركت قوات من مركز تدريب الدبابات في كرامبنيتز وغروس غلينيك، ومن مدرسة المشاة في دوبرنيتز، مع كتيبة من فيلق تدريب الضباط البحريين في بوتسدام، نحو برلين. أخيراً، أُصدرت الأوامر إلى وحدة أخرى للعمل. كُلِّف عدد من وحدات النخبة في الجيش الألماني (Wachbataillion Grossdeutschland) بمهمة السيطرة على الوزارات الرئيسة في المجمع الحكومي.

وعندما قرأ ضابط الاتصالات في الكتيبة، الملازم هاغن، الأمر، وجده غريباً حيث لا يوجد فيه توقيع القائد الأعلى للجيش، ولكن ضابطاً في هيئة الأركان، تحدث مع قائد الكتيبة، الرائد أوتو آرنست ريمر، وطلب منه التحقق من الأمر بالاتصال بوزير الدعاية، الدكتور جوزيف غوبلز.

كانت النتيجة مدمرة لقادة الانقلاب بينما كان غوبلز يرتب اتصالاً هاتفياً للرائد ريمر مع مركز القيادة العليا في راستنبورغ. كان هناك شخص على الخط: «هل تعرف صوتي؟».

صعق الرائد ريمر بشدة؛ شحبت مفاصل أصابعه عندما عرف صوت المتصل، قبل أن يجيب: «نعم سيدي الفوهرر، Jawohl, mein Führer».

طلب هتلر من غوبلز أن يأمر ريمر بالقضاء على المؤامرة بأقصى قوة.

وبمكالمة هاتفية واحدة، أصبح وضع المتآمرين حرجاً. اتصل الدكتور غوبلز بالقائمين على محطة إذاعة ألمانيا وأخبرهم أن يبثوا نشرة إخبارية خاصة تفيد بأن مجموعة من ضباط الجيش حاولوا القيام بمحاولة انقلاب، لكن الفوهرر على قيد الحياة وبصحة جيدة، وسيوجّه خطاباً إلى الأمة بعد قليل. ما إن انتشرت الشائعات بأن هتلر ما يزال على قيد الحياة حتى غيّر العديد من الضباط الذين كانوا ينتظرون نتيجة محاولة الاغتيال مواقفهم. كان أحدهم الجنرال فروم، الذي تحدث

هاتفياً مع الجنرال كيتيل في راستنبرغ. وأكد كيتل «نجاة الفوهرر من الموت بمعجزة». هل كان هتلر حياً حقاً؟ لم يكن فروم على استعداد لأن يغامر بشيء. لذا قام المتآمرون بحبسه في مكتبه. وبينما استمر هذا الارتباك، توجه الرائد ريمر مع جنوده إلى شارع بيندلير.

كان الفيلدمارشال المتعب فون فيتزلبن قد غادر مكتبه لتوه مؤقتاً عندما تسلم رسالة من ضابط الاتصالات في شارع بيندلر تفيد بتعيين هاينريش هيملر من قوات الأمن الخاصة SS كرئيس جديد للجيش الاحتياطي. أثارت هذه الإشارة شكوك ضابط من طاقم معاوني الجنرال فروم. دعا الكولونيل كارل بريدون، مساعد الجنرال أولبريخت، موظفيه إلى مكتبه وذكّرهم بقسم الولاء لهتلر[9]. ومن الغريب أن أياً من أولئك الذين أصدر غوبلز لهم الأوامر بإخماد الانقلاب، فلم يظهر في حينها في شارع بيندلير لا الأوبرغروبينفوهرر[10] آرنست كالتينبرونر مسؤول جهاز الغستابو، ولا قائد القوات الخاصة لهتلر العقيد في قوات الأمن الخاصة SS أوتو سكورزيني كما أن كتيبة الرائد ريمر قد تأخرت في الوصول بسبب مشاكل في النقل. أُنيط الأمر لمجموعة العقيد بريدون التي كانت داخل مجمع بيندلير أن تتولى القيام بالمهمة.

ربما لم يعرف التاريخ أبداً ما حدث بعد ذلك لولا وجود شاهد عيان لم يُتجَاهل أو يُنسى وحسب، بل نجح في النجاة من الحرب. كان هذا هو الرائد جورجي، وكان يعمل في مقر القوات الجوية الألمانية. وكان متزوجاً أيضاً من ابنة الجنرال أولبريخت. في الساعة 21:00. اتصل أولبريخت بصهره وأخبره أن يلتقيه على الفور في شارع بيندلير[11].

9- عن: Karl Pridun, 20 Juli 1944, Stellungsnahme.

10- رتبة عسكرية في الحزب النازي Obergruppenführer. المترجم.

11- كتبت رواية جورجي المطبوعة عن الاجتماع في الساعة 01.00 من يوم 21 تموز 1944؛ وبعبارة أخرى، لم تتجاوز المدة أكثر من تسعين دقيقة بعد الحدث.

جلس والد زوجتي Väterchen في مكتبه يدخن السيجار، وأمامه كأس من الكونياك. وقال لي: «عند الظهيرة، قام الكونت فون شتاوفنبرغ بإلقاء قنبلة على هتلر. قيل لنا إنه قُتل؛ تولى الفيلد مارشال فون فيتزلبن السلطة. لكننا اكتشفنا أن هتلر قد نجا، ومعظم مؤيدينا قد غيّروا مواقفهم. قد نكون قادرين على الصمود لفترة قصيرة. ربما لليلة واحدة، أو ليلتين، لكن ربما أيضاً سنموت خلال ساعة. سأموت هنا كجندي. سأموت لسبب وجيه، وأنا مقتنع بذلك. Wir haben das Letzte getan für Deutschland. لقد بذلنا قصارى جهدنا من أجل ألمانيا». ثم قال لي حماي أن أترك المكان على الفور وأنقذ عائلتي. مضت حوالي عشر إلى إحدى عشرة دقيقة، عندما دخل ستة إلى ثمانية ضباط إلى الغرفة شاهرين مسدساتهم وطلبوا معرفة سبب هذه الأوامر المتضاربة. حاول والد زوجتي مماطلتهم لكنهم أصروا على التحدث مباشرة مع الجنرال فروم. في تلك اللحظة، فتح الباب ودخل شتاوفنبرغ المكتب؛ أخبرهم أنه سيتحقق مما إذا كان فروم يمكنه لقاءهم. وعندما غادر الكونت الغرفة، فجأة أغلق الباب بشدة ودوى صوت إطلاقة رصاص في الهواء. تبعته عدة إطلاقات أخرى. استغل والد زوجتي هذه الفرصة لمصافحة يدي، ثم سحبني من كوعي وأخرجني من الغرفة. أصبحت غرفة الانتظار الآن مليئة بالرجال الذين يحملون أسلحة. في وسط ذلك الوضع المرتبك وضعت يدي فوق رأسي وخرجت. لم يمنعني أحد. كنت متأكداً حينها من أنني رأيت حماي (Väterchen) للمرة الأخيرة.

في الواقع، اقتحمت مجموعة من الضباط الموالين لهتلر بقيادة المقدم فرانز هيربر مكتب أولبريخت للمطالبة بتوضيح. كان هذا هو الوقت الذي دخل فيه العقيد فون شتاوفنبرغ وقد رأى مساعده النقيب كلاوسينغ المسدسات وقد أشهرت فكان هو من أطلق النار أولاً، قبل أن يرد عليه الضباط. وأصيب شتاوفنبرغ بجروح طفيفة ولكنه تمكن من

الفرار إلى غرفة أخرى بإغلاقه الباب[12]. وعندما أصبح على وشك أن يكون في مرمى مسدسات الضباط، سار أولبريخت على طول الممر إلى غرفة فروم الذي كان طليقاً. كان دور فروم المثير للشبهات في العملية سبباً في تعرضه لخطر شديد، وشعر بأنه بحاجة ماسة إلى إظهار ولائه لـلفوهرر Führer، فأمر بالقبض الفوري على أولبريخت وشتاوفنبرغ وميرتز فون كويرنهايم والملازم فون هايفتن.

كان هناك متآمر آخر لا يزال في هذا الوقت داخل مجمع شارع بيندلر، وهو الجنرال لودفيغ بيك، وهو رجل ذو مقام عال جداً لا يمكن مسه دون أمر مباشر من هتلر. لكنه كان يعرف الكثير عن دور فروم في القضية، وكان لا بد من القضاء عليه. عندما واجهه فروم سحب بيك مسدسه وأطلق رصاصتين على صدره. كان لا يزال على قيد الحياة عندما أمر فروم أحد العرفاء بأن يطلق عليه رصاصة الرحمة coup de grâce. واستباقاً لأي محاولة لربطه بالمؤامرة الفاشلة، أعلن فروم أنه تمّ إجراء محاكمة فورية. لم يقل من هم أعضاء المحكمة الصّوَرية هذه، لكنه أمر بتنفيذ عقوبة الإعدام بكل من «العقيد في هيئة الأركان العامة ميرز، وجنرال المشاة أولبريخت، وهذا العقيد الذي لم أعد أعرف اسمه - ولا أريد أن أعرفه أبداً، وعندها أشار إلى شتاوفنبرغ وهذا الملازم الأول هايفتن». اقتيد الأربعة المحكوم عليهم أسفل السلالم ودُفعوا إلى الفناء. كُدِّست كومة من الرمل أمام نافذة القبو كحماية إضافية ضد الغارات الجوية. تم دفع أولبريخت وشتاوفنبرغ وميرتز وهايفتن بقوة نحو كومة الرمل[13]. حدث ذلك بعد عشر دقائق من منتصف الليل. أضاءت شاحنتان متوقفتان مصابيحهما الأمامية، وأمسكت الضباط الأربعة المدانين بوهجها. ترك عشرة جنود من كتيبة الرائد ريمر مواضعهم. لقد حدث الأمر بسرعة «Auf

---

12 عن: Von der Heyde, Der 20. Juli 1944 im OKW-AHA.

13 توجد في مكانها اليوم لوحة ويمكن للزوار رؤية آثار الرصاص في الجدار.

«mein Kommando» – بناء على أوامري! وسط الصمت الخاطف الذي أعقب إصدار الأمر الصارم، لم يكن يسمع سوى الهدير العميق للمحركات المتوقفة. «Auflegen صوّب السلاح على الهدف». فجأة تقدم كلاوس شينك غراف فون شتاوفنبرغ خطوة إلى الأمام، وبدون أدنى رجفة في صوته، صاح قائلاً: «عاشت ألمانيا المقدسة! Es lebe unser heiliges Deutschland أطلق النار! Feuer!». تدفق وابل من الرصاص من عشرة مسدسات وتكومت أربع جثث على الأرض.

كان العقيد في قوات الأمن الخاصة SS أوتو سكورزني، الرجل القاسي الذي حرر بينيتو موسوليني بعد اعتقاله من قبل الجيش الإيطالي المنشق، على متن قطار في محطة برلين المركزية عندما وصلته الأخبار. وهرع إلى شارع بيندلر حيث وجد القتلى الأربعة المتآمرين. عاد العقيد جنرال فروم إلى المنزل. وهذا أثار شكوك سكورزيني. لماذا يترك رئيس جيش ألمانيا الوطني، الذي كان نائبه وأقرب متعاون معه- هو حامل القنبلة- موقعه القيادي في ليلة كهذه؟، كتم العقيد في قوات الأمن الخاصة SS شكوكه مع نفسه لبعض الوقت، وبدلاً من ذلك اعتقل بيرتولد شقيق شتاوفنبرغ، ويورك فون وارتينبيرغ، وأولريش فون شفيرين شوانفيلد، ويوغين غيرستنماير. ثم قام بتجريدهم من ميدالياتهم في فناء المبنى واحتجزهم حتى يحين موعد المحاكمة.

في الوقت نفسه، كان هتلر يتحدث في بث إذاعي مباشر على الهواء إلى جميع أنحاء البلاد: «أتحدث إليكم اليوم لكي تسمعوا صوتي وتعرفوا أنني لست مصاباً وبصحة جيدة. وسوف تطلعون أيضاً على تفاصيل جريمة ليس لها مثيل في التاريخ الألماني. فقد قامت زمرة صغيرة من الضباط المجرمين والطموحين، والأشرار، والأغبياء بالتخطيط لمؤامرة للتخلص مني ومعي جميع أعضاء قيادة القوات المسلحة. انفجرت القنبلة التي زرعها الكونت فون شتاوفنبرغ،

على مسافة مترين إلى يميني»... وأنهى خطبته العنيفة بعبارة نبوئية: «سنصفي الحسابات بالطريقة التي اعتدنا عليها نحن الاشتراكيين القوميين».

وبعد ذلك ...

أصبح سلك الضباط الألمان التقليدي منشغلاً في شيء أكثر تعقيداً بكثير من مهمته الأساسية المتمثلة في القتال والموت من أجل الوطن(Vaterland)[14] لم تكن السياسة هواية للجنود وكانوا جميعاً معرضين لأن تتأرجح رقابهم بسببها. كان هتلر يعلم أن المؤامرة لم تقتصر على مجموعة صغيرة من الضباط ذوي التفكير الطبقي بل كانت تضم أقرب مساعديه وجنرالاته. «هؤلاء اليونكرز الضعفاء (الضباط من الطبقة الأرستقراطية) الذين يحسدونه على إرادته الحديدية وعبقريته العسكرية، ويجرؤون على تسميته بالعريف القزم»! كان من المؤلم أن الأداة التي يجب عليه الاعتماد عليها لتحقيق أهدافه كانت تعارضه بشكل أساس. كانت كراهيته الشخصية موجهة الآن ضد طبقة الضباط بأكملها وأشعلت داخله لهيب غضب لا يمكن السيطرة عليه. وأصدر أوامر صارمة بأن يتمّ إعدام أي شخص له صلة بالمؤامرة بأكثر الطرق وحشية «aufgehaengt wie Schlachtvieh» وأن يذبح مثل الماشية.

أُحضر العديد منهم أمام قاضٍ عديم الرحمة ومصاب بالبارانويا هو الدكتور رونالد فريزلر، الذي عيّنه هتلر ممثلاً له في محكمة الشعب الخاصة[15]. «باسم الفوهررا» استمرت المحاكمات لأسابيع وكانت قائمة المحكومين يتم ذكرها حسب التسلسل الهرمي للجيش الألماني.

14- بالألمانية في الأصل. المترجم.

15- سقط فريسلر صريعاً إثر سقوط عارضة خشبية عليه في غرفته في المحكمة خلال غارة جوية في برلين.

كان ارتياب هتلر شبيهاً بما قام به ستالين مع الجنرال توخاتشيفسكي[16]، عندما أعدم القيصر الأحمر جميع أعضاء القيادة السوفييتية العسكرية العليا. لقد حان الوقت للتخلص من الخصوم الأقوياء والمنشقين والمثقفين والأرستقراطيين والصناعيين وعلماء الدين والكتّاب والأكاديميين. وبدون الرجوع إلى مبادئ العدالة الأساسية، اعتُبر الجميع مذنبين، وتمّ تعليق الجميع بواسطة الأسلاك في خطافات اللحوم في قبو سجن بلوتزنسي في برلين، بينما كانت وحدات التصوير السينمائي الحكومية تصور المشاهد المروعة الواحد تلو الآخر بحيث تبدو عليهم سكرات الموت الأخيرة ليتمكن الدكتاتور من مشاهدتها. لم يشعر هتلر بأي شفقة تجاههم لأنه لم يكن يعرف الشفقة.

وكان ذلك أيضاً بداية كابوس لا يمكن تصوره، تمثل في إصدار مرسوم (Sippenhaft) (العقاب الجماعي لأفراد عوائل المتآمرين). اعتُقل أفراد من عائلة المتآمرين المشتبه بهم وأُدينوا «بسبب رابطة الدم» التي تربطهم بالمتآمرين. لم يسلم أحد، ولا حتى أعظم الأبطال الألمان، وهو الفيلد مارشال إرفين رومل. لم يشارك ثعلب الصحراء بشكل مباشر في المؤامرة؛ ومع ذلك، فقد تسبّب نقده اللاذع بالإساءة إلى شخصيات خطرة مثل هيملر وغوبلز، وخصوصاً المستشار القوي الأمين لهتلر éminence grise[17]، مارتن بورمان. أرسل الجنرالان فيلهلم بورغدورف وإرنست مايزل إلى منزل رومل في منطقة هيرلينغين (في مقاطعة شوابيا) حيث كان يتعافى من جروحه في الحرب. وفي تلك المرة، لم يكن غوبلز قادراً على

16 هو مارشال في الجيش الأحمر وقد سعت أجهزة المخابرات النازية إلى تدبير مؤامرة للتخلص منه ومن بعض قادة الجيش الأحمر البارزين، وتمكنت عن طريق تسريب وثائق مزوّرة من إقناع ستالين بوجود مؤامرة انقلاب عليه، فقرر إعفاء أولئك القادة من مناصبهم وفيهم توخاتشيفسكي، واعتقالهم وإحالتهم على محكمة سرية قضت بإعدامهم في 11 حزيران سنة 1937، وتلا ذلك إعدام زوجة توخاتشيفسكي واثنين من إخوته. المترجم.

17 بالفرنسية في الأصل. المترجم.

تشويه الحقيقة أو تحريفها لتتوافق مع الأكاذيب التي أدان الآخرين أمام محكمة الشعب. اختار رومل نهاية سقراطية. ورضي الفيلد مارشال بأن يكون تجرع قنينة من السيانيد القاتل هو الأسلوب النبيل لإنهاء حياته. ونشرت صحيفة فولكيشر بيوباختر خبر وفاته بحزن عميق نتيجة لإصابته في سوح المعارك، ورقد في قبره مكللاً بالشرف العسكري.

وألقي القبض على العقيد جنرال فروم، الذي أمر بالإعدام الفوري لشتاوفنبرغ وألبريخت لتغطية دوره في القضية، واتُهم «بالجبن في وجه العدو»، وأعدم.

وجدت المحاولة الانقلابية التي حدثت في 20 تموز 1944 مرثية مناسبة لها على صفحات صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون: «في اللحظة التي تتخذ فيها الهتلرية خطوتها الأخيرة من خلال تدمير التقاليد العسكرية لألمانيا، فإنها ترفع عبئاً كبيراً عن كاهل قواتنا المتحالفة».

لديّ ملاحظة شخصية عن هذه السلسلة من الأحداث. في مساء صيفي دافئ في عام 1960، التقيت بالرجل الذي أطلق عليه الحلفاء لقب «الكوماندوز فوق العادة»، العقيد أوتو سكورزيني من الرايخ الثالث. كانت عروقه قد تجلدت بما يكفي لإغراق سفينة تايتانيك أخرى، وكانت عيناه لرجل لا يعرف قليلاً من الشفقة. كنا جالسين في شرفة منزله في مدريد، وتحدثنا عن دوره كقائد لوحدة التدخل الخاصة بالزعيم هتلر. وقال إنه لم يقم بعمله إلّا من أجل القضاء على العدو بأي وسيلة كانت. قال لي: «لم أكره أحداً، ولا حتى أعدائي». وانتقل حوارنا إلى أحداث 20 تموز، والجزء الذي لعب فيه دوراً، وكنت أشعر بالفضول لمعرفة ما هو رأيه بالمتآمرين، ولماذا أجهضت محاولتهم لقتل هتلر فقال لي: «Stümpers حمقى». وإذا كانت عيناه تظهران أية عاطفة على الإطلاق، فقد كانت تتمثل في مشاعر الازدراء بشكل كلي لأولئك الذين حاولوا وفشلوا. «إذا كان يجب عليك أن تقضي على هدف محدد، فإنك لا تضع قنبلة أسفل الطاولة وتختفي».

«وكيف كنت ستتصرف أنت؟»

«أدخل إلى الغرفة، وأسحب سلاحاً، وأطلق النار على الهدف - مرتين، للتأكد. وقبل أن يتعافى الموجودون من آثار الصدمة التي تلقوها وي حفون من تحت الطاولة، تكون في منتصف الطريق إلى لندن أو موسكو.

«وإذا كنت لا تستطيع استخدام السلاح؟»

«أجعل أحد الأشخاص يرتدي حزاماً ناسفاً، وأجعله يفجر نفسه والهدف».

كان على حق، بالطبع ليس هناك ما يقف بوجه قنبلة بشرية. لحسن الحظ، في كل واحد منا هناك شعور عال بالذنب. وهذا ما يمنع معظم الناس من تجاوز حدودهم. وهم يشكلون أغلبية البشر. باستثناء الإنسان الذي يشبه الآلة ويعمل مثل الساعة. إنسان يحمل إصبع ديناميت في جيبه وإبهامه على الزناد. روبوت انتحاري مبرمج مسبقاً للقتل.

لقد كانت محاولة شتاوفنبرغ، بقدر ما كانت نبيلة، محكوماً عليها بالفشل لأنه فكر بها ونفذها كإنسان.

فترة فاصلة

نيسان – آب 1945

«من تريد الآلهة تدميرهم فإنها تجعلهم يصابون بالجنون. في قصص الجنون الإنساني، يبرز رجل واحد: أدولف هتلر. كان في سباق نحو التدمير لمجرد إثبات وجوده؛ وبالتالي قدم مثالاً جديداً من الجنون. يمكن معرفة الرجل من خلال تصرفه غير الإنساني، وقد أدى به جنون العظمة إلى الإقدام على الانتحار وما يشبه محرقة أقوام الفايكنغ. في الساعة 3.30 مساءً يوم 30 نيسان 1945، عندما كانت القوات الروسية على وشك الدخول إلى معقله الأخير، وضع مسدساً في فمه وسحب

الزناد. بعدها صُبَّ البنزين على جثته وأُحرِقَت[18]. لم يتم العثور على عظامه أبداً.

لقد انتهت المعارك في أوروبا، لكن الحرب نفسها لم تنته بعد. تحول التركيز إلى مسرح العمليات في المحيط الهادئ، حيث واجه الإمبراطور الياباني، الذي لم يكن يعترف جنرالاته لا بالهزيمة ولا الاستسلام، مشكلة كانت تبدو مستعصية؛ وهي كيف وضع نهاية للحرب. لم تكن المعركة الأخيرة للجيش الياباني موجهة ضد عدو كبير للغاية؛ بل كانت موجهة ضد قلب اليابان نفسها، ضد إمبراطورها الإلهي.

18- مع المرأة التي كان قد تزوجها حديثاً، إيفا براون.

الفصل السابع

15 آب 1945
عاش الإمبراطور!

Tenno Heika Banzai

عاش الإمبراطور!
لقد حان الوقت الذي يتعين
فيه علينا تحمل ما لا يطاق
ونكفكف دموعنا...

• **الإمبراطور هيروهيتو، 15 آب 1945**

تحدث العاهل السماوي لإمبراطورية الشمس المشرقة قائلاً: «لماذا لم يفهموا ما كان يدور في أذهاننا؟» غمر اليأس الأسود كل شخص في الغرفة. لم يجرؤ أحد على رفع عينيه أمام الحضور الإلهي. كانوا غير متأكدين من أنفسهم، لا يزالون قلقين من أن بعض الضباط المتعصبين كانوا يتربصون في الخفاء. وحدها الشجاعة الهادئة التي واجه بها الإمبراطور الأزمة أعطتهم الأمل في المستقبل. وشاهدوا من خلال النوافذ سحابة من الدخان ناجمة عن حرق الوثائق.

في منزل نجا من الهجوم الذي شنّته القوات الجوية الأمريكية على مدينة طوكيو، أحنى ضابط رأسه وحدّق في جسم موضوع فوق طاولة

يوضع عليها الأرز. التقط الورقة، وكانت قصيدة انتحارية. وقد تناثرت بضع قطرات من الدم على خطوط حبر سميكة وثابتة.

تحدث رجل عجوز قائلاً: «سيعود زوجك إلى المنزل في غضون ساعة. يا ابنتي، هل أنت مستعدة للخبر؟».

«أنا، يا أبي».

«لقد قتل نفسه».

دُرِّبت الفتاة على عدم إظهار أي عاطفة. «لقد كنت مستعدة لذلك».

كانت اليابان تعيش في أطول يوم لها.

كان التينو tenno[1] هو الشخص المختار بنعمة من الله. كانت فكرة الإمبراطور المقدس، المرتبطة فقط بالله، تمثل مصدر القدرة الكلية للتينو. لقد رُتِّبت عليه مسؤوليات أرضية خاصة وكان ذلك في قلب العقيدة الملكية اليابانية. تسبّب الاعتقاد المتعصّب بالسلطة الإلهية للتينو الذي كان يحمله الجنود اليابانيون في جعلهم أقسى جيش في آسيا، وباتوا على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل إمبراطورهم، وهو حامل الألوهية التي تجسد روح الأمة كلها. لقد قاتلوا بشراسة وكانوا يموتون بأفضل صورة لحماية ملكهم، لأن الموت من أجله كان الشرف الأكبر لأي رجل. لكن الخضوع للعدو كان أمراً مشيناً؛ كان من الأفضل ممارسة السيبوكو[2][3] من العيش في العار.

الجندي الياباني لا يستسلم أبداً! حياته ملك لإمبراطوره الإلهي! لقد أعطى الجيش الياباني دليلاً على ذلك في صموده على أرض تاراوا،

1- الإمبراطور باليابانية. المترجم.

2- ويسمى أيضاً هارا كيري.

3- المقصود به الانتحار وهذا الفعل كان معروفاً لدى مقاتلي الساموراي الذين يؤمنون بضوابط قانون البوشيدو، وكانوا يلجؤون له لتفادي الوقوع في أيدي العدو أو لمسح عار الهزيمة. وكان قيام مقاتل الساموراي بهذا العمل يعدّ تكفيراً عن خطاياه ودليلاً على النبل والطاعة. المترجم.

وهي جزيرة رملية في المحيط الهادئ. فمن بين 4836 مدافعاً عنها، تمّ أسر 17 جندياً يابانياً فقط. مات الباقون بصورة بطولية - إما بالقنابل أو بالرصاص أو بأيديهم.

في آب 1945. كان لا يزال هناك 6 ملايين من الرجال اليابانيين مستعدين للقتال، وكانوا يطيعون أوامر إمبراطورهم طواعية وعلى استعداد للتضحية بأغلى ما يملكون، مثل المدافعين عن جزيرتي أوكيناوا وإيو جيما، التي أصبحت رموزاً للكرامة وأصبح المدافعون عنها شهداء خالدين. كانوا يخوضون المعارك مع عدو ماكر وليس لديهم أية أوهام حول ما يكمن لهم في المستقبل: المزيد من المعارك اليائسة على الشواطئ والقنابل الهائلة التي تسقط على منازلهم. وقد دفنت عائلاتهم تحت الأنقاض، لكن الجيش الياباني كان لا يزال مفعماً بالحيوية إلى حدٍّ بعيد. كانت هذه الشياطين البيضاء ذات الأنوف الطويلة[4] قد غفلت عن شيء واحد: فقد حوّلت قنابلها المدن اليابانية إلى أرض مثالية للقتل والتصدي للمعتدين. وسيدافع اليابانيون عن كل حقل، وكل جدول ماء، وكل قرية، وكل بيت، وسوف يتكبدون خسائر فادحة من أجل الانتقام لأحبائهم. والأهم من ذلك كله، ليس هناك شيء من شأنه أن يحول دون أن يؤدي الجندي الياباني واجبه المقدس لحماية إمبراطوره. في أيام الصيف الحارة تلك من عام 1945، بقيت إرادة الجندي الياباني ثابتة، ولم يتزعزع إيمانه بإمبراطوره السماوي. قبل سبعمائة عام، كانت إحدى رياح الكاميكازي (أو «الريح الإلهية») قد منعت أسطولاً حربياً للغزاة المغول الأقوياء من انتهاك شواطئ اليابان. والآن فإنهم سيلحقون أيضاً دماراً رهيباً بالعدو. سوف تتناثر جثث غرقاه وقتلاه على الشواطئ والجبال في جزر وطنهم. كان الجندي الياباني يقف ويقاتل ويموت. وبتضحيته حتى النهاية سوف يضمن لنفسه مكاناً في الحياة الآخرة.

4- المقصود هم الأمريكان. المترجم.

وهم يسمعون الآن عن هذه الخيانة المخزية من قبل سياسييهم الخونة الذين تجرؤوا على إجبار إمبراطورهم على قراءة بيان سيُذاع إلى الأمة.

منذ الصباح الباكر، كانت شبكة الإذاعة الوطنية تعلن رسالة يتكرر بثها وتقطعها الموسيقى العسكرية: «سيُبَثُّ بيان غاية في الأهمية ظهر هذا اليوم. لذا نسترعي انتباه جميع المستمعين...». في منتصف النهار، كان الناس في جميع أنحاء البلاد يسمعون لأول مرة في تاريخ هذا البلد الفخور بنفسه والذي يعود تاريخه إلى ألفي سنة، من الإذاعة، بيان الاستسلام بصوت الإمبراطور شوا تينو السماوي، المعروف لدى بقية العالم باسم هيرو هيتو إمبراطور اليابان، لا يمكن أن يحدث ذلك، يجب أن لا يحدث؛ لا، لن يسمحوا أن يحدث ما نص عليه البيان. ارتفعت صرخة الغضب من الضباط الشباب الذين أقسموا على مواصلة التقاليد المقدسة للبوشيدو[5] فرسان المجتمع المحترم، الساموراي. وكخطوة أولى، يجب تطهير اليابان بحزم من أعدائها الداخليين؛ وبعدها سيبزغ الفجر على اليابان ويأتي اليوم الذي يتغير فيه مستقبل الأمة وإمبراطورها بشكل أساس.

عند الظهيرة. تحلق الناس في جميع أنحاء اليابان حول أجهزة المذياع، في القرى، والخنادق، والملاجئ، والمدارس وبجوار أطلال مدنهم المحترقة. عند الظهر بالتحديد، وقف الجميع على أقدامهم. الشخص الوحيد الذي لم يقف هو الإمبراطور نفسه. جلس متصلباً في ملجأ مضاد للقصف ورأسه منحنٍ مُحاط بأقرب مستشاريه. عبر الأثير العالمي، من طوكيو إلى أوساكا، ومن تشونغكينغ إلى موسكو ولندن وواشنطن، ضبط سكان العالم كله أجهزة مذياعهم على طول موجة محطة الإذاعة اليابانية Nippon Broadcasting Company. بعد سماع بعض القرقعة والتشويش خرج صوت المذيع على الهواء ليعلن: هنا راديو اليابان. سنذيع عليكم رسالة مهمة.

وتبع ذلك تسجيل لصوت مرتفع نوعاً ما:

5- للمحاربين. المترجم.

بعد دراسة عميقة وأمينة. وبعد التفكير في الاتجاهات العامة للسياسة العالمية والظروف الفعلية التي نشهدها في إمبراطوريتنا اليوم، قررنا تفعيل تسوية للوضع الحالي من خلال اللجوء إلى إجراء استثنائي...

كان أطول يوم في اليابان، 15 آب 1945.

في القرن السابع قبل الميلاد، نزل من السماء كائن نصفه بشر ونصفه إله[6]، من نسل أماتيراسو، إلهة الشمس. كان اسمه جيمو تينو وهو الذي وضع الأساس لإمبراطورية الشمس المشرقة. دامت سلالته 2600 عام. كل إمبراطور أتى بعده كان يعتبر فوق أي كائن حي على الأرض. لا يجرؤ أي إنسان على رفع عينيه والنظر إلى وجهه السماوي؛ لأن عينيه ستحترقان، إن لم يكن بسبب الشمس، فمن قبل الحراس الشخصيين للإمبراطور.

بالعودة إلى الوراء لفترة طويلة، حيث إن الأباطرة اليابانيين حكموا البلاد لفترة طويلة، لا يوجد أثر لأي من هذه الكائنات الإلهية، لا لوحة، ولا نصب محفور من الحجر. أوجد راهب، يدعى كوبو دايشي، مفهوماً ثورياً، هو ديانة الشنتوية[7]، ثم ظهرت طائفة من الرهبان الجنود، وهم رجال عاشوا وفقاً لقواعد الشرف غير المرنة للبوشيدو، «مستعدون للموت على الأرض المحروقة أو في البحر العاصف». أطلقوا على أنفسهم اسم الساموراي. مع هيمنتهم المتزايدة على قضايا الغزو والدفاع، تقلصت قوة الإمبراطور إلى دور شكلي. وبينما كان لسلسلة من الأباطرة غير الفعالين والضعفاء بلاطاً في مدينة هيان كو (تعرف حالياً باسم كيوتو)، بدأ الجنود الذين أصبحوا أمراء يحكمون المقاطعات. بالنسبة لأباطرة كيوتو والبلاد، كانت هذه بداية وقت مضطرب. للفترة من عام 823 إلى 1338 جلس ثلاثة وأربعون إمبراطوراً على العرش

6- كائن خرافي في الأساطير الكلاسيكية. المترجم.

7- لم تعرف ديانة الشنتو- والتي تركت أثراً بالغاً في التفكير الياباني- طريقها إلى الانتشار على غرار الديانات الأخرى. ليس لهذه الديانة تعاليم محددة، الشيء الذي جعلها تنفتح على العادات الدينية الأخرى بدون أن تؤثر هذه في خاصيتها وتأصلها الفريدين. المترجم.

الإمبراطوري، منهم ثلاثة وعشرون تنازلوا أو قُتلوا، على أيدي أفراد الأسرة بشكل أساس، وتمت إقالة ثلاثة. قامت قبيلة أحد الجنود، وهي فوجيوارا، باقتطاع منطقة لتحكم فيها في مدينة كاماكورا. وقد خلق هذا قيادة مزدوجة: قيادة الإمبراطور الإلهي، وقيادة قائده العسكري «المخلص»، أو ما يسمى بالشوغون[8]، الذي كانت بيده السلطة الحقيقية.

في «عام 1281 الأسود»، واجهت اليابان أكبر تهديد لها. أرسل الإمبراطور المغولي قوبلاي خان أسطول غزو عظيم لاحتلال سلسلة الجزر الواقعة قبالة سواحل الصين. وبينما كانت السفن في نهاية طريقها نحو شواطئ اليابان وقد استعدت قوات قوبلاي خان للنزول، ضرب (إعصار) الأسطول وأغرق جحافل المغول. قدم اليابانيون الشكر للآلهة على إنقاذهم، وأطلقوا على الإعصار اسم كاميكازي، «الريح الإلهية». لم تتمّ محاولة أي غزو أجنبي آخر إلى أن بدأت جيوش الحلفاء تستعد لاقتحام الشاطئ في صيف عام 1945.

في منتصف القرن الثامن عشر، دخلت قوة أجنبية جديدة إلى مسرح العمليات العسكرية في المحيط الهادئ: فقد استعرضت الولايات المتحدة الأمريكية علمها قبالة شواطئ اليابان بحجة القيام بعمليات صيد للحيتان. ولدعم مصالحها البحرية في مواجهة قوة بريطانيا المتعاظمة، احتاجت الولايات المتحدة إلى قوة بحرية قوية ومرسى أجنبي. ومثلما جاء ملازم يدعى بينكرتون لزيارة مدام باترفلاي[9] جاء

8- شوغون (tai shogun -i -sei) وتعني الجنرال العظيم.

9- اسم أوبرا ألفها ملحن الأوبرا الإيطالي بوتشيني وتدور أحداث الأوبرا في اليابان في بداية القرن العشرين، في الفصل الأول تقع تشوتشوسان الفراشة وهي فتاة يابانية من فتيات الجيشا في حب ضابط أمريكي بنكرتون وتعتنق المسيحية من أجله وتحارب أهلها الذين يرفضون هذا الزواج متمسكة بالضابط الأمريكي الذي يريد العودة إلى أمريكا والزواج من أمريكية مثله، ولكنه إشفاقاً عليها يتزوجها طبقاً للطقوس اليابانية، ولكن يرفض الكاهن تزويجها لكون هذا الزواج مخالفاً للتقاليد ولا ترضى عنه الآلهة. المترجم.

الضابط البحري الأمريكي ماثيو كالبرايث بيري مع «سفنه السوداء».
في شباط من عام 1854، دخلت ثلاث فرقاطات بخارية تابعة للبحرية الأمريكية وخمس من سفن خط المعركة[10] إلى خليج طوكيو وصوبت أسلحتها نحو المدينة، بينما كان القنصل الأمريكي، تاونسند هاريس، قد أقنع الشوغون (لقب الحاكم العسكري لليابان) بالتوقيع على معاهدة كاناغاوا، التي فتحت ثلاثة موانئ للتجار الأمريكيين. أدت مؤامرة قام بها عدد من «الضباط الشباب»[11] إلى الإطاحة بالشوغون الخائن بسبب هذه المعاهدة المهينة. تلك كانت نهاية الشوغونية[12]. نقل الإمبراطور الشاب ميجي دولة ذات ماضٍ آسيوي يمتد إلى ثلاثة آلاف عام إلى مستقبل على الطراز الأوروبي. بدأ بإرسال بعثات للتجارة الخارجية والتي جعلت اليابانيين يطّلعون على طائفة واسعة من معارف الغرب. لم تنقذ اليابان ثقافتها القديمة من الاعتداء عليها فحسب، بل حوّلتها بالفعل إلى مصلحتها. أثبت ميجي أنه سياسي سريع البديهة واغتنم أي فرصة عُرضت عليه. في عام 1900، كانت الإمبراطورة الصينية الأرملة تعاني من صراع داخلي بسبب الانتفاضة المناهضة للأجانب المعروفة باسم ثورة الملاكمين[13]، فاستخدمتها اليابان ذريعة لغزو الصين. بعد أربع سنوات، أصبحت روسيا واليابان في حالة حرب، عندما حاولت روسيا الخروج من عنق الزجاجة البحري: لم يكن لديها ميناء خالٍ من الجليد في الشتاء. في عام 1905 نصب الأدميرال توغو كميناً لأسطول روسيا الإمبراطوري في مضيق تسوشيما وأغرقه. وفي هجوم جبهوي

10- نوع من السفن الحربية التي بُنيت في القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر، وهي مصممة بحيث تأخذ دوراً قتالياً في التكتيك البحري المعروف باسم خط المعركة والذي تكون فيه السفن الحربية مصطفة على شكل خط لمواجهة السفن المعادية. المترجم.

11- يستخدم مصطلح «الضباط الشبان» ليشمل الضابط برتبة مقدم فما دون.

12- نظام سياسي إقطاعي في اليابان أسّسه توكوغاوا إياسو وحكم من قبل الشوغون من بعده من عائلة توكوغاوا. المترجم.

13- يعني مصطلح «الملاكم» مجتمع القبضة المتناغمة.

انتحاري في العام نفسه استولى الجنود اليابانيون على مدينة بورت آرثر ثم اجتاحوا كوريا. توسط الرئيس الأمريكي تيدي روزفلت لبدء مفاوضات سلام بين روسيا القيصرية واليابان الإمبراطورية. وقد نال جائزة نوبل للسلام عن خطوته هذه. أصبحت اليابان القوة البحرية والبرية الرائدة في الشرق الأقصى. خلال الحرب العالمية الأولى، انضم الإمبراطور إلى الحلفاء وضمّ إلى اليابان الممتلكات والحقوق التجارية الألمانية في الصين.

صنع الإمبراطور ميجي من جيش اليابان الذي قام بتحديثه أداة هائلة للقوة الإمبراطورية. أدّت هذه الخطوة إلى ظهور طبقة حاكمة جديدة، وهي العسكريون المحترفون. على الرغم من أن هذا السيناريو أدى غرضه بالنسبة لحاكم قوي مثل ميجي، إلا أنه برهن أنه عائق خطير لحاكم ضعيف، مثل ابنه يوشيهيتو المعروف باسم تايشو. وفي حين شهدت اليابان توسعاً صناعياً سريعاً وانفجاراً اقتصادياً، لم تكن الأمور على ما يرام في المشهد السياسي. كان الإمبراطور تايشو يفتقر إلى قوة الشخصية والضمير الذي كان يتمتع به والده. استخدمت الطبقة العسكرية الجديدة هذا الأمر ذريعة للاستيلاء على السلطة، مما أدى إلى تدمير ثقافة ميجي الديمقراطية، ودخلت البلاد في سلسلة من الصراعات، ووسمت حقبة تايشو بالقمع السياسي. اغتيل رئيس الوزراء هارا، الذي تجرأ على الوقوف إلى جانب الجيش، وقاد الجنرال تيراتشي قواته في مغامرة سياسية غبية، كانت عبارة عن غزو غير ناجح لسيبيريا الحمراء. في عام 1921، تولى هيروهيتو ابن تايشو السيطرة الفعلية على شؤون الدولة وصعد إلى العرش في عام 1926 باسم شوا أو «السلام المستنير». لتوضيح اختياره للاسم، أعلن هيروهيتو في رسالة التتويج التي قُرئت على الناس والجيش: «لقد زرت ساحات المعارك في الحرب العالمية الأولى في فرنسا. في وسط ذلك الدمار، أدركت نعمة السلام وضرورة التوافق بين الأمم.

بدأ عهد هيروهيتو مع حدوث كارثة اقتصادية عالمية، أزمة الكساد في عام 1929، والتي لم تتخط اليابان. فمع عدم وجود الموارد الطبيعية والقليل من الأراضي الصالحة للزراعة لإطعام سكانها الذين يتزايدون بسرعة، أصبحت واحدة من أكثر الدول تضرراً. مما جعل الجماهير تنزل إلى الشوارع مطالبة بـ «سياسة تحقيق الكرامة الوطنية». رأت العسكرتارية اليابانية «الخطر الأحمر الذي تمثله الشيوعية» في كل مكان وبحثت عن وسيلة لتحويل انتباه سكان البلاد. واكتشفت واحدة في منشوريا. حينها بدأت الإمبريالية اليابانية مسيرتها الطويلة، التي لم تنته إلّا في آب 1945.

كان هيروهيتو، الذي تبجّله أمته كونه الإمبراطور والإله المحارب، لا يحمل أياً من هذه الصفات. فقد كان رجلاً هادئاً ابتعد عن وهج الحياة العامة، لا يشرب الخمر ولا يدخن، وكان نظامه الغذائي بسيطاً ومكوّناً من الخبز الأسود، والخضار، أو حساء الزلابية. بعد صلاة الصباح في كاشيكو دوكورو (المعبد)، يبدأ بالمشي في حديقة القصر الداخلية قبل قراءة الصحف اليومية. كان نادراً ما يغادر القصر الإمبراطوري. ويتكلم بصوت خافت. اعتبر القادة العسكريون هذا ضعفاً وتصرفوا على هذا النحو. نظرياً، كان كل جنرال مسؤولاً أمام إمبراطوره، لكن كل جنرال كان يفعل بالضبط ما يريد. لذا كان الجيش الياباني الكبير والقوي، وليس الإمبراطور، هو الذي يقرِّر السياسة الخارجية.

في 18 أيلول 1931، قرر الجيش الياباني العملاق كوانتونغ، المتمركز في كوريا، بدء نشاطاته العدائية «لوقف انتشار الشيوعية». ولتبرير هذه الاعتداءات، اختُلِق «حادث موكدين»، حيث قاموا بتلفيق حدوث عمل تخريبي على خط السكة الحديد الذي يؤمن التجهيزات والمؤن للجيش[14]، فأطلق نيران مدفعيته على بعض المدافعين التعساء عن مدينة

14- قام هتلر بنسخ هذا التكتيك عندما قام بحادث مماثل على الحدود البولندية مع بدء الحرب العالمية الثانية.

موكدين التي سرعان ما اجتاحوها حتى وصلوا إلى منشوريا. جعلت أخبار هذا الاعتداء الفاضح الإمبراطور يشعر بالاستياء. استدعى رئيس الوزراء إينوكاي وأخبره قائلاً: «نحن نعتقد أن الالتزام بالقانون الدولي وحسن النية مهمان لبلدنا. إننا نناضل من أجل السلام العالمي؛ لكن قواتنا في الخارج لا تصغي إلى أوامرنا ووسعت من حجم الحادثة بشكل متهور. وأمر قائد الجيش، الجنرال كانايا هانزو، بمنع جيش كوانتونغ من القيام بأي عدوان آخر. ومع ذلك، استمر الجيش في التقدم. لقد أظهرت قوة الجنرالات أنهم، في الوقت الذي تظاهروا فيه بالولاء لإمبراطورهم الإلهي، تجاهلوا في الواقع توجيهاته.

في أيار 1932، حاولت حكومة رئيس الوزراء إينوكاي أن تحدّ من سلطة الجيش. فقام ضباط صغار بقتله. أعلن رئيس أركان الجيش الفريق ساداو هاراكي، بشكل قاطع: «بقدر ما أستطيع أن أرى، صُمِّم هذا الحدث لتهدئة الساسة». ولن ينتهي الأمر بحادثة قتل واحدة. في فجر يوم 26 شباط 1936، اقتحمت مجموعة من «الضباط الشباب»، بدعم من ألفي جندي، مباني الحكومة في طوكيو. لحسن حظ اليابان وإمبراطورها، أنهم بمجرد أن احتلوا محطة الإذاعة والمباني الحكومية، وأطلقوا النار على عدد قليل من الوزراء، لم يكن لديهم فكرة لما يجب القيام به بعد ذلك لأنه لم يكن لديهم أي خطط أخرى. لذا استسلموا بهدوء. أصيب الجميع بالدهشة من انقلاب الجيش ونواياه. وكان من بينهم السفير الألماني الذي دعا مَن يسمى بالدكتور ريتشارد سورغ ليشرح له أهمية الانقلاب، وهو الدكتور سورغ نفسه الذي سيلعب مثل هذا الدور الحاسم في نتائج الحرب في أوروبا. وهو كبير جواسيس ستالين الذي أبلغ الكرملين في عام 1941 بأن اليابان لن تهاجم سيبيريا.

في 7 تموز 1937، وصلت الأمور أخيراً إلى ذروتها في الصدام الذي كان يخشاه الإمبراطور كثيراً. فقد جذب اليه القوى العظمى في آسيا. أمرت فرقة المشاة اليابانية الأولى، التي كانت تخيّم خارج مدينة وانبينغ

الصينية، القائد الصيني بفتح بوابة البلدة «للسماح بالبحث عن هارب ياباني». رفض الصينيون. حوّلت المدفعية اليابانية وانبينغ إلى ركام وبدأت الحرب غير المعلنة مع الصين. وعلى الفور دعا الإمبراطور هيروهيتو جنرالاته إلى أطاعة أوامره: «غير مسموح لكم بتحريك جندي واحد بدون أوامر محددة مني». وكما حدث من قبل، تجاهل جنرالاته الأمر الإمبراطوري، والأكثر من ذلك أن حكومته الجديدة -التي كانت هذه المرة تتكون من الجنرالات والقادة الميالين للقتال- قد تجاهلت الاحتجاجات الغربية. في أوائل كانون الأول، تلقى الرأي العام العالمي صدمة إضافية عندما اقتحمت القوات اليابانية مدينة نانكينغ، وقامت بقتل الآلاف من سكانها التعساء فيما عرف بحادث اغتصاب نانكينغ السيئ السمعة. وفي اليوم نفسه، وعلى حين غرة هاجم سرب من قاذفات القنابل اليابانية، وأشعة الشمس الحمراء تلتهب على أجنحتها، السفينة الحربية الأمريكية (باناي)، والتي كانت متوقفة عند مرساة في نهر اليانغتسي. سقطت قنابلهم في الماء. عندها قام ضابط السفينة التنفيذي، -والذي أصيب بإطلاقة في العنق-، بكتابة أمر إخلائها بسرعة. وبينما كان أفراد طاقمها يتوجهون نحو الشاطئ على متن قوارب النجاة، كانت الطائرات تهاجمهم بالبنادق الآلية. وقُتل ثلاثة أمريكيين. لقد أظهر الجنرالات اليابانيون أنهم كانوا راغبين حقاً في إشراك أمريكا في حرب في آسيا. أدى حادث السفينة (باناي) إلى ضغوط متزايدة من الغرب، وسرعان ما أشارت كل الدلائل إلى أن نزاعاً كبيراً سيحدث في المستقبل، على الرغم من أن الجميع قد تجاهله.

اجتاحت اليابان الصين مخلفة الدمار فيها. وسقطت في يدها مراكز مدنها الرئيسة مثل شانغهاي، ووهان، كانتون، وبكين. فخلال معركة شانغهاي، توفي 250 ألفاً من المجندين الصينيين الهزيلين، والمسلحين بشكل سيئ. ومع ذلك أظهر الصينيون قدرة هائلة على التعافي، خصوصاً بعد أن قررت القوى القومية والشيوعية دمج قواتها وتشكيل

جبهة واحدة ضد عدوهم المشترك. لم يكن هذا التحالف مناسباً على الإطلاق للسيناريو العالمي الذي تصورته الدول الديمقراطية في الغرب، وأصدرت عصبة الأمم تحذيراً خجولاً لليابان. في ذلك الوقت، كان اهتمام الغرب منصبّاً على أوروبا، حيث وصل تقدم الفاشية إلى مراحل جديدة وكانت الحرب الأهلية تمزق إسبانيا. وبعد أن باتت أيديها غير مقيدة، قامت القوات اليابانية في عام 1938 بقطع خط السكة الحديد الذي تسيطر عليه بريطانيا والممتد من مدينة كانتون إلى وسط الصين. ومن أجل التغلب على هذه العقبة، بدأ البريطانيون ببناء واحد من أكثر مشاريع الطرق طموحاً على الإطلاق، وهو طريق بورما الشهير. بحلول عام 1939، أصبحت الصين ذات أهمية ثانوية للقوى الغربية مع تحول الأحداث إلى مرحلة جديدة.

جاءت أولى الأخبار السيئة مع توقيع هتلر معاهدة لعدم الاعتداء مع ستالين لمدة عشر سنوات في آب 1939. وبعد أسبوع، غزا هتلر بولندا وبدأ حرباً عالمية. في أيلول 1940، وقّعت اليابان على الاتفاق الثلاثي مع ألمانيا وإيطاليا، ثم أدهشت الحلفاء بالتوقيع على معاهدة عدم اعتداء مع الاتّحاد السوفييتي. كانت اليابان بحاجة إلى ضمانات لحدود شمال البلاد (سيبيريا - منشوريا)، قبل أن تتحول إلى الجنوب لتستولي على بقية أراضي الصين. في 12 تموز 1941، هبط 50 ألف جندي ياباني في الهند الصينية الفرنسية (فيتنام الآن) وأعلنوها «محمية» يابانية. بقيت الولايات المتحدة واقفة تتفرج، ولم تفعل سوى إرسال مذكرة احتجاج، تجاهلتها اليابان. في 25 تموز 1941، فرض الرئيس الأمريكي فرانكلين دي روزفلت أخيراً حظراً على الوقود عالي الأوكتان، والذي كان لا غنى عنه للأساطيل الجوية اليابانية. وسرعان ما أثبتت هذه العقوبة أنها سببّت شللاً في آلة اليابان الحربية. لكن اليابان لم تستسلم للضغوط! إذا ما رفضت أمريكا تسليم الوقود الحيوي لجهود اليابان المتواصلة للتوسع في آسيا، فإنها ستستولي على آبار النفط الهولندية في إندونيسيا. لكن

الحصول على الآبار الهولندية يعني احتلال هونغ كونغ وسنغافورة، وكلاهما من مستعمرات التاج الإنكليزي. وسيؤدي ذلك مرة أخرى بالتأكيد إلى خلق بؤرة اشتعال مع القوة الصناعية الضخمة على الجانب الآخر من المحيط الهادئ. في أواخر الصيف، قامت اليابان بمحاولة تجربة حل دبلوماسي نهائي، حيث عرضت على الولايات المتحدة تقاسم السلطة في «مجال التعايش السلمي في منطقة شرق آسيا الكبرى». رفضت أمريكا بشكل قاطع الاقتراح الياباني.

في أيلول 1941، نصح رئيس البحرية الإمبراطورية، الأدميرال ناغامو أوسامي الإمبراطور قائلاً: «يجب أن نذهب إلى الحرب، احتياطياتنا من النفط تتضاءل». ثم وعد سيده الحاكم الإله أن القوة التي تتمتع بها البحرية الملكية والجيش ستمكنهم من السيطرة على جنوب المحيط الهادئ بأكمله في غضون ثلاثة أشهر. تبين أن توقعات الأدميرال كانت بعيدة عن الواقع كونها مبالغاً فيها. حيث أخطأ في توقع ما سيصل إليه ردّ فعل الولايات المتحدة. أجرى الإمبراطور نقاشاً خاصاً مع أحد أبرز المخططين الاستراتيجيين في اليابان، وهو الأدميرال ياماموتو: «صاحب الجلالة الإمبراطور،إذا ما أمرتني بالدخول في صراع؛ فمن دون النظر في العواقب، سوف أطيع أوامرك وستنطلق النيران من جميع الأسلحة لمدة ستة أشهر. لكن بعد ذلك لا أستطيع أن أعدك بالنجاح. نصيحتي هي: تجنب الحرب مع الولايات المتحدة».

كان الجنرال هيدكي توغو، رئيس الوزراء الجديد، عسكرياً عدوانياً، رغم أن الكثيرين اعتقدوا أنه قادر على كبح جماح قيام الجيش بأعمال عدائية صريحة ضد الولايات المتحدة. في 10 تشرين الثاني 1941، قال الرئيس الأمريكي لأمته: «الحرب أصبحت قريبة جداً من بلادنا». على الرغم من ذلك، لم يتمّ عمل شيء لوضع القوات المسلحة الأمريكية في حالة تأهب. وقد فشلت محاولة اللحظة الأخيرة التي قام بها جناح الحمائم في الحكومة لترتيب لقاء يجمع الإمبراطور هيروهيتو مباشرة مع

الرئيس الأمريكي عندما ارتكبت واشنطن زلة دبلوماسية، والتي اعتبرت «إهانة لصاحب الجلالة الإلهية». لقد أدى ذلك إلى تبادل خطير في توجيه الإنذارات النهائية، حيث قرر الجنرال توغو والقادة العسكريون اليابانيون أنه يجب شنّ الحرب. لكن مثل هذه الخطوة كانت تحتاج إلى موافقة الإمبراطور، وكان الإمبراطور متردداً في رؤية اليابان في حالة حرب مع أمريكا.

وفي شهر تشرين الثاني نُفِّذت خطوة عملية، وكانت سرية لم يعلم عنها حتى الإمبراطور هيروهيتو. فقد أبحرت السفينة تايو مارو، مع اثنين من ضباط البحرية رفيعي المستوى كانوا على متنها، وهما النقيبان سوزوكي ومايجيما، في طريق الهجوم الذي خطط له اليابانيون ورست في هونولولو. ولعدة أيام، كانا يراقبان تحركات السفن في بيرل هاربور وقاما برسم مخططٍ لطريقة رسو الأسطول الحربي الأمريكي.

في الأول من كانون الأول 1941، قام توغو وحكومته، التي كانت تتألف بالكامل من قادة الجيش، بإبلاغ الإمبراطور أنه لم يعد بإمكانه تأخير موافقته على الهجوم دون تعريض أمن اليابان للخطر. بهذا، كان توغو يشير إلى احتياطيات النفط المتضائلة للقوات البحرية والجوية. على أي حال، كان قد فات الأوان لتغيير خططهم لأنه، ومن دون علم الإمبراطور، كانت الحرب بالفعل تلوح في الأفق. وقبل أسبوع من اجتماع المجلس الإمبراطوري ليبتَّ في القضية، غادرت البحرية الإمبراطورية بالفعل جزر كوريل في رحلتها الطويلة نحو الصراع العالمي. وتحت قيادة نائب الأدميرال ناغومو، أنجز أسطول ضخم من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات والناقلات رحلة يبلغ طولها 5600 كيلومتر دون أن يراها أحد. كان اسمها الرمزي كوراي تانيما (الوادي المظلم). وكان هدفها، أسطول الولايات المتحدة في المحيط الهادئ في بيرل هاربور.

أبلغ رئيس الوزراء توغو الإمبراطور المتردد الحقيقة القاسية: «صاحب الجلالة الإمبراطور، أسطولك شرع بالتحرك فعلاً».

وللمرة الأولى يبدي الأدميرال ياماموتو المعارض الصريح للحرب مع الولايات المتحدة، دعمه لتوغو: «إذا كنت أريد أن أستمر في قيادة البحرية الإمبراطورية، فإن هذه الضربة أمر لا مفرّ منه». وحيث إن الإمبراطور هيروهيتو (كان لقبه شاوا تينو) أجبر على اتخاذ قرار قام به الآخرون نيابة عنه، فقد صادق أخيراً على قرار الذهاب إلى الحرب وتوجه العالم إلى محرقة عالمية الأبعاد لم تشهدها البشرية من قبل. حُدِّد تاريخ الضربة في يوم الأحد 7 كانون الأول 1941.

عبر المحيط الهادئ، كانت الولايات المتحدة تدرك تمام الإدراك حاجة اليابان الملحّة للنفط، ولهذا السبب حدّد محللوها الاستراتيجيون الأهداف المحتملة لهجوم ياباني خارج مناطق هيمنة أمريكا. وحددوا بشكل صحيح مواقع مثل شبه جزيرة المالايو البريطانية والهند الشرقية الهولندية[15]، لكنهم تجاهلوا جزر هاواي والفلبين. بالإضافة إلى هذا كان هناك عامل مذهل لم يفسر بشكل صحيح. تمكن العقيد الأمريكي وليام فريدمان المتخصص في فك الشفرات من خلال صنعه آلة فك الشفرة التي أطلق عليها اسم «ماجيك» من فك شفرة البرقيات الدبلوماسية اليابانية. في هونولولو، يوم السبت، 6 كانون الأول 1941، قبل أربع وعشرين ساعة من الهجوم، هرعت دوروثي إيدغرز وهي موظفة في الاستخبارات البحرية الأمريكية متخصصة في فك الشفرات، إلى مكتب رئيسها؛ لقد قامت لتوّها باعتراض برقية يابانية مفادها أن الهجوم على هونولولو بات وشيكاً! أخبرها رئيسها أن هذا الأمر يمكن أن ينتظر حتى يوم الاثنين. وبعد عدة ساعات، تسلم رئيس أركان الجيش الأمريكي الجنرال جورج مارشال برقية أخرى تمّ اعتراضها. لقد اتخذ إجراءات فورية وحذّر القواعد الأمريكية في جميع أنحاء العالم. لكن الشيطان تدخل، وجعلت الظروف الجوية السيئة الاتصال اللاسلكي مع قاعدة بيرل هاربور البحرية الأمريكية في المحيط الهادئ أمراً مستحيلاً.

15- إندونيسيا. المترجم.

جلس أدميرال الأسطول الإمبراطوري ياماموتو وراء طاولته على متن سفينة القيادة أكاجي وشرع بكتابة قصيدة: إن رغبتي الوحيدة هي خدمة الإمبراطور وأن أكون درعاً له ... ولن أبخل بحياتي أو شرفي. اندفع الأسطول الياباني عبر الأمواج العاتية وأصبح على بعد 230 ميلاً شمال جزيرة أواهو (هاواي). كانت الطائرات التي ستقوم بالهجوم منتظمة في صف واحد على ظهر حاملات الطائرات الست اليابانية. وكان الطيارون في قمرة القيادة الخاصة بهم مع قنابلهم وطوربيداتهم المتدلية تحت أجنحة الطائرات المصنوعة من الألمنيوم. كان يتصاعد صوت هدير المحركات. في الساعة 7:55 من صباح يوم الأحد 7 كانون الأول 1941، أصدر القائد ميسو فوتشيدا، قائد موجة الهجوم الأولى المؤلفة من 183 طائرة يابانية كانت جاثمة على سطح حاملات الطائرات، أمره الشهير بالهجوم: تورا! تورا[16]! وهكذا بدأت الحرب في المحيط الهادئ. هوجمت السفينة الحربية يو إس إس ويست فيرجينيا من قبل ستة طوربيدات، والسفينة أوكلاهوما من قبل خمسة، والسفينة كاليفورنيا من قبل اثنين، وحدث الأمر ذاته مع السفينة يوتا. كما هوجمت أيضاً سفن تينيسي وميرلاند وبنسلفانيا ونيفادا فيما انفجرت سفينة أريزونا. وصدرت برقية من جزيرة فورد: هجوم جوي على بيرل هاربور - هذا الأمر عاجل، أكرر، الأمر عاجل!

على بعد آلاف الأميال، ساد الارتباك داخل السفارة اليابانية في واشنطن. وكان السفير قد تلقى أمراً بتسليم إعلان الحرب شخصياً إلى وزير الخارجية الأمريكي، والذي كان من المقرر أن يُقَدّم قبل ساعة واحدة من بدء الهجوم. كان السكرتير الذي لم يستخدم من قبل آلة كاتبة على النمط الغربي هو من طبع الترجمة؛ وتسبب هذا في التأخير وأدى إلى تسليم الإعلان بعد ساعة واحدة من ضرب الطائرات اليابانية لميناء بيرل هاربور. كان خطاب «يوم العار» الذي أدلى به الرئيس الأمريكي أمام الكونغرس الأمريكي هو المقدمة لعملية إسقاط القنبلة الذرية.

16- اختصار كلمة Totsugeki: هجوم باللغة اليابانية.

دُمّرت قاعدة ماك آرثر الجوية في الفلبين. بعد يومين، أصبح عصر السفن الحربية شيئاً من الماضي عندما أُغرِقت سفينتان رئيستان بريطانيتين هما أمير ويلز[17] وريبالس بواسطة الطائرات التي تنطلق من قواعد برية. سقطت هونغ كونغ، ومن ثم سنغافورة وبعدها الفلبين. في خضم إعصار الغزو، لم يوقف أي شيء الجيوش الشبيهة بالروبوت من التحرك عبر مياه المحيط الهادئ. في اليابان، كان كل انتصار يُحتفى به من قبل حشود من تلاميذ المدارس وهم يلوحون بالأعلام. اجتاحت البلاد النشوة، بينما خيّم جو من الهزيمة على واشنطن. وعندما كانت الكآبة في أوجها، وقّع الرئيس الأمريكي على الأمر التنفيذي رقم 9066، الذي أعطى الجيش الحق في جمع 127 ألف أمريكي من أصل ياباني واحتجازهم في عشرة معسكرات اعتقال.

لكن لم يكن كل شيء على ما يرام في اليابان. واجه الجنرالات الكبار بعض المشاكل الأساسية. وكان في مقدمة ذلك كله، هو كيفية تأمين الدفاع عن إمبراطوريتهم المتوزعة في مساحات شاسعة، وفي الوقت نفسه، تحقيق تسوية سلمية سريعة مع الولايات المتحدة، قبل أن تصل الماكنة الإنتاجية في الولايات المتحدة إلى أعلى المستويات. وأصبحت خطوط الإمداد في اليابان تعاني من نقص خطير، حيث قُلِّمت مخالب جيشه المنتصر في كوهيما، كما أن فخر البحرية، حاملات طائراتها الأربع الرئيسة، أغرقتها الطائرات المنطلقة من حاملة الطائرات الأمريكية ميدواي. بعد ثمانية عشر شهراً من هجوم بيرل هاربور، بدأت اليابان تخسر الحرب. قامت معامل الصناعة الثقيلة في أمريكا بخلق المعجزات، في حين كان علماؤها يعملون في مشروع فائق السرية، وهو مشروع مانهاتن.

عند شمال مدينة سانتا في ولاية نيومكسيكو تقع سلسلة جبال جيمز، وهي سلسلة من التلال القاحلة التي تطوق هضبة عالية تدعى ميسا، وهو الاسم الذي أطلقه الغزاة الإسبان على مدينة لوس ألاموس. وأصبح

17- وكانت شهرتها بسمارك.

هذا الموقع يضم أول مصنع لفصل البلوتونيوم في العالم، وكان يديره الفيزيائيون والكيميائيون وعلماء الرياضيات من جميع أنحاء العالم. كان من المفروض أن تصبح العلوم النووية هي مركز اهتمامهم، على الرغم من أن البعض منهم، ولا سيما العالم جاكوب روبرت أوبنهايمر، لم يستطع التخلص من مخاوف معينة من العواقب المحتملة لعملهم[18]. لقد وصلهم التحذير ونجوا بأعجوبة. لقد تمكن لويس سلوتن، وهو عالم كندي من منع حدوث تفاعل متسلسل غير مقصود[19] عندما شطر بالخطأ كتلتين حرجتين[20]. وأصبح أول ضحية معروفة لمرض جديد ومميت، هو داء الإشعاع.

بحلول عام 1944، بدأت وحدات الجنرال ماك آرثر بالتنقل ما بين الجزر الموجودة حول جنوب غرب المحيط الهادئ، وتبعتها كارثة اليابان البحرية في خليج ليتي التي فقدت فيها أربع سفن حربية وخمس حاملات طائرات وستين سفينة أخرى بالإضافة إلى 7000 طائرة فريدة من نوعها مع طياريها. وحلّ أدميرال بحري، هو البارون كانتارو سوزوكي، محل رئيس الوزراء توغو. في أيو جيما، تجمع بقايا المدافعين حول قائدهم، الجنرال كوريباياشي، وقاموا بتفجير أنفسهم داخل ملجأ تحت الأرض. كان يمينهم المقدس الذي ينص على «الولاء حتى الموت» يتضمن قواعد عملية للموت. لقد عهدت اليابان بدفاعها إلى بعض الشباب الشجعان ولكن غير المدربين، أي «طياري الرياح الإلهية»، الكاميكازي. كان شعارهم «ضربة آمنة، وموت آمن». جُمِّعوا في تشكيل سلاح النخبة من قبل الأدميرال تاكيريو أونيشي، قائد الأسطول الجوي

18- كان أحدهم عالماً ألمانياً، هو كلاوس فوشس، الذي أصبح عميلاً للسوفييت وأعطى الروس تصميم القنبلة بالكامل.

19- كان يمكن أن يؤدي إلى انبعاث إشعاع مميت يقتل زملاءه وتعرض وحده له. المترجم.

20- الكتلة الحرجة هي أقل كتلة من اليورانيوم - 235 أو البلوتونيوم - 239 التي يمكن أن يتم فيها التفاعل المتسلسل من دون توقف. المترجم.

الأول، وأصابت ضربتهم الأولى حاملتي الطائرات ساراتوجا وبمسارك سي، مما أسفر عن مقتل 500 جندي أمريكي. وإجمالاً، أدت هجمات الكاميكاز إلى غرق أو إلحاق أضرار بالغة بـ 300 سفينة أمريكية. ولكن الرياح الإلهية مثلها مثل القوات البرية اليابانية، لم تكن قادرة على وقف مدّ الحلفاء المتدفق على شواطئ اليابان.

في ليلة 9-10 آذار 1945، أمر قائد القوات الجوية الأمريكية الجنرال كورتيس لوماي 279 قاذفة عملاقة من طراز B-29 بمهاجمة طوكيو بسلاح جديد، هو قنابل النابالم M-69، وهي مزيج هلامي من المطاط والبنزين. اختار مواطنو طوكيو تجاهل صفارات الإنذار والبقاء في بيوتهم الخشبية. وجعلت طائرتا استكشاف وسط المدينة يلتهب بأشعة أكس وموجات من القنابل أفرغت 1900 طن من مادة النابالم. وخلقت عاصفة نارية، وصلت درجة حرارتها إلى 1800 درجة مئوية واستمرت لمدة أربعة أيام. قتلت القنابل ما لا يقل عن 80 ألف إنسان، وتركت أكثر من مليون منهم بلا مأوى، وحوّلت ربع المدينة إلى رماد ملتهب. أبحرت سفينة ياماتا الخارقة لتقوم بمهمة انتحارية ودُمِّرت. ضربت الغواصات الأمريكية طوقاً حول الجزر. وقد فاق وزنها الغاطس وزن الغواصات الألمانية.

في 21 حزيران 1945، أصبحت أوكيناوا في أيدي الأمريكيين. ومن بين 120 ألفاً من المدافعين اليابانيين، نجا فقط 7000. وقد انتحر قائدهم، الجنرال ميستوري أوشيجيما، وضباطه جميعهم التزاماً بما كان يعرف بالسيبوكو. وفي اليوم التالي، استدعى الإمبراطور هيروهيتو مجلس حربه الأعلى واقترح وقفاً فورياً لإطلاق النار، أعقبته مفاوضات مع العدو. وأصرّ الفصيل العسكري، بقيادة وزير الحرب الجنرال كورشيكا أنامي، على استمرار الكفاح الذي لا أمل فيه. مع سقوط حصن الجزيرة الأخير الذي يحمي الجزر اليابانية الرئيسة في هوكايدو وكيوشو وسيكوكو وهونشو، حشد الأمريكان أسطول غزو هائل ضمّ 42 حاملة طائرات وأربع وعشرين سفينة حربية و750 ألف رجل. وفي الوقت

نفسه، تمّ الشروع بعملية سرية للغاية، ونُشِرت الوحدة العسكرية 509 من الأسطول الجوي الأمريكي العشرين، في جزيرة تينيان المرجانية في المحيط الهادئ. في الساعة 5:25 من صباح يوم 16 تموز 1945، قام فريق «روبرت أوبنهايمر» بتفجير أول قنبلة نووية في موقع اختبار. حينها قال العالم العظيم: «الآن أصبحت أمثل الموت، ومدّمر العالم»[21]. في 26 تموز 1945، قرر مؤتمر الحلفاء في بوتسدام أن لا يقبل أي شيء أقل من استسلام اليابان غير المشروط، أو أن اليابان ستواجه تدميراً ساحقاً وماحقاً. لم يذكر الحلفاء ما هي الوسائل التي سيتم استخدامها لتحقيق هذا الهدف. لكن العالم سرعان ما اكتشفها.

كانت احتمالات ما يخبئه المستقبل تثقل بشكل كبير على تفكير جلالة الملك. كان ينتظر البلد مصير رهيب، عالق في كابوس تمثله أكثر القنابل وحشية والتي ستحرق مدنه. النتيجة العسكرية أصبحت أمراً مفروغاً منه. كان السؤال الوحيد هو: كيف يمكن لليابان الحفاظ على كرامتها وشرفها في وجه الهزيمة المؤكدة؟ لم يكن باستطاعة أحد سوى الإمبراطور تعزيز معنويات الأمة في وجه الكارثة الحتمية، وفي الوقت نفسه، إنقاذ البلاد من المذبحة التي ستخلفها الفوضى الكاملة. توجه الإمبراطور نحو النافذة وشاهد السماء تتوهج باللون الأحمر وراء الخندق الذي فصل القصر الإمبراطوري عن أهوال طوكيو المحترقة. كيف يمكن إقناع جيشه بأن وقف إطلاق النار، مهما كانت الشروط التي يمليها العدو، هو السبيل الوحيد لإنقاذ اليابان من الدمار الكامل؟

في 27 تموز 1945، اجتمع المجلس الأعلى للحرب لمناقشة إعلان بوتسدام الذي صدر في اليوم السابق. أعلن وزير الخارجية شيجينوري

21- وهي عبارة استقاها من قول اللورد فيشنو في البهاغافاد غيتا. (الكتاب الهندي المقدس في الديانة الهندوسية. المترجم.) لمعارضته لبرنامج القنبلة النووية، فُصِل اوبنهايمر في عام 1952 واتُهِم بالخيانة خلال فترة «الذعر الأحمر» أو ما عرف بالمكارثية. وتمّت تبرئته من هذه الاتهامات، لكنه مُنِع من إمكانية الوصول إلى البيانات النووية.

توغو بشكل قاطع: «إن الجيش لن يقبل الإعلان أبداً بالطريقة التي ظهر بها».

انتظر الجميع في الغرفة ردّ فعل وزير الحرب الجنرال كوريشيكا أنامي. لم يظهر في عيني أنامي أية مشاعر، سوى مشاعر الازدراء. «نرسل مذكرة احتجاج قوية إلى الحلفاء».

«لا،» جادل رئيس الـوزراء سوزوكي، ثم أضاف كلمة ستصبح مشهورة؛ «سنقوم ببساطة بالـ(mokusatu موكاسوتو) ومعناه القتل من خلال التزام الصمت حول إعلانهم».

كان خطأً فادحاً، حيث خلصت واشنطن إلى أن مطلبهم لم يؤخذ على محمل الجد. أعلن وزير الخارجية الأمريكي هنري ستيمسون: «كان علينا أن نظهر أن الإنذار الأخير يعني بالضبط ما قاله، وهو التدمير الحتمي والكامل للقوات المسلحة اليابانية والتدمير الكامل للأراضي اليابانية».

في الساعة 2:45 من صباح يوم 6 آب 1945، هدر صوت قاذفة القنابل سوبرفورتريس بي 29 إينولا غاي الأمريكية وهي تقلع من مدرج المطار في الجزيرة المرجانية تيناني. كان قائدها هو العقيد في سلاح الجو الأمريكي بول دبليو تيبتس. كانت الأوامر التي تلقاها من الجنرال في القوة الجوية الأمريكية توماس ت. هاندي محددة تماماً: «... إيصال القنبلة الخاصة على الهدف اعتماداً على الظروف الجوية الجيدة وإلقائها على أحد الأهداف التالية: كوكورا ونيغاتا وهيروشيما وناغازاكي...» وفي تمام الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة و17 ثانية من يوم السادس من آب 1945 دخل العالم العصر النووي. قال الطيار المساعد في إينولا غاي، النقيب روبرت لويس، «يا إلهي، ماذا فعلنا!» كان هناك شيء مذهل ومرعب بشأن القوة الرهيبة التي انفلتت من عقالها لتتسبب بمثل هذا التدمير الوحشي. لقد أصبح الوميض الساطع بشدة إشارة إلى المستقبل الذي لا يمكن تصوره لليابان وغيّر قواعد الحرب.

لقد خلق العقل العلمي وحشاً بروميثياً[22] ووضع في يد الإنسان نار الشمس نفسها.

في اليوم التالي، اضطر الفريق توراشيرو كوابي، نائب رئيس هيئة الأركان، إلى القيام بمهمة كريهة وهي إبلاغ إمبراطوره بأن قنبلة ذات قوة غير معروفة قد قضت على مدينة هيروشيما بأكملها. عند تلقيه هذه الأخبار، قال الإمبراطور لرئيس وزرائه: «بالنظر إلى هذا النوع الجديد من الأسلحة، فإن اليابان عاجزة عن مواصلة الحرب». وأضاف إن مأساة هيروشيما يجب ألا تتكرر. وقد أصيبت حكومة سوزوكي، التي كانت حتى ذلك الحين تأمل في استخدام المساعي الحميدة للاتحاد السوفييتي من أجل إنهاء الصراع في المحيط الهادئ، بخيبة أمل شديدة عندما أعلن الاتحاد السوفييتي في 8 آب 1945 الحرب على اليابان واجتاح جيشه منشوريا في غضون ثلاثة أيام. كانت الصدمة مدمرة، لا سيما وأن مدينة يابانية أخرى وهي ناغازاكي تعرضت للدمار في الصباح نفسه بسبب انفجار ذري ثانٍ. بقيت الإمبراطورية اليابانية بدون خيار سوى قبول الاستسلام المخجل وغير المشروط. ومع ذلك رفض الجيش الاستسلام، وقال الجنرال أومازو: «لن يتمكنوا من الحصول على سيفي»[23]، وزعم أن اليابان لم تخسر الحرب. مع مثل هذه التصريحات، أصبح من الواضح أن الجيش يفضل أن تتمّ إبادته بالكامل بدلاً من الاستسلام المذل.

يوم الخميس 9 آب، اجتمع مجلس الوزراء لتحديد مصير اليابان. افتتح وزير البحرية الأدميرال يوناي الاجتماع عندما قال بشكل قاطع: «سنفوز بالمعركة الأولى لكن ليس المعركة الثانية. لقد خسرنا الحرب ويجب أن ننسى الحفاظ على ماء الوجه ونستسلم بأسرع ما يمكن».

22- نسبة إلى بطل الأسطورة اليونانية بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة وأعطاها إلى الإنسان وأصبح رمزاً لقوة التدمير. المترجم.

23- كان هو نفسه الجنرال أومازو الذي سيضطر في النهاية إلى التوقيع على وثيقة استسلام اليابان على متن السفينة الحربية الأمريكية يو أس أس ميسوري.

عارضه وزير الحرب الجنرال أنامي بشدة: «من السابق لأوانه القول إننا خسرنا الحرب. مقاتلونا لن يلقوا أسلحتهم، فهم يعرفون أنه غير مسموح لهم بالاستسلام. بالنسبة لنا لا يوجد بديل سوى مواصلة الحرب».

«ولكن ماذا بشأن تلك القنبلة العملاقة...».

قاطعه الجنرال أومازو «لقد كانت مجرد قنبلة عادية، ربما أكبر نوعاً ما، لكنها ليست سوى قنبلة عادية. تذكر قصة المحارب الذي هرب لأنه أعتقد خطأً أن صوت ضربات أجنحة الطيور كانت أصوات جزمات العدو؟».

ومن أجل كسر الجمود داخل الزمرة الحاكمة، اتخذ رئيس الوزراء خطوة لم يسبق لأحد أن تجرأ على اتخاذها من قبل: لقد طلب بتواضع عقد اجتماع خاص بحضور الإمبراطور. في ظل الظروف العادية، لم تكن مسؤولية القرارات السياسية أبداً من مسؤولية الإمبراطور الإلهي، بل تركت لأقرب مستشاريه. هذه المرة كان الأمر مختلفاً؛ لا يمكن إلا للمعونة الإلهية deus ex machina[24] حل المشكلة وإنقاذ البلاد. حتى تلك اللحظة لم يكن الإمبراطور يتخذ أي قرار، وكان لا يفعل سوى أن يوافق (أو يرفض في بعض الحالات) قرارات الحكومة. فجأةً أُيقِظ من عزلته بسبب الحاجة الماسّة إلى قرار حكيم.

عند منتصف الليل من يوم التاسع من آب. سار جلالة الإمبراطور على طول ممر مظلم وضيق وقد جعلته الرطوبة يتصبب عرقاً وسط الضوء الخافت. كانت الغرفة التي يعقد فيها المجلس الأعلى للحرب اجتماعاته تقع في ملجأ مضاد للقصف، مبني من الكونكريت، وذي سقف مكون من عوارض فولاذية وجداره من ألواح خشبية داكنة. كانت مضاءة بشكل سيئ وذات تهوية رديئة وسط حرارة شهر آب الخانقة. في صفّين من الطاولات، انحنى أحد عشر عضواً من أعضاء المجلس

24- باللاتينية في الأصل. المترجم.

الأعلى، كان بعضهم يرتدي بذلات صباحية عادية وارتدى الآخرون بذلات رسمية جديدة وأعينهم مثبتة على الأرض. طلب الأدميرال بارون سوزوكي من أمين سر مجلس الوزراء أن يقرأ بصوت عالٍ إعلان بوتسدام: «لقد أوصل المستشارون العسكريون اليابانيون إمبراطورية اليابان إلى عتبة الإبادة...» وانتهى بـ: «ندعو حكومة اليابان إلى الإعلان الآن عن الاستسلام غير المشروط لجميع القوات المسلحة اليابانية، وتقديم ضمانات مناسبة وكافية عن حسن نيتهم لتنفيذ مثل هذا العمل. البديل لليابان هو تدمير فوري وكامل».

بعد لحظة من الصمت، أومأ الإمبراطور برأسه فيما طلب رئيس الوزراء من وزير خارجيته، شيغينوري توغو، التوصية بالقبول الفوري لإعلان بوتسدام. أقحم وزير الحرب، الجنرال أنامي، نفسه بقوة ليلفت الانتباه كما لو كان الأمر لعبة تقاسموها جميعاً، وكان حريصاً على القيام بدوره: «إن نتيجة المعركة من أجل اليابان غير معروفة حتى يتمّ خوضها. سيتم خلق وضع لا مثيل له إذا سمحت الحكومة بالاستسلام».

انحنى رئيس الوزراء أمام الإمبراطور: «مطلوب منكم اتخاذ القرار يا صاحب الجلالة الإمبراطور...».

بالنسبة للإمبراطور، كانت تلك هي اللحظة المثالية لاتخاذ القرار. الخطوة التالية ستكون غير قابلة للنقض وسوف تؤدي إلى نهاية 2600 سنة متواصلة من حكم الأباطرة الإلهيين. كان أسلافه دائماً ينظرون إلى أنفسهم كممثلين مجسدين للسلطة المطلقة، سواء كانت المؤقتة أو الأبدية. إن الإذعان لمطالب قواته المسلحة يتجاوز قدراتها ورغباته على حدٍّ سواء. كان القرار أخلاقياً، لكن بالنسبة للإمبراطور، كان فلسفياً أيضاً. كان ذلك الرجل النحيل شبه الواهن مشبعاً بقوة تحمل وشجاعة كبيرة، ولم يكن يفقد قوة إرادته في الشدائد. لقد بذل حياته كلها في هذا الجهد من الإرادة. نعم، كانت هناك طريقة أخرى. فالنظام القديم الذي يحكم الإمبراطورية، رغم أنه قد يكون محتضراً، لكنه لم يكن قد مات

بعد. كان لا بدّ من إعادة خلق اليابان. عندها فقط يمكن أن تحتل المكانة التي تنتمي إليها عن جدارة؛ عندها فقط يمكنها أن تغتنم الفرصة التي ضيّعها جنرالاتها من جديد وتصبح زعيمة في آسيا. اليابان التي تبعث من جديد، ذات حكومة من شأنها أن تنفذ إرادة شعبها، وليس إرادة إمبراطور إلهي أو جنرال مولع بالحرب. لذلك يجب عليه التصرف بسرعة، ليسحق «الزمرة التي تدعو إلى الحرب». كان كل ما يعوّل عليه هو إرادته الإلهية. وعلى مدى بضع دقائق، لم يكن يُسمع سوى صوت الأنفاس المتعبة لاثني عشر رجلاً. وسط السكون تناهى صوت طير الكراكي[25] الهادئ: «لا أستطيع أن أرى قوّاتي المخلصة قد تمّ نزع سلاحها كما هو واضح». ولكن الوقت قد حان لتحمل لا يطاق. ومن دون كلمة أخرى سار من أمام الرؤوس المنحنية. تكلم الإمبراطور وكانت إرادته مستمدة من الله.

أكد الإمبراطور هيروهيتو لـكاتم أسراره الماركيز «كيدو» أن سلامته الشخصية ليست بذات شأن عندما يتعلق الأمر بإنقاذ البلاد، وأنه مستعد للقيام بأي خطوة لضمان استسلام فوري. نصحه الماركيز بخطوة لم يسمع بها من قبل: خطاب إذاعيّ يوجهه الإمبراطور لشعبه. وافق هيروهيتو وفي الوقت نفسه طلب من وزير الخارجية توغو إرسال مذكرة تتضمن قبول طلب الحلفاء. استغرق الأمر أربع ساعات أخرى قبل أن يكون البيان جاهزاً ليعرضه سفيرا اليابان في السويد وسويسرا. وقد جاء فيه: «إن الحكومة اليابانية مستعدة لقبول الشروط المذكورة في الإعلان المشترك الصادر في بوتسدام... على أساس أن هذا الإعلان لا يشمل أي طلب يمس امتيازات جلالة الإمبراطور كحاكم ذي سيادة».

تزايد القلق في اليابان، عندما كان الجميع ينتظر رد العدو. أما في واشنطن فقد نصح وزير الخارجية هنري ستيمسون الرئيس ترومان بشدة على أن يحفظ كرامة الوجود الإمبراطوري لتسهيل الاستسلام. أضافت

25- يرمز في اليابان إلى طول العمر والمقصود به هنا الإمبراطور. المترجم.

وزارة الخارجية ربما في حالة نشوة النصر عبارة بائسة للبيان الرسمي. عندما وصلت البرقية إلى طوكيو، تسبّب ما تتضمنه من طلب في حدوث صدمة: «يستلزم حضور الإمبراطور والقائد الأعلى للجيش الياباني للتوقيع على شروط الاستسلام».

وقد علق أحد المؤرخين على هذا:

«من المؤسف، أن الرئيس الأمريكي ومستشاريه لم يدركوا في أعقاب الحرب مركز الجاذبية السياسي في اليابان. الذي يقع في شخص الإمبراطور (التينو)، الإله السماوي، ولأنه يمثل رب القوات المسلحة، وفي نظر شعبه كان هو الإله، كان هو الرمز الأسمى للحياة والفكر الياباني. ومع ذلك، كان هناك شيء واحد لا يستطيع أن يفعله، وهو أن يأمر شعبه بالاستسلام دون قيد أو شرط، ويصبح بالتالي مجرم حرب، وتتم محاكمته أو إعدامه[26].

هذا الخطأ الدبلوماسي سيكلف الأمريكيين غالياً. في الواقع، كان مطلبهم يؤدي إلى وضع حدّ لحكم الإمبراطور وتحريض الجيش الياباني، الملتزم بشرفه على أن يموت من أجل سيده السماوي، على الاستمرار في صراع لا معنى له، من بلدة إلى أخرى، ومن شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت. في تلك الليلة نفسها، بثّت إذاعة طوكيو رسالة من الجنرال أنامي جاء فيها: «ليس لدينا سوى خيار واحد: يجب أن نقاتل، لأن في موتنا هناك فرصة لبقاء بلادنا».

في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه إذاعة طوكيو نداءها، «لا استسلام»، جرى حدث آخر أكثر أهمية. اجتمع في الطابق السفلي من مبنى مكتب الحرب الياباني في مرتفعات إيتشيغايا، خمسة عشر ضابطاً شاباً[27] لاتخاذ القرار بشأن الخطوات التي يجب اتخاذها من أجل «حماية»

26- عن: .J.F.C. Fuller, The Decisive Battles of the Western World

27- هذا تعبير ياباني يعود إلى ثورة إصلاحات الإمبراطور ميجي وليس مصطلحاً يدل على رتبة صغيرة.

كرامة الإمبراطور والشرف المقدس للقوات الإمبراطورية. كان قائد هذه المؤامرة ضابطاً شاباً متعصباً للغاية وشاحب اللون قليلاً، هو الرائد كنجي هاتاناكا. إن الشيء المخزي الذي طالب به الأمريكيون إمبراطوره الإلهي أحرق قلبه. والأسوأ من ذلك، أنه لم يستطع أن يسمح لملكه الإلهي أن يعاني من سوء المعاملة على أيدي وزرائه، الذين يجبرونه الآن على توقيع مثل هذا الاستسلام. لمع بريق في عينيه عندما أعلن: «يجب القضاء على الخونة». وكان هاتاناكا يشير بهذا، إلى «فصيل السلام» داخل الحكومة. وهم رئيس الوزراء سوزوكي، ووزير الخارجية توغو، ومستشار الملك الخاص، الماركيز كيدو، الذي كان له اتصال مباشر مع جلالته الإلهي: تمّ تحديد هؤلاء الثلاثة ليتمّ اغتيالهم فوراً. وسيكون مفتاح المؤامرة هو ردّ فعل الفريق تاكيشي موري، الذي يقود الحرس الإمبراطوري الذي تمّ اختيار أفراده بدقة والذي من دون موافقته، لن يتمكنوا من اجتياز كتيبة حرس الشرف ودخول القصر الإمبراطوري. إذا رفض موري الانضمام إلى المؤامرة، فإنه سوف يتعين عليهم أيضاً القضاء عليه. وانضم إلى المؤامرة الوافد الجديد المهم، والذي يحمل مشاعر التعصّب نفسها الرائد هيديماز كوجا، وهو شخص جريء بشكل جذاب والذي تمت إعارته كضابط أركان من فرقة الحرس الإمبراطوري. علاوة على ذلك، فقد كان صهر رئيس الوزراء السابق، الجنرال المخلوع هيديكي توغو الذي كان لا يزال بإمكانه ممارسة نفوذ كبير في دوائر الجيش. وقد علم كوجا، مثل هاتاناكا وملايين عديدة من الناس عبر البلاد، «بالخيانة العظمى التي قامت بها زمرة من السياسيين» من خلال المنشورات التي أسقطتها الطائرات الأمريكية، والتي تتضمن النص الدقيق لمذكرة الاستسلام اليابانية.

قام الأمريكيون بإسقاط هذه المنشورات بحسن نية لوقف المزيد من إراقة الدماء. ولكن بالنسبة للفرد الياباني العادي كان من غير المقبول أن يجبر إمبراطورهم الإلهي على الانحناء أمام العدو. حمل الماركيز كيدو

أحد المنشورات ليريها للإمبراطور، محذراً إياه: «يجب أن نتحرك بسرعة أو إن الجيش سينتفض». وافق الإمبراطور. وأمر بإعداد البث الإذاعي لخطابه، وطلب من رئيس الوزراء سوزوكي أن يدعو إلى اجتماع آخر للمجلس الإمبراطوري. ما كان عليه أن يخبر وزراءه وقادة الجيش المتجمعين، وجميعهم كانت الدموع تترقرق في عيونهم، هو أن جلالته قد قرر مخاطبة الأمة. وقال بنبرة هادئة: «لست مهتماً بما قد يحدث لي». «أنا أرغب في أن يقوم مجلس الوزراء بإعداد بيانٍ إمبراطوريٍّ لإعلان إنهاء الحرب».

استدعى الجنرال أنامي الفريق موري إلى القصر وأخبره بقرار الإمبراطور. أجاب قائد الحرس الإمبراطوري: «اذاً يجب علينا الالتزام به.» وبهذه العبارة وقّع على شهادة وفاته. ثم أرسل البرقية التالية إلى جميع وحدات الجيش:

«وزارة الحرب، 14 آب، 02:30 مساء سوف تعمل القوات المسلحة بشكل صارم وفقاً للأمر الإمبراطوري الذي أصدره جلالة الإمبراطور. (التوقيع) الجنرال أنامي».

وبذلك دعم وزير الحرب قرار الإمبراطور. وقد تبعه قائد الجيش في المنطقة الشرقية، الجنرال شيزوشي تاناكا، مباشرة بإصداره أمراً مماثلاً:

«14 آب. ستتصرف القوات الإمبراطورية وفقاً لأمر الإمبراطور. (التوقيع) الجنرال تاناكا».

أدرك الرائد (هاتاناكا) أنه لا يوجد وقت يضيعه ويجب عليه أن يتحرك. واتصل بأشد مؤيديه، الليفتنانت كولونيل ماساتاكا إيدا، من قسم الشؤون العسكرية.

كان إيدا متردداً: «كلا يا هاتاناكا، النار التي يُصب الماء عليها لن تشتعل مرة أخرى». رفض هاتاناكا أن تثبط عزيمته. وقام برفقة اللفتنانت كولونيل شييزاكي مستخدماً الدراجة الهوائية، بالتوجه عبر طوكيو إلى مقر قيادة الحرس الإمبراطوري. كان يخشى من أنه بمجرد أن يقرأ الإمبراطور بيانه الإمبراطوري، يكون قد فات الأوان.

عندما وصل إلى العقيد تويوجيرو هاغا، قائد الكتيبة الثانية، من فرقة الحرس الإمبراطوري، فجّر الرائد هاتاناكا على الفور كذبة قائلاً: «وزير الحرب [أنامي]، وقائد الجيش في المنطقة الشرقية [تاناكا]، وقائد الفرقة الإمبراطورية [موري] يدعمون الانقلاب». تردد قائد الكتيبة في اتخاذ موقف، ولكن ليس لفترة طويلة.

وفي طريق العودة إلى مقر قيادة الجيش، سأل اللفتنانت كولونيل شييزاكي: «ماذا لو كشف موري خدعتك ولم يمنحنا الضوء الأخضر؟».

أجاب هاتاناكا: «سوف يفعل».

«وإذا لم يفعل؟».

كان هناك بريق في عينيه المظلمتين وطاقة غاضبة في رده: «عندها سيكون الحل الأخير هو قتله».

وفي منتصف الليل، وصل الإمبراطور هيروهيتو، الذي كان يرتدي بذلة القائد العام، إلى مبنى وزارة رعاية القصر الإمبراطوري حيث ينتظر فريق الإذاعة لتسجيل خطابه للأمة.

«بدأ خطابه قائلاً: استناداً إلى ولائنا وإخلاصنا لهذه الأمة، وبعد تفكير عميق في اتجاهات السياسة الدولية والظروف الفعلية في أمتنا اليوم، قررنا أن نقوم بتسوية الوضع الحالي باللجوء إلى تدبير غير عادي... «ثم توقف عند عبارة من شأنها أن تحدد المسار المستقبلي لليابان: «وحِّدوا كامل قواكم، لتكريسها لبناء المستقبل. ازرعوا طرق الاستقامة، وعزّزوا روح النبل والعمل بالإرادة والتصميم، وبذلك تعزّزون المجد المتأصل في الدولة الإمبراطورية ومواكبة تقدم العالم». وأثبتت هذه الكلمات أنها كانت نبوءة.

ثم سُلِّم شريط التسجيل إلى اثنين من كبار موظفي البلاط الإمبراطوري، توكوغاوا وتودا، اللذين توليا مهمة الحفاظ على القرص المختوم بالشمع في مكان آمن. أغلق توكوغاوا عليه في خزنة صغيرة خاصة، ثم وضع كومة من أوراق متفرقة أمامه لإخفاء الصندوق المعدني عن الأنظار. وبهذه الخطوة البسيطة أدرك أنه سيحمي التسجيل من الدمار.

في استوديو التسجيل، تنفس وزير الإعلام شيمومورا الصعداء: «الإمبراطور قام بالتسجيل. نحن في مأمن الآن».

رد عليه مساعده: «لم تنته الليلة بعد».

سمع الرائد هاتاناكا بالتسجيل عن طريق أحد المتآمرين معه كان متواجداً داخل محطة الإذاعة.

التفت إلى تاكيشيتا قائلاً: «موري لا يزال ليس معنا إلى الآن».

أضاف اللفتنانت كولونيل تاكيشيتا إلى حديثه قائلاً: «وأنامي، مهما حدث، فسيتمسك بكلمته».

فقال هاتاناكا «إذن يجب عليك الذهاب وإقناع وزير الحرب».

اقتحم اللفتنانت كولونيل تاكيشيتا حينها مكتب شقيق زوجته، وزير الحرب أنامي، في حالة عصبية شديدة. واتهم الجنرال بالخيانة إذا فشل في استدعاء الجيش لإيقاف الإمبراطور عن التوقيع على الهدنة.

هز أنامي رأسه قائلاً: «لقد اتخذ الإمبراطور قراره ويجب أن أطيع إمبراطوري».

صاح تاكيشيتا بصوت عالٍ جداً كان يمكن سماعه على طول الممرات: «لا يجب أن يتم هذا الاستسلام وإلّا ستضطر إلى أن تقتل نفسك بسيفك».

التزم وزير الحرب الصمت. بالنسبة له فإن القرار في كلتا الحالتين يخلق معضلة غير قابلة للحل. وبينما كان واجبه يكمن في الجيش، كان ولاؤه للإمبراطور. وكان الإمبراطور يتحدث. منذ تلك اللحظة، عرف أنامي أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى مخرج واحد.

في هذه الأثناء، ذهب هاتاناكا لمواجهة الجنرال موري في مقر الحرس الإمبراطوري. كان موري يعقد اجتماعاً مع نائبه، اللفتنانت كولونيل شيرايشي، عندما اقتحم الرائد هاتاناكا والنقيب أوهارا الغرفة دون طلب الإذن. ما حدث بعد ذلك لن يتمّ شرحه بشكل كامل، حيث لم يكن هناك شهود مباشرون. لم يمر على المتآمرين في مكتب الجنرال سوى دقيقة واحدة فقط حتى سُمع صوت إطلاق نار، تلاه عدة

صرخات. ثم ظهر هاتاناكا في المدخل، ومسدس في يده. وصاح قائلاً: «لم يكن هناك وقت للمجادلة لذلك قتلته». اندفع النقيب أوهارا من الباب المفتوح، وهو يمسح الدم من سيفه.

لقد قضى مقتل كل من موري وشيرايشي على أية فرصة كان يمكن لهاتاناكا الحصول فيها على مساعدة من الجيش. كان عليه أن يتصرف بسرعة. وبمشاركة الرائد كوجا، أصدر الأمر الاستراتيجي لفرقة الحرس الإمبراطوري رقم 548. وقد أصبح الانقلاب يجري الآن على قدم وساق.

وقد جاء في الأمر:

1. *سوف تتمكن فرقة الحرس الإمبراطوري من هزيمة مشروع العدو. وتحمي الإمبراطور وتحافظ على السياسة الوطنية.*
2. *سيقوم قائد فوج المشاة الأول بالسيطرة على القصر لحماية العائلة الإمبراطورية. وسوف يكلف القائد أيضاً فصيلاً للسيطرة على محطة البث الإذاعي في طوكيو ويمنع جميع الإذاعات من البث.*

وأعقب ذلك تحديد سلسلة أهداف لبقية وحدات الفرقة. وقد سرق الرائد هاتاناكا الختم الخاص بالجنرال موري من مكتبه الملطخ بالدم وقام بتثبيته في أسفل المستند لإضفاء الشرعية على الأمر. ومع ذلك، كان التزوير واضحاً. ثم هرع الرائد هاتاناكا إلى المقر الرئيس للعقيد هاغا، وأخبر قائد الكتيبة أنه المبعوث الخاص للجنرال موري؛ وأخبره أيضاً أن الأمر صدر للكتيبة الثانية للحرس الإمبراطوري بالسيطرة على القصر «لحماية صاحب الجلالة الإلهية»، واعتقال الوزراء الموجودين في منطقة القصر، والأهم من ذلك، تحديد موقع تسجيل بيان الاستسلام مع إعلان أن الإمبراطور اضطر لتسجيل البيان نتيجة لضغوط من «الخونة».

في داخل القصر، طلب الأمير كونوي، شقيق الإمبراطور، من

الماركيز كيدو أن يلتقيه على الفور: «سمعت بعض الإشاعات المقلقة حول فرقة الحرس الإمبراطوري. هل سمعت أنت أي شيء؟».

هزّ كيدو رأسه، وكان على وشك أن ينحني ويخرج عندما رأى من النافذة مجموعة من الجنود المدججين بالسلاح يسيرون في الفناء. كانوا من كتيبة الحرس الإمبراطوري الثانية، بقيادة العقيد تويوجيرو هاغا. في غضون دقائق كان كامل المجمع الإمبراطوري في أيدي المتمردين. كل من وجد هناك، بغض النظر عن وضعه أو عمره، كان محبوساً في زنزانة. فشلوا في الإمساك بتوكوغاوا وتودا، اللذين يعرفان مكان إخفاء التسجيل. عندما سمع الحاجبان الإمبراطوريان صوت وقع الأحذية خارج بابهما، هربا عبر ممر تحت الأرض إلى مكان مجهول. قام الجنود بتفتيش أجزاء من القصر محاولين العثور على التسجيل الثمين، في حين أن الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه تغيير الوضع بمجرد وجوده لم يكن على علم بالانقلاب الذي يجري. حتى في حالة حرجة كهذه، لم يجرؤ أحد على إزعاج نوم صاحب الجلالة الإلهية.

وأخيراً تمّ إبلاغ الجنرال تاناكا، قائد الجيش في المنطقة الشرقية، بقتل الجنرال موري. وأصدر أمراً إلى جميع وحداته: «*على جميع الوحدات التي تحيط بالقصر الإمبراطوري أن تتفرق فوراً*».

سلّم الليفتنانت كولونيل إيدا نسخة من هذا الأمر إلى هاتاناكا: «لقد انتهى كل شيء. الجيش في المنطقة الشرقية ليس معنا. لكن هاتاناكا كان رجلاً متقلباً ومتهوراً. إن إرادته في خدمة إمبراطوره، الذي شعر أنه تعرض للخيانة من قبل أتباعه المنافقين في البلاط، أصبحت ترتكز على هدف واحد بحيث إنه لا يوجد شيء - باستثناء الموت - يمكن أن يحرفه عن هدفه.

هرع الليفتنانت كولونيل تاكيشيتا عبر البلدة لرؤية والد زوجته، الجنرال أنامي فوجده يكتب مذكرة وداع: «بالنسبة لجريمتي الكبرى، فإني أطلب المغفرة من خلال قتل نفسي. كوريشيكا أنامي، ليلة 14 آب

1945». ربما كان يفكر عندما قرر اتخاذ هذه الخطوة اليائسة والنهائية في مصير أحد أسلافه اللامعين، قائد الجيش الإمبراطوري الياباني أيام حكم إمبراطور ميجي، الجنرال نوجي، الذي قتل نفسه بسبب فشله في القيادة. توجه إلى تاكيشيتا قائلاً: «سوف يتم بث خطاب الإمبراطور غداً، ولا أستطيع تحمل أن أستمع إليه». دخلت الريح الباردة إلى الغرفة؛ وجاء الموت نفسه ليلتحق بها. كان الجنرال أنامي يستعد لنوم طويل.

استدعى الجنرال تاناكا العقيد هاغا من مقر قيادة الجيش في المنطقة الشرقية. وأخبر قائد الكتيبة الثانية بأن موري قد اغتيل، وأن الأمر رقم 548 كان تزويراً صارخاً، وأن هاغا أمر بانسحاب وحدته فوراً من منطقة القصر. استدار هاغا والغضب يشتعل في عينيه نحو هاتاناكا، الذي تصادف وجوده إلى جانبه: «الآن فهمت أن هذا الأمر كله لم يكن سوى كذبة. لم يكن هدفه إنقاذ حياة الإمبراطور. هذا تمرد تام ولا أريد أن اشترك فيه».

شحب وجه هاتاناكا. وبدون أن يقول كلمة واحدة، وقبل أن يوقفه العقيد، استدار وغادر الغرفة. وتمكن من الخروج من القصر قبل دقائق من وصول الجنرال تاناكا ليتولى مهام القيادة العامة ويضع الأمور في نصابها الصحيح.

في تلك الأثناء كان أنامي يركع على حصير التاتامي (حصيرة أرضية يابانية تقليدية)، وفي يده خنجر مغطى بالدم. كان نصف جسمه العلوي يتحرك جيئة وذهاباً، مثل بندول بينما غمر دم كثير قميصه الشعائري الأبيض.. كانت روحه قد غادرته بالفعل، لكن جسده لم يمت. لقد قام بعملية الانتحار (السيبوكو) وقف اللفتنانت كولونيل تاكيشيتا خلفه وشاهد عذاب جنراله المحبوب وهو في سكرة الموت حتى لم يعد قادراً على تحمله. أزال الخنجر من يد الرجل المحتضر، وغرسه في عنقه. وبشكل بطيء تهاوى جسد الجنرال ليتحول إلى جثة هامدة، وزير الحرب في حكومة صاحب الجلالة الإمبراطور، إلى الأمام.

مع عودة الهدوء، خرج تودا حاجب الإمبراطور من مكان اختبائه وتفقد الأضرار التي أحدثها الجنود أثناء بحثهم عن شريط تسجيل بيان الإمبراطور قائلاً لنفسه: «لم أتصور أبداً أنني سأعيش يوماً لأرى ذلك؛ الجنود اليابانيون يهاجمون إمبراطورهم!».وقد تنفس الصعداء عندما وجد الخزنة ولم يمسسها أحد، وفي داخلها، كان شريط التسجيل الذي لا يقدر بثمن.

في فجر يوم 15 آب. نجا الرائد هاتاناكا من محاولة بحث عن المطلوبين كانت تستهدفه وتوجه إلى مبنى البث الإذاعي وهو يستقل دراجة هوائية، وقد وجده بدون حراسة وفي حالة من الارتباك التام. كانت هناك تقارير غير مؤكدة عن وقوع انقلاب، وأسرع الصحفيون للحصول على معلومات. ولكن خطوط الهاتف المتصلة بالقصر كانت مقطوعة وأُغلقت مداخله من قبل وحدات مسلحة لديها أوامر بإطلاق النار على أي شخص يحاول الدخول. اقتحم هاتاناكا استوديو البث المباشر دون أن يعترضه أحد، وطلب من العاملين فيه أن يجعلوه يتحدث على الهواء مباشرة. فأجابه أفراد الطاقم الفني المذهولين أنه لا يمكن القيام بذلك بسبب انقطاع التيار الكهربائي ولأنه لا يوجد خط مفتوح للإرسال. ولوح هاتاناكا بمسدسه، لكنه لم يستطع التغلب على المشكلات الفنية التي لم يفهمها. بات يعلم حينها أن الأمر قد انتهى. انزلق الورق الذي يحتوي على بيانه المعد سلفاً من أصابعه وخرج من المبنى.

في الساعة 7.21 صباحاً بتوقيت طوكيو، خرج مذيع الراديو على الهواء: «سيوجه صاحب الجلالة الإمبراطور رسالة إمبراطورية. وسيتمّ بثها ظهر هذا اليوم»...

في الساعة الثامنة صباحاً، أعادت الكتيبة الثانية للحرس الإمبراطوري، بنجاح تام، القصر الإمبراطوري إلى أيدي الحكومة.

في الساعة 8.10 صباحاً، استقبل الإمبراطور كبير حجابه فوجيتا ولم يقل سوى هذه العبارة: «لماذا لم يفهموا ما كان يدور في أذهاننا؟».

في مقر القيادة العليا المؤقت داخل القصر، أصدر الجنرال تاناكا أمراً

بالقبض على الرائد هاتاناكا والمتآمرين معه. أُلقِي القبض على النقيب شيجيتارو أويهارا، قاتل الليفتينانت كولونيل شيرازي، من قبل الكيمبيتاي (جهاز الاستخبارات العسكرية اليابانية)، لكن أُطلِق سراحه بسبب وعده بأنه سينتحر. قُبِض على آخرين، ولكن لم يكن زعيم المجموعة، كينجي هاتاناكا من ضمنهم لقد كان في المكان الذي كان آخر ما يتوقع أن يكون فيه، راكعاً على الحصى الموجود أمام القصر الإمبراطوري. استخدم المسدس نفسه الذي قتل فيه الجنرال موري وفجر دماغه. شاهد شريكه في المؤامرة اللفتنانت كولونيل جيرو شيزاكي صديقه يموت، حينها استل سيفه الرسمي وغرزه في بطنه.

اجتمع الأدميرال تاكيجيرو أونيشي، الذي تبنى عملية «الريح الإلهية» (الانتحار)، مع ضباط أركانه أمام القصر الإمبراطوري حيث ركعوا وانتحروا جماعياً، وبذلك أصبحوا الآن يخدمون إمبراطورهم في عالم آخر. أقلعت آخر مجموعة من الطيارين الانتحاريين (الكاميكازي) بطائراتهم التي تحطمت في البحر.

بُثّ بيان صاحب الجلالة الامبراطور إلى أمته على الهواء كما هو مقرر. في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً، من يوم 15 آب 1945.

وبعد ذلك ...

كتب ونستون تشرشل في عمله الملحمي، تاريخ الحرب العالمية الثانية: تصل المأساة الإنسانية إلى ذروتها وسط حقيقة أنه بعد كل المجهودات والتضحيات لمئات الملايين من الناس والانتصارات التي حققتها قضيتنا العادلة، لم نتمكن من العثور على السلام والأمن، وإننا نقع في قبضة مخاطر أكثر سوءاً من تلك التي تغلبنا عليها.

بعد ست سنوات مروعة، انتهت الحرب العالمية الثانية أخيراً على متن سفينة حربية أمريكية في المحيط الهادئ. لكن ما الذي حققته الحرب؟ ومن هم المنتصرون الحقيقيون؟

في عام 1941، دخلت أمريكا الحرب وهي غير مستعدة تماماً. فقدت أسطولها في ميناء بيرل وسلاحها الجوي في الفلبين خلال أربع وعشرين ساعة فقط. في غضون أشهر، أصبح المحيط الهادئ بحيرة يابانية. ثم جاءت معركة حاملة الطائرات في جزيرة ميدواي وبدأ يتحول مسار الأحداث. خلال ثمانية عشر شهراً، تمكنت عظمة الصناعة الأمريكية من إنتاج أكبر آلة حربية على الإطلاق تمخر عباب البحار. وبينما كان مسرح الحرب الرئيس لا يزال متركزاً في أوروبا، وكانت الجيوش تخوض معارك شرسة ويائسة، وطُرِدت الدبابات الألمانية من روسيا، وبينما تمّ غزو النورماندي وتحرير فرنسا، استمرت الحرب في المحيط الهادئ دون أن يلاحظها أحد تقريباً. أصبح مما لا شك فيه أن اليابان بعد خسائرها التي لا يمكن تعويضها في معركة خليج ليتي في تشرين الأول 1944 لن تكسب الحرب. إنها مأساة كلا البلدين، اليابان والولايات المتحدة، التي فشل فيها القادة الأمريكيون في إدراك الأهمية السياسية الأكبر لانتصارهم فيما وصف بأنه أعظم معركة بحرية في التاريخ. وبعد أن وفرت الجهد الرئيس لتركيع اليابان، كان من مصلحة الولايات المتحدة القصوى تحقيق «نصر فوري في المحيط الهادئ، دون مشاركة حلفائها» وتحقيق أعلى ربح من جهود الأمة الحربية الهائلة. كان هذا يعني أن على أمريكا أن تربح بمفردها لتفادي المضاعفات اللاحقة، خاصة مع الاتحاد السوفييتي الذي كانت سياساته التوسعية معروفة جيداً، وقبل انتهاء حربهم في أوروبا. فقد الأمريكيون كل المزايا السياسية في آسيا عندما أعلن الاتحاد السوفييتي حرباً في اللحظة الأخيرة على اليابان ومنحته الحرية لتوسيع نفوذه الشيوعي على كامل الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا. نتيجة لذلك، سرعان ما تحولت الحملة الصليبية الأمريكية لـ «السلام في المحيط الهادئ» إلى مواجهة بين القوتين العظميين، والتي ستؤدي إلى حدوث مشاكل في الصين وكوريا وفيتنام في السنوات القادمة.

ما تنبأ به الإمبراطور قد حدث. في كانون الأول 1945، قُضِي على

دولة الشينتو، التي كانت منذ ألف عام حصناً لعبادة الإمبراطور. لقد مثّل هذا الأمر نقطة تحول حقيقية في المجتمع الياباني ومرجل رئيس للتغيير. أدى ذلك إلى الخطوة التالية التي لا مفرّ منها الآن. أصبح الإمبراطور الإلهي نفسه أقوى رمز لشفاء الأمة في الأول من كانون الثاني 1946، فاجأ الإمبراطور هيروهيتو بلاده بإعلان مقتضب استقبله شعبه بحزن شديد: «إن الروابط بين الإمبراطور وشعبه لا تعتمد على الأساطير والخرافات. وهي غير مبنية على المفهوم الخاطئ بأن إمبراطورهم إلهي». بعبارة بسيطة، تنازل السليل السماوي للشمس عن حقه، وحق خلفائه، في اعتبارهم ذوي صفات ألوهية. كان عصر جديد، هو عصر الديمقراطية، في طريقه إلى الظهور.

رحل الإمبراطور هيروهيتو عن الدنيا وهو في عامه السابع والثمانين[28]. ورحل معه التاريخ القديم لليابان. ركعت حشود ضخمة خارج القصر الإمبراطوري لتقدم الاحترام الأخير للرجل الذي لم يعد هو الإله، ولكن رجلاً، محبوباً جداً من قبل شعبه. لقد كان حاكماً يرغب دائماً في أن يكون قريباً من شعبه، وهو ما لم تسمح له به مكانته السماوية.

فترة فاصلة

1945–1959

مات هتلر، وأُعدِم موسوليني، واستسلمت اليابان. لقد تغيّرت خريطة العالم، واضطرت الدول في كل قارة إلى الاختيار بين معسكرين، متقدم ومحافظ وشرقي وغربي. كان أي تفكير بالحياد مجرد خداع للنفس. وقد أدى اندلاع صراع مسلح حدث في كوريا لفترة قصيرة من الزمن إلى اختلال في حالة التوازن العالمي، لكنها لم تتجاوز حافة الهاوية. كان التهديد بمحرقة نووية مروعة للغاية متوقعاً أكثر. كانت العلاقة

28- في 7 كانون الثاني 1989.

بين القوتين العظميين الذريتين، في حالة المحافظة على الوضع القائم (status quo). «لن نلمس كعكتك إذا لم تأكل كعكتنا». وقد نجح هذا الأمر وبقي الوضع في العالم على ما يرام لسنوات، وشعر الجميع بالامتنان لذلك، حتى وقعت المشاكل في جزء من العالم لم يكن يتوقعه أحد، وكاد أن يبعث الصواريخ النووية إلى مدار الأرض.

انتقل مشهد الأحداث من واشنطن وموسكو إلى جزيرة في البحر الكاريبي، هي كوبا، حيث قامت المافيا بإنشاء سلسلة من الفنادق الفاخرة والكازينوهات، وحيث كانت المشروبات الكحولية تتدفق بكل حرية، وحيث كان الرئيس يبارك الاقتصاد الأسود والسوق السوداء ويحصل على جزء من الأرباح، فيما كان الكامبيسينو *campesino*[29] (المزارعون والفلاحون) يعانون من الفقر المدقع. كانت هذه أرضٌ خصبة لزراعة بذور الاشتراكية العادلة. وفي 26 تموز1953، وهو اليوم الذي وقّع فيه مفاوضون من الأمم المتحدة وكوريا الشمالية هدنة في بانمنجون التي تقع بعيداً، التقط ابن مالك مزرعة للسكر بندقيته للصيد واقتحم الثكنات العسكرية في مدينة سانتياغو دي كوبا. كان ذلك بداية المشكلة. فشلت الانتفاضة. أُلقِي القبض على الشاب المثير للمشاكل وصدر حكمٌ بحقه. ثم أطلق سراحه بوساطة أحد الأساقفة ونُفي إلى المكسيك. بعد عامين، حاول فيديل كاسترو مرة أخرى. وجمع أعضاء عصبته من المتمردين على متن يخت طوله ثمانية عشر متراً، ورسا في جزء ناءٍ من كوبا. لكن خططه تعرضت للخيانة وقُتِل معظم أفراد عصبته أو أُسِروا. لم ينج سوى كاسترو واثنا عشر من أقرب شركائه (رفاقه). اختبأ كاسترو (الملتحي) لمدة عامين في المنطقة الجبلية من سييرا مايستري في حين ازدادت أعداد أتباعه باطراد. تمّ تشكيل مجلس ثوري بقيادة فيديل. والباقي كانوا جميعهم من قدامى المحاربين الكوبيين. وضم شقيقه راؤول وكاميلو سينفويغوس وخوان ألميدا وهوبيرت

[29] بالإسبانية في الأصل. المترجم.

ماتوس وإيفيجينيو ألميجيراس وكريستينو نارانجو وفوستينو بيريز. وجميعهم كوبيون. وأحد الأرجنتينيين الذين انضموا إلى التمرد، وهو الدكتور أرنستو غيفارا.

وصفت الصحافة العالمية رؤيتهم السياسية العالمية (Weltanschauung) بأنها مزيج ما بين أنشطة الخارجين عن القانون أمثال روبن هود ولكن مع مسدسات كبيرة، وفلسفة كارل ماركس عن العدالة التي كانت تمثل جزءاً منها. وفي استثناءات قليلة، كانت لا تنتمي إلى الاثنين[30]. لم يكن أتباع كاسترو من اليسار أو اليمين كانوا أناساً بسيطين من أمريكا اللاتينية. كان دافعهم الوحيد هو الحاجة لإسقاط رئيس فاسد وزمرته من المسؤولين. ثم إقامة نظامٍ ديمقراطيٍّ حقيقيٍّ محل النظام الإقطاعي الذي ورثته كوبا من الإسبان: وهي خطوة لم يسمع بها أحد في السياسة في أمريكا اللاتينية، وكان لا بدّ أن تضعهم في مسار تصادمي مع مصالح مالية راسخة. كان فيديل كاسترو «معتدلاً» نسبياً. وكانت آراؤه، كما كان متوقعاً، آراء اشتراكي ثوري. اما أخوه راؤول فقد كان شيوعياً متشدداً. وكان كاميلو سينفويغوس كوبياً قلقاً. وكان الأرجنتيني، تشي، مختلفاً: كان مثقفاً وتروتسكياً ولاتينياً خالصاً، كان يعتقد أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق النصر. وفي عمل مسلح متقن جرى في عيد الميلاد سنة 1958، استولى أرنستو تشي غيفارا على مدينة سانتا كلارا الحيوية وفتح ذلك الطريق أمامه للتوجه إلى هافانا.

30- أمضى المؤلف عدة أشهر بصحبة فيدل كاسترو في منطقة سييرا مايستري. كان الكتاب المفضل لفيديل والذي كان يضعه جنبه على السرير هو كتاب Commando Extraordinary القائد الأسطوري، قصة العقيد أوتو سكورزيني، لم تكن هناك أية أدبيات شيوعية على رف الكتب الخاص به. لم يرغب المؤلف، الذي قضى الكثير من الوقت في هذه الفترة بصحبة فيدل، في التكهن بالسبب الذي جعل كاسترو يغيّر رأيه.

الفصل الثامن

8 تشرين الأول 1967
دائماً حتى النصر

Hasta la victoria sempre!

دائماً حتى النصر!

أرنستو «تشي» غيفارا، بوليفيا، 1967

لا يهمنا الموت،

سنرحب به طالما ستُسمَع صرخاتنا...

• أرنستو «تشي» غيفارا، بوليفيا، 1966.

Tierra Muerta (وتعني بالإسبانية الأرض الميتة)، هذا هو الاسم الذي أطلقه السكان الأصليون من الهنود الحمر (indios) على القرية التي كان يقبع بالقرب من مدخلها هيكل سيارة جيب صدئة، زال طلاؤها. يحمل شارات الجيش البوليفي الباهتة. وهناك مجموعة من المباني غير المصقولة ذات الجدران الطينية وقد تشبثت بها قشور من الجص بجانب التلال، تلفحها الشمس الاستوائية. لم تكن هناك كنيسة، مجرد صليب خشبي على قمة صخرة كبيرة، كان بمثابة مكان للصلاة الجماعية. أما النساء (indios) فكن يرتدين التنانير الزرقاء الباهتة، وجلودهن القاتمة تظللها القبعات ذات الحواف العريضة التي يرتديها سكان جبال الأنديز، ويعملن خارج أكواخهن. وكان هناك كلب سائب يتحرك خلسة، ويبحث

عن قطعة لذيذة من أرنب بري. وطفل يطارد طوقاً من القصب على طول المسار الرملي الذي يشبه لون الصدأ، والذي يؤدي إلى وسط القرية. كان مكاناً تفوح منه رائحة الفقر، بائساً للغاية لدرجة أن حتى الخنازير كانت هزيلة.

إن قرية لا هيغويرا في مقاطعة ريو غراندي في بوليفيا هي المكان الأقل احتمالاً لجذب الانتباه على سطح الأرض. ومع ذلك، أصبحت موضع اهتمام العالم كله ليوم واحد. في 9 تشرين الأول 1967، جابت أرجاء العالم برقية مثيرة تقول: لقد قتل الجيش البوليفي الشخصية الثورية الأسطورية...

لا هيغويرا؟ أين كان أقرب مهبط طائرات؟ كيف سيصلون إلى هناك، ليسبقوا منافسيهم لتغطية الحدث الأبرز في عقد الستينيات؟ كان محررو الأخبار يمعنون النظر في خرائط أمريكا اللاتينية، حجزت الموظفات الإداريات في الصحف تذاكر طيران لمراسليها البارعين، وقامت الشبكات التلفزيونية باستئجار الطائرات. تظاهر الأشخاص المشتركون في أكثر الأعمال سرية، إنهم مصورون، وقاموا بإجراء ترتيباتهم الخاصة. كان الجميع يريد رؤية الجثة! ولكنها ليست أية جثة، كانت لذلك الأرجنتيني، أو، كما سيعرف في كتب التاريخ، باسم تشي.

في هافانا، عاصمة كوبا. انطلقت منذ الساعة التاسعة مساءً حفلة الرقص التي أقامها الرئيس لمناسبة حلول العام الجديد 1958، كانت حدثاً كبيراً يحضره جميع المشاهير. قبل خمس عشرة دقيقة من منتصف الليل، وقف الرئيس فولغينسيو باتيستا، الذي ارتدى بذلته البيضاء المعتادة، أمام طاولته ولوّح إلى الجنرال كانتيلا. فتح الحضور طريقاً له وحيّوا رئيسهم المبتسم بالتصفيق أثناء مروره من خلال أزواج الراقصين قاصداً الخروج. وجد السيناتور رولاندو ماسفيرر، قائد الحرس الخاص المشهور بوحشيته، أنه من الغريب أن يغادر الرئيس قبل بدء الاحتفال بالعام الجديد. وبشكل خفي وبحذر تابع باتيستا وشاهده وهو يصعد إلى السيارة. كان الأمر غريباً، كما

هو حال معظم الأحداث التي هزّت العاصمة في الاثنتين وسبعين ساعة الأخيرة، منذ وصول الأخبار المؤلمة عن الانتصار الساحق الذي حققه تشي غيفارا في سانتا كلارا. استدعى ماسفيرر سائقه الخاص وأمره بالسير بحذر وراء سيارة الليموزين التي يستقلها الرئيس. عندما تحولت سيارة الرئيس إلى شارع المطار، أدرك ماسفيرر أن الوضع أصبح خطيراً للغاية. كان فولغينسيو باتيستا قد تخلى عن أصدقائه وتركهم يواجهون مصيرهم. وبينما كانت هافانا تقرع أجراس العام الجديد، وسدادات الشمبانيا تفرقع في الكازينوهات وقاعات الرقص، كانت هناك طائرة تحلّق عبر المحيط الأطلسي، وهي تحمل ديكتاتوراً خائب الأمل إلى المنفى. أسوأ ما يمكن أن يقال عن باتيستا، وهو الرقيب الذي رقّى نفسه إلى رتبة جنرال وتحول من هناك إلى منصب الرئيس، هو أنه كان فاسداً وواقعاً تحت تأثير العصابات الأمريكية. بطريقة ما، كان نظامه لا يشبه في شيء النظام الديكتاتوري والظالم الذي سيخلفه.

بدأ عصر كاسترو على وجه التحديد في اليوم الذي اكتشفت فيه الصحافة العالمية فيديل كاسترو، واعتباره شخصية تاريخية جديدة. كان يلهب حماس الجماهير بخطابات جوفاء، وفهم أن الدعم الشعبي قد يكون ذا تاثير أكبر من قوة الشرطة المدعومة بالبنادق. أخذ درساً من الخطباء العظماء، الذين كانوا يركِّزون في أية رسالة يوجهونها إلى «الناس»، على الأسلوب أكثر من المضمون. ووسط دخان سيجارته كان يعلن للحشود التي تهتف له أن «النظام الإقطاعي قد أفسح المجال للديمقراطية الحقيقية». وتعهد بإجراء انتخابات حرة لكنه لم يحدّد متى سيحل ذلك التاريخ. وتحدث عن إعادة كتابة دستور الأمة وفق أسس القانون والعدالة، لكنه لم يصدر أي أوامر من هذا القبيل. ووعد بالتساهل والتسامح مع أعدائه، لكنه أعدمهم جميعاً. لقد تلذذ المنتصرون بانتصارهم، فيما كان المواطن العادي يدعو من الله أن لا يتحول فيديل كاسترو إلى نوع الحاكم نفسه الذي كافح من أجل الإطاحة به.

دخل فيديل كاسترو هافانا بكل عزيمة رجلاً ثورياً منتصراً. في ذلك اليوم كان العالم يحبس أنفاسه، يراقب بإعجاب آفاق الألفية الديمقراطية الجديدة في أمريكا اللاتينية. كان هناك القليل من العنف. ولكن الكثير منه سيأتي لاحقاً. لقد كان فجراً يحمل وعداً جديداً لكوبا، وكان يحمل آمالاً وتوقعات عظيمة لكنها ستتحول إلى إحباط ويأس. حيث أصبحت فيه (libertad)[1] الحرية هي العبارة الرئيسة للقمع، واستعيض عن democracia الديموقراطية بالإرهاب الديكتاتوري، ليس فقط بالنسبة للمواطن العادي، ولكن بالنسبة للقادة الثوريين أيضاً، ومعظمهم كان ينتهي بهم المطاف في السجن أو الموت قبل الأوان.

لم تشكل مجموعة الأشياء التي ذهبت مع النظام السابق أية مشكلة محرجة للفاتحين الجدد. لقد تعاملوا مع الأمر ببساطة. فقد حلّ وقت توزيع الغنائم. وباتت العدالة الثورية بمثابة مهزلة. لم تكن هناك حاجة لأي مبرر أيديولوجي لطرد عائلة غنية (rico) من منزلها. استولى الثوار على منازل الأغنياء، وسياراتهم، ودجاجهم، وزجاجات مشروباتهم الكحولية للاحتفال لفترة طويلة في الليالي الاستوائية. لقد أصبح ذو اللحية (barbudo) مواطناً محترماً لا يثير الشك أو اللوم. كان الحصول على الامتيازات أمراً ممتعاً. لكن هذا لم يكن كل شيء. في خضم الفوضى التي نتجت عن الهستيريا والحماسة والموجات المفاجئة من الإرهاب، طارد المحرومون أثناء حكم النظام السابق المرابين ومسؤولي النخبة الحاكمة سابقاً الذين لم يتمكنوا من الهروب في الوقت المناسب. تمّ تجميعهم وسوقهم بالعصي وأعقاب البنادق، أو تركهم ممدين على جانب الطريق وسط برك من الدماء. كان ذلك أيضاً وقتاً لتصفية الحسابات، ثم جاءت أولى الإشارات المؤلمة من الجزيرة، للمحاكمات الصورية والاضطهاد الصارخ. أعطى كاسترو الإشارة عندما قال:«La Historia me absolverá! سوف يغفر لي التاريخ!».

1- بالإسبانية في الأصل. المترجم.

ما كان يشغل بال جيران كوبا الأجانب هم القادة الثوريون الذين كانوا يستقلون الدبابة نفسها في هافانا. فمعظمهم كانوا غامضين سياسياً. خصوصاً، أرنستو تشي غيفارا، مهندس انتصار كاسترو[2]. كان من السهل هزيمة الديكتاتورية؛ ولكن ما كان صعباً هو بناء مجتمع جديد. الاشتراكية لا بدّ وأن تخلق نوعاً جديداً من الإنسان، هذا ما قاله أحد منظّري الاشتراكية في تلك البلاد الاستوائية.

ولد أرنستو غيفارا دي لا سيرنا في عام 1928 في مدينة روساريو دي سانتا في، وكان فيها ميناء لتصدير القمح يتصاعد منه التراب وتقع قرب نهر بارانا في الأرجنتين. كان تشي غيفارا طفلاً مريضاً يعاني من نوبات من الربو. أثناء دراسته للطب في بوينس آيرس، بدأ يُظهر اهتماماً كبيراً بمعاناة المعدمين والناس العاديين (peóns)، ووقف بوجه الفقراء الكاثوليك المتدينين (pobresitos) المناهضين بشدة للثورة والذين رفضوا المشاركة في الصراع الطبقي. لم يكن يطيق أبداً الجمود المتأصل في مؤسسات الدولة؛ كان مفهومه للاشتراكية مزيجاً من تحليل الفيلسوف هربرت ماركوزه للرأسمالية، وانتقاد تروتسكي للبيروقراطية، وحركة «الثورة الثقافية» لماو. وقد ثبت أن اندماج هذه المكونات يؤدي إلى عمل شديد الانفجار، حيث توقع أن «قوة الفلاح»، المتحالفة مع رؤية الرئيس ماو لملايين الذرات البشرية التي تصنع انفجاراً خاصاً بها، ستهزّ العالم بالقدر نفسه الذي تهزّه بها أية قنبلة نووية. في كوبا، كان يُنظر إلى الأرجنتيني على أنه شخص غريب وعانى من عقلية كراهية الأجانب التي كانت سائدة في تلك الجزيرة. لم يستطع أن يقبل التساهل الكوبي في التوجه نحو أن تكون مستقله تماماً. أعرب علناً عن خيبة أمله إزاء العقلية الوطنية بقوله: «لقد رأينا أن الكوبيين مستعدون للموت من أجل الثورة، لكننا لم نر أنهم على استعداد للعمل من أجل الثورة».

2- دمر تشي قطار باتيستا المدرع الشهير واستولى على المدينة. مما شطر كوبا إلى قسمين وأجبر باتيستا على الفرار.

سلّمه كاسترو وزارة الصناعة؛ وكان لا يوجد في كوبا صناعة، فقط بعض مصانع السكر المتداعية. ثم أناط به إدارة البنك الوطني في بلد بلا اقتصاد. حصل غيفارا دائماً على الوظائف التي لا يريدها الآخرون أو تلك التي يعرفون أنه سينتهي بهم الأمر فيها إلى الفشل. تولى تشي كلا المنصبين وكان فاشلاً في كليهما.

إن النظام القديم الذي كان يرتكز على رعاية الإمبريالية الأمريكية قد جرفته السيول المتصاعدة للمشاعر الوطنية في دول أمريكا اللاتينية التي عبر عنها فيديل كاسترو مؤخراً. لقد تجرأت دول العالم الثالث على التباهي بسيادتها أمام العالم! حدث الانفصال النهائي عن الولايات المتحدة بسبب خطاب الرئيس الأمريكي الجديد جون ف. كينيدي، الذي دعا «الشعب الأسير في كوبا إلى الإطاحة بحكومته». رفض الكوبيون دعوته وصمموا على التحدي.

توافد مئات من الصحفيين الأجانب إلى قاعة للسينما في وسط هافانا لسماع ما سيقوله القائد تشي غيفارا، لكنه بعد خطاب طويل لم يفصح فيه عن شيء جديد إلّا النزر اليسير، رفع أحد الصحافيين يده ليطرح السؤال التالي: «أيها القائد غيفارا ما هو مصير الممتلكات الأمريكية في الجزيرة؟».

أجاب غيفارا بنبرة أظهرت بوضوح أنه شعر بالانزعاج من السؤال: «يا سيدي، كما سبق وذكر قائدنا، لن يتمّ المساس بأي شيء من الممتلكات الأجنبية. بالطبع، يجب على المالكين الأجانب الالتزام بالوضع الجديد».

«هل يمكن أن تكون أكثر دقة؟»

«لا أرى حقاً ضرورة في أن أكون دقيقاً. لقد قامت ثورتنا من أجل تحقيق المساواة والعدالة للجميع».

عند سماعه كلمة «العدالة»، ارتبك المراسل. ثم وقف صحفي آخر: «أيها القائد ماذا سيحصل لسجنائكم السياسيين؟».

«لا يمكن نسيان جرائمهم. لا يمكننا أن نشعر بالشفقة على أولئك الذين ساعدوا ديكتاتوراً لا يرحم. يجب أن نبدي صلابة غير مرنة تجاه المجرمين الذين خانوا الشعب الكوبي».

«كم عددهم، أعني من تسميهم الآن بالخونة؟».

«لا أستطيع أن أعطيك أرقاماً دقيقة. لكن يمكنني أن أخبرك بما يلي: لا يمكننا أن نأمل في الرخاء طالما أن هناك خائناً لا يزال يتنفس. يجب ألا نعاقب فقط أولئك الذين خانوا، ولكن أولئك الذين لم يفعلوا شيئاً لوقف الأوغاد الذين كانوا يجلسون ويتفرجون».

«ولكن هذا يبدو كإرهاب سياسي أيها القائد».

«نحن نسميه عدالة».

ارتفعت المزيد من الأيدي. أشار غيفارا إلى أحد متصيدي الأخبار من ذوي الخبرة معتقداً أنه قد رأى وسمع كل شيء. فسأله بطريقة متعالية: «حسناً، سيد غيفارا، دعنا نتوقف عن اللعب بالكلمات. عندما كنت أستمع إليكم، أحسست بأنك تجد أن الإرهاب له ما يبرره».

تكورت على شفتي ذلك الأرجنتيني ابتسامة خفيفة. كان الرأسماليون قلقين بشأن استثماراتهم وأصدقائهم الفاسدين. حسناً إذا كان الأمر كذلك، لقد ذكرت بالفعل أننا نمارس العدالة الثورية. لكن للإجابة على سؤالك: إذا لم يتعرض هذا البلد إلى مشاكل بسبب المؤامرات، إذا لم يكن (nuestra patria) وطننا ضحية لإرهاب الديكتاتور، واسمحوا لي أن أضيف، وإلى تحريض من قبل حكومة الولايات المتحدة؛ فبالطبع، لن يكون هناك شيء أبسط من إدارة الحكم بسلام».

«هل ستكون وسيلتكم لقيادة الكوبيين نحو طريق الفضيلة من خلال اتهام جيرانهم؟».

«من واجب كل أبناء كوبا الصالحين أن يكشفوا القناع عن الذين

استفادوا من الاستبداد. الأمة التي لا تدافع عن نفسها لا تستطيع الدفاع عن أي شيء، ومن واجبنا أن نعلم الكوبيين هذه الفضيلة. بدا وكأنه روبسبيير آخر: «*إن المقابر ستفيض؛ وليس السجون*».

خيّم الصمت والذهول على قاعة السينما. بعبارة واحدة، حكم أرنستو تشي غيفارا، وهو الذي يأتي بعد فيديل كاسترو الرجل الأكثر نفوذاً في البلاد، على مئات المعارضين السياسيين بعقوبة الإعدام. وما سيكون حتى أكثر صحة في المستقبل، فقد فتح الباب أمام الإرهاب المقنن، الذي كان يدفع كوبا نحو الهاوية.

أبدى كلا الطرفين اللذان يقعان على جانبي مضيق فلوريدا مخاوف كبيرة بشأن العلاقات المستقبلية بين بلديهما. كان الكثير من القلق يساور جار كوبا العملاق الذي لا يبعد سوى تسعين ميلاً فقط من أن مثال كاسترو سيؤدي إلى انطلاق سلسلة كاملة من حركات التحرر الوطني في جميع أنحاء نصف الكرة الأرضية اللاتيني. وبدلاً من تقديم مثال لأمم أمريكا اللاتينية حول كيف تتمتع باستقلال قائم بذاته، حوّل كاسترو الجزيرة إلى سجن، وأهلها إلى لاجئين، وتحوّل هو نفسه إلى زعيم نظام قمعي يأتمر بتوجيهات من موسكو. نزلت «ستارة من قصب» على كوبا ووجدت نفسها في عزلة تامة. لقد تفاخر كاسترو بقسوته تجاه أعداء نظامه: «ثورتي لم ولن تتورع عن استخدام الإجراءات الحاسمة الجادة إذا فرضتها الضرورة». وكان الدليل على ذلك هو إعدام المجرمين العسكريين والسياسيين. لقد صدمت مثل هذه التصريحات أولئك الذين كانوا ما زالوا ينظرون إلى فيديل كاسترو على أنه شخصية رومانسية، يُساء فهمها.

بحلول عام 1962، انخرط الروس في لعبة خطرة بسبب سياسة صراع القوى الداخلي. أصبحت جزيرة كاريبية صغيرة، تقع في النصف الآخر من العالم، بيدقاً في منافسة لا علاقة لها بالأيديولوجية الماركسية، وأصبحت في صدارة الصراع على السلطة الذي كان يحدث في

المستويات العليا من التسلسل الهرمي للقيادة السوفيتية. وتمخض عن ذلك الصراع مغامرة انتحارية قام بها السكرتير الأول للحزب الشيوعي خروتشوف بنصب صواريخ نووية في الأراضي الكوبية. وبقيامه بذلك، أنشأ التزاماً استراتيجياً لا يمكن للاتحاد السوفييتي أن يدافع عنه إذا ما أصرّ الأمريكان على الهجوم عليها. خلال بعض من الأيام المتوترة في تشرين الأول 1962، عندما كان العالم يحبس أنفاسه، أجبر الرئيس كينيدي الزعيم خروتشوف على سحب الصواريخ الروسية من الجزيرة. وهذا ما حصل، تخلى السوفييت عن كاسترو، ولم يهتموا ولو قليلاً بأخيهم الاشتراكي. رأى كثيرون حدوث هذا الأمر، لكن شخصاً واحداً فقط أبدى رد فعل تجاهه. كان ثورياً لاتينياً ملتزماً، والذي كانت وجهات نظره التروتسكية لا تنحني إلى إملاءات موسكو. في اللحظة التي تجرأ فيها على التنبؤ بالمستقبل والتحدث ضد فكرة هيمنة الاتحاد السوفييتي، أصبح منبوذاً. هذا الرجل كان أرنستو غيفارا. كان تشي مختلفاً. لقد عارض سياسات الحرب الباردة المتمثلة في التعايش السلمي وسط المواجهة بين الأمريكيين والروس، والتي، كما تنبأ بها، لا يمكن إلا أن تؤدي إلى أن تخلق كل قوة عظمى مجال نفوذها الخاص وتتقاسمان العالم فيما بينهما.

تفجر الخلاف بين رجلين متساويين في الطموح: كاسترو، الكوبي الذي كان يتاجر بحماسته الثورية للحصول على فوائد مستمدة من الشيوعية؛ وغيفارا الأرجنتيني الذي بقي لاتينياً نقياً بشكل مؤكد. حدث ذلك في شباط 1965. خاطب غيفارا مؤتمر دول العالم الثالث في الجزائر العاصمة وانتقد بشدة «الإمبريالية الاشتراكية الجديدة» للاتحاد السوفييتي. وشدّد على أنه يجب على القوى الاشتراكية الصديقة أن تمنح مساعداتها من دون شروط، ولكن بالنسبة للاتحاد السوفييتي، كانت مثل هذه الشروط ذات قيود سياسية أكثر من شروط الشيطان نفسه: مصرفيو نيويورك. تباينت ردود الفعل على خطابه من الصدمة المذهلة

إلى التصفيق المدوي. وغني عن القول، أنها أغضبت القيادة السوفييتية. وقد تعرضوا للطعن في أكثر الأماكن تضرراً، في ميدان لم يُرسم فيه -نظراً إلى الفراغ السياسي الناجم عن الانتقال الأخير من الاعتماد على الاستعمار إلى بناء الأمة الحرة- أي خط سياسي حقيقي ولم تُشكَّل بعد الولاءات. علاوة على ذلك، كان عام 1965 هو العام الذي هبّت فيه مجتمعات الزنوج في الولايات المتحدة وقامت بأعمال شغب صريحة. اشتعلت النيران في أحياء السود في مدن واتس وديترويت، واغتيل الثوري الأسود مالكولم إكس. كان السوفييت قد اعتمدوا على هذه الأحداث لكي يكون أثرها الصادم جاذباً للدول الأفريقية السوداء إلى دائرة نفوذهم؛ والآن يأتي هذا الاتهام المدمر من شخص كان جزءاً من استراتيجيتهم العالمية! لا يمكن اعتبار تأثير خطابه على الدول الأفريقية ذا قيمة حقيقية، ولكن ليس هناك شك في أنه أثّر بشكل كبير على أمريكا اللاتينية. وبالتالي، لم يثر غضب السوفييت فحسب، بل أيضاً الرجل الذي حاول تصوير نفسه على أنه المحرر الجديد، فيديل كاسترو. أصبح الأمر واضحاً بالنسبة لموسكو وهافانا: كان على تشي غيفارا أن يختفي من المسرح السياسي.

عقب خطابه ذاك، عاد تشي إلى هافانا على متن طائرة كوبية. هذه المرة، لم تكن هناك فرقة عسكرية لاستقباله على مدرج المطار ولم يكن هناك أي مصورين[3] لتسجيل لحظات وصول البطل العائد. التقى فيديل مع تشي في قاعة الوصول، بدون وجود الحشود المعتادة، وهي تلوح بالأعلام مرحبة به. انتقلت الأحداث بسرعة نحو ذروتها. قضى تشي وفيديل يومين كاملين لوحدهما خلف الأبواب المغلقة. لم يكن هناك شهود على ما قيل. «Donde está el Che? أين يكون تشي؟» الحقيقة البسيطة هي أن صورته لم تظهر مرة أخرى في صحيفة كوبية،

3- تم التقاط صورة واحدة له، ظهرت في صحيفة «غرانما»، وهي الصحيفة الرسمية في كوبا، ولكنها لم تشر إلى مكان التقاطها.

كما لم يذكر اسمه في أي من المقالات، أو تتحدث عنه. أصبح تشي شخصاً مفقوداً. في آذار 1965، بعد أسابيع قليلة فقط من اللقاء السري، ودّع تشي ابنته هيلدتا، واختفى من هافانا. ذكرت بعض الصحف أنه شوهد في المجر، وفي شيلي، وحتى في فلسطين. لكن لم يره أحد بالفعل. وأخيراً، ذكر أحد الأشخاص أنه شاهده في الكونغو. وهو يقود 200 كوبي في المستعمرة البلجيكية السابقة في محاولة لمساعدة حركة التحرير المحلية التي يتزعمها بيير موليلي ضد الدكتاتور موبوتو المدعوم من أمريكا[4].

لم يستطع تشي أن يفهم السياسة الأفريقية والعقلية الأفريقية. لقد اتخذ قراراً كارثياً: فقد اختار بوليفيا؛ وهي دولة تتصدر السجل العالمي في عدد الانقلابات العسكرية والأفقر بين جميع الدول اللاتينية، وكانت تحت قبضة الجنرال بارينتوس. اختار غيفارا بوليفيا لأنه اعتقد أن المناخ هناك كان ناضجاً لنشوء حركة تحرير لإسقاط سلطة الجنرالات الدكتاتوريين. لكن بوليفيا كانت (ولا تزال) مكاناً يعيش في القرون الوسطى، تتميز سياسات حكوماتها بالوحشية والهمجية، والتمييز بين الأشخاص، وتُدخِل الدين في الدولة بشكل عميق. كان الناس في هذا البلد يؤمنون بالخرافات، يتلون الصلوات للمسيح في غرفهم الأمامية ويعبدون بعض الأصنام الوثنية في الفناء الخلفي. يعترف سكانها الأصليون (indios) بوجود الأرواح الشريرة، ويعتبرون الطب الحديث هبة من الشيطان، ويؤمنون بالمعالجين المحليين الذين يتنبؤون بالمستقبل ويشخّصون الأمراض عن طريق قراءة أوراق شجر الكوكا. وينظرون إلى كهنتهم الكاثوليكيين مثل آلهة قادمين من خارج الأرض. لم يكن لدى هؤلاء الناس أدنى فكرة عن كلمة ثورة (revolución) ومع ذلك، كان تشي غيفارا مشبعاً بروح القيادة التي كان

4- وكان لوران كابيلا أحد مساعدي تشي، قد أطاح بموبوتو في عام 1997، وهو اليوم رئيس الكونغو القوي.

يحملها سيمون بوليفار (Simón Bolívar) فلننطلق من حيث انتهى ولنرَ إلى أين سيقودنا ذلك.

كان العائق الآخر هم الناس الذين ذهبوا مع تشي إلى بوليفيا. لم يتمكن من الاعتماد على المتخصصين، حيث لم يتمّ اختيارهم لمؤهلاتهم العسكرية. كان أتباعه الكوبيون المتحمسون ينتمون إلى واحدة من ثلاث فئات: فئة عانت من إخفاقات سياسية في الداخل، وفئة أولئك الذين لم يوافقوا على سياسات فيديل، وفئة أولئك الذين كان من الممكن أن يخلقوا في المستقبل مشكلة لفيديل. حتى نونيز أكوستا، الذي عيّنه تشي لقيادة جبهته الثانية، كان من الأشخاص المهزومين في هافانا. لم يكن هؤلاء الرجال يتمتعون بخبرة في نشاط حرب العصابات، ولم يسبق لهم الذهاب إلى بوليفيا، لذا كانوا يتملصون من مواجهة الناس لأنهم يتحدثون بلهجة مضحكة. وفوق كل هذا، كان تشي يعاني من مرض الربو الموهن للعزيمة[5]، وكانت كل هجمة منه تجلب معها نوبات الهلع المفاجئة.

في تشرين الثاني 1966، عاد تشي سراً إلى كوبا لجمع أتباعه الستة عشر. وتوجهوا بشكل منفصل إلى لاباز، عاصمة بوليفيا[6]. أما غيفارا -وكان اسمه المستعار رامون بينيتيز- فقد سافر عبر موسكو، وبراغ، وزيورخ، وفرانكفورت. وكان يرتدي نظارات، وحليق الذقن وأصلعَ، وصل إلى لاباز في 3 تشرين الثاني 1966 واستأجر غرفة في فندق كوباكابانا المتواضع. وكانت اتصالاته الداخلية تتمّ عن طريق فتاة

5- لا يمنع مرض الربو الشخص المصاب به من التنفس، بل من الزفير فقط.

6- خلال المؤتمر الصحفي الذي أقامته السلطات البوليفية في أواخر تشرين الأول 1967 عُرِضَت الأوراق التي كتبها تشي غيفارا أثناء أنشطة حرب العصابات التي كان يقوم بها. والتي اكتُشِفت في حقيبة ظهر بالقرب من موقع الكمين. كان تشي قد دوّن كل شيء في مفكرة كان قد اشتراها خلال توقف رحلته في مطار فرانكفورت. كانت ملاحظاته بليغة وتعطي صورة واضحة عن معاناة المجموعة التي كانت معه، وآماله المتلاشية، ونهايته.

ألمانية، والتي كانت تشاركه السرير أحياناً، وعن طريق تانيا وهذا كان اسمها، كان يتواصل مع الاتحاد الشيوعي المحلي لعمال المناجم. لم تثمر المفاوضات مع قادة اتحادات العمال، ورئيس الحزب الشيوعي البوليفي، ماريو مونجي، عن شيء. أصرّ البوليفيون على السيطرة والبت في أي عمل، ووجد تشي نفسه معزولاً، وأحبط حلمه بانتفاضة عامة تقوم بها الجماهير. كان يبلغ عدد رفاقه خمسين فرداً ولن يتجاوزوا في المستقبل هذا العدد أبداً. أنشأ تشي قاعدة له في غابة على نهر نانكاوزو في مقاطعة سانتا كروز وأصبح اسمه الرمزي رامون[7].

تجرأ زميله أنطونيو باكو على القول بصوت عال: «ربما تكون نسيت أيضاً أن المساعدة تأتيهم من السلطات الكوبية. التي جُلّ ما تريده هو التخلص منا»[8].

التفت اليه تشي، وهو يضع ببطء غليونه جانباً، قائلاً: «إنك تحب حقاً إثارة الهراء».

كان هذا كافياً لإظهار أن تشي لا يزال يؤمن بكاسترو ومساعدته في إنقاذهم إذا دعت الحاجة. لم يخطر في باله أبداً فكرة الخيانة. في تلك الليلة، ترك اثنان من المقاتلين القاعدة وبلّغا عن وجود تشي للسلطات البوليفية. خرج السر إلى العلن. وأقامت وحدات من الجيش البوليفي طوقاً حول المنطقة، مما أدى إلى إنشاء منطقة حظر (zona roja) وقامت بالقضاء على الشبكة السرية التي أقامها تشي في لاباز. لم يعد بإمكان تشي الاعتماد على الدعم الخارجي. نجت تانيا فقط من حملة التفتيش وانضمت إلى تشي؛ وأحضرت معها الفيلسوف الفرنسي، ريجيس دوبريه.

7- كان أقرب أصدقائه ماركوس وبينينو ورولاندو وكوكو ويواكين وأليخاندرو ولويس ومورو وميدكو وأوربانو وبومبو وباشو وتوما ولورو وإنتي وجورج؛ وجميعهم كانوا كوبيين.

8- هذه النظرية مدعومة أيضاً في كتاب من تأليف باكو إغناسيو تايبو، أحد الناجين من بوليفيا.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى بدأت إراقة الدم. ونصب المتمردون كميناً لدورية تابعة للجيش في واد نهري وقتلوا سبعة جنود. وأعلنت محطة الإذاعة الوطنية: «لقد غُزيت بلادنا من قبل المرتزقة الأجانب. من واجب كل بوليفي أن يقاتل هؤلاء الدخلاء. ولّدت هذه الرسالة هستيريا في المدن، وفي القرى، وأخبر الكهنة الفلاحين (campesinos) أن هؤلاء اللصوص سيأتون لسرقة حيواناتهم. كانت هذه بداية عملية مطاردة ضخمة شارك فيها ألفا جندي، بمساعدة قوة جوية أسقطت قنابل النابالم على الغابات وأشعلت بقعاً سوداء في أوراق الشجر والنباتات. وعلى طول جدول مغطى بالأشجار، عثرت دورية للجيش على المتمردين. قُتل روبيو، اختفى الباقون في الغابة التي كانت توفر غطاءً لهم. ثم واجهتهم دورية أخرى، ورغم أن الجنود عانوا من خسائر بشرية أكثر من رجال تشي، لكنه كان بإمكانهم أن يعوّضوا خسائرهم في حين أن المتمردين لم يستطيعوا ذلك. لم يكن لدى تشي خيار. ولأجل التخلص من المطاردة قرر تقسيم قواته. أثناء عبورها للنهر، اصطدمت الجماعة التي تضم خواكين وتانيا بالجيش البوليفي. وفي معركة قصيرة، شرسة، قُتل الجميع. أما مجموعة تشي فقد توجهت للجبال العالية.

أدّت سلسلة من الاشتباكات، التي شغلت العناوين الرئيسة للصحف بمساحة خمسة أعمدة، إلى زيادة الذعر. قام عمال فيلق السلام بنقل عائلاتهم وقام ملاك الأراضي (hacendados) بتسليح العاملين في أراضيهم (peóns) طلبت بوليفيا المساعدة، وتدخل الأمريكان[9]. نُقل فريق من المدربين على القتال الشرس من الفرقة الأمريكية الأولى المحمولة جواً، تحت قيادة النقيب بابي شيلتون من فيتنام، وبدؤوا بتدريب وحدات بوليفية. استغل بارينتوس الرئيس البوليفي الماكر ذلك

9- وقد أدى هذا إلى الافتراض، وإن كان غير صحيح، بأن الأمريكيين هم من ألقى القبض على تشي.

الموقف لإعلان حالة الطوارئ وتخليص نفسه من كل قوى المعارضة. وسُجن مئات من النقابيين والمتعاطفين مع اليسار. اقتربت القوات من بعضها عند منطقة الاشتباك وبدأ الآلاف من الجنود المسلحين جيداً بالاشتباك مع حفنة من رجال العصابات المنهكين الذين جعلتهم الأعمال المسلحة يصلون إلى نقطة «اللا عودة».

في نيسان 1967، استُدعي جان ستايج[10]، وهو صحفي دنماركي كان يقوم بإرسال مقالات عن كوبا إلى مجموعة إخبارية اسكندنافية كبيرة، للحضور إلى مكتب إسماعيل فوندورا، رئيس دائرة الدعاية الكوبية.

«سنيور ستايج، أنت تحب السفر، أليس كذلك؟».

«فقط إذا كانت هناك قصة جيدة وراء ذلك».

«في هذه الحالة، لدي قصة جيدة لك، فكرة ممتازة».

قدم له فوندورا تذكرة طائرة إلى بوليفيا. تشي غيفارا! أصبح من الواضح لـجان أن لا أحد في هافانا لديه أدنى فكرة عن تحركات أو خطط تشي. في «لابـاز»، أجرى جان اتصالات مع «مصادر محلية قريبة من الثورة» ووجد طريقة لدخول منطقة الاشتباك «zona roja» المحظور دخولها. كان المهندسون الأمريكيون يعيدون عائلاتهم إلى الولايات المتحدة. وهذا يعني نقل ممتلكاتهم من مدينتي سانتا كروز وكوتشابامبا إلى لاباز، واختير ناقل دنماركي ليقوم بتلك العملية. ورافقه ستايج باعتباره متخصصاً في تصليح الأغراض المنزلية. وزوّده بتقييم جيد لما كان يحدث في سانتا كروز. وعندما عاد إلى كوبا، قابله في مطار هافانا مانويل بينروس، رئيس القسم الأمني لأمريكا اللاتينية في حكومة كوبا. «تقاريرك ممتازة. الرجاء العودة فوراً إلى بوليفيا». لم يكن

10- جان ستايج هو أفضل مصدر للمعلومات حول دور كاسترو في مغامرة بوليفيا. عاش في كوبا خلال معظم الفترة المبكرة من الثورة، ثم تزوج من صديقة مقربة من هيلدا غاديا، زوجة تشي. لعبت روايته لما جرى دوراً جوهرياً في تجميع الأحداث كما حصلت، ويشعر المؤلف بالامتنان لمساعدته التي لا تقدر بثمن.

أدنى رد فعل. بالنسبة له، كان هذا هو المؤشر النهائي للفشل. إذا كان هؤلاء الفلاحون (campesinos)، الذين يقتاتون على الحد الأدنى مما هو ضروري للإنسان، فشلوا في فهم حلمه، فلن يستطيع فهمه أحد. غادر الثوار قرية ألتو سيكو وهم مكتئبون. كان عليهم تسلق مسار ضيق بشكل حاد وهم يصعدون المرتفعات. قبل حلول الظلام وصلوا وهم يتعثرون ومنهكين إلى قمة جبل بيكاشو[13]، حيث كان الهواء رقيقاً وبارداً. شاركتهم بعض العائلات من السكان الأصليين (indio) والتي كان يرتدي أفرادها أسمالاً بالية، بما كان لديها طعام، ورقصت وغنّت مع زوارها غير المتوقعين. استعاد تشي إيمانه. هؤلاء الناس لم يكونوا معادين له. وما إن اكتشف أن سكان الأكواخ الطينية الأربعة لم يكونوا يمتلكون جهاز مذياع حتى أدرك حينها أنهم لا يعرفونه.

على بعد عشرة أميال؛ وبخط مستقيم، كان نقيب الحرس يدرس خريطته. كان اعتماد الثوار على الماء. اتخذ قراراً سريعاً وأشار بإصبعه إلى نقطة تشير إلى قرية صغيرة لا هيغويرا.

من جبل بيكاشو، كان هناك مسار حاد يؤدي إلى قرية لا هيغويرا دخل رجال تشي إلى قرية تخلو من الحياة باستثناء ثلاث نساء كن يحدقن بريبة في الثوار. كانت هذه علامة سيئة، وقرر تشي المضي على الفور. سيتعين عليهم عبور ممر يبلغ طوله 2600 متر يأخذهم إلى منطقة ييغي، فأرسل أمامهم مجموعة من سبعة رجال لأجل استكشاف المسار. بعد قليل دوّى صوت إطلاقات نارية. جاء بنينو يعرج والدم ينهمر من ساقه. وكان أربعة من رجاله قد قتلوا في الكمين. هرع رجال تشي إلى أسفل المنحدر المغطى بنباتات العليق للهروب من الطوق، الذي كان يضيق بسرعة من حولهم. ظل آخر سبعة عشر رجلاً بقي مع تشي يهيمون لعدة أيام في المنطقة، وقد نفد الماء منهم. في إحدى المرات كانت تفصلهم عن فصيل من الجنود، بضعة ياردات فقط. كان يجب عليهم الحصول على الماء. وليوفروا في

13- كانت القمة على ارتفاع 2280 متراً، وهو أعلى ارتفاع وصل إليه تشي في مسيرته.

طاقتهم، كانوا ينتقلون ليلاً فقط من خلال المناظر الطبيعية الخالية من كل أثر للحياة إلى أن سمعوا نباح كلاب. كان يمتد أمامهم واد منبسط، تغطيه أشجار متشابكة الأغصان ونباتات العليق، وتحيط به الجبال. خيّموا تحت مجموعة من الأشجار بينما كان ويليام الرجل البوليفي يستكشف لهم عن بئر ماء. وصل إلى كوخ وجد فيه خنزيراً هزيلاً وبعض الدجاج ولكن لم يكن هناك بشر. أحضر ويلي بقية أفراد المجموعة الذين أطفؤوا عطشهم في النهاية من جرة خزفية، قبل أن يتمددوا تحت الظل الواسع لإحدى الأشجار. عندما فتح تشي عينيه، رأى امرأةِ عجوزاً معها ثلاث نعجات تقف أمامه. أعطاها خمسين بيزو وأخبرها أن تصمت. أصبحت ودودة وأخبرتهم بالاتجاهات التي ستؤدي بهم إلى وادٍ يجدون فيه الماء وممر من شأنه أن يأخذهم عبر الجبال. كان الوادي هو كيبرادا ديل يورو. شرعوا بالمسير قبل غروب الشمس. هذا ما حصل عندما رآهم راعي الماعز ونبّه عنهم نقيب الحرس غاري برادو. وصل تشي وعصبته الصغيرة إلى كيبرادا ديل يورو بعد حلول الظلام ولم يدركوا أنهم قد دخلوا الوادي الذي تحيط به المنحدرات. جلسوا على الأرض تحت غطاء من الأشجار المنخفضة ونزعوا أحذيتهم لإراحة أقدامهم المتقرحة قبل أن يغطوا أجسامهم ببطانيتهم الخشنة. بدأ تشي يعاني من نوبة أخرى من الربو. وحتى لا يزعج الآخرين، ابتعد عنهم. كان يحدق في سماء الليل... لقد انقضى فقط أحد عشر شهراً، ولكنها تبدو أكثر من مئة سنة. شعر أن ملحمة كفاحه باتت تتجه نحو ذروتها. أغلق عينيه... واستيقظ جافلاً. كان كل شيء هادئاً وساكناً جداً. وجال بعينه المتمرسة أرجاء الوادي، الذي بدأت تنقشع عنه الظلمة مع ظهور أول خيط ضوء ليوم جديد؛ وبدأ يحدق بمئات الجنود الموجودين على حافة الوادي!

وحلّ الثامن من تشرين الأول 1967. كان يوم أحد. وكان لا مفرّ من حدوث الأمر المحتوم. كان رجال تشي غرباء، تقطعت بهم السبل في صحراء لا حياة فيها. والفلاحون الذين التقوا بهم لم يستطيعوا أو لم

يريدوا أن يفهموا لغتهم الثورية. من ناحية أخرى، كان الجيش البوليفي يوجّه الأسئلة ويحصل على الإجابات. كان الخناق يضيق من حولهم لعدة أيام. والآن لم يعد هناك مهرب. وقعوا في الفخ، في وادٍ مطوق بالجنود وأُغلِق مخرجه. كان عليهم أن يثبتوا في أماكنهم ويختبئوا، في أمل كاذب أن قوات الجيش لم تكن متأكدة تماماً من وجودهم. كان رجال تشي غير مرئيين، مختبئين في الأدغال، وكان الصمت يسود المكان باستثناء أصوات البرية وصوت طنين الحشرات. في منتصف الصباح، انكسر الصمت. ومع سماع هدير مرعب تفجرت الأرض من حول تشي، واشتعل في الوادي طوفان من اللهب. انغرزت طلقات الأسلحة الرشاشة في مسار متشابك عبر قاع الوادي. بدأت القنابل تنقذف من فوهات مدافع الهاون. قُتل العديد من الثوار في أول رشقة رصاص عارمة. مزقت وجهي أورلاندو بونتواجا ورينيه مارتينيز شظايا قذيفة هاون. وبمعجزة كاملة، هرب تشي من الهجوم الأولي بالرصاص والقنابل، وأطلقت عليه سلسلة من الإطلاقات النارية بعد إطلاقه النار من بندقيته القصيرة (القربينة). عند الثانية بعد الظهر تلاشى ضجيج إطلاق النار من جانبه؛ كان رجاله يحتضرون أو يموتون أو نفدت منهم الذخيرة. قام ويلي برمي نفسه في الحفرة التي بجانب تشي؛ أشار بحماس إلى طريق في جانب منحدر الجبل. تحرك الاثنان بسرعة نحوه، بعد أن تعلما أن حركة واحدة متواصلة أقل إثارة للشكوك من سلسلة من البدايات والتوقفات، عندما تسبب انفجار من مدفع رشاش في جرف أوراق الشجر. سقط تشي على الأرض، وأصيب في ساقه اليمنى. كانت بندقيته القصيرة من طراز M-2 قد وقعت من يده، وتحطم مخزن طلقاتها برصاصة أخرى. أمسكه ويلي من سُترته وسحبه إلى مكان أعمق في الشجيرات. وعلى الرغم من آلامه الكبيرة، بدأ تشي بالتسلق وهو يعرج. وصلا إلى حافة الوادي؛ وأصبحا وجهاً لوجه مع اثنين من الحرس البوليفي وبنادقهم مصوبة نحوهما وهما العريف بالبوا والجندي تشوكي. «*Alto! Alto!* ارفع يدك!» صرخ تشوكي مذهولاً.

رفع تشي بسرعة يديه: «Io soi Commandante Guevara. Llame un jefe de prisa. لا تطلق النار - أنا القائد غيفارا. اتصل بالضابط بسرعة».

جاء أحد الضباط وهو يقطع الطريق مسرعاً، وكان هو النقيب غاري برادو سالومون. الرجل الذي رآه أمامه لم يكن يشبه صورة ذلك الثوري المبتسم الذي كان يرتدي قبعة سوداء. كان هذا الوجه مترباً ومتسخاً ويبدو عليه التعب والعطش. «إذاً أنت تشي غيفارا؟» أومأ تشي. أشرقت عينا برادو. هذا الصيد الثمين سيضمن مستقبله الوظيفي.

ساعد جنديان تشي على الوقوف على قدميه. وكان الموكب البطيء من نوعية مواكب القديسين. وصلوا إلى قرية لا هيغويرا. المكان الوحيد الذي كان فيه باب له قفل هو مبنى المدرسة، التي قُسّمت إلى غرفتين: غرفة تخزين بدون نوافذ وغرفة للصف الدراسي. أمر الضابط: «هذا الشخص في تلك الغرفة. وتشي يوضع في غرفة الفصل الدراسي».

تحول برادو إلى العريف سبينوزا قائلاً: «سوف تضمن بحياتك هذين السجينين».

ابتسم وهو يجيب: «نعم سيدي».

وألقى الجنود بأسيريهما المقيدين على الأرض ثم بدآ بالبحث عن أي شيء يأخذونه كتذكار لهم. عندما حاول الرقيب أن يستولي على غليون تشي، ضربه الأخير بقدمه السليمة، وعنّفه قائلاً: «تذكّر، لا يمكنك أن تعامل تشي غيفارا بهذه الطريقة».

اتصل الكابتن برادو بمقر الفرقة عبر الهاتف الميداني: «Cinco cento cansado سينكو سنتو كانسادو» (كانت كلمة سينكو سينتو تشير إلى الاسم الرمزي لتشي غيفارا، وكانسادو لكلمة إلقاء القبض على). عندما وصل هذا الخبر المثير إلى لاباز، تفاجأ جنرالات المجلس العسكري في بوليفيا. على الرغم من أنهم كانوا يلاحقونه لمدة عام، إلّا أنه لم تُعدّ خطط طوارئ في حالة القبض على تشي! كانوا واثقين دائماً أنه سيقاوم حتى النهاية. الآن كان لا بدّ من اتخاذ ترتيبات أخرى. لم يرغب الجنرال

بارينتوس، السياسي الماكر في المشاركة في الموضوع. وأمر الكولونيل جواكين زنتينو أنايا بإجراء تقييم فوري. تحدث زنتينو بجهاز اللاسلكي: «أبقِ سينكو سينتو على قيد الحياة حتى وصولي غداً». وفي تلك الليلة، وبينما احتفل الجنود في قرية لا هيغويرا بانتصارهم، وناقش القادة العسكريون مصير أسيرهم البارز، توجّه بارينتوس إلى مقر إقامة السفير الأمريكي للتشاور.

في يوم الاثنين، 9 تشرين الأول 1967. في قرية هيغويرا، لم ترد أوامر جديدة وكانت الأمور في حالة من الارتباك. وبطريقة ما - ربما لأنها كانت امرأة جميلة - سُمِح لمعلمة المدرسة المحلية، جوليا كورتيز بالدرال، بالدخول إلى الفصل الدراسي. وجلس تشي متكئاً على الحائط الذي أمامها، وكانت يداه مقيدتين خلف ظهره وكاحلاه مثبتين بالحبل. وبدا أنه يعاني من ألم شديد والدم ينزف من ساقه الجريحه. فيما كان حذاؤه المصنوع من القماش في حالة يُرثى لها؛ كانت القروح تغطي قدميه اللتين كانتا تنزفان. وكانت ثيابه ممزقة وملطخة.

كنت أتوقع أنني سأجد شخصاً قاسياً، بدلاً من ذلك رأيت أمامي رجلاً ذا عينين عطوفتين. تحدثنا لفترة من الوقت. سألني إذا كنت أنا المعلمة، ثم بدأ بمناقشة الرسومات التي وضعها تلاميذي على الجدار. قال إن نصوصي خاطئة، ثم بدأ يخبرني عن المدارس في كوبا، حيث كان التلاميذ يتلقون تغذية جيدة ولا يرتدون ثياباً بالية. سأل عما تحتاجه القرية أكثر، وقلت له: جرّار. ووعد بإرسال واحد بعد إطلاق سراحه. [هذا يوضح أن تشي كان لا يزال يعتقد أنه سيُستخدم في صفقة ما بين كاسترو والأمريكيين]. لقد تحدث معي بصوت منخفض وصارم وكان ينظر دائماً بشكل مباشر في عينيّ. لم يترك لي أدنى شك في الشعور بأنني كنت في حضرة إنسان محترم جداً. قلت له: «مع كل ذكائك هذا، كيف يمكن أن تضع نفسك في مثل هذا الموقف؟» أجاب تشي: «هذا من أجل مبادئي».

وجُلِب معتقل آخر إلى القرية، تشينو تشانغ، وهو رجل من البيرو

بدين متوسط العمر. هبطت طائرة هليكوبتر مثيرة الغبار، وكان على متنها العقيد جواكين زنتينو، والعقيد البحري أوغارتيتش، ومدير المحطة المحلية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، فيليكس رودريغيز. وتوجهوا إلى مبنى المدرسة لمشاهدة الأسير الذي كانت سمعته كافية لنشر الذعر في جميع أنحاء البلاد. فقال غيفارا بلهجة تحدٍّ: «إذا كانت هناك أية صفقات يجب القيام بها فإنني أصرّ على أن تجري من خلال معلمة المدرسة المحلية، الآنسة كورتيز». انسحب زنتينوعارفاً أن الأمر ميؤوساً منه، فيما انتظر النقيب برادو أوامر محددة.

ربما تمّ التوصل إلى القرار المميت في العاصمة لاباز في حوالي الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين. مُرِّرت الرسالة المشفرة إلى النقيب برادو، الذي سلمها إلى العقيد زنتينو. كان الأمر واضحاً ومفصلاً: «لا سجناء». وبينما كان زنتينو على جهاز اللاسلكي يتصل بالعاصمة لاباز، قام عميل السي آي أيه رودريغيز بنقل تشي إلى الخارج لالتقاط صورة لهما معاً. كانت عينا تشي تنظران إلى الأرض بحزن، ووجهه متعب، وشعره طويل[14].

عند منتصف النهار. توجهت المعلمة جوليا كورتيز للمدرسة حاملة معها صحناً من الحساء إلى السجين، نظر إليها تشي بامتنان. لقد مرّ وقت طويل منذ أن تناولت مثل هذا الطعام الطيب. أعتقد أنهم سيأتون الآن، لكنني لن أنساك أبداً. ثم أضاف بصوت هادئ: «*Hasta la victoria sempre!* دائماً حتى النصر».

دخل زنتينو المدرسة للمرة الأخيرة. وعندما خرج من جديد أشار برأسه إلى النقيب برادو. حدث تأخير قصير عندما تدخل عميل السي آي إيه: أرادت السي آي إيه استجواب تشي وكانت على استعداد لتنقله

14- يظهر في الصورة عميل وكالة الاستخبارات المركزية راموس على يمين تشي غيفارا. أصبح وجوده في الصورة المصدر الرئيس للشائعات بأن وكالة الاستخبارات المركزية هي التي أمرت بإعدام تشي.

إلى بنما. لكن أمر زنتينو كان ثابتاً، واستدعى النقيب برادو ضباط صفه. ومن بين السبعة الذين في سريته، تطوع ثلاثة، وتم اختيار اثنين: الرقيب بيرناردينو هوانكا والعريف ماريو تيران. كانت الأوامر هي تصفية السجينين وجعل الأمر يبدو كما لو أنهم قُتلوا في معركة.

عند الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الاثنين الحار ذاك، دخل العريف هوانكا الغرفة التي اعتقل فيها ويلي. أمر السجين بمواجهة الحائط. فأجابه ويلي: «أطلق عليّ النار بينما أنظر إليك». جعلته بضع رشقات نارية قصيرة من رشاش أوتوماتيكي يرتمي على الأرض ميتاً.

على مدى بضع دقائق، لم تكن تسمع سوى أصوات النقاشات الحادة من المدرسة. تذكر التقارير اللاحقة أن تيران أصبح متردداً ولا يريد أن يفعل ذلك. فصاح به العقيد زنتينو: «تحقق من سلاحك، أيها الجندي». انفتح باب الفصل الدراسي بقوة ودخل إليه العريف ماريو تيران، وبندقيته القصيرة على أهبة الاستعداد. ومن دون كلمة سحب الزناد. أصيب تشي بتسع رصاصات، والتي تتبعت خط من الجانب الأيسر من بطنه إلى الجانب الأيمن من حنجرته. وبشكل لا يصدق، كان تشي لا يزال يتحرك، أصابعه تحاول أن تتشبث بالهواء. أطلق تيران رصاصة واحدة أخرى، استقرت مباشرة في قلب تشي.

كانت جوليا كورتيز جالسة على طاولة مطبخها عندما سمعت الطلقات. على نحو ما عرفت أنه كان تشي. في وقت لاحق لم تستطع تذكر كم من الوقت استغرق الأمر حتى تكون أعصابها هادئة بما فيه الكفاية بالنسبة لها لتتوجه نحو المدرسة. من خلال الباب المفتوح شاهدت جسداً كانت عيناه المفتوحتان تحدقان بها. كان أرنستو تشي غيفارا في التاسعة والثلاثين.

وقِّت الإعدام على أكمل وجه. وبينما تمت تصفية تشي، دُعي إلى عقد مؤتمر صحفي في لاباز.

قُتل أرنستو تشي غيفارا يوم أمس الأحد في معركة أسفرت عن مقتل

عشرة جنود بالإضافة إلى عصبة كاملة من الخارجين عن القانون. وضِعَت طائرة خاصة لنقل مراسلي الصحف المحلية والعالمية إلى فاليغراندي لتفقد الجثة. وعندما هبطت طائرتهم، هبطت طائرة مروحية على الأرض، تحمل جسداً ملفوفاً بالقماش مربوطاً إلى مزلقة هبوط المروحية. نُقِلت الجثة إلى سيارة إسعاف ابتعدت بسرعة. نُقل طاقم الصحفيين إلى غرفة الغسل في مستشفى سينورا دي مالطا في فاليغراندي، حيث عُرِضت جثة زعيم المتمردين المقتول على لوح خرساني. تأكد العقيد زنتينو من أنه كان في الصورة حين انطفأت مصابيح إضاءة كاميرات المصورين التي كانت مثل الألعاب النارية.

منذ البداية، كان هناك شيء ما غير صحيح، بدأ بعض مراسلي الصحافة العالمية بالتجول في أرجاء المستشفى إلى أن التقوا وجهاً لوجه مع الطبيبين العاملين، الدكتور خوسيه مارتينيز كازاس والدكتور مويز أبراهام. إلى أن بدأت قصة الموت أثناء حدوث اشتباكات بالانهيار. وبدأ الأمر بصدور ملاحظة عابرة من الدكتور مارتينيز، الذي أخبرهم أن الجثة كانت لا تزال دافئة عندما استقبلها، وأن الدم في الجروح لم يتخثر. سأل صحفي أرجنتيني الدكتور مارتينيز: «كم مضى من الوقت منذ أن مات هذا الرجل؟»

«خمس أو ست ساعات على الأكثر». بعد لحظة من الصمت الذي صاحبه الذهول، حيث كان الصوت الوحيد هو لأقلام الرصاص التي تخربش بشراسة، طرح سؤال آخر على الطبيب: «ما هي الإصابة التي تسببت في الوفاة؟»

«رصاصة في القلب».

«هل يمكن لأي شخص البقاء على قيد الحياة، دعنا نقول، أربع وعشرين ساعة وهو مصاب بهذا الجرح؟»

«بالتأكيد لا، يجب أن يكون الموت فورياً».

تفحص الصحفيون ساعاتهم. كان الوقت حينها السادسة مساء. يوم الاثنين 9 تشرين الأول. بعبارة أخرى، توفي تشي غيفارا ظهر ذلك

اليوم، وليس، كما كان يعتقد، خلال معركة بالأسلحة النارية يوم الأحد! انهارت خطط الطغمة العسكرية التي أُعِدَّ لها بشكل جيد عن طريق بيان ارتجالي قدّمه الطبيب الذي فحص الجثة وبعض إجراءات البحث التحقيقية للصحفيين الجريئين.

وعند عودته إلى لاباز، اقتحم الجنرال ألفريدو أوفاندو كانديا مؤتمراً صحفياً، وأعفى النقيب برادو من قيادته، وأمر الجنود بالانسحاب من المدرسة لإزالة جميع الآثار. وقبل حدوث ذلك، سمح لشخص واحد بالدخول إلى المبنى: راهب دومينيكي، جاء إلى لا هيغويرا في زيارته المعتادة للقرية. لم يجرؤ الحراس على منع الكاهن من الدخول.

عندما وصلت في وقت مبكر من صباح الثلاثاء ودخلت إلى المدرسة، لم تكن قد نُظِّفَت الغرف. لم يرغب أي من الجنود بالدخول، بسبب الذباب، كما قالوا. في الغرفة التي قتل فيها ويلي، كانت الأرض مغطاة بالدم، وكان من الصعب التنفس، كانت هناك رائحة موت كريهة وتخنق، وكان الذباب يطن وسط الحرارة الخانقة. على الجدار المقابل للباب لاحظت وجود عدد من الثقوب وبمستوى الرأس والصدر لشخص واقف. في غرفة الفصل الدراسي، كانت هناك أيضاً كمية كبيرة من الدماء. هنا كانت ثقوب الرصاص على ارتفاع قدمين من الأرض. استخرجت ثلاث رصاصات وبعض الشعر. كانت القرية هادئة نسبياً. كان الناس قد أمروا بالبقاء في منازلهم ويبدو أن النقيب كان مهتماً جداً بمنع جنوده من معرفة أكثر مما سبق لهم وعرفوه. قمت بزيارة بعض القرويين، كانوا خائفين. «ماذا سيحدث لنا يا أبانا؟» يخشون من أن يأتي أصدقاء المتمردين الموتى وينتقمون لهم.

بقي جسد تشي معروضاً على اللوح طوال يوم الثلاثاء. كان سكان مدينة فاليغراندي يسيرون في صفوف لإلقاء نظرة عليه؛ التُقطت المزيد من الصور الفوتوغرافية للجنود وهم يشيرون ببنادقهم نحو جثة كانت تحدق في السقف بعينين مفتوحتين كأن الحياة تسري فيها. وُضِعت

جثتا الكوبيين أنطونيو وأرتورو، وقد تمزق وجهاهما، بشكل مثير على أرجل الطاولة لزيادة الرعب في قلوب الناس. قبل غروب الشمس، بدأت النساء بالوصول وهن يحملن الشموع، وكان دافعهن لذلك احترامهن الديني العميق للموتى أكثر منه الإعجاب بالثوري الذي لم يفهمن قضيته أبداً.

في لاباز، عاد الجنرال أوفاندو ليتصدر نشرات الأخبار عندما أصدر مجموعة من البيانات المتناقضة. فقد ادعى أولاً أن جسد تشي دُفن في قبر لا يحمل علامات مميزة وأن الجثة غطاها الجير الحي. في وقت لاحق قام بتغيير روايته. وادعى أن الجثة أُحرقت وتناثر رمادها وسط الرياح حتى لا يعبد أي شخص مرة أخرى ذلك القاتل (asesino). في حين أن وكالات الأنباء في جميع أنحاء العالم كانت تنقل القليل من الحقائق والكثير من الشائعات، بدأ شيء غريب يحدث في فاليغراندي. بدأت صورة تشي، المأخوذة من مقال صحفي والتقطها مصور محلي، تظهر في النوافذ وواجهات المتاجر. لم تكن صورة الجثة التي تحدق بعيون ميتة في السقف، بل كانت صورة تشي مبتسماً يرتدي قبعة سوداء. تلك الصورة التي سرعان ما ستنتشر في جميع أنحاء العالم.

وبعد ذلك ...

عندها ولد شعار الكفاح «!Commandante Che Guevara Presente نحن جاهزون للقتال أيها القائد تشي غيفارا».

كان الأطفال والبالغون يهتفون بهذا الشعار من هافانا إلى هانوي. كان وجه تشي المبتسم وهو يحدق بالناس قد بات يظهر في الملصقات في جميع أنحاء العالم. تفوقت صورته على صورة الأسطورة فيديل كاسترو نفسه. أظهر الزعيم الكوبي غضبه من خلال تنظيم مسيرة حاشدة في بلازا دي لا ريفولوسيون (ميدان الثورة) في هافانا. كانت مسيرة لم تشهد هافانا مثيلاً لها من قبل. صاح الزعيم الملتحي للدولة الاشتراكية

الاستوائية. «Commandante Che Guevara أيها القائد تشي غيفارا!»
فجاءه الجواب من ملايين الحناجر: «نحن جاهزون للقتال»!

وخرجت مسيرات مماثلة من المكسيك إلى سانتياغو، ومن الجزائر إلى أنغولا، ومن القاهرة إلى كلكتا. أشعل سكان بودابست وبراغ الشموع؛ ظهرت صورة تشي المبتسم في لندن وباريس. وحدث الشيء ذاته الذي حاول الجنرالات والسياسيون منعه بشدة: لقد اعتبره العالم شهيداً. وعندما اندلعت بعد بضعة أشهر أعمال شغب في برلين وباريس وشيكاغو، ومن هناك امتدت الاضطرابات إلى الجامعات الأمريكية، ارتدى الشباب والشابات قمصاناً تحمل صورة تشي غيفارا وكانوا يحملون صوره خلال مسيرات الاحتجاج. في تلك الأشهر العنيفة من ثورة عام 1968، لم يكن تشي غيفارا ميتاً. كلا لقد كان حاضراً بقوة.

كان أرنستو تشي غيفارا آخر الثوريين الرومانسيين العظماء، كان مثل دون كيشوت، يبحث عن حلم مستحيل. يوجد أفضل تعبير عن دوافعه في رسالة إلى والديه، بعثها من بوليفيا: «أعتقد أن الكفاح المسلح هو الحل الوحيد لكل الذين يرغبون في تحرير أنفسهم. كثيرون يدعونني بمغامر - وأنا كذلك - ولكن من النوع الذي يرغب في المخاطرة بحياته من أجل الوصول إلى الحقيقة الوحيدة التي يؤمن بها».

كان اختيار بوليفيا هي فكرة تشي، وليست فكرة فيديل كاسترو. كانت بوليفيا تقع في الطريق إلى هدفه النهائي: تحرير الأرجنتين. وكخطوة أولى، حاول تشي تحريض سكان الريف البوليفي على خوض نضال طبقي ضد الاضطهاد الرأسمالي؛ على الرغم من أنه لم تكن هناك ملامح واضحة للرأسمالية في البلاد. قام الرئيس بارينتوس باقتطاع مساحات من الأراضي وتوزيعها على سكان الريف، وبذلك حوّل الأقنان إلى ملّاك صغار للأراضي. أينما كان تشي يبشر بثورته الاجتماعية، لم يكن يفهمه الفلاحون ذوو الإيمان الديني العميق. بالنسبة إلى مثقفي المدن، كان أرنستو غيفارا من مثيري المشاكل وداعية لنشر الشيوعية التي يقودها

فيديل كاسترو في أمريكا اللاتينية. وكان الخوف من الوقوع في الفخ السوفياتي بقيادة كوبية قد منعت الحزب الشيوعي في بوليفيا من تقديم الدعم له وفشل تشي في تجنيد بوليفي واحد لينضم إليه في كفاحه[15]. بالنسبة لتشي، كانت بوليفيا منذ البداية قضية خاسرة.

قد يجادل المرء بأن الكارثة نشأت عن سوء تقديره. مع ذلك يبقى سؤال واحد بلا إجابة ولكنه حيوي: لماذا لم يحاول كاسترو تخليص تشي من وضع يستحيل التعامل معه؟ كان تشي اسماً كبيراً، وكان يقود أهم عملية كانت تجري في كوبا في ذلك الوقت. كانت هافانا تدرك أن غيفارا لم يكن لديه أية بدائل أو خيارات أو طريقة للبقاء على قيد الحياة. لماذا إذن؟ لأن الكوبيين لم يكونوا يهتمون فعلاً لما يفعله تشي! كان بإمكانهم إرسال فريق إنقاذ، لكنهم لم يفعلوا ذلك. اتخذوا موقفاً أنانياً: «دعونا نرى ما سيحدث. إذا نجح سنعتبره نصرنا. وإذا مات سنعتبره شهيدنا». كان موت تشي نصراً دعائياً ضخماً، واستمر كذلك[16].

ولا يزال لغزه يحيّر العالم. توفي تشي وحيداً. أولئك الذين قد يكونون قادرين على رواية القصة كاملة ماتوا أيضاً. الرئيس الجنرال بارينتوس توفي في حادث تحطم طائرة هليكوبتر. توفي الجنرال أوفاندو بسبب السرطان. اختفى الرقيب ماريو تيران في معسكر للجيش.

وقد تلقى تشي الأسطوري وتشي الحقيقي ضربة بعد أخرى. لم يبق الكثير من حلمه في «غد مشرق»، واشتراكية شاملة. أمريكا اللاتينية اليوم هي ما كانت عليه دائماً، قارة يحكمها الفساد والرجعية. فشلت التجربة الوحيدة للاشتراكية في أمريكا اللاتينية، وهي تجربة الليندي في تشيلي. ومن المثير للدهشة أن شخصاً مستنيراً مثل تشي تغاضى عن الكوارث

15- البوليفيون الثلاثة في مجموعته جاؤوا مع تشي من كوبا.

16- أطلق كاسترو عملية حظيت بتغطية إعلامية جيدة للبحث عن رفات تشي. في عام 1997، أرسل فريق من الجيولوجيين من كوبا ووجدوا بعض البقايا البشرية بالقرب من فاليغراندي. نُقلَت إلى هافانا واستُقبِلت من قبل كاسترو مع موكب عسكري مهيب وفخم.

الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في العالم الشيوعي، أو السياسة الاستبدادية القمعية التي كان يمارسها أسياده. أصبح تشي بطريقة ما، أسيراً لإيمانه الراسخ بالماركسية من الطراز القديم «من أجل خير جميع الناس»، وهو نظام سياسي، لم يكن موجوداً حتى ذلك الحين. لقد فشل لأن شعباً يخاف من الله في بلد يخاف من الله رفض أن يؤمن بمبادئه الملحدة. بدلاً من ذلك كانوا يصغون إلى كلمات النبي التي عاشت منذ ألفي سنة وسوف تستمر في ذلك لوقت طويل بعد نسيان جميع ثوار الغد. كلمات أعظم ثوري فيهم جميعاً، وهو يسوع الناصري.

يوجد نصب تذكاري في قرية لا هيغويرا، وهو عبارة عن تمثال نصفي لرجل يرتدي «البيريه». صنعه السكان المحليون، وهو مطلي بألوان زاهية، وهو يعبر عن كيفية تذكُّر الفلاحين وجه «الرجل الذي نزل من الجبل»، تشي غيفارا. وعلى الجدار في غرفة الصف في المدرسة توجد لوحة تذكارية تحمل اسمه. أطفال اليوم ينظرون إليه ويتساءلون: من كان هذا الرجل؟ لقد كان مثل حياته الخاصة، رحلة وداع طويلة...

فترة فاصلة

1979–1968

ازدهرت أسواق الأسهم والمال في الغرب. ولإجل إطعام الفرن النهم للصناعة الحديثة كانت هناك حاجة إلى عنصر واحد: النفط. والذي اكتُشف رخيصاً ومتوافراً في منطقة من العالم، غير مستقرة للغاية بسبب الصراعات السياسية والنزاعات ما بين الأديان. والتي تضم المملكة العربية السعودية وإسرائيل وسوريا والأردن ومصر والعراق: تلك البلدان التي دمّرتها الحروب الإقليمية والتمردات السياسية، والإرهاب الطائش وإراقة الدماء لأسباب عنصرية. لقد حان الوقت الذي بدأت فيه أمريكا تخليص نفسها من فيتنام، وكانت روسيا على وشك التورط في (فيتنام خاصة بها) بعد غزوها أفغانستان. في الوقت الذي توحدت

فيه الدول العربية المنتجة للنفط وأحدثت «صدمة نفطية». بدأ العالم الصناعي بالقلق والبحث عن إمدادات آمنة من الذهب الأسود الثمين. من وسط ذلك الاضطراب، تاقت أمة واحدة إلى الهيمنة. بدت متماسكة ويمكنها الاعتماد على الجيش الأفضل تجهيزاً في المنطقة. كان بإمكانها أن تسيطر على تدفق النفط وتتعهد بتسليمه المنتظم. وأثبت ملكها أنه حليف راسخ للرأسمالية. إنه شاه إيران. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى ظهر زعيم ديني مزعج على مسرح الأحداث.

الفصل التاسع

16 كانون الثاني 1979

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾

• القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 65

كانت الرياح التي تهبّ على الهضبة العليا جليدية، كما هو الحال دائماً في فصل الشتاء. وكانت المناطق الأكثر ثراء في العاصمة مهجورة. فغالبية سكانها هربوا أو عزلوا أنفسهم خلف الأسوار الحديدية والأبواب المغلقة. كانت البلاد مشلولة بسبب الإضرابات. حلّقت طائرة هليكوبتر فوق أسطح المنازل، وارتفعت لمدى معين للسماح لركابها بإلقاء النظرة الأخيرة على المدينة التي امتدت على الوديان وقمم التلال، قبل أن تنقل ركابها من أمام الجناح الملكي في مطار مهرآباد. تقدم ضابط حرس الشرف، والدموع في عينيه، نحو شخص نحيل وهزيل، وحاسر الرأس يرتدي بذلة رمادية اللون، وهو يحدق في السماء كما لو كان يتفحص الطقس. انحنى الضابط وقبّل يده.

«افعل ما تراه ضرورياً. أتمنى فقط ألا يكون هناك المزيد من القتلى».

أدى الضابط تحية أخيرة إلى ملكه قبل أن يسير الزوجان الملكيان ببطء على طول السجادة الحمراء ويدخلان في طائرة البوينغ 707 التي تحمل اسم شاهين، الصقر الملكي. حدث ذلك في الساعة الواحدة وثماني دقائق من يوم 16 كانون الثاني 1979. بينما انطلقت طائرة زرقاء وبيضاء ذات أربعة محركات نحو السماء، كان يقودها عاهل البلاد، من وسط أخاديد الشوارع كان يتردد صدى هدير الملايين من الناس وهي تهتف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1]!

قطعت الإذاعة والتلفزيون بث برامجهما لتذيع إعلاناً مقتضباً: «لقد غادر الشاه البلاد!».

في عام 1878 الذي شهد ولادة صبي لضابط فقير برتبة ملازم أول في الجيش يعيش في مقاطعة جبلية نائية، كانت بلاد فارس الدولة الأكثر تخلفاً في الشرق الأوسط. كما كان هذا حال شعبها، وهو خليط من الأعراق ناتج عن غزوات السومريين والبابليين والآشوريين واليونانيين والرومان والعرب والمغول والأكراد والأتراك، مما جلب أوقاتاً مضطربة وثروات متفاوتة لحكام بلاد فارس العديدين. نقل هؤلاء الغزاة معهم لغتهم وقوانينهم وعاداتهم ودينهم. وأصبحت المحافظة على بقاء الشعب موحداً هي الشغل الشاغل لكل من حكم البلاد. لم تكن هناك طرق معبدة وكان السفر خطيراً؛ وكان اللصوص يجوبون الريف. وتركزت شؤون التعليم والقضاء بشدة في أيدي الملالي. وفسروا سلطتهم بأنها تمنحهم الحق في تقرير مصير الآخرين وفرض مؤسساتهم ونشر طريقة حياتهم الخاصة. لا يمكن أن يؤدي هذا النوع من القيادة أبداً إلى السلام والاستقرار، لأن الصراع الديني كان مشكلة البلاد الرئيسة عبر التاريخ. كانت الأغلبية الدينية من السكان تنقسم إلى طائفتين، وهما الأعداء التوأم في الإسلام، السُّنة والشيعة. في الشمال كان الأكراد المتمردون وفي الجبال القريبة من مدينة يزد كان يعيش بقايا أتباع ديانة

---

1 - القران الكريم، سورة البقرة الآية 153.

بلاد فارس الأصلية، وهم الزرادشتيون، أتباع زرادشت، الذين كانت من عاداتهم ترك جثامين موتاهم مكشوفة على أسطح أبراج مستوية تسمى أبراج الصمت إلى أن تأتي النسور والطيور الجارحة لتأكلها[2].

كان الحكام الحقيقيون لبلاد فارس هم الروس والبريطانيون، الذين كان دافعهم الرئيس هو توسيع مصالحهم التجارية، والتي تستدعي حماية مرور القوافل التجارية من أوروبا عبر بلاد فارس إلى أفغانستان ومن هناك عبر ممر خيبر، إلى الهند. أدى هذا الطريق إلى إنشاء مراكز تجارية تحيط بها مناطق استيطانية. في عام 1872، طلب قطب السكك الحديدية البريطاني، جوليوس رويتر من القيصر الروسي أن يمنحه الحق في إنشاء خط سكة حديد في بلاد فارس. لكن الطرق والسكك الحديدية وحدها لا تؤدي إلى إنشاء المستوطنات الزراعية الشاسعة مثل تلك التي طُوِّرت في الغرب. فالريف الذي كان يجب أن تكون فيه الأوضاع مستقرة كان واسعاً جداً، وكانت التربة الصخرية فقيرة جداً لا يمكن حراثتها. كان قطاع الطرق هم من يحكمون، وعندما هدّدوا العاصمة، قرر قادجار شاه إنشاء قوة من القوزاق، يقوم بتدريبها ضباط من روسيا القيصرية. جُنِّدَ صبي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، هو رضا بهلوي، كجندي في قوة القوزاق هذه. موهبته الفريدة جعلته يترقى بسرعة في الرتب العسكرية.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقف قادجار شاه مع الألمان. ولم يكن البريطانيون ليسمحوا بهذا، حيث إن السفن البحرية البريطانية تحولت إلى استخدام النفط وقوداً لها بدلاً من الفحم، وكان يجب الحفاظ على آبار النفط الفارسية. وبتوقيع «اتفاق التفاهم المتبادل»، الذي فُرض على الشاه في عام 1919، أصبحت بلاد فارس من جميع النواحي العملية، محمية بريطانية. لكن كان لا يمكن الوثوق بقادجار

2- كما هو موضّح في كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) فإن النبي زرادشت، عاش في القرن السابع قبل الميلاد. استندت مواعظه إلى عبادة الشمس وطاقتها. والسكان البارسي الذين يعيشون في منطقة بومباي الهندية هم لاجئون من بلاد فارس يتبعون الديانة الزرادشتية.

شاه، أحمد ميرزا. قرر البريطانيون، وعلى وجه الخصوص شركة النفط الأنكلو- فارسية، وضع حليف يمكن الاعتماد عليه على عرش الطاووس. كان رضا بهلوي قد أدرك جيداً أن «حماة بلاد فارس» لن يعارضوا توليه السلطة - وعلى الفور! توجه الجنرال رضا بهلوي خان على رأس لواء القوزاق الذي يقوده، إلى طهران واستولى على السلطة. في نيسان 1926، تُوّج ابن الفلاح سابقاً رضا بهلوي الأول، ليصبح شاهنشاه بلاد فارس. وغيّر اسم بلاده من بلاد فارس إلى إيران في عام 1935. وكانت خطوته التالية هي تكميم أفواه رجال الدين، الذين اعتبرهم عقبة في خططه لإجراء عملية تحديث.

وُلد وريثه، محمد رضا بهلوي (وأخته التوأم أشرف)، في 26 تشرين الأول 1919 في طهران. أصيب في شبابه بمرض الدفتيريا، وحمى التيفوئيد، والملاريا. وحيث إن بنية رضا الجسمانية كانت واهنة وضعيفة على الدوام، سرعان ما أصبحت شقيقته التوأم تعرف بلقب «صبي عائلة الشاه»، وهي السمعة التي ستحتفظ بها طوال فترة حكم شقيقها، وكانت تساعده في العديد من المواقف الصعبة بقوتها ونصيحتها. في أحد الأيام، عندما كان الصبي يركب الخيل، كبا حصانه، وكاد سقوطه أن يودي بحياة الصبي. أعقب هذا الحادث فترة طويلة أخرى من النقاهة. قضى رضا سنوات دراسته في مدرسة لو روزي في سويسرا، والتي كانت مخصصة لأبناء العوائل الثرية جداً.

وبفضل مظهره الرائع، اكتسب سمعة مريبة كونه (tombeur des filles)[3] أي فاتن النساء، وكان يجب إعادته إلى المنزل بسرعة عندما صُدمت المدرسة باكتشاف علاقته مع الخادمة التي تعمل في المدرسة، بدأ رضا الأول يبحث في بلدان الشرق الأوسط عن زوجة مناسبة لوريثه. وكان أفضل خيار سياسي يستدعي الاتصال مع البيت الملكي في مصر. في عام 1939، وكان في سن التاسعة عشرة، تزوج الشاب رضا من ابنة

3- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

الملك فؤاد الأول ملك مصر وأخت فاروق. أنجبت الأميرة فوزية طفلة وعادت لتعيش مع والدها الملك. الزوجة التالية كانت ثريا إسفندياري وقد فشلت أيضاً في إنجاب ولد. أُرسِلت طالبة تدرس الهندسة المعمارية، هي فرح ديبا، إلى باريس للحصول على تسريحة شعر مناسبة وخزانة ملابس رائعة. وزُيِّنت بشكل جعلها تشبه بيغماليون[4]، وحُوِّلَت إلى أميرة من أميرات قصص ألف ليلة وليلة. وفي غضون عام أنجبت للشاه رضا ولداً ليكون ولياً للعهد.

تاريخ إيران الحديث هو تاريخ النفط. في عام 1901، حصل مغامر بريطاني، هو وليام نوكس دارسي، من قادجار شاه على حق «استكشاف واستغلال ونقل النفط الفارسي كله». كان (ومازال) يهيمن على النفط كارتل الشركات المعروفة باسم الأخوات السبع[5]. في اتفاق أشنكاري عام 1928، قامت شركات النفط الكبرى بتقسيم البلدان المنتجة للنفط فيما بينها، مثلما يقسم المرء قطعة جبن. وبدون أن تكلف نفسها عناء النقاش مع حكام هذه الدول، فقد خصصت تلك الشركات قطعة من الأرض لكل واحدة منها، واتفقت على هيكل سعري «لما سيبيع به السوق». وارتفعت أرباحها بسرعة ووصلت أرقاماً فلكية، ساعد في ذلك نشوب الحرب العالمية الثانية التي اعتمدت على النفط. وكما كان القرن التاسع عشر يعتمد على الفحم في محركاته البخارية، كان القرن العشرين هو عصر محرك الاحتراق الداخلي. وبدون النفط فإن العالم الصناعي كان سيتوقف.

كان الشاه يدرك مدى سيطرته الكاملة التي كان يتمتع بها على الصناعة والنقل الدوليين، ناهيك عن ماكنة الحرب العالمية. كان النفط، أو بالأحرى نقص النفط، قد دفع اليابان إلى الحرب. وجاءت ضربته

4- شخصية أسطورية يونانية صارت رمزاً للجمال الفائق. المترجم.

5- تشمل الأخوات السبع الشركات التالية: ستاندرد أويل أوف نيوجرسي، ورويال داتش شل، وغولف أويل، وتكساكو، وستاندارد أويل أوف كاليفورنيا، وشركة النفط الأنكلو إيرانية.

إلى شركات الاحتكار السبع التي كانت بدون منازع حتى ذلك التاريخ دون سابق إنذار. في عام 1957 وقّع الشاه اتفاقاً مع شركة النفط الوطنية الإيطالية. استثمر الإيطاليون بموجبه 50 في المائة من مبلغ الاتفاق في التنقيب عن النفط، مقابل حصولهم على 25 في المائة من أرباح استغلاله. شكّل هذا الامتياز سابقة خطيرة وجعل كارتل النفط يرتجف، من الغضب أكثر منه من الصدمة. وأعقب صفقة الشاه الأولية امتيازات مماثلة وقّعها مع اليابانيين والفرنسيين.

كان الاقتراب من مسألة النفط خطوة جريئة من رضا بهلوي وقد اكتشف مدى الخسارة التي تتعرض إليها بلاده. بعد صدور «تعليمات الشاه بهلوي»، أصبحت الدبلوماسية الأجنبية أكثر إزعاجاً وغير متعاونة، بل وحتى متهورة... في عام 1932، ارتكب الشاه خطأً خطيراً في إلغاء امتيازات شركة النفط الأنكلو-إيرانية. ثم أُجبر على نقضه وتوقيع تمديد لمدة ستين عاماً. وضاعف من خطئه قيامه بدعم ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. في عام 1941، غزا الاتحاد السوفييتي وبريطانيا إيران وخلعا الشاه[6]. بناءً على إملاءات قوتين أجنبيتين، ثُبِّت ابنه محمد رضا الثاني البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً على العرش. ولكونه شاباً وعديم الخبرة، كان مثل اللعبة في يد البريطانيين ودمية في يد الروس. دافع ونستون تشرشل عن هذا الانقلاب: «لقد طاردنا ديكتاتوراً إلى المنفى ونصبنا ملكاً دستورياً تعهد بقائمة كاملة من الإصلاحات والتعويضات الجدية التي تأخرت كثيراً».

بحلول عام 1944، بدأت قوة عالمية أخرى تتدخل في الشؤون الداخلية لإيران – هي الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ذكر الرئيس الأمريكي روزفلت في مذكرة أرسلها إلى وزير خارجيته كورديل هال: «إنني متحمس لفكرة جعل إيران تصبح مثالاً على ما يمكن أن تفعله السياسة الأمريكية النزيهة». انتبهت أمريكا فجأة إلى أن المنطقة الغنية

6- توفي في المنفى في جنوب أفريقيا في عام 1944.

بالنفط تسير على النقيض من المصالح النفطية البريطانية، التي لم تفعل أي شيء لإحباط خطط الروس لتمديد إمبراطوريتهم الحمراء لتشمل موانئ المياه الدافئة، وفي الواقع، فقد تدخلت من خلال خطط مدروسة بعناية. بعدها أعلنت حركة استقلال مدعومة من الاتحاد السوفييتي إقامة جمهورية ذات حكم ذاتي في شمال شرق إيران، إلى جانب أن حزب توده، الذي اعتنق الشيوعية على النمط السوفييتي، بدأ يرفع رأسه. شكّلت هذه الضغوط المتصاعدة بالنسبة لبريطانيا والولايات المتحدة خطراً على احتياطيات النفط. أعلن الشاه الأحكام العرفية وتكفلت الشرطة السرية بالباقي. لم تُعِق الاعتقالات الحركة الثورية واستمرت المشاكل. مع ظهور محمد مصدق، برز على المشهد السياسي مناور ذكي لم يطالب بأقل من تأميم نفط إيران. واعترض رئيس الوزراء رازمارا بحجة أن إيران ليست في موقف يسمح لها بالتراجع عن الاتفاقيات التي وقعتها. بعد أربعة أيام، مات رازمارا بإطلاق الرصاص عليه وهو في طريقه إلى صلاة الجمعة. وأعقب ذلك المزيد من الاعتقالات وتعرض اقتصاد إيران لهزات عديدة بسبب سلسلة من الإضرابات المعيقة لحركته. ولإخراج البلاد من المأزق، قرّر الشاه تعيين محمد مصدق رئيساً للوزراء.

ظلّت شركة النفط الأنكلو-فارسية (أصبحت فيما بعد شركة النفط الأنكلو-إيرانية) على مدى خمسين عاماً تمثل أداة الهيمنة البريطانية على إيران. في عام 1952، أصرّ مصدق البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً على حصول بلاده على حصتها العادلة من الأرباح. وبحماقة غير محسوبة العواقب، رفضت الحكومة البريطانية التفاوض وسحبت اختصاصيها من مرافق مصافي تكرير النفط في عبادان. وزعم وزير الطاقة الإنكليزي «إن الايرانيين لا يمكنهم العمل بدون مهندسينا». وكان على خطأ. استمرت إيران في استخراج النفط، وردت عليها شركة النفط الأنكلو-إيرانية بحثٍّ أسواق النفط على مقاطعة النفط الخام الإيراني. توصل مصدق إلى اتفاق مع الاتحاد السوفييتي لشراء النفط الإيراني.

في ذروة الحرب الباردة، ومع تعاظم جنون سياسة المكارثية في أمريكا الموجهة ضد الشيوعية، وجدت حكومة المحافظين البريطانيين أنه من السهل إلصاق التهمة بمصدق بأنه شخص شيوعي. استشاط الرئيس الأمريكي أيزنهاور غضباً وصدرت الأوامر إلى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بإعداد خطة طوارئ. وقد عُيِّن الموظف المسؤول عن عمليات وكالة الاستخبارات المركزية في الشرق الأوسط، كيرميت «كيم روزفلت»، حفيد الرئيس تيدي روزفلت، مسؤولاً عن عملية «مصدق». وفي الوقت الذي كانت فيه خطط الإطاحة بمصدق تجري على قدم وساق، كان الشاه منزوياً في قصره، متسائلاً عما كان يحدث. حتى إنه اشتبه في أن البريطانيين كانوا يتعاونون مع مصدق، حتى ذهب كيم روزفلت مسؤول وكالة المخابرات المركزية بنفسه متخفياً إلى قصر نيافاران، وأوجز للشاه تفاصيل الضربة الاستباقية.

في آب 1953، قام مصدق بحل البرلمان وتولى سلطات دكتاتورية. حاول الشاه إقالته وتنصيب شخص من الجناح اليميني المتطرف، هو الجنرال فضل الله زاهدي مكانه. لكن مصدق كان بإمكانه أن يعتمد على الدعم الشعبي ورفض التنحي. انفجر الشارع مع صيحات «أيها اليانكي (الأمريكان)، عودوا إلى بلادكم!». كان الشباب يجوبون الشوارع رافعين الأعلام الحمراء. أُحرقت السيارات ومات الناس. اندلعت مظاهرات عنيفة في طهران مصحوبة بحرق العلم الأمريكي وشنّ الهجمات على مكاتب شركات النفط والخطوط الجوية الأجنبية. وتحسباً لما سيحصل، فقد الشاه أعصابه، وصعد إلى طائرة خاصة، وفرّ بجلده متوجهاً إلى روما. وصل إلى هناك كأنه لاجئ مفلس وكان عليه أن يتشارك السكن مع رجل أعمال فارسي في شقة في فندق إكسيلسيور[7]. وكان هذا الوضع المتفجر يحمل كل الإمكانيات لإشعال الشرق الأوسط بأكمله. كان من الضروري وضع نهاية له وبسرعة. وبدأت أموال وكالة

7- كل من ساعد الشاه في هذه الفترة كوفئ بشكل كبير.

المخابرات المركزية بالعمل. وسرعان ما استُبدلت صيحات «أيها الأمريكان»، عودوا إلى دياركم! بشعار «عاشت أمريكا!»، وعادت صور الشاه إلى الظهور في نوافذ المتاجر. في 19 آب 1953، أثناء تناول الغداء في روما، سُلِّم الشاه برقية:

«تمت الإطاحة بمصدق. الجيش الإمبراطوري يسيطر على طهران».

في واحدة من أكثر عمليات وكالة المخابرات المركزية جرأة وعلنية، وبمساعدة بعض جنرالات الجيش الكبار، أطاحت الولايات المتحدة بمصدق. تمّت محاكمته وحُكم عليه بالإعدام، ولكن الشاه خفّف الحكم إلى السجن. عاد رضا بهلوي مبتهجاً إلى عاصمة بلاده. تدفقت الشمبانيا ولاقى ترحيباً كبيراً من قبل الصحفيين الأجانب. وكان يجري المقابلات بلا حدود وقد كانت ضرورية لاستعادة سمعته التي تلطخت كونه الملك الذي هرب، وتخلى عن بلده لتواجه حرباً أهلية. ما كان ينتظره عند عودته كانت قوات بوليسية مدججة بالسلاح عديمة الرحمة، ورجال دولة متشددين، يبحثون عن المجد وسياسيين، و«رجال أعمال» -محليين وأجانب- مهتمين بتحقيق غاياتهم الشخصية. ركع هؤلاء المتملقون المغمورون على ركبهم وقبّلوا يد الشاه. الذي تمتم قائلاً: «أنا أعرف أنهم يحبونني». بعد (الإطاحة الشعبية) بمصدق، تمسك الشاه بالاعتقاد الخاطئ بأنه كان خالداً ومحبوباً من الجميع. وهذه كانت واحدة من بذور مأساته. لم يعد جنون العظمة لديه يعرف حدوداً. في غضون أشهر، كانت علامات عبادته منتشرة في كل مكان. مع تنفيذ قانون الصحافة القاسي، حُظِرت في الواقع جميع المناقشات التي تتناول القضايا التي تواجه البلاد. كان على كل صحيفة يومية أن تتصدر صفحتها الأولى قصة عن رضا الثاني، شاهنشاه إيران، تشيد بإنجازاته، بغض النظر عما يحدث في العالم. كان هدفه هو أن يصبح نابليون الشرق الأوسط. ساعدته عائدات النفط والمساعدات الأمريكية في إنشاء آلة عسكرية ضخمة. وقد دُلِّل الجنرالات الذين كانوا مخلصين له

فكانوا بعيدين عن أي مساءلة قانونية ومنحهم مساكن فخمة. قام رؤساء وكالة الاستخبارات المركزية المتقاعدون والجنرالات الفرنسيون، بدور تجار الأسلحة، وبدؤوا يحجون إلى طهران لإثبات فعالية الصواريخ الموجهة والطائرات المقاتلة الحديثة. وتسللت أموال البترودولار إلى جيوب تجار السلاح. بين عامي 1972 و1977، اشترت إيران 240 طائرة مقاتلة حديثة و500 طائرة هليكوبتر و4 فرقاطات و3 غواصات والعديد من بطاريات صواريخ هوك. برّر الملك إسرافه بعبارة واحدة: «لا يمكننا تحقيق التفوق الاقتصادي بدون قوة عسكرية قوية».

إذا كان الشاه هو الملك المتوج، كانت هناك شخصية أخرى قوية ومؤثرة مثل الشاه الإلهي نفسه. والشخصية تلك كانت صاحبة السمو الإمبراطوري الأميرة أشرف، لكن كان هناك من يكرهها بشدة أو يحبها كثيراً، فلم يكن هناك أحد بمعزل عن تأثيرها. ساهمت الأميرة أشرف أكثر من أي من الملكات من بنات رضا بهلوي الثلاث في تشكيل صورة العرش. ربما كان هناك كائن خفي قام بمزج جيناتهم عند الولادة ومنح الفتاة تلك الجينات المخصصة للصبي. وباعتبارها عملت سفيرة فوق العادة في حكومة الشاه، فقد أدركت أن الدبلوماسية هي فن الممكن، وأثبتت كفاءتها باعتبارها ماهرة في المكائد والمساومات. عندما رفض الروس إخلاء أذربيجان ذهبت لرؤية ستالين. لم يوافق على طلبها فحسب، بل وقدم لها معطفاً رائعاً من فرو السمور. ومع الأمريكان كان لها دور فعال في الإطاحة بمصدق. وفتحت أبواب العلاقات الدبلوماسية بين إيران والصين في عهد ماو. كانت علاقاتها الغرامية العديدة محور الهمس الذي تلتقطه آذان السياح الأثرياء الذين يتمتعون بأشعة الشمس لتجعل بشرتهم سمراء على طول ساحل كوت دازور الفرنسي. جمعت جرّاء حدسها بالمشاريع التجارية الناجحة ثروة طائلة، لكن لم يمكن أبداً إثبات أنها كانت تقوم بأعمال غير مرغوب فيها. لم يكن من الغريب أن تتم جميع هذه الأنشطة في سبعينيات القرن الماضي

من خلال حقائب سامسونايت مكدسة بها نقود من فئة 100 دولار، وتنقلها طائرات خاصة إلى بنوك في إمارة ليختنشتاين أو جزر كايمان. كانت الرشوة هي الأساس الوحيد لممارسة الأعمال التجارية مع إيران. أصبح الفساد مرضاً اجتماعياً حاداً، وكانت الحجة القائلة بأن «الجميع يفعل ذلك» قد تمت الموافقة عليها بشكل صريح. ومما لا خلاف عليه، أن من الصعب محاربة الفساد عندما تكون المصالح والعادات السيئة متجذرة بعمق.

في عام 1963، بدأ الشاه رضا «ثـورة بيضاء» استدعت القيام بمجموعة واسعة من التغييرات. وما كان يقصد به إصلاحاً زراعياً لم يكن في الواقع أكثر من خطابٍ شعبويٍّ. اشتُريت الأرض من العائلات الغنية التي تملكها وبيعت مرة أخرى إلى ملاك الأراضي الأغنياء. توافدت أعداد متزايدة من الفلاحين الفقراء على المدن وحاولوا إعادة إنتاج حياتهم القروية فيها. حصل بعض الوافدين الجدد على عمل في وظائف متدنية، لكن معظمهم كان بلا عمل. وبدلاً من تحسين ظروف حياتهم، أصبحوا سكاناً فقراء لأحياء كئيبة بُنيت على عجل تقع عند مشارف المدن. زادت ظروف حياتهم البائسة من الاستياء العام وبدؤوا بطلب النصيحة من ملاليهم (رجال الدين). لقد أخطأ الشاه في محاولته غير المدروسة مَنْح المرأة حق التصويت، وهو مبدأ غربي لم يُسمع به في الدول الإسلامية. وقد ندّد به على الفور 80 ألفاً من الملالي في المساجد في جميع أنحاء البلاد. أعربت الأميرة أشرف صراحة عن استيائها من النساء اللواتي استمرين في ارتداء «قطعة القماش السوداء المروعة التي تعود إلى زمن جداتهن». لم يحدث هذا أي فرق. فقد استمرت النساء في ارتداء الشادور.

أدّت الخطوة التحررية النسائية المقترحة إلى تفاقم الصراع العنيف بين القوة الدنيوية والروحية. هنا أصبح وجود الأمريكيين حافزاً لإسقاط الشاه. فقد وصل حينها آلاف المستشارين والفنيين العسكريين الأمريكيين

للمساعدة في تفعيل آلة الشاه الحربية. وقد وصلوا بواسطة الطائرات الضخمة ووسائل النقل البحرية. كان ذراع الرافعة يتأرجح، والرافعات تصدر صريراً، وكانت تخرج من عنابر السفن المعدات الحربية، والمدفعية والذخيرة والمروحيات وصناديق الصواريخ ومئات من علب الكحول. جلب المستشارون معهم ثقافتهم والهمبرغر؛ فيما كانت سلسلة بشرية من العمال الإيرانيين تسحب صناديق من علب الفاصوليا واللحم المقدد المعلّبة، وبكرات الشعر، وألف مادة مختلفة يمكنها أن تملأ رفوف متجر ضخم في الولايات المتحدة. كانت زوجاتهم يقدن السيارات ذات الحجم الكبير وهن ذاهبات للشراء من الأسواق المحلية، وقد جعلتهن ملابسهن مثل مراهقات يتنزهن وسط ولاية كاليفورنيا المشمسة، فكن يرتدين شورتات قصيرة وقمصان ضيقة، ويذهبن إلى الشاطئ، حيث يحضر أزواجهن آلات الشواء لشواء شرائح لحم الخنزير المجمدة. في هذه الأثناء، كانت الفتيات يغطسن في الماء وهن يرتدين ملابس السباحة الشفافة. لقد تجاهلوا حقيقة أنهم كانوا في بلد إسلامي، نساؤه محتشمات وتسود فيه قوانين إسلامية متزمتة. لم يكن لدى هؤلاء الفنيين الأمريكيين الشباب أي خبرة في الحياة في الخارج، كما أن تعقيدات القوانين الشيعية الدينية الصارمة غابت عنهم. لكن هذه الحقيقة لم تمر دون أن يلحظها السكان المحليون الذين اعتبروا تدفق هؤلاء الغزاة نوعاً جديداً من الاحتلال العدائي. كان لا بدّ أن يؤدي ذلك إلى حدوث مشاكل. بحلول عام 1964، أدّت قضية من له الحق في البت في الحكم على التجاوزات الدينية التي ارتكبها المستشارون الأمريكيون إلى حدوث فجوة بين الشاه والرجل الذي سيصبح عدوه، وهو آية الله الخميني.

في ذلك الوقت، كانت تتمّ تسوية هذه المسائل بطريقة ثابتة. ليس هناك شك في أن القتل القضائي[8] قد أدى غرضه بشكل جيد لآلاف السنين

8- تنفيذ حكم الإعدام الصادر من محكمة مختصة بدون أن يساير مبادئ العدالة. المترجم.

كرمز لسلطة الحاكم، وبهذا، أصبحت إيران واحدة من أكثر الأنظمة قمعاً واضطهاداً لشعوبها. لم يتم التسامح مع انتقاد الحاكم الإمبراطوري. إذا حدثت خلافات سياسية داخل حكومته، فإن ألدّ المعارضين للشاه سيدفعون ثمن ذلك بقضاء مدد طويلة من السجن؛ أو نهاية حياتهم. أدى قتل الشاه لخصومه إلى تزايد النشاطات السرية واتساع قاعدة المعارضة. وفي خطوة لم تخدع أحداً، قام الشاه بالتحريض على إنشاء نظام الحزبين، وقد ضمن ولاء المعارضة عندما اختار بنفسه مرشحيها: «نود أن نتجنب بأي ثمن التجربة التي تتكرر في بعض الدول الديمقراطية حيث يُعطى الشعب بعض قوى المعارضة من الحكم». وبمساعدة من جهاز الأمن الداخلي، أمسك بالبلاد بقبضة شديدة. كان جهاز السافاك (جهاز الأمن والمخابرات) سيئ السمعة هو من يحافظ على نظام الشاه ويدين له بالولاء، والذي يقال إن عملاءه بلغ عددهم 80 ألفاً (واحد لكل رجل دين) وكان بحاجة إلى مراقبة أنشطتهم. اختُرِق كل جزء من المجتمع الفارسي، من الوزير إلى عامل المنجم، من ضابط الجيش إلى رئيس القرية، وكان يُرسل تقرير مفصل بشكل يومي إلى مكتب الحاكم. وفي بعض الأحيان يقوم بمحاكمات صورية. وفي أوقات أخرى يجعل الناس تختفي ببساطة. وفي البلدان الأجنبية، قام عملاء السافاك بمضايقة زعماء المعارضة المنفيين وجماعات الطلاب.

حُظِر عقد أي اجتماع داخل وحدات الجيش يضّم أكثر من ضابطين. وأصبح الخوف هو الإطار النفسي لكل عملية تمرد. وهذا أطلق العنان لما يشبه العدوى؛ على مر التاريخ، كان الإرهاب يولد المزيد من الإرهاب. لقد غيّر الكفاح من قناعه. الجنود الذين كانوا لا يزالون مستعدين للموت من أجل الشاه، سيحلّ محلهم في يوم من الأيام الأطفال الذين يحملون بنادق منهوبة، والمستعدون للموت من أجل آية الله.

بات رضا بهلوي يتصرف أكثر فأكثر كما لو أن شعاره كان عبارة

لويس الرابع عشر L’état, c’est moi[9] ولكن بينما كان لويس الرابع عشر (وكان يلقب بالملك الشمس) يحيط نفسه برجال عبقريين مثل كولبير أو تورين، ظن الشاه أنه يمكن أن يفعل كل شيء بنفسه. ولكنه لم يكن يمتلك الموهبة ولا المكانة الدولية. مع ذلك، كان يؤمن إيماناً لا يتزعزع بمهمته الإلهية. «منذ أن كنت في السادسة من عمري، شعرت أن هناك كائناً أسمى يرشدني». وعلى الرغم من أن البلاد كانت تعاني من مستوى مروع من الأمية ومعدل وفيات أسوأ من أي مكان في الشرق الأوسط، وكل ذلك بسبب النقص في المدارس والمستشفيات، لكن الشاه أمر في تشرين الأول 1971 بتنظيم حدث مبالغ فيه كان من المؤكد أنه سيتفوق على أي شيء نُظِّم من قبل على الإطلاق. استدعى نخبة من مصممي الأزياء والطهاة الباريسيين ليقوموا بخياطة الملابس والطهي لهذه المناسبة. حطت طائرات مليئة بأفراد من العائلة المالكة في مهبط طائرات بُنِي خصيصاً لهذا الحدث. أقيمت مدينة خيام ضخمة في وسط الصحراء، كل خيمة مجهزة بحمام من الرخام. صُنعت عطور خاصة بهذه المناسبة. كانت أزياء المشاركين في ذلك الاحتفال مطرزة بخيوط من الذهب الخالص. وقام طاهي مطعم ماكسيم ذي الثلاث نجوم بإعداد وجبة من بيض طائر الحجل المسلوق والكافيار. وبما أن مسؤول البروتوكول في القصر الملكي نسي أن يخبر خبير طهي الطعام الغالي الثمن بأن صاحب الجلالة الإمبراطور لم يمس الكافيار، وأن أي شخص آخر لم يأكل في المأدبة؛ وظل الأمر هكذا، إلى أن قام طاهي (cuisinier) المطعم ذي الثلاث نجوم بتقديم بعض الكراث المغلي إلى الملك.

لأول مرة منذ انعقاد مؤتمر فيينا، عندما قام الملوك ورجال الدولة بتقسيم أراضي أوروبا ما بعد عصر نابليون، دُعِي رؤساء حكومات العالم إلى اجتماع لمناقشة مستقبل الكرة الأرضية. ولم يُدعَ من هو أقل من ذلك. حضر ذلك الاجتماع إمبراطور واحد، وتسعة ملوك، وثلاثة أمراء

9- الدولة أنا- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

حاكمين، وثلاثة عشر رئيساً، وعشرة شيوخ، وسلطان واحد. اعتبر رضا بهلوي نفسه السليل المباشر لكورش الكبير[10]، الذي غزا ليديا (تركيا الحديثة) في سنة 546 قبل الميلاد، ثم جعل إمبراطوريته تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا ومصر. كان سلفه العظيم الآخر هو الملك داريوس الذي وصلت غزواته إلى وادي السند. ولذلك جعل الشاه الحالي الاحتفالات بمناسبة الذكرى الثلاثين لتتويجه تتزامن مع ذكرى مرور 2500 سنة على نشوء إيران كإمبراطورية. وقع اختياره لموقع الاحتفال عند أطلال مدينة برسيبوليس المرموقة، والتي لا تزال تعرض الكثير من روعة بلاد فارس القديمة. تشهد برسيبوليس على تاريخ مزدهر. بعد انتصار الإسكندر الأكبر الساحق على الفرس في معركة غوغميلا عام 331 قبل الميلاد، وهو ما تنبأت به الغانية تاييس من أن الإسكندر سوف يدمر مجد الفرس حتى تستطيع الثقافة اليونانية أن تغزو العالم. تقول الأسطورة إن الإسكندر أحرق مدينة برسيبوليس عن بكرة أبيها... ربما كانت الحقيقة أن قواته كانت معتادة على الترف ورفضت المضي قدماً في القتال. وعن طريق تدمير المدينة قام بحل المشكلة.

افتتح محمد رضا الثاني بهلوي، الذي أعاد صياغة تاريخ بلاد فارس ليلائم مواصفاته، الاحتفالات بصوته الهادئ الرتيب: «كورش، أيها الملك العظيم وملك الملوك، أنا شاهنشاه إيران، وشعبه، أوجّه تحيتي لكم!». تبع ذلك عرض للأزياء استمر لساعات عدة، بدأ مع عروض لأزياء المحاربين الملتحين من بلاد فارس والميديين، والصفاريين والقاجار، وقوة إيران التي تمثلت ذات مرة في فرسان الملك أحشويروش والعربات الحربية للملك كورش، ثم جُعِلت معاصرة من خلال عرض للقوة العسكرية للشاه. إذا تحدث المرء بشكل دبلوماسي، لوصف مهرجان الفنون في برسيبوليس يمكنه القول بأن التخبط قد ساده. أعطى الشاه تعليمات لترتيب ضيوفه المدعوين وفقاً للأسبقية الملكية بمقاييس

10- أول ملوك فارس. المترجم.

القرون الوسطى، مما أدى إلى حدوث فوضى مرتبكة. فالملوك الذين بدون ممالك وضعوا أمام قادة القوى العالمية الكبرى. رفض الرئيس الفرنسي بومبيدو أن يكون مقعده خلف بعض الأمراء الصغار وأرسل رئيس وزرائه بدلاً من ذلك، وهي إهانة لم يغفرها له الشاه. أرسلت ملكة إنكلترا ابنتها الأميرة آن، وأرسلت ملكة هولندا زوجها. ولكن كان غياب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون هو الذي تسبّب في أكبر إحراج. وكان نائب الرئيس سبيرو أغنيو، الذي وفقاً للبروتوكول الأرستقراطي وُضِع مكان جلوسه في صف واحد فقط قبل السفير الصيني، هو من مثّل أمريكا. والأسوأ من ذلك، أن إنفاق 300 مليون دولار في هذا الاحتفال الكبير، في بلد يبلغ متوسط دخل الفرد السنوي فيه 50 دولاراً، وفّر مادة دسمة لأعداء الشاه ليطعنوا به. ومع ذلك، اعتبر الشاه مهرجان برسيبوليس نجاحاً. لقد أوصل رسالته. في غضون شهر استعرض عضلاته وقطع العلاقات الدبلوماسية مع العراق. وفي خطوة مفاجئة قلبت توازن المنطقة بأكملها، استولى على ثلاث جزر، هي أبو موسى، وطنب الصغرى وطنب الكبرى، وكانت تتكون من صخور صغيرة غير مأهولة تقع على مضيق هرمز، وبالتالي تسيطر على مدخل الخليج. وبالاستيلاء عليها، فقد أحكم قبضته على حركة جميع السفن الداخلة والخارجة من المنطقة الغنية بالنفط. وكان لهذه الخطوة عواقب كبيرة.

كان يوم 22 كانون الأول 1973 مهماً في الحياة الاقتصادية في العالم. اجتمع وزراء النفط الست في الخليج العربي[11] وعقدوا جلسة مغلقة في طهران. ناشد الشيخ زكي يماني، وزير النفط السعودي، الذي كان يجلس على الطاولة قبالة الشاه، الوزراء بخفض أسعار بيع النفط الخام العربي، أما الشاه، فقد قال إن على الغرب أن يدفع أكثر. انتهت الجلسة الافتتاحية إلى طريق مسدود. قام الشاه بخطوة حاذقة من خلال عقد مؤتمر صحفي. كانت القاعة الكبرى في فندق إنتركونتيننتال في

11- الفارسي في أصل الكتاب. المترجم.

طهران مزدحمة بمراسلي الصحافة العالمية والميكروفونات التي ثُبِّتت مثل أعواد نبات الهليون. دخل الشاه بأسلوبه الملكي المعتاد وجلس خلف الميكروفونات. قبل أن يتمكن أي شخص من طرح سؤال، رفع يديه وجعل القاعة تغرق في الصمت. وأعلن عن الخبر الصادم: «11.65 دولاراً للبرميل!» وهو أكثر من ضعف سعر النفط المسجل في اليوم السابق! وأوضح أن عرضه كان مبنياً «على أساس من الكرم وعمل الخير». في عام 1974، قفزت عائدات النفط الإيرانية من 5 مليارات دولار إلى 24 مليار دولار في السنة.

كان النفط هو القضية. لم يكن الغرب مشغولاً إلى حدّ كبير بالمشاكل الإسلامية الداخلية. كان لا يزال يعاني من «صدمة النفط». تسبّب العرب (كما كانوا ينادونهم عموماً) في خلق اضطرابات في السوق برفع أسعار نفطهم؛ وكان ذلك هو الخبر المهم. أما فيما يتعلق بسياستهم الداخلية، فباستثناء بعض الفلسطينيين (الذين كانوا يصنفون كعرب) الذين يضعون قنابل في الحافلات في تل أبيب، لم يكن لدى وسائل الإعلام الكثير لتتحدث عنه. لكن ذلك سيتغير قريباً.

بالنسبة للشيعة، فإن أئمتهم لا يمثلون الجانب الديني فقط؛ فهم يقدمون الإرشادات الروحية للقوانين التي وضعها القرآن الكريم. بعد تنفيذ الإصلاحات التي قام بها الشاه رضا خان في الثلاثينيات، فقد الأئمة الكثير من نفوذهم في إدارة البلاد. ووسط مشاعر اليأس التي تتملكهم، كان الأصوليون الإسلاميون يعتبرون الشاه قادراً على كل شيء وغير مرن، ومحمياً بأجهزته الأمنية والمخابراتية الهائلة. اشترك الملالي في محاولة اغتيال الشاه في عام 1949، وكانوا بدون شك يؤيدون مصدقاً، وكانوا يسيرون وفق القول المأثور في بلادهم: «عدو عدوي هو صديقي». بدأ هجومهم الكبير التالي في الستينيات ضد «الثورة البيضاء» التي تضمنت قوانين الإصلاح الزراعي وتحرير المرأة، التي اعتبروها تصادماً بين الشاه الأوتوقراطي ومبادئ الإسلام. وكان كل ما هو مطلوب حينها هو

العثور على شخص يمتلك القوة الروحية والإلهام الذي يمكن أن يؤدي إلى التغيير. كان هذا الرجل عالماً شيعياً كبيراً في السن ذا لحية بيضاء، وكان أستاذاً في الشريعة الإسلامية، وكانت من أبرز سماته عيونه، التي كانت تشتعل بنيران مقدسة.

ولد آية الله روح الله السيد الموسوي الخميني في عام 1902 لعائلة من صغار الملالي في مدينة قم المقدسة. تلقى تعليمه وسط التقيد الصارم بالدين الإسلامي. وألّف كتيباً وصف فيه الشاه بأنه تخلى عن مبادئ الإسلام. ومع ازدياد حدة هجماته، زاد جمهوره بسرعة فائقة. «إن القرآن الكريم والإسلام اليوم في خطر». أصبحت عبارته هذه بمثابة إعلان للحرب على السلطة الدنيوية. بحلول عام 1963، بات يتهم الشاه علانية بأنه عميل لإسرائيل. أثار اعتقال الخميني أعمال شغب دموية في جميع أنحاء البلاد راح ضحيتها عدة آلاف[12]. أراد رئيس الوزراء أسد الله علم التخلص من آية الله المزعج هذا، لكن الشاه حال دون إعدامه. لقد أخطأ كثيراً في تقدير عواقب بقاء رجل الدين هذا. بقدر ما كان يشعر بالقلق، لم يكن هناك شيء أكثر مللاً من واعظ مهني يتحدث عن مبادئ الإسلام. لا، الخطر الحقيقي يكمن في الثوريين السريين. في عام 1964، أُرسل الخميني إلى منفى داخلي، لكن الإمام رفض الصمت، وأثارت خطاباته المزيد من المشاكل. اعتُقل مرة أخرى، وللمرة الثانية منع الشاه إعدامه. حاول إقناع آية الله بترك أمور السياسة للسياسيين ذوي الخبرة. كان ردّ الخميني مقتضباً ويمس جوهر القضية: «منذ عهد النبي، كان الإسلام يمثل قوة سياسية ولم يقتصر على الممارسة الدينية». كانت القطيعة النهائية حتمية وحدثت في خريف عام 1964 بسبب قضية المستشارين العسكريين الأمريكان وحقهم في أن تعرض قضايا الجرائم التي يرتكبونها على المحاكم الأمريكية بدلاً من القضاء الإيراني الذي يحكم بموجب الشريعة الإسلامية. في عام 1965، هرب الخميني إلى

12 كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها المؤلف باسم الخميني وثورته الإسلامية.

المنفى في مدينة النجف في العراق. في اللحظة التي عبر فيها آية الله شط العرب، النهر الذي يفصل إيران عن العراق، انتقل من سهوب آسيا المغبرة إلى مهد التاريخ الإسلامي.

في القرن السابع الميلادي، انتشرت الأخبار عن حدث غريب حصل في مكة، وهو مكان كانت تلفحه الرياح في قفار الصحراء العربية. فقد ولد محمد بن عبد الله هناك في 570 م وبلّغ برسالته بوصفه نبياً في الأربعين من عمره، وتوافد الناس إلى منزله للاستماع إلى رسالته. بعد وفاة النبي في عام 632 ميلادي، انطلق خالد بن الوليد (المعروف باسم «سيف الإسلام») مع حشد كبير من المحاربين لغزو شبه الجزيرة العربية، كان هولاء المحاربين لا يسترشدون بشيء ما عدا التعصب الديني الذي لا يمكن السيطرة عليه. حدثت الموقعة الحاسمة في عام 637م، في منطقة القادسية بالقرب من النجف. في «المعركة الكبرى» تلك، هزم سعد بن وقاص جيشاً فارسياً ضخماً. بعد معركة القادسية، لم يعد هناك شيء يمكن أن يوقف انتشار الإسلام، وقد حملت رسالة النبي من بلدان الهلال الخصيب إلى شمال أفريقيا، ومن هناك عبرت إلى إسبانيا حيث بقيت حتى سقوط غرناطة في عام 1492. جلب الإسلام نبضات حياة جديدة وأحدث تحولاً سياسياً في جميع البلدان التي خضعت له. إلا أن الإسلام مثل أي ظاهرة اجتماعية عانى من انشقاقات ، فبعد مذبحة قتل الحسين وسبعين ممن معه بأوامر من الخليفة الأموي يزيد بن معاوية حصل الانشقاق الكبير في الإسلام ، فانقسم إلى فرقتين: سُنّة وشيعة. كان تاريخ هذا الانقسام مليئاً بعمليات الغزو والتهجير والاغتيالات والحروب والخراب، واستمرت هذه الرغبة في الثأر حتى وقتنا الحاضر[13].

في البداية، كان المذهب الشيعي هو عقيدة الأقلية، ويمثل نداءً

13- في صيف عام 1998، اجتاحت قوات طالبان السنية عدة مدن رئيسة في أفغانستان. وقامت بجمع كل الشيعة وذبحهم.

للمّ شمل جميع من لديهم مظالم ضد أسيادهم العرب. وقد أدى هذا إلى نشأة جماعات من أفراد متطرفين ونشطين سياسياً، مثل طائفة الحشاشين، وهي طائفة أسسها رجل دين فارسي أصبح اسمه مرادفاً للقتل. احتوى المذهب الشيعي على اتجاهات متعددة يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام. كان الشهداء محاطين بالضوء الإلهي، تماماً مثل ملوك بلاد فارس القدماء. وخلفاء الحسين، وهم الأئمة المعصومون، نسبوا لأنفسهم صفات الشخصيات الإلهية نفسها التي عاشت في الماضي.

كان آية الله الخميني شيعياً. وكانت مدينة النجف اختياراً ذكياً منه لتكون مكاناً لمنفاه، حيث إنها لم تكن فقط أكثر الأماكن قدسية لدى الشيعة، ولكنها أيضاً مركز ديانة الدولة الإيرانية... من هذا المكان الكئيب ذي المنازل ذات الجدران الطينية، وفي ظل مسجد الإمام علي، أطلق هذا التلميذ المتعصّب «لرسول الله» في القرن العشرين صواعقه اللاهوتية ضد «العبد الشرير للدولارات». وندّد بالقسوة التي ارتكبها جهاز السافاك، وأشاد بالشهداء في الكفاح ضد القمع، وحثّ رجال الدين الإيرانيين على مواصلة مقاومتهم الفعّالة. كانت طهران على خطأ في اعتبار هذه التهديدات مجرد ضغائن صادرة من رجل مسن. في عام 1978، طرده صدام حسين العلماني، والذي كان يواجه أقلية شيعية متمردة، من العراق.

إذا كان آية الله هو محرك العصيان، فإن النفط كان دائماً هو الذي يؤدي إلى زوال الشاه. لم يثق العرب برجل يبيع النفط لأي مشترٍ، بما في ذلك إسرائيل. ولمرة واحدة، قام الشاه برد فعل؛ وبناء على توجيهاته، اتحدت البلدان الرئيسة المنتجة للنفط في منظمة نفطية وحققت أولى انتصاراتها. كانت أوبك وهذا هو اسم المنظمة، بمثابة تجمع واسع، أعلن نهاية نظام التنازلات القديم. تمكنت الدول النفطية من إندونيسيا إلى فنزويلا، ومن المملكة العربية السعودية إلى المكسيك، من المطالبة

بتغييرات كبيرة من شركات النفط الكبرى. مع إنشاء منظمة الأوبك، أصبحت سمعة الشاه في القمة. لكن خطأه القاتل كان في محاولته اغتصاب التاج النفطي، بينما كان يقاتل الشركات المعروفة باسم «الأخوات السبع» في آن واحد، أصبح يخوض حرباً على جبهتين، ولم يكن ذلك أبداً سيناريو واعداً. في عام 1973، بينما كان وزراء أوبك لا يزالون يتجادلون حول حجم تعديلات الأسعار، غزت مصر وسوريا الأراضي التي تحتلها إسرائيل. زوّد الشاه إسرائيل بالنفط طوال حرب يوم الغفران. أعلن العرب، بقيادة الملك فيصل، فرض حظر على صادرات النفط. وتشكلت الطوابير في محطات التزويد بالبنزين في أرجاء العالم. وكسر وزير النفط الإيراني، آموزيغار الحظر، بناء على أوامر الشاه، عندما أجرى أول مزاد من سلسلة من «مزادات النفط» التي رفعت سعره من 6 دولارات إلى 17 دولاراً للبرميل. شعر العرب بالغضب. رفض وزير الخزانة الأمريكي وليام سايمون زيارة طهران قائلاً: «الشاه شخص مجنون».

لم يكن بإمكان نظام رضا بهلوي المليء بالعيوب سوى أن يتسبب بالمزيد من الأضرار للمنطقة برمّتها أكثر من أن ينفعها. لقد حان الوقت لإسقاطه. لم يكن هناك حاجة إلى المزيد من الأسباب والأعذار. كان الدين على رأس جدول الأعمال. إذ إدى مرسوم الشاه الرمزي الذي يحظر التطرف الإسلامي إلى إضعاف المصداقية المثالية التي كان يهدف إلى تحقيقها. كانت المخاطر كبيرة جداً والمكاسب المحتملة صغيرة جداً. قررت منظمة الأوبك أن على الشاه أن يرحل. من الغريب أنه حتى تلك المرحلة، كان معظم الدعم للنظام الإيراني مصدره المشيخات العربية المنتجة للنفط، وخاصة المملكة العربية السعودية. والتي بدأت تعتقد بأنه طالما بقي الشاه في السلطة، فإن أسعار النفط ستظل مرتفعة. كانت هناك دولة أخرى كانت تراقب دائماً العلاقات الودية بين الولايات المتحدة وشاه إيران بعيون غير راضية. تلك الدولة

كانت إسرائيل. ليس لأن إيران كانت صديقة للعرب، وهي لم تكن كذلك، ولكن لأن إيران كانت حجر الزاوية الجنوبي لأمريكا في احتواء الاتحاد السوفييتي. لم يكن يسرّ إسرائيل أن أمريكا تدعم حليفين في المنطقة. جرى حدث آخر كانت له عواقب في صيف عام 1975، عندما نحّى رجل العراق القوي، صدام حسين، والشاه، خصام بلديهما القديم جانباً وعقدا صفقة نموذجية. وافقت إيران على وقف توريد الأسلحة إلى الأكراد في حربهم ضد العراق، وفتح صدام حسين شط العرب للشحن الإيراني. جعل هذا التقارب إيران مسؤولة عن عدم الاستقرار في المنطقة.

عاش نظام الشاه لفترة من الوقت بسبب الجمود في المواقف. لقد استغله الغرب كثيراً وبات يفكر في التخلي عنه الآن. لقد زعمت القوى الصناعية الغربية أنه مع بقاء الشاه القوة الدافعة وراء أوبك، فإن ممارسة سياسة نفطية أسهل مع العرب ستكون أمراً ممكناً. كان هذا التقييم خاطئاً لأن الشاه أصبح الآن خائناً للإسلام. بدأ عرب الخليج بدعم معارضته مالياً. كان أسوأ شيء يمكن أن يفعلوه. لم يقدّروا كم ستصبح الأمور أسوأ إذا فشل الشاه؛ في أحسن الأحوال، سوف ينحّى جانباً من قبل القوى القومية، وفي أسوأ الأحوال من قوى أصولية دينية نشأت حديثاً ويمكن أن تفسد الهلال الإسلامي برمته[14].

لم يكن بحاجة إلى مساعدة جيرانه العرب. فقد كان الشاهنشاه يحفر قبره بيديه. خاطب ذات مرة وهو غاضب أحد الصحفيين «حرية الفكر، ما هي حرية الفكر، ما هي الديمقراطية؟ أن تجعل أطفالاً يبلغون من العمر خمسة أعوام يقومون بالإضرابات ويتبخترون في الشوارع؟ هل هذه هي الديمقراطية؟ هل هذه هي الحرية؟». في الأيام التي سبقت أزمة عام 1978، كان من الممكن أن يؤدي وجود فهم أفضل للمشاكل

14- الهلال الإسلامي هو المصطلح المستخدم لوصف المنطقة الجغرافية من إندونيسيا إلى شمال أفريقيا.

المتأصلة، وتواجد إرادة سياسية أقوى، وإخلاص أكبر، أن يحوّل مجرى الأمور بعيداً عن الهاوية، بدلاً من التوجه نحوها. استلزم الأمر خيارات صعبة: تغيير الحكومة، القيام بحملة تطهير موجهة ضد المنتفعين. إن جلب الاستقرار بدلاً من الفوضى إلى إيران كان يتطلب الحصول على ثقة الناس. كانت هذه الثقة بالضبط هي التي أهدرها الشاه ووزراؤه. ظن الشاه أنه يستطيع إجراء تغييرات اقتصادية واسعة دون إجراء تغييرات سياسية كذلك. قبل عام واحد فقط، احتفلت حشود الجماهير بتبوء بلادها مكانة بين القوى العالمية (بعد استيلاء إيران على مضيق هرمز)؛ والآن يتدفق الأشخاص نفسهم إلى الشوارع للاحتجاج على عدم كفاءة الحكومة والأزمة السياسية التي أوجدتها. وكانت هذه المتاعب تصبّ في مصلحة الإسلاميين. في هذه اللحظة، عندما كانت الأمور تحتاج إلى يد من حديد، أصبح انحدار الشاه من الشعور بالغبطة إلى اليأس شديداً.

إضافة إلى مشاكله الداخلية المتنامية، كان الشاه رجلاً مريضاً. في عام 1975، تمّ استدعاء الدكتور جورج فلاندرين، الجراح الباريسي الشهير، سراً إلى طهران. قام بتشخيص إصابة الشاه بمرض سرطان الدم، واقترح أن يخضع على الفور للعلاج الكيميائي، يليه العلاج الإشعاعي المكثف. جاء هذا التشخيص بمثابة صدمة شديدة، ومن المفهوم أن عقل الشاه أصبح مشتتاً عن شؤون الدولة. كان يعاني من نوبات الاكتئاب، وكان يسير دائماً على خطى والده الذي كان لا يقهر، حتى إنه استعان بالقوزاق وكأنه condottiere (زعيم للمرتزقة) من أيام عصر النهضة لإخضاع أمة بأكملها، ثم استخدم قبضة حديدية لإدارة شؤون الدولة. ولكن الأمور اختلفت الآن.

على مدى سنوات عدة، كان جهاز السافاك منشغلاً بإبادة الحركات الشيوعية. ولم يتخيل قادته أبداً أن تمرداً ما سيحدث على أساس ديني. رفض الشاه الاعتقاد بأنه خلال العشرين سنة الماضية كان هو نفسه قد وفّر الزخم المناسب لكي يتمكن الملالي من القيام بأعمال التحريض. حاول رئيس حكومة الشاه، أمير عباس هويدا،

وقد كان رئيس وزراء ذكياً، ومخلصاً، أن يسعى جاهداً للاضطلاع بدوره، ولكنه لم يستخدم منصبه كأداة لتحقيق طموحاته الشخصية، وأن يحذّر ملكه: «يا صاحب الجلالة، يتنامى الإحساس بعدم الأمان في بلداتنا، ويقوم الشباب بتكوين مجموعات قوية جديدة، ويتدفقون على المراكز الدينية لغرض الحصول على التوجيهات. يجب أن نتعامل معهم بجدية، وإلّا فإن الاضطرابات ستغزو الضواحي». تجاهل الشاه التحذير، حيث لم يكن ينظر إلى الشباب سوى أنهم مجرد أشخاص مزعجين لا أكثر.

وصف إحسان نراغي، المستشار الذي كان يقابل الحاكم بانتظام، المزاج السائد في البلاط الإمبراطوري في الأشهر الأولى من عام 1978.

«يا صاحب الجلالة، أقام الثوار الإسلاميون نظام قروض بدون فوائد».

هزّ الشاه رأسه غير مصدق: «من أين لهم الأموال؟».

«يا صاحب الجلالة، على مدى السنوات القليلة الماضية بُنيت المئات من المساجد في طهران وحدها؛ لقد اشترك مئات الآلاف من الطلاب في هذه المراكز الدينية، وطُبعت مئات المنشورات؛ كل ذلك دون أن تدفع الدولة سنتاً، إلا من خلال التكافل بين الإسلاميين».

«من هم هؤلاء الذين يدعمونهم مالياً؟».

«يمكنهم الاعتماد على التمويل الخارجي، ورجال البازار[15] يساهمون أيضاً في هذا المسعى».

في اجتماع آخر جمعهما، كان النقاش يدور حول من هم حلفاء إيران الأجانب الجديرون بالثقة.

«أنت تعرف ماذا فعل الإنكليز مع أبي».

«لكن يا صاحب الجلالة، الأمريكيون يساعدوننا».

15- رجال البازار هم أولئك الذين يديرون الشؤون التجارية في الأسواق.

«نعم، الأمريكيون من نوع مختلف، لكنهم يسمحون لأنفسهم بالتأثر بالإنكليز. إنهم يخشون من أن تسيطر قوتنا العسكرية على المنطقة. سيكون من الأفضل لهم أن يكون لديهم ملك ضعيف في هذا الجزء من العالم يمكن أن يتلاعبوا به».

كان عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين هو عام الحسم. بدأ ذلك العام بهدوء خادع، جعل الشاه يعيش في وهم خلود إمبراطوريته. بعد أقل من أسبوع من بدء السنة الجديدة، تردد صدى انفجارات الخريف في سلسلة من المظاهرات المحدودة، والتي أطلقت سلسلة من الأحداث التي لم تؤدِ إلى تدمير الشاه فقط، بل أنهت تاريخاً يمتد إلى 2500 سنة هو عمر الإمبراطورية الفارسية القديمة.

في كانون الثاني، اندلعت الاضطرابات في مدينة قم المقدسة. نشر جهاز السافاك مقالاً في صحيفة «إطلاعات»، أهان فيه آية الله المنفي وشبه المنسي. انتهت مظاهرة قادها الملالي دفاعاً عن كرامة الخميني بهجوم على مركز للشرطة. وخلفت ستين قتيلاً. انتشرت عدوى الاحتجاجات. وبعد أسبوع، قُتل مئات الأشخاص خلال أعمال شغب مؤيدة للخميني في تبريز. في 15 أيار، قام طلاب جامعة طهران بأعمال شغب واقتحمت القوات الحرم الجامعي. وبعد شهر، توفي 200 شخص آخر في مشهد عندما لبى حشد من الناس دعوة الخميني للإطاحة بالشاه. كانت أعلام خضراء تلف أجساد الضحايا منقوش عليها آيات من القرآن الكريم، بينما الملالي يرددون أثناء تشييعهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[16]. تحول دفن شهداء مشهد إلى مظاهرة للإيمان، ورُفع الخميني بين ليلة وضحاها إلى مرتبة القداسة.

16- القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية 111.

كان يمكن احتواء الاضطرابات ولكن موازين القوى تغيّرت جراء سلسلة من الأحداث غير المتصلة. جرى الحدث الأول في بلدة عبادان الجنوبية، موقع أكبر مصفاة للنفط في العالم. في مساء يوم حار هو يوم التاسع عشر من آب 1978، اندلع حريق في صالة سينما ريكس. تبع ذلك حالة من الذعر عندما اكتشف الحاضرون أن المخارج قد أُغلقت من الخارج، مات 477 شخصاً جراء النيران. لقد كان حريقاً متعمداً، وألقت الشرطة باللوم على الأصوليين الإسلاميين. ألقى الملالي باللوم على عملاء جهاز السافاك. كان اتهامهم يحمل المزيد من المصداقية وكان يقبله السكان بسهولة، حتى وصل الأمر إلى حد أن الناس أطلقوا تسمية (كبابي أريامهر) على قاعة السينما، والعبارة تعني شواية كباب الشاه. بدأت المعارضة في نشر المزيد من الشائعات. على سبيل المثال، أن الشاه طلب من إسرائيل إرسال 200 ألف جندي من أجل إخماد الانتفاضة. أصبح الجو متوتراً: لم تعد هناك صيحات مستمرة من الجموع فقط، بل هو صمت مشؤوم تخترقه الصرخات. للمرة الأولى، علمت الطبقة الحاكمة بأن أوضاع البلاد كانت على حافة التمرد. رُشّت تماثيل الشاه بدهانات حمراء ولكن لم تُسقَط بعد من قواعدها؛ كان لا يزال هناك وقت لنزع فتيل الوضع المتفجر. للقيام بذلك، كان على الشاه أن يتحرك، ويتصرف بسرعة من أجل إخماد الاضطرابات. كان عليه أن يقبل احتمال إراقة الدماء. لكنه تردد إلى أن اجتاحت الانتفاضة طهران حيث نزل الآلاف إلى الشوارع. كانوا يهتفون بشيء جديد: «الخميني هو زعيمنا!». كانت مظاهرة صاخبة ولكن لم تكن هناك إصابات أو اعتقالات. هل كان ضعفاً، أم نية حسنة ؟ أياً كان الأمر، فقد اعتبر الثوار أن الوقت قد حان لأخذ زمام المبادرة.

يجب اعتبار ذلك اليوم المميت هو نقطة التحول من العصيان المدني إلى الثورة المفتوحة التي لم يسلم منها الشاه أبداً. في ذلك اليوم، 8 أيلول 1978، نزلت أعداد غفيرة من الناس إلى الشوارع وقرر الحاكم العسكري،

الجنرال غلام علي أويسي، دون أن يطلب الإذن من ملكه، أن يتخذ موقفاً. تجمعت الحشود في ميدان جاليه في طهران. حوصرت سيارة ليموزين خاصة بأحد التجار الأثرياء، بينما قفز أحد (mustazafin)[17] المستضعفين، أي أحد «المحرومين»، إلى قمة السيارة وهو يهتف: «بار مار شاه! الموت للشاه!.إنه يمثل الكفر المطلق!». دوى صوت إطلاقة رصاص، سقط ذلك الشخص من السيارة، وسمع الناس صوت أنين ارتطامه بالأرض، ولُف جسده بعلم أخضر ملطخ بالدماء، وأصبح لدى الثورة الآن شهيدها. صرخت الحشود تطالب بالانتقام. أمر الجنرال أويسي قواته بإغلاق الميدان. تقدم الجنود المدججون بالسلاح ببطء، وبدؤوا يدفعون الحشود الهائجة نحو وسط الميدان. أُرجِع المتظاهرون بأعقاب البنادق. لم يستطع الصحفيون الأجانب الموجودون في الموقع أن يتأكدوا على وجه اليقين ما إذا كان الجنود الغاضبون يتحملون اللوم، أو ما إذا كانوا يتصرفون بناء على أوامر من قائدهم. فتحت القوات النار، مما أسفر عن مقتل 122 وجرح 4000 شخص. انهار الشاه، فقد كان يكره سفك الدماء أكثر من أي شيء آخر.

لم يكن أويسي هو الوحيد الذي أخطأ. كانت الانتفاضة ردّ فعل على الطريقة التي كانت تمارس بها السلطة على الدوام، عندما يكون لدى قادة القوات أوامر بقمع أعمال الشغب بأكبر قدر من القوة. إن القمع يؤدي إلى العنف بدلاً من إخماده. كان التأثير الفوري لاستخدام الحكومة للقوة الغاشمة هو توحيد الجماهير وراء ملاليهم. أي حادثة أخرى لن تؤدي إلّا إلى تحويل المزيد من سكان المدينة العاديين إلى جيش من الثوار.

باتت الاشتباكات السابقة باهتة بالمقارنة مع هذا الحدث الصادم، وحددت نمطاً كان من المفترض أن يتكرر بشكل مأساوي في الأشهر القادمة. واكتسبت الحركة الاحتجاجية ديناميكية رهيبة. وانضم آلاف

17- بالفارسية في الأصل. المترجم.

آخرون إليها. وبالنسبة إلى العديد من النفوس المشتعلة بالغضب كانت هذه فرصتها للانضمام إلى الثورة البطولية. كان الدين لا يزال رمزاً لهم. في هذه اللحظة المشحونة للغاية تدخل أحد المحرضين السياسيين وتلاعب بمشاعر هؤلاء الشباب المتحمسين هاتفاً: «مارغ بار شاه! الموت للشاه!» والشاه لم يكن أبداً رمزاً دينياً، بل رمزاً للنظام الملكي الاستبدادي. وبتفجر مفاجئ للغضب بعد سنوات طويلة من القمع، كان عشرات الآلاف مدفوعين بكراهية مسعورة لسلطة الشاه يرفعون شعاراتهم ضد أفضل قوة عسكرية مسلحة في الشرق الأوسط. كانت الجموع ترمي الحجارة والقنابل الحارقة. وكان الجيش يرد بإطلاق الرصاص.

لا تأتي الكوارث أبداً فرادى. بعد أيام قليلة من حادث ميدان جاليه، ضرب زلزال مدمر بلدة طبس، مما أسفر عن مقتل 3000 شخص. طار الشاه إلى مهبط طيران قريب حيث التُقِطت الصور له وهو بالزي الرسمي والضباط والمسؤولون ينحنون له، بينما كان الطلاب والملالي في المدينة المنكوبة يقومون بإخراج جثث موتاهم من تحت الأنقاض. أخفقت زيارة الشاه الخاطفة إلى منطقة الزلزال إخفاقاً تاماً في تلميع صورته. بدأت صحته تتدهور بصورة ملحوظة، وأفسحت غطرسته المجال ليتملكه اليأس. كان على مايكل بلومنتال، وزير الخزانة الأمريكي، أن يخبر الرئيس الأمريكي بعد زيارته لطهران: «لدينا شخص حي - ميت (زومبي) هناك. هل لدينا خطط بديلة؟».

ربما لم تكن لدى واشنطن استراتيجية معدلة، لكن الأدميرال كمال الدين أولاهي، قائد البحرية الإيرانية، كانت لديه. وطلب مقابلة ملكه ليقوم بتوضيح خطته: «اسمح للجيش بالسيطرة على الوضع؛ وأصدر أمراً بإلقاء القبض على 5000 من رجال الأعمال الجشعين و5000 من الملالي. ستنهي هذه الخطة تماماً هذا الهراء.

ظل الشاه صامتاً لفترة طويلة. كان يحدق بالنافذة، في نقطة بعيدة في

الزمان والمكان، قبل أن يجيب: «لكن هذا ضد الدستور». الدستور؛ كل ما يجري الآن ضد الدستور والبلد أصبح على حافة الكارثة.

«يا صاحب الجلالة، ليس هناك خيار آخر. لقد وصلت الثورة بالفعل إلى مرحلة متقدمة وليس هناك من يمكنه إنقاذ بلدنا سوى الجيش».

حانت اللحظة المناسبة، ولكنها ضاعت. بقي الشاه متردداً، وترك الجنرال أولاهي حزيناً. الملك الذي لا يمتلك الإرادة هو ملك مهزوم. وهكذا، مثل لويس السادس عشر ونيكولا الثاني وجميع الحكام الذين سقطوا، أضاع ملك آخر فرصته الأخيرة لإنقاذ تاجه وبلده.

كانت جهود الشاه لتحديث إيران قد جلبت الاضطراب إلى نمط الحياة اليومية. لا يمكن إنكار أن الملالي الثوريين لعبوا دوراً حيوياً في تشكيل الرأي العام والسخط الشعبي، كما لا يمكن إنكار أنهم كانوا بلا شك عنصراً هاماً في إثارة الجماهير. ومع ذلك، فإن الحشود الضخمة التي عبّرت عن غضبها لم تكن بأي حال من الأحوال سوى أدوات منقادة وموجهة بذكاء.

كان الإسلام اليساري مصدراً لتفكير تقدمي ومتطرف لأكثر من جيل. وكان يملك حلقات سياسية وفكرية خصبة، تفوقت على المساجد نفسها. حتى إن بعض الملالي أصدروا بيانات تنافس البنى القديمة لمؤسساتهم الدينية وهاجموا هرمية رجال الدين كجزء من مجتمع يحنّط نفسه. هذا الأمر ضرب وتراً حساساً لدى الشباب من رجال الدين، وخرجوا يصرخون من أجل التغيير. ودفع هؤلاء الشباب بقوة نحو النشاط السياسي، مع وجود عطش كبير لديهم لإدارة الأشياء بأنفسهم، حيث أصبح التضامن مع زملائهم الطلاب المعبئ العظيم. إذا نظرنا إلى هذا الأمر من مسافة آمنة، فقد لا يبدو أكثر من مجرد افتراقٍ عرضيٍّ، ومجرد اضطراب آخر في شهر مليء بالفوضى. وكما هو الحال في معظم اللحظات الحاسمة في التاريخ، فإن عواقبه النهائية لن تكون واضحة إلّا بعد عدة أشهر قادمة.

في أيلول 1978، طار الخميني إلى فرنسا حيث تقدم بطلب لجوء سياسي. لم يعرف الفرنسيون في البداية ماذا يفعلون به. على الرغم من أنهم هددوا الخميني بطرد فوري، إلّا أنهم لم يحسبوا حساباً لعناد رجل مسن، يتميز بقدرة عالية على المساومة. وبقبوله آية الله على الأراضي الفرنسية، فقد فتح الرئيس جيسكار ديستان أبواب جهنم على نفسه، كان المسؤولون في منطقة الكي دورسيه Quai d'Orsay[18] تتملكهم مشاعر الشك الفرنسية النموذجية يهيئون خلفاً للشاه الذي لم يعد نافعاً، لم تكن الشرطة الفرنسية معتادة على وقف الأنشطة السياسية للمنفيين بل كان واجبها فك الاختناقات المرورية. أصبحت إحدى القرى الفرنسية الهادئة الآن مكاناً يحجّ إليه الناس. كان تلاميذ آية الله قد خيّموا في مكان قريب، وكان السكان المحليون يجدون صعوبة في التسوق، فقد أصبحت شوارع نوفل لو شاتو مزدحمة. كانت القمصان البيضاء المفتوحة والذقن غير المحلوق لثلاثة أيام هو الزي المقدس، في حين كانت البنات اللواتي تعودن على ارتداء الجينز الضيق يختبئن الآن تحت قطعة قماش سوداء قبيحة تدعى الشادور.

تلاشى أمل الشاه في أن العالم بأسره، وبلده على وجه الخصوص، سوف ينسى قريباً رجل الدين العجوز. لأنه دخلت الآن ظاهرة جديدة إلى الحرب التي كان يقودها آية الله والتي تشبه الحملة الصليبية في القرون الوسطى: الإعلام الإلكتروني. أجرى الخميني مقابلات صحفية عديدة، والتي كان لها تأثير سريع. وببراعة مدعومة من رجال مثل صادق قطب زاده (مترجمه)، والدكتور إبراهيم يزدي (طبيب من الولايات المتحدة الأمريكية)، وبني صدر (أول قائد سياسي له)، أصبح الصحفيون الأجانب سيفه القاطع. سرعان ما أصبح بيته المتواضع في إحدى ضواحي باريس مطوقاً بحشود من الكاميرات التلفزيونية والصحفيين. باتت أطباق الأقمار الصناعية تتكاثر بشكل أكثر كثافة من الأعشاب

18- مقر وزارة الخارجية الفرنسية. المترجم.

الضارة، كانت المقالات تؤلف تباعاً مثل خط إنتاج السيارات على خط التجميع. كان الصحفيون ينتظرون في طوابير، ثم ينزعون أحذيتهم قبل أن يقودهم رجال الخميني إلى الداخل لرؤية هذا الرجل ذي الإيحاءات الدينية بلحيته البيضاء، والحاجبين الأسودين، والصوت الخافت، الذي يتحدث إلى الصحافة مثل الواعظ. سأل أحد الصحفيين آية الله إذا كان يوافق على لعب الورق. «فقط إذا تمّ إخراج الملوك وارتدت الملكات الشادور». كانت عبارات الخميني المتدفقة، التي يتمّ تقديمها على شكل ابتهالات وأدعية ذات وتيرة واحدة، تبثها محطات الإذاعة الدولية إلى بقية العالم، بما في ذلك إيران. بالنسبة للخميني لم يكن هناك فصل بين الدين والسياسة. استبعد وجود حل وسط مع الشاه؛ لن يتحدث إلى من كان يعتبره صورة مصغرة عن الشيطان. كان الملالي يجلسون متربعين على سجادة رثة في خيمة نصبت في بستان للتفاح، ويسجّلون خطب الإمام على أشرطة صوتية ويقومون بتهريبها إلى داخل إيران. كانت واحدة من عباراته الشهيرة: «إن العالم يسيطر عليه الشر».

في المساجد الإيرانية، كان المستضعفون، من سكان الأحياء الفقيرة، يتجمعون حول ملاليهم ويستمعون إلى كلمات الإمام المسجلة، يحرضهم فيها على التمرد. لا شك أن أكثر وسائل الدعم نجاحاً لمهمته جاءت من وسائل الإعلام الغربية. وبينما كان آية الله ذو العمامة السوداء يتصدر عناوين الأخبار من موقعه الريفي في إيل دو فرانس، كان يجري تعبئة الدعم لثورته في إيران. لقد نما التيار المتطرف أكثر من أي وقت مضى منذ مشاركة الشاه غير المباشرة في حرب يوم الغفران[19]. اعتبر النشطاء الإسلاميون دعمه الضمني لإسرائيل لا يقل عن الخيانة العظمى. شكّل هؤلاء النشطاء نواة لقوة ثورية. انضم إليهم المتعلمون، من ذوي الخبرة والنضج السياسي، الذين يمثلون النخبة المسلمة والذين كانوا غير منتسبين إلى أي حزب. لقد أضافوا ثقلاً أخلاقياً وفكرياً في

19- حرب تشرين 1973. المترجم.

لحظة حاسمة من تاريخ إيران، وساعدوا في أن تسير الجماهير وراء المتطرفين. كانت تلك هي القوى التي التحمت لتشكل قيادة الثورة الإسلامية. وقد جمعتها الأيديولوجية، وليس التنظيم.

ومع بدء شهر تشرين الأول 1978 وما تلاه، كانت تجري مظاهرات يومية في طهران ومدن أخرى. وفي خطوة مهمة، أوقف جميع العاملين في مصفاة عبادان العملاقة تدفق النفط في خطوط الأنابيب. وفي غضون أسبوع، نفدت كمية النفط في البلاد التي تمتلك واحدة من أكبر الاحتياطيات النفطية.

استُدعي إحسان نراغي لمقابلة الشاه.

«كيف ترى الوضع منذ اجتماعنا الأخير؟» سأله الشاه.

«إن حركة الإضراب تنتشر في جميع أنحاء البلاد، يا صاحب الجلالة».

«هل يمكنك أن تشرح لي ما الذي يسبّب كل هذه الاضرابات؟ يجب أن نسأل أنفسنا إذا لم يكن هناك شيء آخر وراء هذه الإضرابات».

«لا أشك في أن هناك إرادة سياسية توجهها جميعها».

«تقصد أن تقول لي، إلى جانب مطالبات الأجور هناك شيء آخر؟ ما هو؟»

تبين هذه المحادثة أنه حتى في مثل هذا الوقت المتأخر كان الشاه لا يزال يجهل الخطر الحقيقي. وبتقاعسه المستمر، أظهر أنه ضعيف وغير وفيّ لمؤيديه المتحمسين، المدنيين والعسكريين على السواء. لا يمكن أن تكون هناك لحظات أكثر وحشة في حياة الحاكم من تلك اللحظة التي يجد فيها نفسه محروماً من الأصدقاء والحلفاء، وحيداً وقد نبذه بحر من خيبة الأمل، والغضب، والاتهامات، وعدم الثقة. أصبح ممزقاً بين الولاء للأصدقاء والولاء لمهمته. والآن أصبح مهجوراً من قبل كل أولئك الذين ساعدهم في الحصول على الشهرة والثروة. لقد تركوه معزولاً لدرجة أنه بدأ يشك في مهمته الإلهية. على عكس الثوريين الذين كانوا مستعدين

للجوء إلى القوة الغاشمة، لم يكن رضا بهلوي، شاه إيران، قاسياً بما فيه الكفاية ولا قوياً بما يكفي ليستمر حتى النهاية المريرة.

في 2 تشرين الثاني 1978، لُفِت انتباه الرئيس كارتر إلى مشكلة خطيرة تواجه الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط من خلال برقية بعثها سفيره في إيران، وليام سوليفان. كانت تحمل رسالة تحذير وكان من المفترض أن تؤدي إلى أزمة من الدرجة الأولى: «شاه إيران يهم بالتنازل عن العرش». سوليفان، الذي كان قد أرسل قبل أسابيع فقط برقية تفيد: «إن قدرنا هو أن نعمل مع الشاه». وبذلك فقد غيّر برسالة واحدة الأساس المنطقي الذي يحدّد السياسة الخارجية الأمريكية. السؤال الذي كان على أمريكا الإجابة عليه في غضون الأربع وعشرين ساعة التالية كان: هل يدعمون الشاه، أم يطردونه؟ كان جوهر الموضوع يتعلق بالمال. فقد كان لدى المجمع الأمريكي لصناعة الأسلحة صفقة ضخمة لتزويد إيران بأحدث الأسلحة تبلغ قيمتها أكثر من 12 مليار دولار، وهو مبلغ ضخم يجب حمايته. ومع وضع هذا في الاعتبار، أرسلت وزارة الدفاع الأمريكية ممثلاً بارزاً، وهو إيريك فون ماربود، لإعادة هيكلة برنامج المشتريات العسكرية الإيراني، والذي كان من المقرر أن يأخذ الوضع المتغير في الاعتبار. أما التحليل النفسي للشاه، الذي أعدّته وكالة المخابرات المركزية، فقد وصفه بأنه «مصاب بجنون العظمة الخطير ومن المرجح أن يسعى لتحقيق أهدافه الخاصة ويتجاهل المصالح الأمريكية». بدأ حليف الشاه الرئيس يتقلب في رأيه. في واشنطن، كان الوضع مرتبكاً مثلما يحدث في طهران. كانت قرارات الرئيس الأمريكي متناقضة وهاجمها وزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر علانية: «إن سياسة كارتر ستجعلنا نخسر إيران لصالح الغرب».

في 5 تشرين الثاني 1978، وفي تحدّ لحظر الحكومة على خروج المظاهرات، اجتاحت حشود ضخمة شوارع طهران. وكان جزء كبير منها يتكون من نساء يرتدين عباءات قطنية سوداء. مع صيحات «مارغ

بار شاه! الموت للشاه!» اقتحم المتظاهرون البنوك والمباني الحكومية، ومقرات الشركات الحكومية، ومراكز بيع المشروبات الكحولية. وحطموا نوافذ المحلات التجارية التي تعرض السلع الفاخرة، وقلبوا السيارات، وأحرقوا الحافلات، ودمروا منازل المواطنين الأثرياء. ونُهِبت السفارة البريطانية غير المحمية. قام مثيرو الشغب المراهقون باتباع التعليمات بشكل منهجي فقاموا بتحطيم الأثاث ومعدات الاتصالات قبل إشعال النار في المبنى. كان شارع كريم خان زاند مليئاً بالزجاج المهشم والسيارات المحترقة. والدخان ينبعث من برج بنك ميللي الذي تحطم، كما كان ينبعث من معرض للسيارات الفاخرة. هذه المرة تجاوزت الأحداث الشاه. جرفه التاريخ جانباً عندما فشل في وقف تدفق المزيد من الدماء عن طريق اتخاذ موقف حازم. «لا يستطيع الملك الاحتفاظ بالسلطة على حساب قتل شعبه». وبينما كان والده، الشاه قائد سلاح القوزاق القديم، مستعداً دائماً لاتخاذ قرارات صعبة وكان يقود بنفسه سلاح الفرسان من الجبهة، كان رضا في الأساس رجلاً خجولاً لا يحتمل مشاهد الدم وترك عمليات القتل ليقوم بها الآخرون.

بدأ الوضع يتفاقم وبات خارج نطاق السيطرة. وشلت الإضرابات البلاد. وبدأت الأسواق التجارية (البازارات) تغلق أبوابها، حدثت المزيد من أعمال الشغب فيما اتسع نطاق أعمال العنف إلى مديات غير مسبوقة. وأصبح العنف مدفوع الثمن. وبات العنف يتصدر عناوين الصحف. في مظاهرة حاشدة، اشتبك أكثر من مليون شخص من أتباع الخميني مع وحدات النخبة من (الجاويدان)، وهو الحرس الإمبراطوري القوي، و(هومافارس) وحدات القوات الجوية الخاصة. أغلقت الوحدات الطريق المؤدي إلى قصر نيافاران. اندمجت عدة مسيرات وتظاهرات تحت صرخة واحدة ضخمة كانت تطلقها الجموع، وهي تهتف: «الموت للشاه!» دوّت أصوات طلقات الرصاص، وفي هذه المرة لم تكن في الهواء، وأجابت الحشود بصيحات الانتقام.

كانت زمجرة عميقة للتنين الجريح، تردد صداها من خلال الممرات التي تتوسط الفنادق الشاهقة والفخمة. ثم تجمعت الحشود العاصفة كما لو أن الأرض كلها قد تحركت. سار ألف، بل وعشرة آلاف من الجموع التي تموج بحركتها وتوجهت نحو الجنود المسلحين، وحلّ محل خوفها غضب محموم وهي تهتف. «مارغ بار شاه! الموت للشاه!» سمع صوت المزيد من إطلاقات الرصاص؛ وقع على الأرض من كانوا في الصف الأول؛ ثم سقط فوقهم من كانوا خلفهم، كانوا يركضون ويتعثرون، ويتجهون نحو حواجز الطرق. لم يكن هناك ما يوقفهم. «مارغ بار شاه! الموت للشاه!» ارتفع الصراخ فوق أسطح المنازل ووصل إلى التل حيث يقيم الإمبراطور. صدرت من النوافذ صرخات أخرى بينما اشتعلت النيران في أعمدة المصاعد وعلى طول الممرات. كان هناك العديد من القتلى أو ممن يحتضرون. قفز بعضهم من المباني المحترقة. كانت هناك بعض النساء يحملن سلال التسوق أو رجالاً كبار السن من الذين لم يتمكنوا من الخروج من وسط حشد الغوغاء الذي تعاظم فجأة وقد سحقتهم الأقدام وسط دوامة الغضب الهادر. عند نهاية ذلك اليوم كانت منطقة وسط طهران مليئة بالجثث، وأبدان السيارات المحترقة، والمباني المشتعلة فيها النيران. وارتفعت سحابة سوداء من الدخان مثل سلسلة من الجبال الضخمة. مات ما لا يقل عن 600 شخص وأصيب أكثر من 3000. صدمت الحادثة الشاه بشكل يفوق الوصف؛ استولى عليه القلق والخوف وتعطلت قدرته على التفكير. وكان لفشله في اتخاذ إجراء فوري عواقب واسعة النطاق. حوّل البيت الأبيض مسار تفكيره العام، وبدأ يعمل الآن على خطة لدعم انقلاب عسكري من شأنه أن يحمي المنشآت النفطية الحيوية، وهي خطوة لا تعتبر انقلاباً، بل استيلاء وقائياً على السلطة من قبل الجيش في ظل التوجيه السياسي له من قبل صديق الأمريكان شاهبور بختيار. أدركت واشنطن أن الشاه قد فقد السيطرة على كل شيء ولم تعد هذه النتيجة محل شك. تغيّر مسار الأحداث. أصبحت البلاد وسط وضع متفجر من العواطف.

أصبح الشاه وحيداً في قاعة الاستقبال في القصر، كان السيد أمير أصلان أفشار رئيس التشريفات الملكية في حالة من اليأس الكامل توسل قائلاً: «جلالتكم، إن طهران تحترق، يجب أن تفعل شيئاً».

«لكن جنودي هم بالفعل مسؤولون عن المدينة».

«لقد حرمتهم من الدفاع عن أنفسهم. يا صاحب الجلالة، نتوسل إليك، أن تضع رجلاً قوياً على رأس حكومتك».

«من الذي تفكر فيه؟».

«الجنرال أويسي، حاكمك العسكري» من المعروف أن ذلك الجنرال قد أخمد الحريق بالدم، كما فعل في ميدان جاليه في شهر أيلول.

«سوف أرى ماذا يمكنني أن أفعل».

لكنه لم يفعل شيئاً. أو، على الأقل، لم يقم بخطوة من شأنها نزع فتيل الوضع المتفجر عندما عيّن الجنرال غلام رضا أزهري لرئاسة الحكومة. وبينما كان يمكن للجنرال أويسي أن يقضي على الثورة بشكل نهائي، فإن أزهري الضعيف ساعد فقط في المزيد من زعزعة استقرار الوضع.

أجرى ألكسندر دي مارينش من المخابرات الفرنسية مكالمة خاصة مع الشاه. بعد أن جاب بسيارته شوارع مدينة تغلي وسط هتافات الغوغائيين، واستطاع بالتالي أن يشهد بنفسه حجم المأزق الذي وصلت إليه الأمور، تلقى الشاه المكالمة وهو جالس في غرفة وسط ظلام دامس.

قال له الشاه: «لن أسمح لقواتي أبداً بإطلاق النار على شعبي».

«اذاً، أنت ضائع يا سيدي».

عند عودته إلى باريس، ذهب مارينش مباشرة إلى قصر الإليزيه ليقدم إيجازاً إلى الرئيس جيسكار ديستان.

«إذن، مارينش؟».

«إنه صورة أخرى من لويس السادس عشر»، أجاب مارينش.

كان من الواضح الآن أنه لا يمكن أن يكون هناك مخرج سلمي. كان

جيل بأكمله ينتفض ضد نوع معين من المجتمع. توالت المظاهرات الواحدة بعد الأخرى. كان بالإمكان سماع دوي انفجار خزانات البنزين داخل الفنادق الفخمة التي يقيم فيها مراسلو الصحافة العالمية. كان الوهج الناجم عن السيارات المحترقة يعرض ظلالاً من القتال الشرس وسط غيوم غامضة من الغاز المسيل للدموع. كانت رئات المتظاهرين تحترق، وعيونهم تدمع، ورؤوسهم تنزف، وكانت الأعلام ترفرف. ألقى المراهقون بأنفسهم في أتون المعركة بتفانٍ لا يصدق. كانت فرصة حياتهم للانضمام إلى الثورة. ويا لها من ثورة! كان الشاه قد قام بفعل شمشون نفسه؛ كان قد دمر الهيكل كله ودفن نفسه تحت الأنقاض.

في يوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر من شهر محرم الحرام، تظاهر أكثر من مليون شخص وتوجهوا نحو نصب «شاهياد»، الذي شيّده الشاه تمجيداً لأسرته الحاكمة. كانت تتقدم المسيرة صفوفٌ من (المستضعفين) بملابس رثة، وذقون بشعر خشن ورؤوس حليقة، يتبعها ملالي يرتدون عمائمهم السوداء والبيضاء، يقومون بتلاوة آيات من القرآن. هؤلاء المستضعفون، الذين جاؤوا إلى طهران ولم يجدوا سوى البؤس، بدؤوا يصرخون: «نحن شهداء مقدسون مثل الإمام الحسين!»[20]. ارتفع الصوت عالياً يشبه صوت تحطم أمواج المحيط على الشاطئ: «الله أكبر... خميني رهبر! الله أكبر... الخميني هو قائدنا!». لقد أصبحت الثورة الإسلامية أمراً واقعاً.

بعد ذلك بدأ الأمريكيون بالعمل. وفي 30 كانون الأول، كتب غاري سيك وهو مسؤول أمريكي رفيع في إيران، مذكرة سرية إلى مستشار الرئيس للأمن القومي، زبيغنيو بريجنسكي، محذراً البيت الأبيض من احتمال نشوب حرب أهلية. في هذه الحالة، سيصب الإيرانيون جام غضبهم بشكل مباشر على عشرة آلاف مهندس نفط أمريكي وعائلاتهم المقيمة في إيران. واقترح إخلاءهم على الفور. قرأ بريجنسكي المذكرة وكتب هامشاً في الأسفل «موافق». عندها بدأت هجرة الأمريكان، في

20- مؤسس المذهب الشيعي.

يوم رأس السنة الجديدة 1979، زار السفير الأمريكي وليام سوليفان الشاه. كان لديه سؤالان يريد رئيس الولايات المتحدة الحصول على إجابة عليها قبل مغادرته لحضور مؤتمر القمة في غوادلوب[21]. هل سيوافق الشاه على تشكيل حكومة جديدة برئاسة شاهبور بختيار، وما الذي يتطلبه الأمر لجعل الشاه يغادر البلاد؟ أدرك الشاه أخيراً أن الأمريكيين سيتخلون عنه. تميز شاهبور بختيار رئيس الوزراء الجديد الذي عيّنه الشاه، بالفضول الفكري والأسلوب الديمقراطي والمهارة السياسية. لكن في ذلك الحين كان الوضع ميؤوساً منه. وحتى يتم إنقاذ البلاد من الفساد المستشري والعنف العرقي والديني والمناطقي، لم تكن البلاد بحاجة إلى مفكر مثير للإعجاب، بل إلى قائد قوي يسير بها بعيداً عن حافة الهاوية. كان بختيار المعروف بولعه بالقومية العلمانية والتسامح الديني، هو الرجل الخطأ في الزمن الخطأ.

تمّ استدعاء السفيرين الأمريكي والبريطاني لمقابلة في قصر نيافاران. لم يعد الشاه المتعب قادراً على إخفاء عواطفه. وكان رجلاً مريضاً، وقد أثر الضغط المتواصل الذي تعرض له طوال الأسابيع القليلة الماضية بشكل سلبي على قدرته على التحمل. وقد أخبر السفيرين أنه ليس بإمكانه أن يرى سوى ثلاثة احتمالات: البقاء وقبول الإذلال، أو يتحصن داخل قلعة بحرية والسماح للجيش بتولي السلطة، أو مغادرة البلاد. اتفق المبعوثان على أن السبيل الوحيد للخروج من الوضع الحالي هو أن يغادر الشاه البلاد «مؤقتاً». وكان السفير الأمريكي قد حصل على تأكيدات من واشنطن بأن «الزيارة المؤقتة لأسباب صحية» من قبل العاهل لن تقف في وجهها أية عقبات، سوى استبعاد أن يتمّ استقبال رسمي له من قبل الرئيس الأمريكي. (كتب سوليفان في مذكراته: «لقد

21 عقدته أربع قوى غربية هي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا الغربية، في جزيرة غوادلوب في كانون الثاني 1979 حيث ركّزت المناقشات على الأزمة السياسية الإيرانية المتفاقمة.

ألقوا به مثل الفأر الميت»). وللسماح للشاه بالاحتفاظ ببعض الكرامة، دعا الرئيس المصري أنور السادات الزوجين الإمبراطوريين إلى التوقف في أسوان، في طريقهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إن ما جعل الشاه يقرر في النهاية المغادرة قد لا يكون معروفاً. ربما كان يحاول استنساخ الخطوة البارعة التي قام بها الجنرال ديغول: في ذروة ثورة أيار 1968، تظاهر بالفرار من فرنسا لكي يهدئ أعداءه ويزرع لديهم ثقة مفرطة بأنفسهم، بينما كان يحضّر طوال الوقت لعودته المظفرة.

أصبحت القضية الإيرانية، التي كانت متشابكة إلى حدّ كبير من خلال صراع الولاءات، أقل تعقيداً الآن. في 6 كانون الثاني 1979 افتتح مؤتمر غوادلوب ليضع اللمسات الأخيرة على مصير الشاه. أخبر كارتر القادة هلموت شميت وجيمس كالاهان وجيسكار ديستان أن الشاه في حالة ميؤوس منها وأن عليه الرحيل. «لا يمكننا أن نتوقع أي شيء آخر من نظامه. الجيش سيتولى المسؤولية. نحن نعرفهم جيداً، جنرالاتي يخاطبونهم باسمهم الأول». كان كارتر يعتقد بالفعل أن علاقات الألفة مع بعض الجنرالات الإيرانيين يمكن أن تحل الأزمة. كانت الخطة تقوم على وضع شخص معتدل في مكانه: وهو زعيم حركة التحرير الصغيرة في إيران، مهدي بازركان. ما لم تفهمه الولايات المتحدة أبداً هو أن المفاوضات كانت بلا جدوى. أصبح الخميني رجل الساعة وليس بختيار أو بازركان (لم يتلق تيودور إليوت، المبعوث الأمريكي الذي حاول التوصل إلى صفقة مع آية الله في باريس، تأكيدات بأن خطط الخميني ستكون مقبولة سياسياً للولايات المتحدة).

بدأت التكهنات هل يرحل الشاه أم يبقى. وقد وُضِع حدّ لها، ليس من قبل طهران، كما قد يتوقع المرء، ولكن من قبل واشنطن، بإعلان من وزير الخارجية، سايروس فانس. كان مكتوباً بلغة لا تخدع أحداً: «قرر الشاه أخذ إجازة مؤقتة لأسباب صحية». وأضاف أن الحكومة الأمريكية «تؤيد» قرار الشاه بمغادرة البلاد. بثّت إذاعة «صوت أمريكا» وهيئة

الإذاعة البريطانية بي بي سي الخبر على رأس نشراتها الإخبارية. جاء رد الفعل على الفور. في طهران كان هناك ارتباك. وشعر الشاه بالمرارة فقط لأن حليفه المقرّب قد تخلى عنه علناً. في بلد «الخميني» قام السائقون بإشعال المصابيح الأمامية لسياراتهم وأطلقوا أبواقها ابتهاجاً، في حين رفع ركابها علامة النصر (V). كان مفتاح الحل هو الجيش، وكان الجيش منقسماً. وفي الوقت الذي كان فيه الضباط رفيعو المستوى حائرين، تشارك الضباط المجندون وذوو المراتب الأدنى مع أنصار الخميني في مشاهد من التآخي الواضح. كانت الدبابات تحمل ملصقات الخميني على جانبيها والجنود يضعون أزهار القرنفل على فوهات مسدساتهم. في المناطق الثرية في طهران ساد شعور بالموت الوشيك؛ في مشاهد من الذعر، أغلق المئات أبواب قصورهم وهرعوا لحجز تذاكر رحلات طيران متجهة إلى أوروبا. كان سؤالٌ واحدٌ يهيمن على أذهان الجميع: من بين القوتين الثوريتين التوأم، من هي التي ستنتصر في نهاية المطاف؟ المتطرفون المسلمون العنيدون، أم الماركسيون الماكرون، الذين يريدون تسلق السلطة بذريعة الدفاع عن الله؟

كان أحد آخر رجال الحاشية الذين التقوا مع صاحب الجلالة الإمبراطوري مستشار الشاه إحسان نراغي. حدث هذا قبل يومين فقط من مغادرة الشاه.

«أخبرني، ما الجديد؟»، سأله الشاه بنبرة يائسة متعبة.

«إن أهم الأخبار هو الإعلان عن رحيل جلالتك».

«نعم، لقد قررت المغادرة لبضعة أسابيع لإعطاء بختيار فرصة لتسوية الأمور. قل لي، لماذا لم تأتِ في وقت مبكر لتخبرني بالحقيقة؟».

«كنت تفضل جلالتك دائماً أولئك الذين يزوّقون الحقيقة».

قطب الشّاه حاجبيه عابساً. «أنت تعرف، في كل مرة واجهت فيها هذه البلاد أزمة، كنت أستمع دائماً إلى نصيحة من شاعرنا العظيم حافظ. ماذا كان سيقول الآن؟».

«في مواجهة الشدائد، من الحكمة أن تبتعد عنها قليلاً»، أجاب نراغي دون تردد.

«هذا خير عزاء... حسناً، آمل أن نرى بعضنا مرة أخرى».

لكنهما لم يفعلا ذلك أبداً.

كان يوم الثلاثاء، 16 كانون الثاني 1979[22] يوماً بارداً وشديد الرياح. في وسط مدينة طهران، كانت الحشود المتحمسة تقف وهي تحرك أقدامها وسط الثلج والجليد، ملوّحة بصور الخميني. وإذا تحدثنا بالخرافات، فقد حدثت ظاهرة طبيعية أعطتهم علامة: في الليلة السابقة، رأوا وجه آية الله يُطبع على القمر. اجتاز الشاهنشاه والشاهبانو (الشاه والإمبراطورة زوجته) أبواب قصر نيافاران للمرة الأخيرة. اصطف جميع من تبقى من مسؤولي البلاط والضباط الموالين للشاه على طول السجادة الحمراء. اندفع الجنرال عبد الله بادراي إلى الأمام، وأخذ يد الشاه وقبلها. سوف يدفع الثمن لاحقاً على هذه البادرة. حمل الكثيرون القرآن الكريم وهم يودعون ملكهم داعين من الله أن يحفظه في رحلته الأخيرة. أقلعت طائرة هليكوبتر من فناء القصر لتنقل الزوجين الملكيين إلى المطار. وقد أُدخِل عدد من الصحفيين إلى المبنى الذي يخضع لحراسة مشددة. خطا الشاه نحو منصة الميكروفونات وتلا بياناً موجزاً: «تم تشكيل حكومة جديدة. أنا أشعر بالتعب وأحتاج إلى بعض الراحة. رحلتي تبدأ اليوم».

وصاح صحفي أجنبي: «كم ستدوم رحلتك في الخارج ؟».

«لا أعرف... أنا حقاً لا أعرف...».

عند الساعة 1.08 مساءً يوم 16 كانون الثاني 1979، أقلعت طائرة بوينغ (شاهين). أصبحت 2500 سنة من حكم سلالة الشاه من الماضي. من المحتم، أن عيوب الشاه الشخصية قد قادت إلى عواقب

22- كان يصادف حسب التقويم (الهجري) 26 صفر 1357.(هناك خطأ من المؤلف فهو يصادف فعلياً 18 صفر 1399. المترجم.).

وخيمة. كان مؤيدوه الأقربون يحدوهم الأمل مرة بعد أخرى في أن يتحمل مسؤوليته الشخصية. لكن تصميمه استنفد، وخسر احترامه إلى حدّ العجز السياسي. لقد بقي بدون مصداقية أو رافعة أخلاقية تجعله يستطيع المطالبة بإنهاء الانتفاضة. لم يكن بعض الملالي هم الذين أوصلوا الملك إلى هذا المأزق. لقد وضعته الشياطين الخاصة به. فقد كان قد أحاط نفسه لسنوات عدة بالمتملقين الذين أخبروه بما يريد أن يسمعه. وبعد فوات الأوان إلى حدّ بعيد أصبح الشاه على استعداد للاستماع لأولئك الذين يتجنبهم في البلاط لأنهم كانوا صريحين للغاية. وجد نفسه مهملاً من قبل أولئك الذين ساعدهم في بناء أنفسهم، أولئك الذين حصلوا على ثروات لم يكونوا يحلمون بها: أبناء الطبقة الوسطى الحضرية. وبمجرد أن بدأت المشاكل، لم يحصل على ولاء، ولا دعم منهم. لقد انضم الجميع إلى المعارضة؛ ولم يكن الأمر يشمل العمال أو الفلاحين، ولكن المثقفين الصغار، الذين كانوا غاضبين وقساة في ازدرائهم. كانت هذه النهاية المؤلمة وغير المفهومة للمغامرة البهلوية. كان عيبه القاتل يكمن في انعدام ثقته بنفسه. وأصبحت لامبالاته وغروره ضحية لحملة الكراهية المنظمة جيداً ضده.

في النهاية، بكى الشاه. وسرعان ما كانت البلاد تبكي معه. ولكن ليس في الأول من شباط 1979، عندما احتشد ثلاثة ملايين شخص في الشوارع القادمة من المطار وكانوا يبذلون قصارى جهدهم لملامسة السيارة التي حملت آية الله الخميني في عودته المظفرة إلى طهران. لقد حل ديكتاتور ديني محل ملك استبدادي.

لقد جعل الشاه من آية الله الخميني شهيداً، وهذا رفعه إلى قمة السلطة والمكانة غير المسبوقة في التاريخ الإسلامي الحديث. فأصبح هذا الإمام يحظى بالتوقير باعتباره ليس أقل من تجسيد لإيران الجديدة. حمل تلاميذ المدارس لافتاته: «بسبب قوة الخميني، هرب الشاه». ظهرت علامة جديدة طوال الليل على جدران العاصمة. وهي صورة

لعصبة تمسك بسلاح الإرهاب المقدس، الكلاشينكوف، ومكتوب تحتها: أفضل الجهاد: الجهاد في الحرب المقدسة.

في الساعة الواحدة من صباح يوم 1 شباط 1979، أقلعت رحلة الخطوط الجوية الفرنسية 4271 من مطار شارل ديغول في باريس. كان هناك 168 راكباً على متن طائرة البوينغ 747 المستأجرة، ومعظمهم من الصحفيين. كانت حزمة من الميكروفونات مندفعة في وجوه العديد من الرجال ذوي الذقون التي لم تحلق جيداً يرتدون بذلات مجعدة مع ياقات قمصان مفتوحة: محمد يزدي، المتحدث باسم آية الله. صادق قطب زاده، والذي سيصبح وزير الخارجية لفترة قصيرة؛ ورجل ضعيف وصامت هو بني صدر وهو الرئيس القادم للجمهورية الإسلامية. وراكب واحد من كبار الشخصيات، يسافر بشكل منفصل عن البقية في الجزء العلوي من الطائرة الجامبو. كان يرتدي معطفه البني المعروف وعمامة سوداء كان هو السيد (الآغا) نفسه، آية الله الخميني. يرافقه سكرتيره والشخص المقرب منه، صادق طباطبائي. خلال الرحلة، طلب الخميني من طباطبائي وضع برنامج لحكومة جديدة. وطلب أن تكون شاملة وجاهزة في غضون ثلاثة أسابيع. وهذا يعني طرد بختيار. بينما بانت أولى أشعة الشمس من خلال كوة الطائرة التي عبرت قمم الجبال الممتدة على طول الحدود الإيرانية التركية، فرش آية الله حرام (بطانية) لشركة الخطوط الفرنسية على أرضية قمرة الطائرة وركع باتجاه مكة. كان يشكر الله لأنه سيعود إلى الوطن.

كان الوضع في إيران أبعد ما يكون عن الاستقرار. هل سيسقط الجيش الطائرة؟ تمركز سرب من طائرات سلاح الجو الإيراني في قزوين. نُصِبت بطاريات مضادة للطائرات على طول مدرج كل مطار. وماذا عن جنود الحرس الإمبراطوري، هل سيعتقلون الركاب؟ كيف يمكن أن يعتقل النظام طائرة فيها كبار الصحافيين في العالم دون أن يخلق فضيحة ذات أبعاد واسعة؟ هل كان نوع من الحماية أنه سمح للصحفيين بمرافقة آية الله؟ لم يكن في وارد طيار الخطوط الجوية الفرنسية أن يجازف.

ولاختبار نوعية استقبالهم في مطار مهرآباد، حلّقت الجامبو بارتفاع منخفض فوق المطار قبل أن تنخفض للهبوط. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً حينما ظهر آية الله على قمة درجات السلم وسار نحو قاعة الاستقبال، حيث اصطف العديد من أنصاره المقربين للترحيب به. وكان الحراس المسلمون قد منعوا الجموع الضخمة المتواجدة بالقرب من نصب شاهياد من الوصول إلى شارع المطار. ووقع الحادث الوحيد عندما قطع التلفزيون الإيراني، الذي كان ينقل وصول آية الله، على الهواء مباشرة بثّه فجأة لتظهر صورة الشاه، قبل أن تصبح الشاشة سوداء. وقد كان هذا الحدث، أكثر من أي شيء آخر، أشارة إلى مدى التوتر وعدم الاستقرار في وضع البلاد. فشل شاهبور بختيار في الظهور في المطار، وهو سوء تقدير خطير كلفه حياته.

تصاعدت الهتافات: «الله أكبر، الخميني رهبر.. الله أكبر، الخميني هو قائدنا» حول نصب شاهياد حين حوصرت سيارة النقل الصغيرة ذات اللون الأزرق الفاتح التي تحمل آية الله من قبل الحشود المليونية المتحمسة بشدة. كان يجب إحضار طائرة هليكوبتر لإخراج الخميني ونقله إلى مقبرة بهشت زهرا (جنة الزهراء) ليلقي أول تصريح عنني على أرض بلاده. على مدى ثلاثة أيام، كانت هناك مواجهة بين رئيس الوزراء والجيش والملالي. واستنكر آية الله تصرفات بختيار وهدّد بإعلان الجهاد المقدس. كانت مشكلة الملالي أن الحرب المقدسة لا يمكن إعلانها إلا ضد الكفار وبختيار كان مسلماً. كان الإمام، وهو رجل عجوز عنيد يفكر في الانتقام الشخصي، بعيداً عن التواصل مع الناس مثله مثل الشاه الذي قبله. ومع ذلك، فقد تفوق وقاد السلطة من خلال أسلوب مغالٍ.

في 3 شباط 1979، أنشأ الخميني مجلس الثورة الإسلامية. وبهذه الخطوة يكون قد أطلق العنان لمشاعر الانتقام. كان المراقبون الغربيون السذج يعتقدون أن جميع البلدان متشابهة في الأساس وأن الناس في

العالم كله يتصرفون بالطريقة العقلانية نفسها. كان من المفترض أنه مع سقوط الشاه المستبد، ستتطور إيران سياسياً. وكان من المفترض أكثر من ذلك أنه بمجرد أن يبدأ اقتصادها في النمو، فإن جميع الإيرانيين المتعقلين سوف يتصرفون بشكل طبيعي، وأن الرخاء سيؤدي إلى ديمقراطية ليبرالية. لكن إيران كانت ولا تزال مكاناً مختلفاً. سرعان ما اكتشف الغرب -ولكن الأهم من ذلك كله، جيران إيران العرب- أن ظهور الأصولية الإسلامية المتعصبة بات يشكل الآن القوة الحاسمة في السياسة الإيرانية. في 7 شباط، سيطر الخمينيون على الإدارة والشرطة والمحاكم. بعد ثلاثة أيام فقط، اندلع تمرد داخل الجيش وانضمت معظم الوحدات إلى الثورة الإسلامية.

لم يتمكن رئيس الوزراء بختيار من الظهور. كان الجنرال غراباغي يعقد اجتماعاً مع زعيم حركة تحرير إيران، مهدي بازركان. وكان وضع القوات المسلحة الإيرانية مضطرباً. أعلن آية الله الخميني تشكيل حكومة مؤقتة يرأسها مهدي بازركان. وصفها بختيار بأنها مزحة، لكنها لم تكن كذلك. تواصل الدعم الشعبي للإمام الخميني. انتقل الحرس الإمبراطوري إلى القاعدة العسكرية في مطار فرح آباد لإخماد التمرد الذي قام به الضباط المجندون، وتحول الأمر إلى اشتباك عنيف وقتل أكثر من مائة فرد. انتشر خبر مذبحة فرح آباد عبر طهران، وأسفر عن قتال شرس في الشوارع بين الحرس الثوري الإسلامي ووحدات عسكرية موالية لبختيار.

حدثت المواجهة الحاسمة يوم الأحد 11 شباط. في الساعة 10.20 صباحاً بتوقيت طهران، أعلن الجنرال غراباغي قرار المجلس الأعلى للجيش بأن القوات المسلحة الإيرانية ستبقى محايدة سياسياً. فاجأ هذا القرار الجميع. غادر رئيس الوزراء بختيار مكتبه واختفى من مكانه، في حين هاجم الغوغاء مستودعات الجيش. بحلول الليل، أصبحت جميع المنشآت العسكرية في أيدي الإسلاميين. هرب الأدميرال أولاهي سيراً

على الأقدام عبر الجبال إلى تركيا[23]. وكان عدد من الضباط أقل حظاً. اقتيدوا من سياراتهم أو منازلهم، ذبحوا بوحشية من قبل الغوغاء. في تلك الليلة، صعد رئيس الوزراء بختيار إلى إحدى الطائرات الأخيرة التي كانت تغادر طهران. ووصل إلى فرنسا. أصبح مهدي بازركان، الذي ترأس الجمعية الإيرانية للدفاع عن حقوق الإنسان لفترة طويلة، رئيساً للوزراء. استولى الثوار على قصر نيافاران، قصر الشاه. بدأت العصابات المسلحة تجوب أرجاء المدينة، واقتحمت منازل الأثرياء وقامت باعتقالات تعسفية. قُتِل الجنرال عبد الله بادري، الذي بكى أثناء مغادرة الشاه. واقتيد أمير عباس هويدا رئيس الوزراء الموالي للشاه للوقوف أمام صادق خلخالي، الذي سرعان ما كسب لنفسه لقب «قاضي المشانق». كان هذا الرجل وهو شخص عادي، أعطته نظارته السميكة مظهر وحش ذي عينين جاحظتين، قد تفاخر أمام أحد الصحفيين كيف أنه أرسل 400 شخص إلى حتفهم خلال الأسابيع الأولى من الثورة. نحن من سيحكم من الآن فصاعداً. هذه الجمهورية الإسلامية سوف تستمر لمدة عشرة آلاف سنة. وكما أن الماركسيين لديهم لينين، نحن لدينا الخميني.

هجمت الأخبار السيئة على واشنطن منذ الساعات الأولى من الصباح. في الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم بتوقيت شرق الولايات المتحدة، وصلت برقية إلى مكتب الرئيس كارتر، أرسلها الملحق العسكري في طهران، العقيد توم شيفر: الجيش يستسلم. خميني ينتصر. يتم التخلص من كل المعلومات السرية، أدركت الولايات المتحدة أنها فقدت نفوذها على إيران. أصبح الوضع هناك محفوفاً بالمخاطر بالنسبة لأي ممثل للحكومة الأمريكية. تعرضت القنصلية الأمريكية في تبريز إلى النهب. وفي السفارة الأمريكية في طهران، انسحب الحراس الإيرانيون وبقي اثنان وعشرون فقط من

23- قيل إنه تلقى المساعده من جهاز الموساد الإسرائيلي.

مشاة البحرية الأمريكية يحرسون المجمع. في 14 شباط 1979، عيد القديس فالنتين[24]، هاجم الثوار سفارة «الشيطان الأكبر الولايات المتحدة الأمريكية». لأول مرة تُقتحم السفارة الأمريكية. نُسي شعار «مارغ بار شاه! الموت للشاه!». أصبح الشعار الآن «مارغ بار أمريكا!الموت لأمريكا!». لكن الأسوأ تمّ تجنبه عندما قدم وزير الخارجية الإيراني الجديد، إبراهيم يزدي، اعتذاراته الرسمية للسفير الأمريكي بعد لحظات فقط من تلمس السفير طريقه إلى الرواق في الطابق السفلي ليأمر بأن تُتلف جميع الأوراق السرية وتُدمَّر جميع آلات التشفير. لقد حُذِّرت أمريكا: إذا قبلت الشاه المخلوع على الأراضي الأمريكية، فإن كل دبلوماسي أمريكي في طهران سيُعاد إلى بلده... في تابوت.

شهد اليوم التالي أول عمليات إعدام سريعة للضباط. عُرض الجنرال نعمت الله نصيري أمام كاميرات التلفزيون وقد تعرض للضرب وكان ملطخاً بالدماء. بعد محاكمة صورية ترأسها الملا صادق خلخالي، والتي شملت الجنرالات مهدي رحيمي، ومنوشهر خسروداد، ورضا ناجي، اقتيد الرجال الأربعة إلى سطح مدرسة علوي الثانوية وتم إطلاق النار عليهم. لإظهار قوتهم لمن تبقى من الموالين للشاه، صُوِّر الحدث وعُرِض على شاشة التلفزيون الإيراني.

في 1 نيسان 1979، أعلن عن قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية. اقتيد رئيس الوزراء أمير عباس هويدا إلى فناء سجن القصر، ورُبِط بسلم، ثم أطلق عليه الرصاص. عندما لم يمت فوراً، أمسك الملّا بشعر رأسه وأفرغ رصاصه في وجهه. تعرض معظم جنرالات جيش الشاه وجهاز السافاك إلى مصير مماثل. انسحب آية الله طالقاني من الحكومة الجديدة احتجاجاً على الفظائع المرتكبة باسم الإسلام. كانت هناك تجاوزات قام بها أفراد حرس الثورة الإسلامية باسم الثورة، بزعم أنهم

24- أو ما يعرف بعيد الحب. المترجم.

حماتها، فشنوا حملة عنيفة لإزالة جميع المظاهر التي تشير إلى حكم الشاه السابق وكذلك إلى الثقافة الغربية «المنحلة». هُدِمت تماثيل الشاه وأُخفِيت العبارات المنقوشة على قواعدها الرخامية بإلصاق صور لآية الله الخميني. أُشعلت النار في كتب الأدب الغربي والسيارات الأمريكية لتتحول إلى نيران عملاقة، وحُطِّمت حانات الفنادق، وسُكبت زجاجات المشروبات الكحولية في حمامات السباحة. كانت أصوات طلقات النار المتقطعة تشير إلى عمليات الإعدام التي تجري على عجل وتطال المسؤولين والضباط رفيعي المستوى. أثبتت الأشهر الأولى للثورة الإسلامية أنها كانت دموية إلى أقصى الحدود. تمت إبادة الملكيين بلا رحمة. كل من فشل في إظهار إيمانه بالله صراحة وصِف بأنه ملحد، واقتيد من منزله، وأُطلقت النار عليه كونه من «المفسدين على الأرض». ذُبح ملاك الأراضي، وأُعدِم خبراء النفط. انتشرت بشكل واسع في جميع أنحاء البلاد اللجان الثورية المحلية التي يرأسها بعض الملالي في المناطق المختلفة. كان محور عمل تلك اللجان في المسجد وأثناء صلاة الجمعة. وشهدت إيران تعدداً في مراكز القوى. ناشد رئيس الوزراء بازركان الإمام الخميني أن يقوم بحل اللجان الثورية. وبدلاً من ذلك، قام آية الله باستبدال «المعتدلين» من الخط القديم «بالمتشدّدين» من الشباب المتحمسين. سمحت هذه الخطوة للمراهقين بارتكاب تجاوزات ذات نطاق لم يسبق له مثيل.

حلّ الحزب الجمهوري الإسلامي محل الجبهة الوطنية، التي كان أغلب أعضائها محامين جعلوا منها منبراً للحريات المدنية وحقوق الإنسان. وحسب الدستور الجديد، ارتقى وضع الخميني ليتولى منصب ولاية الفقيه، أي ممثل الله. بدأ بإسكات معارضيه لكنه كان بحاجة إلى ذريعة لتحويل انتباه الرأي العام. وكان الأكراد هدفاً مثالياً. وفي مقابل دعمهم له ضد جيش الشاه، كان قد وعدهم بمنحهم الحكم الذاتي. ما أعقب ذلك كان مثالاً على كيفية سير الأمور في المستقبل.

وصف الخميني الأكراد بالشياطين وأنهم يحاربون إرادة الله الواحد. أُخمِدت انتفاضتهم عن طريق شنّ هجمات انتقامية وعمليات إعدام فورية. انتقل الخميني إلى مدينة قم المقدسة، حتى يتعامل مع بعض الملالي المتمردين الذين اعترضوا على سلطاته الديكتاتورية. وكان أحدهم، والذي كان له دور فعال في حشد المظاهرات المناهضة للشاه في العاصمة، الشخصية الدينية البارزة في طهران، آية الله طالقاني الذي كانت لديه آراء أكثر تسامحاً من الخميني. وكان يعلن أنه «يجب على الزعماء الدينيين عدم تولي السلطة في الجمهورية الإسلامية. يجب وضع مصير هذا البلد في أيدي شخصيات تحظى باحترام جميع السكان». ولم يترك تركيزه على «الزعماء الدينيين» أدنى شك في موقفه. كان العامل المهم هنا هم المثقفون والطلاب، الذين كانت لديهم ثقة أكبر في وجهات نظر طالقاني المعتدلة قياساً بموقف الخميني المتشدد. بعد ذلك بفترة وجيزة، توفي طالقاني «بسبب قصور في القلب» وحل محله آية الله منتظري، وهو شخصية غير كفوءة ويسهل التحكم بها.

صوّت مجلس الثورة الإسلامية[25] على إصدار حكم غيابي بعقوبة الإعدام بحق الشاه وزوجته الشاهبانو. قدم الملالي دليلاً بأن ذراعهم يمكن أن تطال أشخاصاً خارج حدود بلادهم. اغتيل ابن الأميرة أشرف في باريس بناء على أوامر من آية الله خلخالي الذي برر جريمة القتل بقوله: «علينا تصفية جميع الخدم القذرين لنظام منحل». لقد بدأت للتو رحلة الشاه المخلوع. خلال الأشهر الثمانية عشر المتبقية من حياته، استمر يبحث في خريطة العالم عن ملجأ مناسب. حلل الاحتمالات ووضعها جميعاً في الحسبان. لم يكن هناك بلد يريده.

25- عبارة عن مجموعة شكّلها آية الله الخميني لإدارة الثورة الإيرانية يوم 12 كانون الثاني عام 1979، قبل وقت قصير من عودته إلى إيران. وعلى مدى الأشهر القليلة اللاحقة أصدر المجلس مئات الأحكام والقوانين. المترجم.

السويسريون قالوا لا. وكان رأي المستشار النمساوي أن وجوده قد يصبح «مثيراً للإزعاج». ورفضته المرأة الحديدية، مارغريت تاتشر، أما الرئيس الأمريكي كارتر، الذي كان في ذلك الوقت تحت ضغط كبير لتحرير الرهائن الأمريكان، فقد جعل موقفه واضحاً تماماً: «في الوقت الذي يحتجز فيه أبناء شعبنا كرهائن، لا أريد أن أرى صورة لشاه مخلوع يلعب التنس في أمريكا». بقي لديه صديق مخلص هو وزير الخارجية الأمريكي الأسبق الدكتور هنري كيسنجر، الذي حاول تغيير رأي الرئيس كارتر. وبعد أن تخلى عنه الجميع، كان الشاه يتجول بلا هدف في جميع أنحاء العالم، بينما كانت صحته تتدهور بسرعة. أصبحت المغرب وجزر الباهاما والمكسيك وبنما نقاط توقف مؤقتة. وصلت رحلته إلى نهايتها في مصر حيث توفي في 27 تموز 1980. حكم محمد رضا الثاني بهلوي لمدة 38 سنة. عبر الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون عما شعر به الكثيرون: «أعتقد أن الطريقة التي تصرفت بها حكومتنا معه ستبقى إلى الأبد واحدة من أكثر الصفحات سواداً في تاريخ أمتنا».

كانت قد بدأت بالفعل عملية إعادة تقييم للسياسة الغربية بشأن إيران. ولكن منذ سقوط الشاه، أصبح جوهر هذه العملية مشروعاً أيديولوجياً. وما دام الإسلام سيكون دائماً جزءاً مهماً من السياسة العالمية. بالتالي، فقد بات أمراً حيوياً التعاون مع إيران، والقبول بأن على أمريكا أن تتعامل مع نوع جديد من الإسلام الثوري. ولكن الأوان كان قد فات كثيراً. استيقظ رجال الدولة الأمريكان أخيراً على إدراك أنهم لم يسبق لهم أن عرفوا ثقافة ترتكز على شخص واحد تماماً مثل أسلوب الإسلام المتطرف لآية الله الخميني. قام الخميني بالتخلص من معارضيه. وأولئك الذين نجوا تجمّعوا معاً في منظمة سرية، هي حركة مجاهدي خلق. في هذه الأثناء، وصل الشاه المخلوع بهدوء إلى نيويورك. وكان رد فعل السلطات الإيرانية: «نحن نحتج على قيام

الولايات المتحدة باحتضان عدونا... سوف نطالبهم بتسليمه لنا. فليكن هذا تحذيراً». هذا الموقف ظهر بشكل واضح عندما قام «طلاب إيران الشجعان، الغاضبون من سلوك الشيطان الأمريكي باقتحام السفارة الأمريكية واحتجاز موظفيها كرهائن»[26].

قبل يوم من الهجوم المخطط، حوّل بيان وقّعه الخميني الجو الساخن إلى عمل مباشر: «نطلب من جميع التلاميذ والطلبة في المدارس والجامعات وطلاب الحوزة الدينية توسيع هجماتهم ضد الولايات المتحدة وإسرائيل، حتى يجبروا الولايات المتحدة على إعادة الشاه المجرم». كان الخميني يراهن على شيء أكبر. كان على وشك تولي قيادة أقوى دولة على وجه الأرض.

من الذي كان يتحكم بالفعل بخيوط اللعبة في طهران؟ إنه أحد ألغاز الثورة الإسلامية: هل كانت هناك بالفعل ثورتان؟ الأولى كان الجميع يعرفها. لكن ما الذي حدث خلال الأيام التي سبقت أزمة الرهائن الأمريكية؟ من أعطى أمراً باقتحام السفارة الأمريكية؟ التفسير الأكثر منطقية هو أن الحزب الجمهوري الإسلامي تحت إشراف محمد بهشتي. كان قد أجرى محادثات سرية مع مسؤولين أمريكيين يمكن تفسيرها على أنها خيانة، وكان مطلوباً أن تنتهي هذه الاجتماعات بالفشل[27]. وربما يكون الأمر لم يأتِ من آية الله الخميني وأنه فوجئ به. هذه النظرية تعززها حقيقة أن بعض المسؤولين في وزارة الخارجية الإيرانية

26- استمر العداء المتبادل حتى 21 حزيران 1998 عندما التقى المنتخب الإيراني لكرة القدم بمنتخب الولايات المتحدة أثناء بطولة كأس العالم لكرة القدم التي أقيمت في فرنسا. وفازت إيران.

27- وقد تعززت هذه النظرية من خلال نفي نشرته صحيفة مجاهد (2 كانون الأول 1980). نُشِر مع برقية لمحادثة أُبلغ عنها بين بروس لينغن وهنري بريخت من وزارة الخارجية الأمريكية، وبهشتي: «من المعيب تماماً أن الناس نفسهم الذين أطاحوا بحكومة بازركان لأنه أجرى لقاءً مع برزجنسكي يعتبرون وثائق السفارة معيبة. نحن لسنا على علم بأن السيد بهشتي قد اجتمع مع ضباط السفارة الأمريكية وطلب مساعدة الأمريكيين».

حاولوا تحذير السفير الأمريكي وطلبوا اتخاذ إجراءات وقائية. في إيران الثورية كانت هناك عدة فصائل من المتشددين، وكانت جميعها تقاتل من أجل السيطرة على شؤون البلاد. كانت إحدى المجموعات برئاسة رفيق دوست، قائد الحرس الثوري ورئيس مؤسسة (المستضعفين) وهي مؤسسة اقتصادية قوية. فيما قاد أصغر أولادي، الشخص الملتحي الذي كان يمثل تجار البازار، الفصيل الآخر. سيطر هذا الفصيل على التجارة والنفط. وكان هناك الانتهازيون أمثال رفسنجاني، ممن يتحركون خفية، وكانوا يعملون على تشويش الوضع. وأخيراً، هناك زعيم الملالي المتشددين: محمد بهشتي. وهو شخصية بارزة في الحزب الجمهوري الإسلامي. وفي مجلس الثورة الإسلامية، كان يعتقد أن الخميني يزداد مرونة. من المسلم به أن آية الله كان في منصب ولاية الفقيه، أي ممثل الله، ولكن السياسة في الواقع لا تقرر أبداً في السماء. حتى في جمهورية دينية، كانت السياسة حقائق دنيوية. بالطبع، يمكن القول إن الخميني هو الذي أصدر الأمر، خوفاً من أن تفلت الأمور من قبضته. ربما كان يبحث عن شيء يثير الاهتمام بهدف تعبئة الرأي العام خلف خططه الراديكالية وإسكات أصوات المعارضة المتنامية.

اندلعت أزمة الرهائن الإيرانية في 4 تشرين الثاني 1979. منذ الصباح الباكر، بدأت مجموعة من الطلاب المتشددين بالتجمع خارج بوابات السفارة الأمريكية. في حوالي 10:30 صباحاً، اختفى فجأة الحرس الإيراني الذي كان يقوم بحماية المبنى، ودخل حشد من حوالي 3000 طالب إلى مجمع السفارة. تغلبوا على اثنين وعشرين فرداً من مشاة البحرية الأمريكية كانوا يحرسون السفارة، استولوا على سلاحهم، وعُصبت عيونهم. واقتحم الحشد المبنى وجعلوا موظفي السفارة البالغ عددهم ستة وستين أمريكياً أسرى لديهم. قُيدت أيديهم خلف ظهورهم، وعُصبت أعينهم بشريط. سرعان ما أصبح واضحاً أن ما بدا في البداية وكأنه مظاهرة عفوية ضد أمريكا كانت عملية احتجاز رهائن منظمة

تماماً. في الوقت الذي وصلت فيه طواقم وسائل الإعلام الأخبارية الأجنبية إلى مكان الحادث، كانت السفارة محتلة وكان يُستَعرض مشاة البحرية الأمريكية وهم معصوبو الأعين أمام كاميرات التلفزيون. نُقلت الصور عبر الأقمار الصناعية إلى جميع أنحاء العالم. صُدمت الولايات المتحدة بشكل يفوق الخيال. تسمّر الأمريكان أمام أجهزة التلفزيون. كانت واشنطن تخشى من أن تحدث عمليات انتقام من الطلاب الإيرانيين الذين يعيشون في حرم الجامعات الأمريكية وقد حُشد الحرس الوطني لحماية الجامعات.

كان اهتمام الرئيس كارتر الأساس منصباً طوال الأزمة على الرهائن. ويمكن بالكاد النظر إلى أعماله المحدودة، وهي كانت قليلة بالفعل، على أنها وسيلة لتعزيز نفوذه. وكان خطؤه الرئيس هو أنه كان يفكر كإنسان عاقل وليس كإرهابي. لقد عوّل أكثر من اللازم على الضغط الدبلوماسي لتحرير الرهائن لكن الملالي لم يرف لهم جفن. أو ربما هم أنفسهم قد أصبحوا رهائن عند محتجزي الرهائن. عندما حاول وفد من منظمة التحرير الفلسطينية التفاوض للإفراج عن الرهائن، رفض الطلاب أن يبحثوا أي شيء مع ياسر عرفات أو منظمة التحرير الفلسطينية أو أي شخص آخر. وقد طلب وزير الخارجية صادق قطب زاده، الذي أرسله الخميني، التأكد بنفسه من حالة الرهائن ولكنه عومل بخشونة وبشكل غير رسمي وطُرِد من قبل قادة الطلاب. كانت طواقم التليفزيون تحاصر بوابات السفارة، وتعرض على العالم وجبة يومية لصور الطلاب الإيرانيين الواقفين على الحائط وهم يلوِّحون بالأعلام؛ لكن المشاهدين لم يحصلوا أبداً على لمحة واحدة عن أية رهينة أمريكية. كان مصير اثنين وخمسين أمريكياً[28] لغزاً. كان كما لو أنهم اختفوا عن الوجود. اجتاحت المزيد من الأحداث الإرهابية العالم الإسلامي. في بداية شهر محرم، احتلت مجموعة من المتعصبين الشيعة الحرم المكي. مات الكثيرون.

28- قد أفرج عن عدد من الموظفات السوداوات.

في كابول، قُتل سفير الولايات المتحدة في أفغانستان، واقتحم حشد من الناس السفارة الأمريكية في باكستان، مما أسفر عن مقتل اثنين. وقد أدى ذلك إلى إجلاء جميع موظفي الخدمة الأمريكان غير الأساسيين من المنطقة.

حاول الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم حل أزمة الرهائن. وأصبحت مهمته ميؤوساً منها عندما نشرت صحيفة في طهران صورة له على صفحتها الأولى وهو يتحدث مع الشاه. ولم تساعد حادثة «الفرار الكندية» أيضاً. ففي وقت احتجاز الرهائن، تسلل ستة أمريكيين لأجل الاختباء. وكان سفير كندا قد زوّدهم بجوازات سفر وغادروا إيران في رحلة منتظمة. في مثال بارز على الكيفية التي يمكن بها لحرية الصحافة التي تتم المطالبة بها كثيراً أن تأتي بنتائج عكسية، وضع مقال حول هذا الموضوع، كتبه شخص أمريكي، حداً لجهود إطلاق سراح الرهائن. سلمت وزارة الخارجية الأمريكية رسالة تهديد إلى الرئيس الإيراني بني صدر: «من أجل تجنب سوء الفهم، نريد منك أن تعلم أنه في حال عدم الإفراج عن الرهائن بحلول يوم الاثنين 31 آذار، سنقوم باتخاذ تدابير إضافية غير عدوانية كنا نمتنع عنها إلى الآن»... رد بني صدر بإيجابية. حتى صوّت مجلس الثورة الإسلامية بنسبة 8 إلى 3 لحل أزمة الرهائن. لكن الخميني نقضه. ربما أجبر نفسه على التظاهر أمام المتشدّدين بأنه شخص لا يلين.

علمت واشنطن أنه لا يوجد أمل إضافي في حل هذه المشكلة بأي وسيلة أخرى غير التدخل المباشر، وهو ما يعني عملاً عسكرياً. وكان الاقتراح الأول هو تدمير منشآت النفط الوطنية الإيرانية إذا ما وقع أي ضرر لرهينة أمريكية واحدة. رفض بريجينسكي هذا الاقتراح، خوفاً من أن تتسبب أمريكا، من خلال حملة القصف هذه، بإشعال الشرق الأوسط بأكمله والحد من خياراتها المستقبلية، هذا إذا كان لديها أي خيار. كان الوقت ينفد. في 7 نيسان 1980، قطعت الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية رسمياً مع إيران. وكان عملاً مرتبكاً.

وقد قوبل القائم بالأعمال الإيراني على باب وزارة الخارجية الأمريكية من قبل هنري بريشت مدير مكتب إيران في الوزارة، أخبر المسؤول الإيراني وعلى وجهه ابتسامة ماكرة المسؤول الأمريكي عن مدى سعادة الرهائن وبأن بعضهم أراد البقاء في الجمهورية الإسلامية. أجاب بريشت ببساطة: «هذا هراء!». شعر الإيرانيون بالإهانة وبدؤوا يصرخون من داخل المبنى. سلمت له الرسالة التي تعلمه بطرده من الولايات المتحدة وهو جالس في سيارته.

كانت عملية «مخلب النسر»، وهو الاسم الذي أُطلق على خطة الإنقاذ العسكرية، أكثر المشاريع طموحاً على الإطلاق التي أوكلت إلى قائد قوات الدلتا[29]. وكما أشار الجنرال الإسرائيلي رافي إيتان (الرجل المسؤول عن عملية عنتيبي الشهيرة)، فإن المشكلة الرئيسة التي واجهتها كانت تكمن في المسافات البعيدة عبر أراضي العدو. ولغرض تنفيذها، ستكون هناك حاجة إلى ثماني طائرات لنقل الأفراد ونقل الوقود من طراز C-130. في 24 نيسان، أقلعت الطائرات إلى منطقة منبسطة من الصحراء وهبطت فوق الرمال المتماسكة. قامت قوات الكوماندوز بإنشاء سور دفاعي حول المنطقة. وبجانب مدرج الهبوط كان يمتد طريق ريفي نادراً ما كان يُستخدم. فجأة ظهرت أضواء، جاءت من ثلاث سيارات مدنية. الأولى كانت عبارة عن حافلة متهالكة تقل ثلاثة وأربعين راكباً بالإضافة إلى السائق. لوّح الكوماندوز للحافلة لكي تتوقف، وأُسر الركاب. لكن السيارة الثانية لم تتوقف. تم إطلاق النار عليها واشتعلت فيها النيران. قام السائق بعملية هروب ناجحة عندما قفز فجأة على متن شاحنة حمل صغيرة كانت تتبعهم من الخلف. لقد كانوا يفرون تحت جنح الظلام. أشار أحدهم (وقد تبين أن ما قاله صحيح) أنهم كانوا أفراد عصابة من

29- قسم من أقسام القوات الخاصة الأمريكية، تعمل على مهمات تحرير الرهائن والاستطلاع. المترجم.

المهربين اعتقدوا أنهم قد واجهوا حاجزاً للشرطة. كانت المهمة لا تزال مستمرة. وانطلق رجال قوة دلتا تحت إمرة العقيد بيكويث في ثماني طائرات هليكوبتر انطلقت من حاملة الطائرات يو أس أس نيميتز المتمركزة في الخليج. يقع المسار المتوقع لقوة المروحيات على بعد 500 ميل من صحراء الملح الكبرى، حسب المخططون الأمريكيون حساباً لكل الاحتمالات، ولكنهم لم يحسبوا حساباً، «للرياح الهبوب ذات التدمير الشامل». سار كل شيء بشكل جيد حتى هبّت عليهم فجأة عاصفة رملية كثيفة. سرعان ما ومض ضوء تحذير على مؤشر جهاز فحص الشفرة في طائرة الهليكوبتر رقم 6. قام الطيار بما يعرفه كل مراهق أمريكي في المدرسة عندما يظهر ضوء وامض على لوحة القيادة في سيارته، يتوقف، وهذا ما فعله قائد الطائرة 6. على وجه التحديد: هبط بطائرته ونُقل الطاقم بواسطة طائرة هليكوبتر أخرى. بعد ذلك، تعطلت أداة التوجيه في المروحية رقم 5. استدار الطيار بطائرته وعاد إلى حاملة الطائرات نيميتز. مع فقدان المروحية الثانية، بدأت مهمة الإنقاذ بالانهيار؛ لم تعد لديهم القدرة الكافية لنقل جميع الرهائن. لكن مشاكلهم لم تنته. حدثت في المروحية رقم 2 مشاكل هيدروليكية خطيرة وتطلّب الأمر القيام بإصلاحات رئيسة. وأصبحت أيضاً خارج المهمة. كان العقيد بيكويث عاجزاً عن فعل شيء. انبلج الفجر ولم تكن الخمس مروحيات كافية لإكمال المهمة. فأرسل إشارة استغاثة إلى غرفة عمليات البيت الأبيض. وقد اتصل برزجنسكي بوزير الدفاع براون لكي يحصل على تقييم بيكويث الفوري. وصل في الساعة 4.57 مساء. بتوقيت واشنطن. «كان الطلب هو إلغاء المهمة».

فكر الرئيس كارتر للحظة قبل أن يجيب: «لنأخذ بتوصيته».

أُسدل الستار نهائياً على العملية عندما أقلعت إحدى طائرات الهليكوبتر. وبينما كانت تحوم وسط سحابة كثيفة من حبيبات الرمل المتطايرة، فقد الطيار السيطرة واتجه نحو طائرة وقود محملة بوقود

الطيارات عالي الأوكتان. انفجرت الطائرة، مما أسفر عن مقتل أفراد طاقمها السبعة. عند الساعة السادسة بعد الظهر رن جرس الخط الهاتفي المباشر للرئيس مرة أخرى في البيت الأبيض. التقط السماعة فشحب وجهه وسأل: «هل مات أحد ؟» قبل أن يلتفت إلى مجموعة العمليات ليبلغهم بخبر الانفجار[30]، وفي صباح اليوم التالي، التقط المصورون الإيرانيون، يقودهم الملالي، صوراً في الصحراء لانتصارهم الباهر على «الشيطان الأكبر أمريكا». التقطت القنوات التلفزيونية والصحف في جميع أنحاء العالم صوراً مروعة للجثث المحترقة وأجزاء الطائرات المحطمة. كانت التعليقات مختلفة ولكن الصور كانت واحدة.

يرجع فشل «عملية مخلب النسر» إلى أسباب ميكانيكية، لكن رد الفعل تجاهها كان إنسانياً بحتاً. في هذه العملية الطموحة، اعتمد المتخصصون الأميركيون المدربون تدريباً عالياً على التكنولوجيا المعقدة. عندما تخلت عنهم آلاتهم، فعلوا مثلما يوصي دليل التعليمات: «عندما تتوقف سيارتك عن العمل، انقلها إلى مرآب للسيارات وقم بتصليحها». تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها العسكرية للسخرية. لقد كان انتصار الدعاية الإيرانية كاملاً. في 19 كانون الثاني 1981، وقّع وزير الخارجية الأمريكي سايروس فانس[31] «اتفاقية الجزائر»، الذي اعترف بالوضع قبل تشرين الثاني 1979. كان بندها الرئيس هو إعادة الممتلكات الإيرانية المجمدة في الولايات المتحدة الأمريكية. في اليوم التالي، أُفرِج عن الرهائن الأمريكيين الاثنين وخمسين. في اليوم نفسه، حل رونالد ريغان محل جيمي كارتر في رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا أصبح جيمي كارتر رهينة إيران الثالثة والخمسين.

30- عن: Chief of Naval Operations, Admiral J.L. Holloway III, Rescue Mission Report August 1980.

31- يخطئ مؤلف الكتاب هنا إذ إن سايروس فانس استقال من منصبه احتجاجاً على عملية مخلب النسر، وكان إدموند موسكي هو وزير الخارجية أثناء توقيع اتفاقية الجزائر. المترجم.

استمر التنكيل. وبرغم الرقابة الشديدة، كانت تصل من داخل إيران عدة قصص[32]. وكانت إحداها من مدرس إيراني يقوم بتدريس اللغة الإنكليزية اعتُبر مثقفاً من المعسكر المعادي. في البداية، اقتادوني إلى قبو وبدؤوا بضربي كي أعترف بأنني أستلم أموالاً من أمريكا. فقط لأنني أتحدث الإنكليزية! ربما كنت واحداً من المحظوظين، لأن سجيناً آخر كان في زنزانتنا، وكانت يداه وذراعاه معلقتين، ووجهه ملطخاً بالدماء. انهار على الأرض ولم يقل كلمة واحدة حتى مات. لقد تركونا واقفين في البرد القارس في فناء السجن. كان إذا مات أحدهم، يُعلن أن سبب الوفاة التهاب رئوي. وُضِعت في زنزانة خاصة وقدموا لي وثائق لأترجمها حصلوا عليها خلال اقتحام السفارة الأمريكية. في يوم من الأيام جُمِّعنا في ساحة الفناء لمشاهدة إعدام بعض السجناء المتهمين بالنشاط المعادي للثورة. علّقوا أنشوطة الشنق في رافعة للبناء، وما إن ارتفعت حتى زهقت أرواحهم.

أُلقي القبض على إحسان ناراغي، وهو أحد آخر من التقوا بالشاه، وألقي به في السجن. وقد نشر قصته عن السجن سيئ السمعة.

وضع أحد الحراس عصابة على عيني، واقتادني إلى المبنى المركزي. حالما شعرت أن الحارس قد غادر، رفعت عصابة عيني من زاوية واحدة. ما رأيته كان مشهداً يبعث على الجنون: خمسون فتى وفتاة، جميعهم معصوبو الأعين ومربوطون بعضهم ببعض، وقد اصطفوا في الرواق الطويل. لقد تركوا هناك لساعات، وهم يعانون لوعة مستمرة من أثر التفكير في مصيرهم. هل يؤجل تنفيذ الحكم بهم ويُعادوا إلى زنزاناتهم، أم إنهم سيشقون طريقهم إلى الفناء قبل حلول الفجر؟

كان هؤلاء مجموعة مراهقين تأثروا بأفكار الأيديولوجية الماركسية.

32- تتعلق إحدى القصص بسجين (حُجب اسمه) تمكن من الهرب من سجن القصر إلى سجن إيفين. دفع لمهرب كردي لينقله عبر الجبال إلى تركيا ويعيش اليوم في الدنمارك.

وظنوا أن رفاقهم، تحت قيادة مسعود رجوي (الذي كان في باريس)، سيقلبون نظام الحكم الإسلامي. حتى في مسيرتهم المحتمة نحو الموت، ظلوا عمياناً عن الواقع. كانت حياة السجن دوامة جهنمية. كان يتلو الاستجواب الضرب والحرمان الذي يعقبه المزيد من الاستجوابات. وذات صباح، دفعوا بصبي صغير إلى زنزانتي. وقال لي: «اليوم كانت تلك هي المرة الأولى التي أستجوب فيها دون أن أكون معصوب العينين». كان من الواضح بالنسبة لي أن المحققين لم يعودوا قلقين أن يكونوا معروفين. وقد كان ذلك صحيحاً؛ صباح اليوم التالي أُعدِم الصبي في شباط 1981، أعلن النائب العام الإيراني، علي قدوسي، عن عدد المحاكمات التي أجرتها المحاكم الثورية. ووفقاً لما قاله، كانت هناك 11565 قضية، أسفرت عن صدور 2600 حكم بالإدانة، حُكم على 406 منهم بالإعدام. واستمر قدوسي في الشرح قائلاً: «نحن لا نستخدم التعذيب، ولا نطبق إلا العقاب الإسلامي الشرعي». وقد جرب الصحفيون الغربيون ذلك عندما اقتحم أفراد الحرس الثوري المسلحون الفندق المخصص للصحافة الأجنبية وأمروا الصحفيين بالصعود على متن حافلة[33]. توقفت الحافلة الخاصة بهم أمام سجن إيفين سيئ السمعة. ثم صعدوا إلى قاعة واسعة في الطابق العلوي. كان مشهداً من جحيم دانتي. كانت هناك لوحة جدارية ضخمة تجسد آية الله الخميني الذي يظهر بمظهر الإنسان العطوف وهي ترتفع من فوق حشد ضخم، كان يضم ما يقارب ألف سجين. جميعهم يرتدون الملابس نفسها: الأولاد في زي السجن الرمادي، وقد جثوا على ركبهم عند حاجز موجود إلى اليسار. وكانت الفتيات، بالعدد نفسه، يرتدين الشادور الأزرق الداكن. تصاعدت الهتافات «عاشت الثورة الإسلامية المجيدة... الموت لأمريكا». كانت الكاميرات أثناء دورانها، تلتقط صوراً لموكب من المخلوقات البائسة. وهي تعلن بلغة إنكليزية

33- كان المؤلف واحداً منهم.

متعثرة، عن اعترافاتها الشخصية. وكانت عبارات مثل «التأثير المفيد للثورة الإسلامية»، و«تعاليم حبيبنا الولي الفقيه» تتناوب مع عبارة «الموت للشيطان أمريكا الذي وضعنا على طريق الشر». اعترفت إحدى السجينات أن جريمتها هي أنها لم تكن ترتدي الشادور، وهو الحجاب المقدس للنساء. والجريمة الأخرى هي أنه قُبِض عليها وهي تقرأ كتباً من الأدب الغربي. سمح للمراسلين الأجانب بتوجيه أسئلة إلى السجناء القلائل الذين عبروا من أمامهم. كانت كلها عادية ولا تثير الشبهات. ثم نُقل مراسلو الصحافة ليكونوا بحضرة الرجل ذي اللقب المشبوه «جزار طهران»، المدعي العام أسد الله لاجيواردي، الذي ظهر بمظهر شديد التواضع. كان من الصعب تخيل أنه، قبل ساعات فقط، أرسل هذا الرجل نفسه ثمانين مراهقاً إلى حتفهم. في تلك الليلة، حصلت الصحافة العالمية ومتابعيها على لمحة من الجحيم. هذه المرة أدّت الدعاية الثورية إلى نتائج عكسية.

اندلعت الحرب بين إيران والعراق في 22 أيلول 1980. بعد حدوث نكسة في بداية الحرب، توحّد الشعب الإيراني خلف إمامه الخميني ضد الغزاة العراقيين. في 24 أيار 1982 استعادت القوات الإيرانية ميناء خرمشهر (المحمرة) الاستراتيجي الإيراني. أطلق هذا الإنجاز العسكري الفذ نوبات كبيرة من الفرح، واعتُبِر «انتصاراً للمؤمنين الحقيقيين». وجهت دعوة للصحفيين الأجانب[34] للحضور في الساعة السادسة صباحاً «سنأخذكم إلى خورمشهر؛ كونوا جاهزين في غضون خمس عشرة دقيقة». كان الطريق إلى خورمشهر يظهر من الجو وهو مليء بحطام معدات عسكرية لجيش منسحب: دبابات وقد اسودت من دخان الحرائق، وحفر خلفتها قذائف المدافع، وأسلاك شائكة متشابكة، وحقول ألغام وخنادق مليئة بالجثث. كان هناك مشهد غير عادي: كان هناك طابور من آلاف السيارات الواقفة وقد دفنت مقدماتها في الرمال،

34. كان المؤلف ضمن المجموعة الأولى من الصحفيين التي زارت ساحة المعركة.

مثل قنفذ تمّ ردعه من قبل هجوم شنّته قوات محمولة جواً. كان لا يزال هناك إطلاق نار متقطع يصدر من جيوب المقاومة الأخيرة. كانت المدينة نفسها عبارة عن كومة من الأنقاض المحترقة والمدمرة والتي قصفتها القنابل، وهو دليل مذهل لما سيخلفه القتال حتى الموت. هبّ نسيم رطب من شط العرب حاملاً رائحة الموت الكريهة. في كل لحظة كان يتجول كلب ضال، يستنشق الهواء ويعوي. بالقرب من الجسر الكبير، الذي كان يمثل أعجوبة هندسية والذي انقسم من منتصفه بسبب أحد الانفجارات، كانت تتكدس أكوام من أشكال مجعدة، وجثث منتفخة بسبب الحر. في هذا المكان كان العراقيون قد قاموا بعملهم الدفاعي الأخير. ظهر نصف جسد لجندي مسلح برشاش من خندق حربي، مع ثلاثة أحزمة خراطيش حول رقبته وفتحة كبيرة في بطنه. وفي مكان قريب، جلس ثلاثة إيرانيين ببنادقهم الأوتوماتيكية على ركبهم ويحدقون لمسافة ألف ياردة بعيونهم. فيما استند الأسرى العراقيون الملطخون بالدماء، وهم مقيدون ومعصوبو الأعين، على حائط. كانت تتناثر في كل مكان هياكل قذائف فارغة، وخوذات متروكة، وأزواج من الأحذية. قال الضابط الذي يرافقنا مازحاً: «إنهم يهربون أسرع وهم حفاة». إذا حكمنا من خلال أكوام الجثث، كان من الواضح أنه لم يتمكن الكثيرون من الهرب. ارتفع خط أسود يشير إلى المكان الذي أحرقت فيه نيران القذائف المنازل والرجال؛ كانت جثثهم المحترقة بلا شعر. وفي مكان قريب، جلس مجموعة من الإيرانيين وبجانبهم قاذفات اللهب. أشار أحد الجنود إلى الجثث الطافية في الماء. قائلاً: «لقد حاولوا الفرار، وأطلقنا النار عليهم، واحداً تلو الآخر».

تحولت الحرب بين العراق وإيران إلى «حملة صليبية مقدسة» استمرت لسنوات وحصدت مئات الآلاف من الضحايا. وأخيراً تبدّلت مواقف عرب الخليج فقد اكتشفوا بعد فوات الأوان أن الشاه كان أهون شراً.

ماذا حصل للملالي ومساعديهم الثوريين الذين ألهموا حشوداً من الناس؟ أصبح آية الله مرتضى مطهري، الأستاذ في الحوزة العلمية في قم ورائد أفكار إصلاح النظام الديني الشيعي بأكمله، كبير مفكري الثورة الإسلامية. واغتيل على يد مجموعة من المجاهدين يطلقون على أنفسهم اسم «حماة الإيمان بالقرآن». فجرت قنبلة جسد آية الله بهشتي بأمر من آية الله، أُعدم صادق قطب زاده، الذي حاول اغتيال الشاه، أما قاضي المشانق أسد الله لاجيواردي فقد أُردي قتيلاً في متجر للخياطة واحتُجز آية الله صادق خلخالي، الذي أمر باغتيال ابن الأميرة أشرف وإبادة التركمان والأكراد، في عنبر للأمراض النفسية حتى مات. هرب عبد الحسن بني صدر، أول رئيس للجمهورية، إلى المنفى. أما مهدي بازركان، الذي استقال من منصبه كرئيس للوزراء في أيام الخميني، فقد توفي بسبب الشيخوخة. اغتيل شاهبور بختيار، رئيس الوزراء المؤقت الذي أراد تسوية الأزمة بالطرق السلمية، في باريس. وعاش آية الله الخميني بعد الشاه تسعة أعوام. وتوفي بسبب الشيخوخة في حزيران 1989. لم يعش بسلام في حياته، ولا في مماته. فقد دمر انفجار ضريحه.

وبعد ذلك ...

سوف يسجل التاريخ أن محمد رضا بهلوي، شاهنشاه إيران، كان الأخير في سلالة الملوك الأقوياء الذين اعتبروا أنفسهم يمتلكون الحق الإلهي ليمارسوا السلطة المطلقة. إن انهيار الإمبراطورية الإيرانية وتداعيات تأثيرها على السلالات الملكية الأخرى قد لا يؤدي إلى نهاية الملكية الدستورية. سوف يظل الملوك يمثلون رأس الدولة طالما أنهم يتبعون القواعد الأساسية للحكم: يجب أن يكونوا من عائلات ملكية؛ وأن لا يكونوا رجال سياسة؛ وسيكونون ببساطة متواجدين شكلياً. لكن هذا الأمر بالتأكيد يمثل نهاية حقبة تاريخية.

ارتكب الشاه خطأ كبيراً عندما قام بتضخيم سلطته الخاصة وقلّل من هيبة إمام ديني بسبب معارضته غير القابلة للإصلاح لعملية الإحياء الديني. لكن الناس الذين يُهملون ويُضطهدون لا يملكون سوى ملجأ واحد يلوذون به: إيمانهم.

الخاتمة

الراحلون الذين لا زالوا يعيشون معنا

عندما يتحد الأشـــرار، يجب أن يتضامن الطيبون. وإلّا فإنهم سيتساقطون، الواحد تلو الآخر، وستكون تضحية لا تثير الشفقة في صراع وضيع.

• أدموند بيرك، 1729-1797

لقد تناولنا بأسلوب سهل حالات لم يكتب لها النجاح، بكينا على مصير لويس السادس عشر المتردد أكثر من بكائنا على دانتون الشخص الحازم. لكن دعونا لا نسمح أن تعمينا المشاعر؛ الملوك الذين أطاح بهم الثوار لم يعودوا يستحقون مملكتهم. كانوا يرتدون أقنعة حزينة لحكام مطرودين. كانت شخصياتهم الضعيفة نقطة جذب للمكائد والفساد. حتى اصطدمت سفنهم الملكية بالصخور، وغرقت.

لكن بالطريقة نفسها، أضافت السياسات الدموية للثوريين العظام الكثير إلى بؤس الناس. استخدم المتمردون بلا مبالاة حقيرة كل وسيلة خسيسة من أجل الاستيلاء على السلطة بديلاً عن حاكم مخلوع. فقد انتهك استخدامهم لعقوبة الإعدام صلة القرابة البشرية الوحيدة التي لا نزاع فيها - أي التضامن في حقيقة الموت - والتي لا يمكن إضفاء الشرعية عليها إلا بمبدأ أسمى من الإنسان. ولتحقيق غاياتهم، لم يكن

يوقف القادة الجدد أي شيء. وما الذي كان يحصل عليه الناس في المقابل؟ الأعلام والانتصارات والوفيات. لقد حصلوا عليها جميعاً. وطالما كانت وحدة الأمة على المحك، سُمِح بفعل كل شيء، بما في ذلك الجرائم ضد الإنسانية. كانت خطط الثوار منطقية، لكن أساليبهم غالباً ما كانت ملعونة. إنها لحقيقة أن الديمقراطية لا يمكن أن تولد في يوم واحد. لذا، إذا كانوا مخطئين أخلاقياً، فقد ثبت تاريخياً أنهم كانوا على حق. إن الأخلاق والتاريخ لا ينسجمان. وهنا تكمن مأساة الثورة الحقيقية.

لقد أدت الاضطرابات التي شهدها القرنان الماضيان إلى اختفاء الإمبراطوريات العظيمة التي أرست أسس النظام الداخلي والعالمي. تزامن انتشار القومية، مع ظهور الثورة الصناعية التي نتج عنها تسهيل سفر الناس والاتصال فيما بينهم، مما أدى إلى زوال تلك القوميات بقدر الثورة نفسها. حلّت الاتحادات الفيدرالية الشاسعة أو الجمهوريات محل الملوك الأصليين الذين حققوا الاستقرار وإن كان في بعض الأحيان عن طريق الوسائل الوحشية. وكانت النتيجة النهائية هو عدم الاستقرار العالمي، وتفتيت الأمم إلى دول صغيرة، مما أجبر العديد من البلدان الصغيرة على الانضمام إلى اتحادات فيدرالية أكبر من أجل البقاء.

مع مرور القرون، بدأ هذا القرن أفضل من القرن الأخير، عندما كانت الثورات تهز روسيا والمكسيك، كان البوير[1] يثورون في جنوب أفريقيا وقامت انتفاضة الملاكمين[2] في الصين. لكن القرن الحادي والعشرين شهد بروز ظاهرة جديدة، هي العولمة النقدية. وهي وسيلة فعالة تزيد معدلات النمو الاقتصادي، وتنشر تكنولوجيات جديدة، وترفع مستويات المعيشة في البلدان الغنية و(بعض) البلدان الفقيرة على حد

1 قبائل تعود أصولها إلى مجموعات من المستوطنين المسيحيين الهولنديين سكنوا أفريقيا. المترجم.

2 انتفاضة شعبية صينية بدأت في تشرين الثاني 1899 وانتهت في 7 أيلول 1901. المترجم.

سواء. يهدف معظم البلدان في الوقت الحالي إلى تحقيق الثراء، وهذا بدوره يقلّل من فرص حدوث الاضطرابات السياسية أو الثورات. السعي إلى مزيد من السعادة يحكم قبضته على خيال الإنسان. نحن نعيش في ثورة الرفاهية. حيث يعتبر أسلوب الحياة المريح هو الحل لمعظم الصعوبات التي يواجهها الأشخاص. كما أن التكنولوجيا تجعل هذا الهدف في متناول اليد، أما عدم المساواة التي تنتجها فتهدد وجودها. لقد حققت التكنولوجيا زيادة في التصنيع الشامل؛ وجعلت العالم قرية صغيرة من خلال وسائل السفر الحديث وتقنيات الواقع الافتراضي، ووضعت مستويات غير مسبوقة من المعرفة والقوة في أيدي الأفراد. وقد خلقت هذه التغييرات الأساسية العديد من المشاكل: فهي تمثل خطراً شديداً على السيادة الوطنية. وتؤدي إلى تآكل الثقافة المحلية. وتهدد الاستقرار الاجتماعي. ويبقى السؤال الرئيس حول ما إذا كانت الدول قادرة على السيطرة على مثل هذه الاضطرابات أو ما إذا كانت الاضطرابات هي التي سوف تتحكم في الأمم.

في «ثورة أوروبا الاقتصادية» الأخيرة، وجدت دولها الأعضاء أن الترياق لتعارضات مصالحها القومية المدمرة الأبديّة يكمن في التوحيد الاقتصادي، حيث تكمل التكنولوجيا السياسة. تتخطى الشركات الكبرى بالفعل الحدود الوطنية. فالصادرات ترتفع ولم تعد قرارات الاستثمار قائمة على المصالح الوطنية. فالشركات متعددة الجنسيات تحدد مستويات إنتاجها بمقاييس عالمية. أدى النمو الاقتصادي السريع والتوسع التجاري إلى خفض حاد في أعداد الفقراء المدقعين. إن رغبة الالتحاق بالطبقات الأفضل يستلب الذخيرة من بنادق الثوار. ومع ذلك، يلوح دائماً خطر عدم الاستقرار الاقتصادي العالمي. تفتح العولمة الطريق أمام الاعتماد الكلي على القوى التجارية الكبرى. وستشعر الدول الصغيرة بأنها مهددة بأي نوع من التغيير من الخارج، الذي يهدد بنيتها السياسية والثقافية والاجتماعية. ما كان دائماً مألوفاً وذا خصوصية

محلية استُبدِل فجأة بشيء أجنبي تماماً. في الوقت الحاضر، يشعر الناس في معظم البلدان بأن ما يكسبونه أكثر من الذي يخسرونه. لكن هذا لا يمنع احتمال حدوث رد فعل قوي، مع عواقب لا يمكن التنبؤ بها. لقد وسعت التكنولوجيا المتقدمة الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون. سوف يزيد عدد سكان العالم الذي يتضاعف بشكل حاد من الطلب على الغذاء والمأوى وكل شيء آخر. بما في ذلك وسائل الراحة. هناك خطر لحدوث التمرد إذا شعرت طبقة أو مجتمع ما أنه مستثنى من فوائد هذا النوع من التكنولوجيا التي تؤدي إلى الرفاه العام. وقد يدفعهم ذلك إلى استخدام الوسائل الثورية لحل مشكلاتهم. إن السهولة التي يمكن من خلالها للمضطهدين تدمير من يقمعهم وتوسيع الصراعات الإقليمية إلى حروب كبرى سوف تتسارع في المستقبل. وكثيراً ما يتحدث الناس عن اختيار مستقبلهم بوعي، ولكن من الواضح تاريخياً أنه نادراً ما يتوفر مثل هذا الاختيار، وغالباً ما يؤدي إلى بروز قيادة شمولية. مثل هؤلاء القادة يتخذون خياراً مدروساً يحدّد مسارهم وبعد ذلك يستخدمون سلطتهم للتلاعب برفاقهم. من الأصعب اليوم ترك بصمة دائمة على التاريخ، ويبدو أن التمردات التي يقودها واحد أو اثنان من المحرضين، مثل تلك التي شهدتها باريس أو بتروغراد أو طهران، تبدو مبهمة بالنسبة لنا. تساهم الاتصالات الحديثة في تسريع الأحداث، ولكن تسرع كذلك من الإجراءات المضادة التي تقمع التمرد المفاجئ والعنيف. نحن خاضعون لمراقبة الأشخاص الآليين وأصبح الأخ الأكبر[3] حقيقة. الرفاه أمر مهم، ولكن الحرية الشخصية مهمة كذلك.

الإنسان حيوان غريب. إنه بحاجة إلى أصدقاء، لكنه يحتاج أيضاً إلى الأعداء. من هنا سيكون هناك دائماً ما يكفي منهم وعلى الرغم من أن سقوط الشيوعية، قد أفقد الغرب قدراً معيناً منهم. إلّا أننا على مدى

---

3. شخصية خيالية في رواية جورج أورويل 1984 وهي تستعمل كمرادف للتعسف في استعمال السلطة الحكومية وخصوصاً في احترام الحريات المدنية. المترجم.

السنوات القليلة الماضية، استعدنا بعضاً منهم. مثل السلفية الإسلامية، والمافيا الروسية، والسياسي الواعي؛ دون أن ننسى واحدة أو اثنتين من المنظمات الاقتصادية القوية. ويحق لنا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة الجدية. والحال اليوم كما كان عليه على مرّ التاريخ. يظهر رجال بنوايا شريرة، ومستعدون لتدمير اقتصاداتنا وثقافاتنا. إن قضايا التمييز الطبقي أو الدين تخدمهم بشكل جيد مثل حصان طروادة. وفي البلدان التي تتعرض فيها الحرية الفردية للإساءة المستمرة، فإن غيابها يصبح قضية المجتمع كله. لكن الحرية كما نعرفها اليوم يمكن أن تكون مفهوماً خطيراً، لأنها يمكن أن تثير الآمال التي لا يمكن بمقدورنا أن نتنبأ بها أبداً. تنتشر الأفكار الحديثة بسهولة عبر الحدود السياسية من خلال وسائل الإعلام العالمية ويمكن أن تؤدي بسرعة إلى مأساة. لقد مرّت كوبا في عهد كاسترو باضطراب إلكتروني واحد، وهي «ثورة الفاكس والتليفزيون». وقد أدى الوعد بحياة أفضل، الذي ينقله القمر الصناعي من ميامي، إلى حدوث مأساة القوارب الكوبية. ولقي الآلاف حتفهم أو التهمتهم أسماك القرش أو جرفتهم العواصف بعيداً عن طوافاتهم المطاطية المنتفخة. محاولتهم القادمة للوصول إلى الحرية لن تكرر بالتأكيد أخطاء الماضي. لن يفروا عبر بحر هائج؛ بل سينقلبون على قادتهم المتحجرين. يمكن للعالم الحديث التعامل مع مشكلة حدوث ثورة في دولة بحجم كوبا. لكن هناك أيضاً مليار هندي و(قريباً) 2 مليار صيني يبحثون عن تحسين حياتهم. من المرجّح أن تكتشف القيادة الحالية أن الحجم الهائل والقوة العسكرية قد لا تعني القوة الداخلية. سوف تنهض جماهير آسيا المضطربة وتتخلص من نير معسكرات الاعتقال، والنفي، ورعب الشرطة السرية، وسوف يضغطون ليتخلصوا من أي شيء يمنعهم من أن يعيشوا بالشكل الذي يتمنونه.

في عام 1930، جعل «شخص فقير نصف عاري» (بكلمات تشرشل) العالم يتذوق أول طعم للحرية عندما قدم بنجاح أسلوباً جديداً من الثورة

عن طريق التغيير السلمي. وبعد تسع وخمسين عاماً، قام عدد من الأفراد الصينيين المجهولين وهم يحملون حقائب كومبيوتر محمول بقطع الطريق على الدبابات التي كانت تتدفق إلى ميدان تيانامين لإخماد تمرد حدث في أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان. كان هذا العمل المليء بالعزيمة والشجاعة قد أثار اهتمام العالم كله. كما أنه أطلق أجراس الإنذار. نعم، إن مفهوم الحرية ينتشر بسرعة بين الغالبية العظمى من البشر. ستقدم الألفية الجديدة للكثيرين «النظام الجديد» الذي يحل محل النظام القديم l'ancien régime[4]. يمكن أن يكون هذا خطراً مقنَّعاً، نظراً لأن أي مفهوم لجمهورية حديثة الاستقلال دائماً ما يكون محدداً بشكل سيئ جداً. بل إنه في أكثر الأحيان، فإنه يؤدي إلى اضطراب اجتماعي. في اليوم الذي تصحو فيه آسيا وملياراتها «ويهب ضحايا الاضطهاد»[5]، في ذلك اليوم سيحدث الانفجار الكبير الذي سيأتي على الأخضر واليابس. وكما أن النهار يعقب حتماً الليل، فإنه بالتأكيد سيأتي ذلك اليوم. عندما تتغير الألفية إلى التي تليها، سيكون لدى العالم فكرة عما خلفه وراءه أفضل بكثير من فكرته عما ينتظره في المستقبل.

التاريخ رجل، وكل رجل له شخصيته وطموحاته وشغفه. لا أحد يستطيع الهروب من بيئته الطبيعية، وتربيته، أو سماته الأساسية. من بين جميع الذين عاشوا عبر القرون، استُذكِر الكثيرون، ولكن اختير القليل منهم. ومن خلال مثالهم، ألهموا أتباعهم وحدّدوا مصيرنا جميعاً. يمكن تبرير كل فعل من أفعالهم، شريطة أن يرتكب باسم الوطنية، والله، أو، بشيء أفضل من كل شيء، هو المثالية.

بُنيت حياتنا على مجموع الناس الذين جاؤوا قبلنا. في كل الدول الموت هو النهاية، يأتي، فتسدل الستارة. لكن ليس هنا. فهنا، الشخص الميت يكون حياً أكثر من الموتى... هكذا كتب الشاعر فيديريكو غارسيا

4- بالفرنسية في الأصل. المترجم.
5- المقطع الأول من نشيد الأممية.

لوركا في الليلة التي سبقت مواجهته فرقة إعدامه. ما مدى صحة هذا. فالإنسان يبقى حياً طالما يتذكره الآخرون. لا يموت المرء إلا بالنسيان. ولعل أكبر إرث ثوري لنا جميعاً ليس مهارته العسكرية ولا إنجازاته السياسية، بل حقيقة أن روحه لا تموت أبداً. هذا هو النصب التذكاري الخالد للرجل الأسطوري.

لقد رحل لكنه لا زال يعيش معنا.

قائمة المراجع

كما ظهرت في النسخة الأصلية للكتاب

الفصل الأول: 10 آب 1794

- *Anecdotes peu connues sur Danton*, Paris, 1793.
- Bailly, A.D., *Anecdotes sur la mort de Louis XVI*, Paris, 1804.
- Beaucourt, Marquis, *Captivité et derniers moments de Louis XVI*, Paris, 1892.
- Behrens, A., *The Ancien Régime*, London, 1967.
- Bonnet, J., *La Mort de Marat*, Paris, 1986.
- Bressand. J., *Récit des Temps Révolutionaaires*, Paris, 1984.
- Campan, A., *Mémoires*, Paris, 1821.
- Castelot, A., *Louis XVII*, Paris, 1960.
- *Convention Nationale sur le jugement Citoyen Capet par J. Fouchet*, 1793.
- Crapelet, *Portrait de Marat*, 1794.
- Decaux, A., *Face à face de l'histoire*, Paris, 1977.
- Desessarts, *La crime de Robespierre et ses complices, la mort de Marat*, 1797.
- Detremau, N., *Trois jours pour détruire la monarchie*, Paris, 1988.

- Dumineray, H., *La Peste Rouge*, Paris, 1851.
- Dunn, S., *Death of Louis XVI*, Princeton, 1994.
- Firemont, Abbé, *Mémoires*, Paris, 1815.
- Furneaux, R., *The Bourbon Tragedy*, London, 1968.
- Hampton, D., *Danton*, London,1978.
- Hue, F., *The Last Years of Louis XVI*, London, 1866.
- *Jugement du citoyen Capet et sa femme, Marie Antoinette*, Paris, 1796.
- *La mort et la résurrection de Louis XVI*, 1792.
- Lenôtre, G., *The Dauphin: Louis XVII*, London, 1911.
- *Letter of M. Burke, member of Parliament*, London, 1790.
- Marat, J.P., *L'ami du peuple*, 1790.
- Mathiez, A., *Le dix août*, Paris, 1931.
- Morris, G., *A Diary of the French Revolution 1789–93*, London, 1939.
- Nodier, C., *Le 21 janvier*, Paris, 1816.
- *Revélation sur la procédure et exécution de Charlotte Corday*, 1794.
- Roederer, P., *Chronique des cinquante jours du 20 juin au 10 août*, Paris, 1832.
- Romartin, *Les géants de '89*, Paris, 1977.
- Schama, S., *Citizens: a historie of the French revolution*, London, 1989
- Seward, D., *The Bourbon Kings of France*, London, 1976.
- *Speech by Mr Pitt before the house of Commons*, 1793.
- Sutherland, D.M.G. *France 1789-1815*, London, 1985
- Thompson, S., *Leaders of the French Revolution*, London, 1988
- Tocqueville, A. de, *L'ancien régime et la révolution*, Paris, 1877.

- Turgy, F., *Les quatre jours de la Terreur*, Paris, 1814
- Yalom, M., *Les Temps des Orages*, Paris, 1989.

مصادر أرشيفية

- المحفوظات الوطنية، باريس (وخاصة روايات شهود العيان أثناء المحاكمات وتنفيذ الإعدامات).

الفصل الثاني: 13 آب 1809

- Bartsch, R., *Der Volkskried in Tirol*, 1905.
- Frankl, L.A., *Andreas Hofer im Liede*, 1884.
- Hirn, J., *Tirol's Erhebung im Jahre 1809*,1909.
- Magenschab, H., *Andreas Hofer*, 1984.
- Paulin, K., *Das Leben des Andreas Hofer*, 1935.

مصادر أرشيفية

- المحفوظات الوطنية، باريس. the Bibliothéque Centre Culturelle d'Autriche, Paris; Oesterreichische Staatsbibliothek فيينا.

الفصل الثالث: 18 تشرين الثاني 1910

- Alba, V., *The Mexicans.*
- Atkins, R., *Revolution,*
- Blasco Ibanez, V., *Mexico in Revolution,*
- Cline, H.F., *The United States and Mexico,*
- Harris, L.A., *Pancho Villa and the Columbus Raid,*
- Pinchon, E., *Viva Villa,*
- Tuchmann, B., *The Zimmerman Telegram,*

الفصل الرابع: 7 تشرين الثاني 1917

- Conquest, R., *The Great Terror, London*, 1990.
- Denikin, A., *The Russian Turmoil, London*, 1922.
- Djilus, M., *Conversations with Stalin*, London, 1962.
- Golovine, N., *The Russian Army in the World War*, New Haven, 1932.
- Kerenski, A., *The Crucifixion of Liberty*, New York, 1934.
- Mourousy, P., *Lenin: autopsie d'un dictateur*, Paris, 1992.
- Moynahan, B., *Comrades*, London, 1992.
- Müller, A., *Gespräche zur Weltgeschichte*, Stuttgart, 1965.
- Pares, B., *The Fall of the Russian Monarchy*, London, 1939.
- Plowman, S., *My Kingdom for a Grave*, London, 1970.
- Radzinsky, E., *The Last Tsar*, 1992.
- Reed, J., *Ten Days that Shook the World*, New York, 1919.
- Serge (Kibaltshish), V., *L'an 1 de la Révolution Russe*, Paris, 1971.
- Sokolov, N., *Enquête Judiciaire sur l'assassinat de la Famille Impériale Russe*, Paris, 1929.
- Souvarine, B., *Stalin*, London, 1939.
- Trotsky, L., *The History of the Russian Revolution*, New York, 1932.

مصادر إضافية

- محادثة مع الأب ب. تشوكوف من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في باريس.

الفصل الخامس: 9 كانون الثاني 1919

- Akademie Wissenschaft, *Revolutionaere Ereignisse 17/18*, 1957.
- Badia, G., *Rosa Luxemburg*,
- Bada, S., *The Spartakist Uprising*, 1958.
- Bernstein, E., *Die Deutsche Revolution*, 1921.
- Braubach, M., *Aufstieg Brandenburgs 1640–1815*, 1933.
- Bulow, H.D. von, *Der Geist des neuer Kriegssystems*, 1799.
- Cowles, V., *Wilhelm der Kaiser*, 1963.
- Ebda, C., *The Spartakist Uprising*, 1958.
- Feldman, G., *Army, Industry, Labour in Germany*, 1966.
- Freiheit Verlag, *Der Mord an Karl Liebknecht und Rosa Luxemburg*, 1920.
- Froehlich, P., *Rosa Luxemburg*, 1939.
- Ilsemann, S., *Der Kaiser in Holland*, 1967.
- Liebknecht, K. *Antimilitarismus*,
- Luxemburg, R., *Die Akkumulation des Kapitals*, 1912.
- Luxemburg, R., *Junius Brochure*, 1916.
- Macartney, C., *Hapsburg and Hohenzollern Dynasties*, London, 1970.
- Mommsen, H., *Die Verspielte Freiheit*, 1989.
- Nettl, P., *Rosa Luxemburg*,
- Quack, S., *Geistig frei, niemandes Knecht*, 1983.
- Reiners, L., *In Europa gehen die Lichter aus*, 1954.
- Runkel, F., *Die Deutsche Revolution*,
- Waldman, E., *Spartakus*, 1967.
- Ziegler, W., *Volk Ohne Fuehrung*, 1938.

مصادر أرشيفية

- معهد التاريخ الألماني، باريس.

الفصل السادس: 20 تموز 1944

- Bullock, A., *Hitler*, 1954.
- Guenther, H., *Geschichte des 2. Weltkriegs*, 1965.
- Hauner, M., *Hitler: a chronology*, London, 1983.
- Heyde, von der, *Der 20, Juli 1944 in OKW-AHA*,
- Maser, W., *Adolf Hitler*, 1971.
- Page, H.P., *General Friedrick Olbricht*, 1992.
- Pridun, K., *20 Juli 1944, Stellungsnahme.*

مصادر أرشيفية وإضافية

- معهد التاريخ الألماني، باريس؛ مقابلة أجراها المؤلف مع ألبرت شبير وأوتو سكورزيني، كلاهما متوفى الآن.

الفصل السابع: 15 آب 1945

- Akamatsu، P.، *Meiji 1868*, Paris, 1968.
- Bergamini, D., *The Conspiracy of Hirohito*, Paris, 1974.
- Churchill, W., *The History of the Second World War*,
- Fuller, J.F.C., *The Decisive Battles of the Western World*, vol. II, London, 1970.
- Guillain, R., *le peuple japonais et la guerre*, Paris, 1947.
- Leonard, J.N., *Medieval Japan*, 1969.
- Okasaki, A., *Histoire de Japon*, Paris, 1958.
- Pacific War Research Group, *Japan's Longest Day*, 1965.

مصادر إضافية

- بحث أجراه المؤلف في اليابان ومقابلات مع الناجين.

الفصل الثامن: 8 تشرين الأول 1967

- Kalfon, P., *Che*, 1997.
- Maspero, F. and Guevara, C., *Journal de Bolivie*, 1968.
- Ramirez, D.A., *Le Che en Bolivie*, 1997.
- Stage, J., *Revolution*, 1968.
- Taibo, P., *Guevara*, 1997.

المحفوظات ومصادر إضافية

- المحفوظات الكوبية، هافانا. الملاحظات الشخصية للمؤلِّف والمقابلات مع شهود العيان.

الفصل التاسع: 16 كانون الثاني 1979

- Ajomand, S.A., *The Turban for the Crown*, London, 1988.
- Harney, D., *The Priest and the King*, London, 1998.
- Halloway, (Admiral) J.L., III, et al, *Rescue Mission Report*, 1982.
- Hoveyda, F., *The Fall of the Shah*, London, 1980.
- Huyser, R., *Mission to Tehran*, London, 1986.
- Jordan, H., *The Last Year of the Carter Presidency*, New York, 1982.
- Legrand, J., *Le Chah d'Iran*, Paris, 1998.
- Moreau, ., *R-comme racket pétrolier*, Paris, 1976.
- Mozaffari, M., *Pouvoir Shiite*, Paris, 1998.
- Naraghi, E., *Du Palis du Chah aux prisons de la Révolution*, Paris, 1991.

- Pahlevi, R. (Shah of Iran), *Answer to History*, New York, 1980.
- Parsons, A., *The Pride and the Fall*, London, 1984.
- Powell, J., *The Other Side of the Story*, New York, 1984.
- Samson, A., *The Seven Sisters*, London, 1975.
- Scholl-Latour, P., *Allah ist mit den Standhaften*, Stuttgart, 1983.
- Scott, C.W., *Pieces of the Game*, Atlanta, 1984.
- Shawcross, W., *The Shah's Last Ride*, New York, 1988.
- Sick, G., *All Fall Down*, London, 1985.
- Taheri, A., *The Unknown Life of the the Shah*, London, 1991.

مصادر إضافية

يستند الكثير مما ورد في هذا الفصل إلى الملاحظات الشخصية للمؤلف كصحفي أثناء زياراته إلى إيران، ابتداء من عام 1960، بما في ذلك مقابلة مع الشاه أجراها في عام 1972، ومقابلة مع رئيس الوزراء فريدون هويدا (هذا اسم شقيق رئيس الوزراء أمير هويدا يبدو أن الأمر التبس على المؤلف. المترجم)، وزيارة إلى مقر إقامة آية الله الخميني خارج باريس في عام 1978. كان المؤلف موجوداً في طهران خلال الثورة وأزمة الرهائن، وقام بجولة في سجن إيفين في عام 1982. وغطى كصحفي مجريات الحرب بين إيران والعراق من طهران وبغداد.

المحتويات

لقد حدثت أعمال تمرد غيّرت مسار التاريخ، ومثّلت نقطة تحول مهمة. زلازل ثورية هزّت العالم. لم يعد كوكبنا بعدها كما كان. لقد ترك لنا أنصار الملوك والثوريون شواهد مكتوبة تعبّر عن آرائهم السياسية. وأنتج لنا معاصرو هذه الأحداث فيضاً من الوثائق. لكن نتاجاتهم سرعان ما خضعت للتدقيق. وكما هو الحال في معظم فترات التاريخ البشري الحاسمة، فإن التواريخ هي الشيء الوحيد المؤكد. نحن متأكدون أن سكان باريس اقتحموا الباستيل في ١٤ تموز ١٧٨٩. هذه الحقيقة تنتمي إلى التاريخ. أما بقية ما حدث فيمكن أن يكون قريباً من الحقيقة.

إن عدد الذين أدين لهم لتقديمهم المشورة والمعلومات التاريخية يمثل رقماً كبيراً يكاد يكون مساوياً لنطاق الأحداث التي أصفها. وبالنسبة للأحداث المعاصرة، فاني أشيد بكل الامتنان للمساعدة التي قدمها شهود العيان من خلال السماح لي بالاطلاع على قصصهم وملاحظاتهم. وفي معظم الحالات لم أذكر أسماءهم بناء على طلبهم الخاص. الكثير منهم كان لديهم وجهات نظر مختلفة عن وجهة نظري، ولكنها ساهمت كثيراً في فهمي للأحداث.

أشكرهم جميعاً.

أنا لا أدّعي التنافس مع الخبراء، أو التوصل إلى حكم قاطع لا يمكن أن يقدمه سوى التاريخ نفسه. واذا ما تحدثت عما سيجده القارئ في صفحات هذا الكتاب فلن يجد سوى فضولي، ودهشتي، أو حتى سذاجتي.

بالنسبة للأحداث التي شهدتها فرنسا أجريت بحثاً في الأرشيفات الضخمة التي تزخر بها مدينة باريس Ville de Paris . أما فيما يخص أندرياس هوفر وبانشو فيلا فقد قمت برحلات إلى بلدانهم. بالنسبة للفصل المتعلق بأكتوبر الأحمر، تمكنت من الاعتماد على المساعدة التي لا تقدّر بثمن من أحد المصادر الروسية مع إمكانية الاطلاع مؤخراً على وثائق أرشيف جهاز المخابرات السوفيتية KGB. كانت المادة المتعلقة بسقوط القيصر مأخوذة من معهد ألمانيا التاريخي. فيما يتعلق بعملية فالكيري Walküre فإن أفراداً من عائلتي كانوا معاصرين لها. استندت في معلوماتي عن حركة التمرد في طوكيو على حكايات الناجين منها، وفي قصة تشي غيفارا المأساوية على ملاحظاتي الشخصية. فيما يتعلق بالثورة الإيرانية فقد ساهم معارف لي من إيران بقصصهم بالإضافة إلى فترات إقامتي المختلفة في إيران قبل وأثناء وبعد الثورة، بما في ذلك المقابلات مع الشاه وآية الله الخميني.

